قصة الحضارة

ول وايريل ديورانت

عصر لويس الرابع عشر

تاريخ الحضارة الأوروبية
في عصر
بسكال وموليير وكرومول وملتن
وبطرس الأكبر ونيوتن وسبينوزا
١٦٤٨ - ١٧١٥

ترجمة
محمد علي أبو درة

مراجعة
علي أدهم

الجزء الثاني من المجلد الثامن

٣٢

تونس

بيروت

فهرس

الفصل السابع

كرومول ١٦٤٩ — ١٦٦٠

الفصل الثامن ملتون ١٦٠٨ — ١٦٧٤

الفصل التاسع عودة الملكية ١٦٦٠ ـ ١٦٨٥

الفصل العاشر

الثورة الجليلة ١٦٨٥ ـ ١٧١٤

الفصل الحادى عشر

من دريدن إلى سويفت ١٦٦٠ ـ ١٧١٤!

الكتاب الثانى
انجلترا
١٦٤٩ — ١٧١٤

الفصل السابع

كرومول

١٦٤٩ — ١٦٦٠

١ — الثورة الإشتراكية

بعد أن أطاح البيوريتانيون (المتطهرون) برأس الملك شارل الأول ، فى ٣٠ يناير ١٦٤٩ ، واجهوا مشاكل إقامة حكومة جديدة وإستعادة أمن الناس على حياتهم وممتلكاتهم ، فى انجلترا التى أشاعت فيها الفوضى والاضطرابات الحرب الأهلية التى دامت سبع سنين . ونادى « البرلمان المبتور Rump. p » — وهم الأعضاء الستة والخمسون النشطون الذين بقوا من البرلمان الطويل بعد « حركة تطهير برايد » (١٦٤٨) — بأن لمجلس العموم السيادة والمقام الأول ، وأن فيه الكفاية ، وألغى مجلس اللوردات (٦ فبراير ١٦٤٩) ، كما ألغى الملكية ، وعين بمثابة جهاز تنفيذ له « مجلسا للدولة » يتألف من ثلاثة لواءات وثلاثة نبلاء وثلاثة قضاة وثلاثين من أعضاء مجلس العموم ، كلهم مستقلون — أى بيوريتانيون جمهوريون . وفى ١٩ مايو أقام مجلس العموم ، بصفة رسمية ، الجمهورية الإنجليزية : « ولسوف يتولى الحكم فى إنجلترا منذ الآن ، بوصفها جمهورية أو دولة حرة ، السلطة العليا للأمة ، وهم ممثلو الشعب فى البرلمان ، ومن يعينونهم إلى جانبهم من وزراء ، لخير الشعب[1] » . ولم تكن الجمهورية ديموقراطية . لقد طالب البرلمان باقامة أساس ديموقراطى ، ولكن طرد الأعضاء الملكيين أثناء الحرب ، والمشيخيين (البرسبتريان) فى حركة التطهير ، كان كما قال كرومول ، « قد شتت البرلمان وغربله واختزله إلى مجرد حفنة من الرجال[2] » .

إن الملاك وحدهم هم الذين كانوا ينتخبون البرلمان فى الأصل ، أما الآن فإن مقاطعات برمتها باتت وليس لها ممثلون فى «البرلمان المبتور» ولم تستند سلطة هذا البرلمان المبتور إلى الشعب بل إلى الجيش . فإن الجيش وحده هو الذى استطاع أن يحميه من الثوار الملكيين فى إنجلترا ، والثوار الكاثوليك فى إيرلنـــده ، والثوار المشيخيين فى اسكتلندة ، والثوار المتطرفين فى الجيش نفسه .

ولمواجهة نفقات الحكومة ومتأخرات رواتب الجند اشتط هذا البرلمان فى فرض الضرائب قدر مافعل الملك الراحل . واقترح مصادرة أملاك كل من حمل السلاح دفاعا عن شارل ، ولكنه فى معظم الحالات أرتضى تسوية الأمر بحل وسط ، هو تقاضى غرامة تعادل جزءا يتراوح بين العشر والنصف من القيمة الأساسية للضيعة . من أجل هذا عمد كثير من صغار النبلاء الذين عانوا الفقر والعوز فى انجلترا إلى الهجرة إلى أمريكا حيث كونوا أسرات أرستقراطية ، مثل آل : وشنجطن ، وآل راندولف ، وآل ماديسون وآل لى(*) . وأعدم بعض زعماء الملكين ، وأودع بعضهم السجن . ومع ذلك بقيت حركة الملكيين تقض مضاجع الحكومة ، لأن روح التعاطف مع الملكية سيطرت على الشعب ، فإن إعدام الملك حوله من جابى ضرائب إلى شهيد . وبعد عشرة أيام من موت شارل ظهر كتاب عنوانه « صورة ملكية » لمؤلفه القسيس المشيخى جون جودن ، ولكنه يوهم بأنه أفكار ومشاعر شارل كما دونها هو بيده قبل موته بزمن وجيز . وربما صيغ بعض هذا الكتاب من مذكرات تركها الملك(٢) . ومهما يكن من أمره ، فإن الصورة التى عرضها الكتاب هى صورة حاكم طيب القلب كان فى واقع الأمر يدافع عن انجلترا ضد طغيان أقلية حاكمة (أوليجاركية) غليظة القلب

(*) جددت الحرب الأهلية الأمريكية الحرب الأهلية الانجليزية حيث حرضت أبناء الارستقراطيين الانجليز فى الجنوب على أبناء البيوريتانيين الانجليز فى الشمال .

لا ترحم . وطبع الكتاب ستا وثلاثين مرة وترجم إلى خمس لغات فى سنة واحدة ، ولم تفلح الضجة التى أثارها كتاب ملتون «تحطيم الصور المقدسة» (١٦٤٩) فى محو أثر كتاب جون جودن هذا ، وأسهم الكتاب فى إثارة الرأى العام ضد الحكومة الجديدة . وشجع وكلاء الملكيين الذين شرعوا لفورهم فى كل مقاطعة فى انجلترا يهيجون الشعور العام لاعادة أسرة ستيوارت . وقابل مجلس الدولة هـذه الحركة ببث العيون والأرصاد على أوسع نطاق ، والاسراع فى القبض على الزعماء الذين يحتمل أنهم كانوا يقومون بتنظيم ثورة .

وفى الناحية الأخرى كانت هناك أقلية من الأهالى وقسم كبير من الجيش، يطالبون بديموقراطية شاملة بكل مافى الكلمة من معنى . كما طالب بعضهم بديموقرطية اشتراكية . وأمطرت السماء نشرات متطرفة . وأصدر الكولونيل جون للبيرن وحده مائة منها . ولم يكن ملتون فى تلك الحقبة شاعراً بل مؤلف نشرات وكتيبات . وهاجم للبيرن كرومول على أنه طاغية مرتد منافق . وشكا أحد الكتاب من « أنك قلما تحدثت إلى كرومول فى أى موضوع إلا وضع يده على صدره ورفع عينيه وقال اللهم فاشهد . أنه سوف يبكى ويصرخ ويبدى الندم ، حتى وهو يسدد إليك ضربة تصيب منك مقتلا(٤) ». وفى إحدى النشرات تساءل كاتب آخر : « كان يحكمنا من قبل الملك واللوردات والنواب ، أما الآن فيتولى الحكم فيناقائد الجيش والمحكمة العسكرية والنواب، فقل لنا بربك ، ماهو الفرق ؟ » (٥) وأحست الحكومة الجديدة بأنها مضطرة إلى تشديد الرقابة على الصحف والمنابر . وفى أبريل ١٦٤٩ قبض على للبيرن وثلاثة آخرين لاصدارهم نشرتين تصفان إنجلترا وهى « مكبلة فى أغلال جديدة » . وهاج الجيش مطالبا بالافراج عنهم . وتوعد نساؤهم كرومول بالويل والثبور إذا مس المعتقلون بأذى . وأرسل للبيرن من سجنه إلى طابع نشراته، متحديا ، إتهاما بالخيانة العظمى « موجها ضد كرومول وأيرتون » . وفى أكتوبر قدم الكتاب الأربعة إلى المحاكمة فى قضية أثارت اهتمام الرأى

العام وشدت الآلاف من الناس إلى المحكمة . وتحدى للبيرن القضاة، وطالب بعرض القضية على هيئة المحلفين . فلما صدر الحكم ببراءة الكتاب الأربعة جميعهم انطلقت من الجمع الحاشد صيحة مدوية جماعية ، يعتقد أنه لم يسمع مثلها قط فى دار البلدية ، استمرت نحو نصف ساعة بلا إنقطاع ، حتى علا الشحوب وجوه القضاة من شدة الفزع(٦) وظل للبيرن لمدة عامين بطل الجيش . ونفى فى ١٦٥٢ ثم عاد فى ١٦٥٣ فقبض عليه ثانية ، ثم برىء (أغسطس ١٦٥٣)، ولكنه ظل مع ذلك سجينا . وفى ١٦٥٥ أفرج عنه وقضى نحبه ١٦٥٧ ، وهو فى الثالثة والأربعين من العمر .

وذهب بعض « أنصار المساواة » (حزب نشأ فى البرلمان الطويل ١٦٤٧ يدعو إلى ازالة الفوارق بين الناس) إلى أبعد مما ذهب إليه للبيرن والديمقراطية ، فدعوا إلى توزيع السلع توزيعا أقرب إلى المساواة . أنهم تساءلوا : لم يكون هناك أغنياء وفقراء ؟ لماذا يتضور بعض الناس جوعا على حين يحتكر الأغنياء الأرض؟ . وفى أبريل ١٦٤٩ ظهر « نبى » يدعى وليم إفرارد Everard ، وقاد أربعة من الرجال إلى تل سان جورج فى سرى ، ووضعوا أيديهم على بعض الأرض غير المشغولة ، وفلحوها ، ونثروا فيها البذور ، ودعوا الناس إليها . فانضم إليهم ثلاثون آخرون من جماعة « الحفارين » (وهو اسم أطلق عليهم) . وأنهم — كما جاء فى تقرير إلى مجلس الدوله ، ليهددون الجيران بأنهم سيحملون الجماعة كلها على القدوم وشيكا إلى التلال للعمل فيها(٧) . « ولما سيق افرارد للمثول أمام نقيب الجيش سيرتوماس هيرفاكس ، أوضح له أن أتباعه قد اعتزموا احترام الأملاك الخاصة ، « وأنهم لن يقربوا إلا الأراضى العامة غير المفلوحة ليعملوا فيها حتى تؤتى ثمارها ، « وأنهم يأملون » فى أن يحين فجأة الوقت الذى يأتى فيه كل الناس طائعين مختارين وينزلون عن أراضيهم وضياعهم ويذعنون لجماعة الأخيار هذه(٨) » . فما كان من هيرفاكس إلا أن أخلى سبيل الرجال على أنهم أفراد متعصبون لايخشى منهم أى أذى . وتابع أحدهم — وهو

جيرارد ونستانلى – الحركة ببيان أصدره فى ٢٦ أبريل ١٦٤٩ ، تحت عنوان « لواء نصير المساواة الصادق يتقدم إلى الامام » : « فى البدء جعل العقل (الخالق العظيم) الأرض ملكا عاما مشتركا للحيوان والإنسان » ، ولكن الإنسان فيما بعد عميت بصيرته فأصبح عبدا أكثر خضوعا لبنى جنسه من خضوع حيوانات الحقل لشخصه هو ، وجرى التصرف فى الأرض بالبيع والشراء ، وأحاطها الحكام بالحواجز والأسياج ، وبقيت فى حوزة فئة قليلة من الناس . وكل ملاك الأرض لصوص ولن تنقطع الجريمة والكراهية والبغضاء مالم تسترد الملكية العامة المشتركة(٩) . وفى « قانون الحرية » (١٦٥٢) توسل ونستانلى إلى الجمهورية أن تقيم مجتمعا لايوجد فيه بيع ولا شراء ، ولا محامون ، ولا أغنياء ولا فقراء ، يجبر فيه الجميع على العمل حتى سن الأربعين ، وبعد ذلك يعفون من الكدح . ويباح حق الانتخاب لكل البالغين من الذكور ، ويكون الزواج إجراء مدنيا ، والطلاق حرا مباحا(١٠) . وتخلى « الحفارون » عن مشروعهم ، ولكن دعايتهم نفذت إلى عقول الفقراء الإنجليز ، وربما عبرت القنال إلى فرنسا ، وعبرت المحيط إلى أمريكا .

أن كرومول نفسه ، وهو من ملاك الأرض ، وهو الشديد الخبرة بطبيعة الإنسان ، لم يثق فى هذه المثل العليا فى الملكية العامة ، بل لم يثق حتى فى حق الاقتراع للبالغين . وفى فترة الفوضى التى لامعدى عنها ، عقب قلب أية حكومة ، تدعو الحاجة إلى شىء من سلطة مركزة فى بعض الأيدى ، وقد تمثلت فى كرومول ، وأن كثير ممن أوغر صدورهم منه اعدام الملك ، رحبوا لبعض الوقت بدكتاتورية بدت البديل الوحيد للإنحلال الاقتصادى والسياسى بل أن الجيش نفسه ، حين ترامت إليه أنباء الثورة المضادة التى تدبر فى أيرلنده واسكتلنده ، غمره الفرح إذ أيقن أن يد كرومول الحديدية على أتم استعداد لقيادته ضد العصاة والثوار الذين

لم يسعوا وراء « يوتوبيا » أو دنيا مثالية ديمقراطية ، بل وراء عودة ملكية تثأر وتنتقم .

٢ — ثورة أيرلنده

فى أيرلنده وحد رد الفعل ضد الثورة الكبرى ، بشكل عابر ، بين البروتستانت فى اقليم (The Pale) فى شرق أيرلنده حول دبلن والكاثوليك فيه وفيما وراءه . فقد حدث حتى قبل اعدام شارل الأول ، أن وقع أرل أورموند جيمس بتلر ، بوصفه نائب الحاكم فى ايرلنده ، معاهدة مع اتحاد الكاثوليك فى كلكنى Kilkenny (١٧ يناير ١٦٤٩) وافقوا بمقتضاها ، وفى مقابل الحرية الدينية وبرلمان أيرلندى مستقل ، على تزويده بخمسة عشر ألفا من المشاه وخمسمائة من الجياد . وبعث أورموند برسالة إلى أمير ويلز ، الذى اعترف أورموند لفوره بأنه شارل الثانى ، يدعوه فيها للقدوم إلى ايرلنده ليقود جيشا مشتركا من البروتستانت والكاثوليك . وآثر شارل الذهاب إلى اسكتلنده ، ولكن كرومول اعتزم أن يواجه تهديدات أيرلنده أولا .

وحين حط كرومول رحاله فى ايرلنده فى أغسطس ، كانت القوات الموالية للجمهورية قد هزمت بالفعل أورموند فى راثمينز ، وتراجع هو مع ما تبقى من قواته (٢٣٠٠ جندى) إلى مدينة دروجيدا المحصنة ، الواقعة على نهر بوين . فحاصرها كرومول بعشرة آلاف جندى وافتحمها واستولى عليها عنوة (١٠ سبتمبر ١٦٤٩) وأمر بقتل من من بقى حاميتها على قيد الحياة(١١) . ولم يفلت من المذبحة بعض المدنيين ، وقتل كل قسيس فى المدينة(١٢) ، حتى بلغ عدد ضحايا المذبحة المنتصرة نحو ٢٣٠٠ . واشترك كرومول فى شرف النصر مع الله : « أرجو أن تنسب القلوب الطاهرة هذا المجد إلى الله الذى يرجع إليه الفضل فى هذه الرحمة حقا(١٣) » وتعنى «

أن تساعد هذه المحنة كثيرا على حقن الدماء بفضل كرم الله[١٤] » .
وإنا لنشاركه رجاءه المخلص فى أن تضع مثل هـذه الضربة الواحدة من الإرهاب حدا للثورة ، وتنقذ حياة الكثيرين من الجانبين .

ولكن الحرب استمرت ثلاثة أعوام أخر ، فان كرومول تقدم من دروجيدا لحصار وكسفورد ، واستولى عليها ، ولقى ١٥٠٠ من المدافعين عنها ومن سكانها مصرعهم . وقال كرومول « أن الله ، بشىء من عناية إلهية غير متوقعة ، فى عدله القويم ، قد أنزل بهم حكما عادلا . . . . حيث كفروا بدمائهم عن أعمال القسوة الوحشية التى اقترفوها ضد حياة الكثيرين من البروتستانت المساكين[١٥] » . ولكن سياسة المذابح أخفقت فان مدينتى دنكانون ووترفورد تحدتا حصار كرومول . واستسلمت كلكنى لمجرد أنها تلقت شروطا كانت مرفوضة فى أى مكان آخر ، وتم الاستيلاء على كلونمل ولكن بعد فقد ألفى رجل . وما أن ترامى إلى كرومول نبأ وصول شارل الثانى إلى اسكتلنده حتى ترك مواصلة الحرب فى ايرلنده لصهره هنرى أيرتون ، وأبحر هو إلى انجلترا (٢٤ مايو ١٦٥٠) .

وكان أيرتون قائدا قديرا ، ولكنه مات بالطاعون فى ٢٦ نوفمبر ١٦٥١ . ونبذت سياسة المذابح ، وصدر العفو عن الثوار ، وبمقتضى معاهدة كلنكنى (١٢ مايو ١٦٥٢) استسلموا جميعا تقريبا ، شريطة السماح لهم بالهجرة دون عائق . وفى ١٢ أغسطس صدر « قانون التسوية فى أيرلنده » ، الذى ينص على مصادرة كل ممتلكات الأيرلنديين أو بعضها — أيا كان مذهبهم — ممن يعجزون عن اثبات أنهم كانوا موالين للجمهورية ، وبهذه الطريقة انتقلت ملكية نحو مليونين وخمسمائة ألف فدان (أيكر) من أراضى ايرلندة إلى جنود أو مدنيين إنجليز أو ايرلنديين كانوا يناصرون كرومول فى ايرلنده . وبهـذا انتقل ثلثا أرض ايرلنده إلى أيدى الإنجليز[١٦] . وانضمت مقاطعات كلدار ودبلن وكارلو وكلو ووكسفورد

لتشكل « Pale » أو إقليما إنجلتزياً جديداً فى ايرلنده ، وبذلت محاولات لإقصاء كل ملاك الأرض الايرلنديين أياً كانوا ، ثم المواطنين الآيرلندين عن هذه المقاطعات . وجردت آلاف الأسرات الايرلندية من أملاكها ، وأعطوا مهلة نهايتها أول مارس ١٦٥٥ ليجدوا لأنفسهم وطنا آخر . وشحن المئات منهم على ظهور السفن إلى بربادوس ، (جزر الهند الغربية) أو أماكن أخرى بتهمة التشرد .

وقدر سير وليم ربتى أنه من بين سكان ايرلنده البالغ عددهم ٤٦٦,٠٠٠ر١ فى ١٦٤١ ، كان قد هلك حتى ١٦٥٢ نحو ٦١٦,٠٠٠ بسبب الحرب أو الموت جوعاً أو الطاعون ، وقال أحد الضباط الانجليز : فى بعض المقاطعات « قد يسير المرء عشرين أو ثلاثين ميلا دون أن يجد مخلوقاً على قيد الحياة ، إنساناً أو حيواناً أو طائراً » وقال آخر : « إن الشمس لم تشرق قط على أمة أشد تعاسة من هذه(١٧) » . وحرم المذهب الكاثوليكى بحكم القانون وصدرت الأوامر إلى رجال الدين الكاثوليك بمغادرة ايرلندة فى بحر عشرين يوماً ، وكان الموت عقوبة من يخفى أياً منهم ، وفرضت عقوبات صارمة على التخلف عن حضور الطقوس البروتستانتية يوم الأحد . ومنح القضاة والحكام سلطة جمع أطفال الكاثوليك وإرسالهم إلى انجلترة لتلقى أصول المذهب البروتستانتى (١٨) . إن كل الوحشية التى لقيها البروتستانت على يد الكاثوليك فى فرنسا بين ١٦٨٠ — ١٨٩٠ ، صبها البروتستانت على رؤوس الكاثوليك فى ايرلنده بين ١٦٥٠ — ١٦٦٠ . وأصبحت الكثلكة جزءاً لا يتجزأ من الروح الوطنية الإيرلندية ، لأن الكنيسة والشعب قذف بهما فى بحران من المعاناة والشقاء . وعلقت هذه السنين المريرة بذاكرة ايرلندة وكأنها تراث من البغضاء لا يفنى .

٣ — ثورة اسكتلندة

صعق الاسكتلنديون باعدام شارل الأول الذى كانوا هم أنفسهم قد أسلموه إلى البرلمان الانجليزى ، وعاد إلى ذاكرتهم فجأة أن والده كان اسكتلنديا . ورأوا فى «تطهير برايد» الذى أخرج المشيخيين (البرسبتريانز: كنيسة بروتستانية يدير شئونها شيوخ منتخبون يتمتعون جميعاً بمنزلة متساوية) من البرلمان الطويل ، نقضا «للعصبة المقدسة والميثاق المقدس» الذى أقسم فيه ذلك البرلمان يمين الإخلاص لاسكتلنده وللمذهب المشيخى ، وأوجسوا خيفة من أن يحاول البيوريتانيون المنتصرون فرض مذهبهم البروتستانتى على اسكتلندة كما فرضوه على انجلترا . وفى ٥ فبراير ١٦٤٩ ، أى بعد مضى أقل من أسبوع على أعدام شارل الأول ، نادى البرلمان الاسكتلندى (مجلس الطبقات) بأبنه شارل الثانى ، الذى كان آنذاك فى الأراضى الوطيئة ، ليكون الملك الشرعى على بريطانيا العظمى وفرنسا وأيرلنده .

وقبل أن يجيز الاسكتلنديون لشارل الثانى الدخول إلى اسكتلنده طلبوا إليه أن يوقع للميثاق الوطنى وعهد العصبة المقدسة وللميثاق المقدس ، ويقسم يمين الحفاظ على المذهب المشيخى أو إقامته فى كل أرجاء مملكه وفى بيته . على أن شارل الذى كان يدين بالفعل بمزيج من الكاثوليكية والتشكك ، لم يكن يروقه مذهب المشيخية ، فى الوقت الذى كان يتوق فيه أيما توق إلى العرش ، فوقع على كره منه ، كل هذه المطالب فى «بريدا» فى أول مايو ١٦٥٠ . وقاد مونتروز ، أنبل الاسكتلنديين فى ذاك العصر — قوة صغيرة من جزر أوركنى إلى اسكتلنده ، أملاف أن يجمع لشارل جيشا مستقلا عن الميثاقين المشيخيين ، ولكنه هزم وأسر وأعدم شنقا (١١ مايو ١٦٥٠) . وفى ٢٣ يونيه حط شارل رحاله فى اسكتلندة ، وهو يتلهف على أن يكون على رأس جيش يغزو به الجمهورية البيوريتانية التى أطاحت برأس

أبيه . وقبل أن يهب الاسكتلنديون لنجدته ، استحثوه على إصدار بيان يرغب فيه « أن يركع فى ذلة وخشوع أمام الله تكفيرا عن معارضة أبيه للعصبة المقدسة والميثاق المقدس ، ومن أجل خطيئة أمه بسبب عقيدتها الوثنية (أى اعتناقها الكثلكة)[١٩] . » والتكفير عن خطيئات شارل الأول والثانى فرض رجال الكنيسة الاسكتلندية على الجيش والشعب صوما جادا رهيبا ، وأكدوا للجيش أنه لن يقهر ،[٢٠] لأن الملك الشاب قد أرضى السماء . وتحت إلحاح القساوسة طهر الجيش من الضباط الذين وضعوا ولاءهم للملك فوق ولائهم للميثاق والكنيسة الاسكتلندية ، وبهذه الطريقة طرد ثمانون من أقدر القواد .

واقترح كرومول على البرلمان الانجليزى غزو اسكتلنده فى الحال ،دون إنتظار هجوم من جانبها . واعتزل فيرفاكس آنذاك القيادة العليا لجيوش الجمهورية، وكان قد رفض الاشتراك فى محاكمة شارل الأول ، وعين كرومول خلفا له ، فنظم قواته بعزيمته وعجلته المعهودتين ، وعبر إلى اسكتلنده (٢٢ يوليه ١٦٥٠) ، على رأس ١٦ ألف رجل . وفى ٣ أغسطس أرسل إلى لجنة الجمعية العامة للكنيسة الاسكتلندية رسالة زاخرة بالشجاعة والثبات والقدرة على الاحتمال : « هل كل ماتقولون يلتئم إلتئاما لاشبهة فيه مع كلمة الله ؟ أتوسل إليكم ، بحق أحشاء المسيح ،أن تفكروا فى أنكم قد تكونون مخطئين[٢١] » . وفى دنبار (٣ سبتمبر) أوقع بالجيوش الاسكتلندية الرئيسية هزيمة منكرة وأسر عشرة آلاف رجل ، وسرعان ما استولى على أدنبره وليث . وانهارت مكانة الوعاظ الاسكتلنديين ، وتبدد زعمهم بأنهم معصومون من الخطأ . واستدعى الضباط المطرودون على عجل ، وتوج شارل الثانى رسميا فى « سكون Scone . » أما كرومول فقد إنتابه المرض فى ادنبره ، وتوقف القتال بضعة شهور .

ثم تقدم الجيش الاسكتلندى بعد إعادة تنظيمه ، وعلى رأسه شارل ،

إلى انجلترا ، أملا فى أن ينضم إلى لواء الشرعية والحق ، كل الملكيين والمشيخيين المخلصين . فتعقبهم كرومول ، حيث كان يحشد أثناء مروره بالمدن الإنجليزية كل قوات الطوارىء ، والمواطنين الصالحين للجندية ، وفى ووستر ، فى ٣ سبتمبر ١٦٥١ ، دارت رحى للمركة التى أبقت على الجمهورية ، وحكمت على شارل بأن يلوذ بالمنفى مرة أخرى . وفيها ، بفضل الاستراتيجية الفائقة والبسالة ، استطاعت قوات كرومول الأقل عددا ، أن تهزم ثلاثين ألفا من الاسكتلنديين . وكان شارل شجاعا ولكنه لم يكن قائدا . أنه بذل أقصى الجهد فى أن يستحث ويلم شعث جنوده الذين اختل نظامهم ، ولكن يبدو أنهم ذعروا وارتعدوا فزعاً من سمعة كرومول محاربا لم يخسر قط معركة ، فألقى كثير منهم السلاح ولاذ بالفرار . وتوسل شارل إلى ضباطه أن يطلقوا عليه الرصاص فأبوا . واقتاده نفر من أشد أتباعه اخلاصا إلى مكان آمن مؤقت فى مقر أحد الملكيين . وهناك تجرد من شعر رأسه إلى حد كبير ، وغير لون يديه ووجهه واستبدل بملابسه ثياب أحد العمال ، وبدأ مسيرة طويلة ، على ظهر جواد ، وعلى قدميه ، متسللا من مخبأ إلى مخبأ . ينام تحت سطوح المنازل أو فى الحظائر والغابات . ونام مرة فى احدى أشجار « رويال أوك » فى بوسكوبل ، على حين كان جنود الجمهورية يفتشون عنه تحتها . وكثيرا ما عرفه الناس ، ولكنهم لم يغدروا به أو يكشفوا أمره . وبعد أربعين يوما من الفرار ، وجد هو ومرافقوه ، فى شورهام فى سسكس ، قاربا ارتضى ربانه ، مخاطرا بحياته ، أن ينقلهم إلى فرنسا (١٥ أكتوبر) .

وعهد كرومول إلى القائد جورج مونك بالضرب على أيدى الثوار الاسكتلنديين بصفة نهائية ، وتم هـذا فى فبراير ١٦٥٢ . وأخضعت اسكتلنده لانجلترا ، وحل برلمانها المستقل ، ولكن أجيز لها إرسال ثلاثين نائبا عنها إلى برلمان لندن . وعوقبت الكنيسة الاسكتلندية بحظر

انعقاد جمعياتها العامة ، واقرار التسامح الدينى مع كل الشيع البروتستانية المسالمة . ومن الناحية الاقتصادية أفادت اسكتلنده من الحرية الجديدة فى الإتجار مع انجلترا . أما من الناحية السياحية فقد ظلت ترقب دودة أسرة ستيوارت وتدعو الله أن يحقق هذا الرجاء .

٤ — أوليفر حاكماً مطلقاً

عاد كرومول إلى انجلترا منتصراً انتصارا يكلله التواضع . وإذ رأى الجموع التى احتشدت لتشهد مقدمه ، فقد جال بخاطره أن جمهوراً أكبر من هذا كان يمكن أن يحتشد ليشهد مصرعه على حبل المشنقة(٢٢) . ومنحه البرلمان المبتور راتبا سنويا قدره أربعة آلاف جنية ، وخصص له قصراً كان يوما ملكيا فى هامبتون كورت . واعتقد البرلمان أنه سيقنع بالبقاء فى منصب القيادة العامة . كما اقترح اجراء انتخابات جديدة ، وزيادة عدد أعضائه إلى ٤٠٠ ، على أن يحتفظ الأعضاء الحاليون بمقاعدهم دون الدخول فى الانتخابات الجديدة ، وكان عليهم أن يحددوا شروط حق الانتخاب . وصحة الأصوات . وحمى البرلمان نفسه ضد حملات النقد بالحد من حرية الصحافة والخطابة بشكل صارم : « لن يسمح باسم حرية الخطابة أو حرية الوعظ ، بأى شيء يعكر صفو الحكومة أو يسىء إلى كرامتها(٢٣) » . وحرم رجال الكنيسة الأنجليكانية الرسمية من أرزاقهم وحكم بمصادرة ثلثى ممتلكات من يعتنقون المذهب الكاثوليكى ، بصفة غرامة . وقدمت الجوائز لمن يقبضون على القساوسة الكاثوليك(٢٤) .

أن كرومول ، على الرغم من بطئه فى اتخاذ قرار ، كان حازما متأهبا لسرعة التصرف إذا اعتزم أمرا . وقد احتمل فى صبر نافد المناقشات التى أفسدت السياسة فى البرلمان وعوقت الإدارة . أنه اتفق مع شارل الأول على أن تكون السلطة التنفيذية متميزة ومستقلة عن السلطة التشريعية .

ثم بدأ يتساءل : ألم يكن خيرا وبركة أن يكون كرومول ملكا . ولمح بهذه الفكرة (ديسمبر ١٦٥٢) إلى صديقه هوايتلوك الذى فقد صداقته باعتراضه عليها[٢٥] . وفى صبيحة يوم ٢٠ أبريل ١٦٥٣ ، عندما علم أن البرلمان المبتور كان على وشك أن ينصب نفسه سيدا غير منتخب على البرلمان الجديد ، جمع حفنة من الجنود اتخذوا مواقعهم على باب مجلس العموم ، ودخل هو إليه ، وإلى جانبه اللواء توماس هاريسون ، وأصغى لبعض الوقت إلى المناقشة فى صمت رهيب . وعندما بدأ أخذ الأصوات على موضوع البحث ، نهض كرومول ، وتحدث أول الأمر فى اعتدال ، ومالبث حتى تحدث فى عنف ، فنعى على البرلمان المبتور أن يكون أوليجاركية (أقلية حاكمة) تخلد نفسها بنفسها ، لاتصلح لحكم انجلترا . ثم صاح : « أيها السكارى » متجها إلى عضو بعينه ، ثم صرخ فى عضو آخر « أيها الداعر الفاجر » « أنتم لستم برلمانا . أقول إنكم لستم برلمانا . ولسوف أضع حدا لاجتماعاتكم » . ثم التفت إلى هاريسون وأمره : « استدع الجنود ، استدعهم إلى هنا » . ودخل الجنود إلى القاعة . وأمرهم كرومول باخلائها ، وغادرها الأعضاء محتجين قائلين :

« ليس هذا من الأمانة فى شىء » . ووضعت الأقفال على القاعة الخالية ، وفى اليوم التالى وجد معلقا عليها لافتة « بيت للايجار ، غير مؤثث الآن[٢٦] » . ثم ذهب كرومول بصحبة اثنين من القواد إلى حيث يجتمع مجلس الدولة ، وقال لأعضائه « إذا كنتم تجتمعون الآن بصفتكم الشخصية فلا بأس ، ولا يزعجنكم أحد — أما إذا كنتم مجتمعين كمجلس للدولة ، فلا مكان لكم هنا . . . وأرجو أن تعلموا أن البرلمان قد حل[٢٧] » . وهكذا كانت كانت النهاية المخزية المزرية للبرلمان الطويل الذى كان قد اجتمع فى وستمنستر ، بكامل هيئته أو بشكله المبتور ، منذ ١٦٤٠ ، والذى كان قد حول دستور إنجلترا وحكومتها . ولم يعد هناك الآن دستور ، بل جيش وملك غير ذى لقب أو ملك غير متوج .

وكان الشعب بصفة عامة فرحا بالتخلص من برلمان كان قد جر إنجلترا إلى حافة الهاوية . وعلى حد قول كرومول ، لم يكن هناك « مجرد نباح كلب ، ولا تذمر ظاهر لحله(٢٨) » . وتقبل البيوريتانيون الغيورون المتحمسون حل البرلمان على أنه إفساح الطريق « للملكية الخامسة » أى مجيء المسيح المنتظر وحكمه وتشجع الملكيون وتهامسوا بأن كرومول سوف يستدعى الآن شارل الثانى ، ويقنع هو بدوقية أو بمنصب نائب الملك فى أيرلنده . ولكن أوليفر لم يكن بالرجل الذى يرتضى أن يكون رهن مشيئته رجل آخر . فأصدر توجيهاته إلى معاونيه العسكريين أن يختاروا ـ بصفة أساسية من الجامع البيوريتانية فى إنجلترا — ١٤٠ رجـلا ، من بينهم خمسة من اسكتلندة وستة من أيرلنده ، ليجتمعوا على هيئة « برلمان معين » . ولما إنعقد هذا البرلمان فى هويتهول فى ٤ يوليه ١٦٥٣ أعترف كرومول بأن الجيش هو الذى إختارهم ، ولكنه رحب بهم باعتبار أنهم يبدأون فترة يحكم فيها القديسون حكما صحيحا تحت رياسة يسوع المسيح(٢٩) ، وإقترح أن يخولهم السلطة العليا ، ويكل إليهم مهمة وضع دستور جديد — وظل هذا البرلمان طيلة خمسة أشهر يبذل أقصى الجهد فى إنجاز هذه المهمة ، ولكنه ضل الطريق فى متاهات المناقشة ، الطويلة . وإنشق الأعضاء على أنفسهم ، يأسا وعجزا ، فى موضوعات الدين والتسامح الديني . وأطلق ظرفاء لندن عليه اسم « برلمان باربيون » ، نسبة إلى أحد أعضائه Barebone ، وهو أحد القديسين فى « الملكية الخامسة » سالفة الذكر .

وضاق الجيش ذرعا بهؤلاء الأعضاء ، كما ضاق من قبل ذرعا بمن طردهم فى أبريل . وعرض الضباط — وهم يمثلون دور أنطونيو — على كرومول أن ينصب نفسه ملكا ، وتردد قيصر وإعترض فى رفق ، ولكن ثمانين من أعضاء البرلمان ، بإيحاء محدد من الجيش ، أعلنوا إلى كرومول فى ١٢ ديسمبر أن الجمعية الجديدة لم تصل إلى اتفاق ، وأنها تقترح على حلها . وعرضت « وثيقة حكومية » أعدها زعماء الجيش ، على كرومول أن يكون « حامى

جمهورية انجلترا واسكتلنده وايرلنده » ، وأن ينتخب برلمان جديد على أساس نصاب من الثروة يخول حق الاقتراع ، مع استبعاد الملكيين والكاثوليك ، وأن تكون السلطة التنفيذية فى يد مجلس من ثمانية من المدنيين وسبعة من ضباط الجيش ، يختارون لمدى الحياة ، على أن يعمل هذا المجلس بمثابة هيئة استشارية « لحامى حمى الجمهورية » وللبرلمان ، كليهما . ووافق كرومول ووقع هذه الوثيقة ، وهى « أول وآخر دستور انجليزى مسطور(٣٠) » وفى ١٦ ديسمبر ١٦٥٣ أقسم اليمين بوصفه « حامى الحمى » . وبذلك انتهت الجمهورية ، وبدأت الحماية — احمان لأوليفر كرومول .

هل كان كرومول طاغية مستبدا ؟ من الواضح أنه استساغ السيطرة والسلطان . ولكن تلك نزعة عامة ، وهى أمر طبيعى إلى أبعد حد فى الموهبة الواعية . لقد فكر من قبل فى تنصيب نفسه ملكا ، وتأسيس اسرة ملكية جديدة(٣١) . ويبدو أنه كان مخلصا حين عرض أن ينزل عن سلطته « للبرلمان المعين » . ولكن عجز هذا البرلمان أقنعه بأن سلطته التنفيذية هو نفسه هى آنذاك البديل الوحيد عن الفوضى فإذا تخلى هو ، فقد كان يبدو أنه ليس ثمة رجل آخر يحظى بتأييد كاف للمحافظة على النظام . واستنكر المتطرفون فى الجيش هذه « الحماية » باعتبارها مجرد « ملكية أخرى » . واتهموا كرومول بأنه « وغد منافق كذاب » وتوعدوه « بمصير أسوأ من المصير الذى لقيه الطاغية السابق(٣٢) » . وأرسل كرومول بعض هؤلاء المتمردين إلى السجن « برج لندن » ومن بينهم اللواء هاريسون الذى تولى قيادة الجنود عند طرد أعضاء البرلمان المبتور . أن خوف كرومول على سلامته هو نفسه أدى به شيئا فشيئا إلى المزيد من الاستبداد ، لأنه أدرك أن نصف الأمة كان يمكن أن يهلل لقتله . إنه أحس ، مثل سائر الحكام ، بالحاجة إلى احاطة نفسه بمظاهر الفخامة والوقار التى تثير الرهبة فى النفوس ، فانتقل إلى قصر هويتهول (١٦٥٤) وأعاد تأثيثه بأفخر

الرياش ، واتخذ لشخصه كل الجـلال وكل العظمة الملـكية[٣٣] . ولـكن مما لاريب فيه أن كثيرا من هذه المظاهر كان لابد أن يخلق انطباعا قويا في نفس السفراء ، ويثير الفزع في نفوس الأهالي .

وفيما يتعلق بحياة كرومول الخاصة ، فإنه كان رجلا غير ميال إلى المظاهر والأبهة ، يعيش عيشة طابعها البساطة والإخلاص مع أمه وزوجته وأولاده . وأحبته أمه حبا ممزوجا بالخوف عليه ، ترتمد فرقا على حياته لـكل طلقة نسمعها ، وعند وفاتها في الثالثة والتسعين (١٦٥٤) قالت : « ولدى العزيز إنى أترك قلبي معك[٣٤] » . أنه هو نفسه ، في أواسط الخمسينات من عمره ، كان يدب إليه الهرم بسرعة ، أن ما واجهه من أزمة تلو أزمة كان يهد من أعصابه التي قيل أنها حديدية . أن حملات ايرلنده واسكتلنده زادت الحمى على داء النقرس ، ولم يمر عليه يوم دون نصب أو قلق ورسم له المصور للى في ١٦٥٠ لوحة مشهورة . وأن كل انسان ليعرف تحذير كرومول للمصور حيث قال له : « مستر للى ، بودي أن تستغل كل ماأوتيت من مهارة في رسم صورة حقيقية مثل شخصى تماما ، ولا تتملقنى على الإطلاق ، بل يجب أن تبرز هذه الخشونة والبثور والنتوءات وكل شيء ، وإلا ، فلن أنقدك فلسا واحدا[٣٥] » . وقبض للى أجره ، ورسم « حامى الحمى » في صورة مصقولة إلى حـد بعيد ، ومع ذلك أبرز الوجه الصارم القوى ، والإرادة الحديدية كما أبرز روحا عصبية متوترة إلى حد الإنفجار .

ووجه النقد إلى كرومول من أجل البساطة الـكئيبة في لباسه العاذى — سترة وبذلة بسيطتان سوداوان — ، ولـكنه كان في المناسبات الرسمية يرتدي سترة موشاة بالذهب . أنه بين الناس كان يحتفظ بوقار لا أثر فيه للتـكلف أو التظاهر ، ولـكن في حياته الخاصة كان ينصرف إلى ألوان التسلية والدعاية والمزاح ، بل إلى مزحات عملية وهزل ماجن طارىء[٣٦] .

وأحب الموسيقى وعزف على الأرغن عزفا جيدا[٣٧] . وواضح أنه كان ، حسب مايبديه ، مخلصا فى ورعه وتقواه[٣٨] ، ولـكنه كثيرا ما استخدم اسم الله (لا عبثا) لتدعيم أهدافه ، إلى حد اتهمه معه الـكثيرون بالنفاق . ويحتمل أنه كان ثمة بعض الرياء فى تقواه العلنية ، وقليل منه فى تقواه الخاصه، مما شهد به كل من عرفوه . وكانت رسائله وخطبه نصف مواعظ ، ولا نزاع فى أنه اعتبر ، بـكل طيب خاطر أن الله هو ساعده الأيمن .. ولم تـكن أخلاقياته الخاصة تشوبها شائبة ، على حين أن أخلاقياته العامة لم تـكن تفضل أخلاقيات الحكام الآخرين ، فاستخدم الخداع أو القوة حينما رآهما ضروريين لأهدافه الـكبرى . أن أحدا لم يوفق بعد بين المسيحية والحـكم .

أن كرومول من الناحية الفنية ، لم يكن حاكما مطلقا . فإنه تنفيذاً ، لوثيقة الحـكومة » التى أسلفنا ذكرها شكل « مجلس الدولة » وانتخب برلمانا . « وعلى الرغم من كل مساعى حامى الحمى والجيش لضمان عودة النواب الذين تميزوا بالـكياسة ولين العريكة ، ضم مجلس العموم الذى اجتمع فى ٣ سبتمبر ١٦٥٤ بعض الجمهوريين المزعجين ، بل كذلك بعض الملـكيين . وثار النزاع حول من يسيطر على الجيش : حامى الحمى أو البرلمان . وإقترح البرلمان إنقاص عدد الجنود وأعطياتهم ، فتمردوا وحرضوا كرومول على حله (٢٢ يناير ١٦٥٥) . والواقع أن حكومة إنجلترا أصبحت دكتاتورية عسكرية منذ طهر برايد البرلمان فى ١٦٤٨ .

وسيق كرومول آنذاك إلى الحـكم طبقا للأحكام العرفية وحدها دون سواها ، وفى صيف ١٦٥٥ قسم إنجلترا إلى خمسة أقسام عسكرية . ووضع على رأس كل منها هيئة من الجند يرأسها ضابط برتبة لواء وللوفاء بنفقات هذه التجهيزات فرض ضريبة قدرها ١٠٪ على ضياع الملـكيين . واحتج الناس ، وانتشر النقد والتمرد ، وسمعت أصوات تنادى بعودة شارل الثانى . وأجاب كرومول على هذا كله بتشديد الرقابة والتوسع فى أعمال التجسس

والإعتقالات التعسفية وإجراءات قاعة النجم التى أغفلت المحلفين وقانونية الإعتقال . وكان « سيرهارى فين Vane » من الثوريين السابقين الذين اقتيدوا إلى السجن . إن الثورات تأكل آباءها .

ولما كان كرومول فى حاجة إلى مزيد من المال أكثر مما استطاع تحصيله عن طريق مافرض من ضرائب أخرى مباشرة ، فإنه دعا برلمانا آخر . ولما التأم عقده فى ١٧ سبتمبر ١٦٥٦ ، وضع مجلس الدولة على باب مجلس العموم بعضا من ضباط الجيش ، ومنع دخول ١٠٣ من الأعضاء الذين إنتخبوا إنتخابا صحيحاً ، ولكن يشتبه فى أن لهم ميولا جمهورية أو ملكية أو مشيخية أو كاثوليكية . فقدم الأعضاء المبعدون احتجاجا استنكروا فيه إبعادهم بأنه انتهاك صارخ لإرادة ناخبيهم التى عبروا عنها ، ودمغوا بأشد النفاق « تصرف الطاغية وإستخدامه اسم الله والدين والصوم والصلوات الشكلية ليستر قتام الحقيقة الواقعة ومرارتها(٤٠) » . ومن بين الأعضاء البالغ عددهم ٣٥٢ الذين إجتازوا تمحيص المجلس ودقته كان هناك ١٧٥ عضوا من رجال الجيش أو من المعينين أو من أقرباء كرومول . وفى ٣١ مارس ١٦٥٧ قدم البرلمان المختزل المنقوص الخاضع المذعن إلى « حامى الحمى » توسلا ونصيحة متواضعين « يطلب إليه فيها أن يتخذ لنفسه لقب « ملك » . ولكنه كان يشم رائحة المعارضة من جانب الجيش لهذا العمل ، فأبى . ولكن ثمة حل وسط أعطاه الحق فى تعيين خلفه « حامى الحمى » . وفى يناير ١٦٥٨ وافق على إعادة الأعضاء المبعدين إلى مقاعدهم فى مجلس العموم . وفى نفس الوقت اختار تسعة من النبلاء و٦١ من العامة ليشكلوا المجلس الثانى (مجلس اللوردات) . ورفض كثير من ضباط الجيش تأييد هذه الحركة . وعندما عقدوا إتفاقاً مع الجمهوريين فى مجلس العموم للحد من سلطات المجلس الثانى ، غضب كرومول غضبا شديدا وأقتحم قصر وستمنستر وطرد البرلمان (فى فبراير ١٦٥٧) . وآنذاك من الوجهة القانونية ، ومن حيث الأمر الواقع ، انتهت الجمهورية الأنجليزية وأعيدت الملكية . وكأن التاريخ

بهذا قد ضرب مثلا جديداً للتعاقب التهكمي الساخر الذى ذكره أفلاطون ، وهو تعاقب الملكية ، فالارستقراطية ، فالديموقراطية ، فالدكتاتورية ، فالملكية(٤١) .

٥ — ذروة البيوريتانية

لقد إنطوى إنتصار البيوريتانية على ثورة دينية . وتحطمت الكنيسة الإنجليزية فى ١٦٤٣ بالغاء الحكومة الأسقفية فى الكنيسة ، وصادر مذهب البروتستانتية المشيخية (البرسبتريان) حيث كان يحكم مجامع الكنيسة قساوسة يوجههم مجلس (سنودس) فى كل قسم ، وتخضع مجالس السنودس هذه للجمعية العمومية — نقول أن مذهب الكنيسة المشيخية هذا جعل المذهب الرسمى للدوله فى ١٦٤٦ ، ولكن سيطرة مذهب المشيخية انتهت بعد عامين اثنين ، حين طهر « برايد » البرلمان من أتباع هذا المذهب . وبدا لبعض الوقت أن الديانة يجدر تركها حرة طليقة من أية رقابة أو إعانه مالية من جانب الدولة . ولكن كرومول (الذى حدث أنه اتفق فى كل شىء تقريباً مع الملك الذى كان قد أودى بحياته) آمن بأن كنيسة معانة من قبل الدولة أمر لاغنى عنه من أجل التربية والتعليم والأخلاق . وفى ١٦٥٤ شكل « لجنة من الفاحصين » لتختبر صلاحية رجال الدين للتعيين فى رتب كنيسية والحصول على رواتب . ولم يكن أهلا لذلك سوى المستقلين (البيوريتانيين) وأنصار التعميد والبرسبتريانز . وأجيز لكل أبرشية أن تختار بين التنظيم المشيخى أو نظام الكنيسة المستقلة —وفيه يحكم كل مجمع نفسه . وإختار البيوريتانيون نظام الكنيسة المستقلة . أما التنظيم المشيخى الذى ساد فى اسكتلندة ، فقد اقتصر فى إنجلترا إلى حد بعيد ، على لندن ولنكشير . أما رجال الدين الأنجليكانيون . الذين بلغوا يوما حداً كبيراً من القوة ، فقد حرموا من رواتبهم ، وباتوا يخدمون أتباعهم أى يقومون لهم بالمراسم فى أماكن خفية ، مثل الكهنة الكاثوليك . وفى ١٦٥٧ أعتقل جون أفلين بسبب

حضوره الصلوات الأنجليكانية[٤٢] . وكانت الكاثوليكية لا تزال خروجاً على القانون . وأعدم قسيسان شنقا (١٦٥٠ — ١٦٥٤) بتهمة « تضليل الشعب » ، وفى ١٦٥٧ أصدر برلمان البيوريتانيين، بموافقة كرومول ، قانونا يقضى بمصادرة ثلثى ممتلكات أى فرد جاوز السادسة عشرة ، لم يتنصل من الكاثوليكية ويبرأ منها[٤٣] . وفى ١٦٥٠ كانت العقيدة الدينية قد أصبحت أساساً لوضع اجتماعى طبقى : فكان الفقراء يتحيزون للمذاهب المعارضة — أنصار العماد ، الكويكرز ، أصحاب فكرة الملكية الخامسة ، وغيرها ، أو الكاثوليك . أما الطبقات الوسطى فكانت البيوريتانية غالبة فيها . على حين أن الأرستقراطية ومعظم ذوى الحسب والنسب (ملاك الأرض الذين لا ألقاب لهم) كانوا يشايعون الكنيسة الأنجليكانية التى لم تعد الدولة تعترف بها .

وانعكس التعصب الدينى رأسا على عقب ، أكثر مما تناقص أو خفت حـــدته . ذلك أنه بدلا من اضطهاد الأنجليكانيين للكاثوليك المنشقين والبيوريتانيين الذين تعالت صيحاتهم من قبل طلبا للتسامح ، باتوا الآن يضطهدون الكاثوليك والمنشقين والأنجليكانيين . وحرموا استعمال « كتاب الصلوات العامة » ولو سرا فى المنازل . وقصر برلمان البيوريتانيين التسامح على أولئك البريطانيين الذين ارتضوا التثليث والإصلاح الديني والكتاب المقدس باعتباره كلمة الله ، كما إرتضوا نبذ الأساقفة . أما أتباع سوسينوس أو التوحيديون فلم يشملهم التسامح بناء على ذلك . وفرضت عقوبات صارمة على أى نقد يوجه إلى العقيدة أو الطقوس الكلفنية[٤٤] . وكان كرومول أكثر تسامحا من برلماناته ، فتغاضى عن بعض الصلوات الأنجليكانية ، ورخص لجماعة صغيرة من اليهود بالإقامة فى لندن ، بل وبناء معبد لهم ، واتهمه إثنان من الوعاظ من أنصار عدم تجديد العماد بأنه « وحش سفر الرؤيا » (النبي الكذاب)، ولكنه احتمل هجومهما صابرا[٤٥] .

واستخدم نفوذه فى وقف اضطهاد الهيجونوت فى فرنسا وأتباع والدونى بيد مونت . ولكنه عندما طالبه مازاران ، فى مقابل ذلك ، بمزيد فى التسامح مع الكاثوليك فى إنجلترا ، تذرع بعجزة عن الحد من حماسة البيوريتانيين(٤٦) .

ومن الجائز القول بأن الدين لعب دورا هاما وتغلغل فى الحياة اليومية عند اليهود وحدهم ، كما فعل عند البيوريتانيين . والحق أن البيوريتانية اتفقت مع اليهود فى كل شىء تقريبا ، فيما عدا ألوهية المسيح . وشجعت معرفة القراءة والكتابة حتى يقبل الجميع على قراءة الكتاب المقدس . وكان ثمة ولع شديد بالتوراة (العهد القديم) لأنه يقدم نموذجا لمجتمع تسيطر عليه الديانة . وكان الشغل الشاغل فى الحياة هو الخلاص من نار جهنم . والشيطان موجود حقاً وفى كل مكان . وبنعمة الله وحدها يمكن لفئة قليلة مختارة أن تفوز بالخلاص وتضمن كلام البيوريتانيين وأقوالهم عبارات من الكتاب المقدس ومجازاته . وأشرق فى عقولهم التفكير فى الله وفى المسيح أو تجلياتهما لهم ، وملأتهم خشية ورهبة ولكن لم يفكروا قط فى السيدة مريم . واتسمت ملابسهم بالبساطة والكآبة ، وخلت من أية زينة أوزخرف ، كما اتسم كلامهم بالوقار والرزانة مع البطء . وكان منتظر منهم أن ينأوا بأنفسهم عن اللهو والدنس واللذة الحسية . وكانت المسارح قد أغلقت فى ١٦٤٢ بسبب الحرب ، فظلت مغلقة حتى ١٦٥٦ بسبب شجب البيوريتانز واستنكارهم لها . وحرم سباق الخيل ومصارعة الديكية ومباريات المصارعة ، ومطاردة الدببة أو الثيران ، إلى حد أن الضابط (الكولونيل) البيوريتانى بيوسن قتل كل الدببة فى لندن ليتأكد أنها لن تطارد بعد الآن(٤٧) . واقتلعت كل أعمدة مايو (كانت تزدان بالأشرطة والزهور وتقام فى أول مايو) . وكان الجمال شبهة ، واحترموا النساء بوصفهن زوجات مخلصات وأمهات صالحات ، وفيما عدا ذلك لم يتمتعن بحسن السمعة لدى البيوريتانيين لأنهن مصدر غواية وإغراء ، وأنهن سبب طرد الإنسان من الجنة . ونفروا من الموسيقى ، ماعدا فى التراتيل الدينية .

وقضوا على الفن فى الكنائس ولم يسمحوا باخراج جديد منه ، اللهم إلا بعض اللوحات الممتازة من عمل صمويل كوبر ، وبيتر للى ، وكان هولنديا .

وربما كانت محاولة البيوريتانز تقنين الأخلاق أجل عمل منذ شريعة موسى . واعترفوا بصلاحية الزواج المدنى ، وأبيح الطلاق ، لكن الزنى كان جريمه عقوبتها الإعدام . على أنه بعد تنفيذ حكم الإعدام مرتين عقابا على هذه الجريمة ، لم يكن المحلفون يحكمون بالإدانة . وكانت عقوبة الأيمان تتدرج وفقا للسلم الإجتماعى ، فكان اليمين يكلف الدوق ضعف ما يكلف البارون ، وثلاثة أمثال ما يكلف المالك الذى لا يحمل لقبا ، وعشرة أمثال مايدفع الرجل العادى ، بصفة غرامة ، ودفع رجل واحد الغرامه لأنه قال : « الله شهيد على(٤٨) » . وكان الأربعاء يوم صوم إجبارى عن اللحم حتى ولو وقع فيه عيد الميلاد المجيد . وكان من حق الجنود إقتحام البيوت للتأكد من صوم الأهالى . ولم يكن مسموحا بفتح الحوانيت يوم الأحد ، كذلك كانت الألعاب والرياضه والأعمال الدنيوية محظورة فيه . ولم يسمح فيه بأية رحلة أو سفر يمكن إجتنابه ، كما كان محظورا « التسكع أو المشى الدنس بلا هدف(٤٩) » . وعلى الرغم من عودة الملكية وما صحبها من انتكاس فى الأخلاق ، ظل يوم الأحد قاسيا متزمتا حتى أيامنا هذه .

أن كثيرا من هذه المحرمات القانونية أو الإجتماعية أثبت أنه أقسى مما تحتمل الطبيعه البشرية . وقيل أن نسبة كبيرة من السكان لجأت إلى النفاق ، فكانوا يقترفون الآثام كما هى العادة ، ويجرون وراء المال والنساء والسلطة ، ولكن دائما تعروهم الكآبة ويخرجون أصواتا من أنوفهم وتنساب من أفواهم العبارات الدينية . ومع ذلك يبدو أن عددا كبيرا من البيوريتانيين التزموا بأنجيلهم فى إخلاص وشجاعة . ولسوف نرى ألفين من الوعاظ البيوريتانيين بعد عودة الملكية يؤثرون العوز والفاقة على التخلى على مبادئهم . إن نظام البيوريتانية ضيق العقل ولكنه قوى الإرادة .

والخلق . أنه ساعد الإنجليز على حكم أنفسهم . وإذا كان الفزع من نارجهنم والطقوس البيوريتانية قد أشاعت فى البيت الكآبة والظلمة ، فإن حياة الأسرة عند عامة الناس قد أسبغ عليها نظام ونقاوة بقيتا بعد الإنحلال الذى تميزت به صفوة المجتمع فى عهد شارل الثانى .

وجملة القول أن النظام البيوريتانى ربما أحدث أصلاحا خلقيا جددته ودعمته حركة المنهجية فى القرن الثامن عشر (الميثودية حركة إصلاح دبني قادهاتشارلز وجون ويزلى فى أكسفود ١٧٩٢ لإحياء كنيسة إنجلترة) ـ وإليه يرجع أكبر الفضل فى الأخلاقيات العالية نسبيا التى تتميز بها الأمة البريطانية اليوم .

٦ ـ الكويكرز

تألقت فى الكويكرز كل فضائل البيوريتانيين ، وهم فرع منهم ، ولو أخفاها لبعض الوقت الخيال الجامح والتعصب الأعمى . وكانت خشية الله والخوف من الشيطان قويين جداً فيهم إلى حد يصيب أجسامهم برعدة . وقال واحد منهم هو روبرت باركلى ١٦٧٩ .

أن قوة الله سوف تقتحم الإجتماع الشامل ، ومن ثم سوف يكون هناك جهد باطني ، حين يحاول كل فرد أن يقهر قوى الشر فى النفوس ، إلى حد أنه بأعمال هاتين القوتين المتعارضتين ، وكأنهما تياران متضادان ، يجهد الإنسان نفسه وكأنه فى يوم المعركة ، ومن هذا يكون اهتزاز الجسم وحركته فى معظم الناس إن لم يكن كلهم وهى هزات وحركات ، تنتهى بعد أن تسود قوة الحق ، من الوخزات والأنات ، بصوت رخيم من الشكر والحمد . ومن هنا أطلق اسم الكويكرز ، أى المهتزين ، علينا ، وكان هذا من باب اللوم والتأنيب والسخرية فى بداية الأمر (٥٠) .

وتفسير مؤسس الطائفة جورج فوكس يختلف إختلافا يسيرا عن هذا .

« إن القاضى بنت من دربى هو أول من أطلق علينا هذا الاسم ، لأننا كنا نأمرهم بالاهتزاز عند ذكر كلمة الله . وهذا كان فى فى ١٦٥٠ [٥١] » أما الاسم الذى أطلقوه هم أنفسهم على طائفتهم فكان « أنصار الحق » . وبعد ذلك أكثر تواضعا ، فقالوا « مجتمع الأصحاب » .

وواضح أنهم كانوا فى بداية الأمر بيوريتانيين ، مع اقتناع شديد بصفة خاصة بأن ترددهم بين الفضيلة والخطيئة لم يكن إلا صراعا ، فى عقولهم وأجسامهم ، بين قوتين روحيتين ، قوة الخير وقوة الشر ، تحاول كل منهما أن تسيطر عليهم هنا ، وإلى مالا نهاية . إنهم تقبلوا المبادىء الأساسية عند البيوريتانيين : نزول الأسفار المقدسة عن طريق الوحى الإلهى ، خطيئة آدم وحواء ، كون الإنسان خطاء بطبيعته ، موت للسيح بن الله لتخليص البشر ، امكان نزول الروح القدس من السماء لتنوير نفس الإنسان وتشريفها. أن إدراك هـــذا « النور الباطن » ، والإحساس به والترحيب بإرشاده وتوجيهه ، كان جوهر الدين عند السكويكرز . وإذا نهج الإنسان سنن ذاك « النور » لم تعد به حاجة إلى واعظ أو كنيسة . فان هذا « النور » أسمى من العقل البشرى ، بل من الكتاب المقدس نفسه ، لأنه صوت مباشر من عند الله إلى النفس .

لم يتلق جورج فوكس من التعليم إلا أيسره . ولكن « مذكراته » التى دبجها كانت من الآثار الأدبية فى الإنجليزية ، التى تكشف عن القوة الأدبية فى الكلام غير الأدبى ، إذا كان بسيطا جادا مخلصا . وكان جورج ابن أحد النساجين ، والتحق للعمل بمصنع أحذية ، ثم ترك سيده وأقرباءه ، « بأمر من الله » ، وبدأ فى سن الثالثة والعشرين (١٦٤٧) ، الوعظ المتجول الذى لم يتوقف إلا بوفاته (١٦٩١) . وفى سنيه الأولى حيرته وأقضت مضجعه المغريات فراح يلتمس النصح والمشورة لدى رجال الدين ، فأشار عليه أحدهم بالدواء وفصد الدم ، وأوصاه آخر بالتدخين وتلاوة الترانيم

الدينية(٥٢) . وفقد جورج ثقته بالقساوسة ، ولكنه وجد السلوى والعزاء حيثما فتح الكتاب المقدس .

غالبا ما حملت الكتاب المقدس وقصدت لآخذ مكانى فى احدى الأشجار المجوفة فى مكان منعزل حتى يرخى الليل سدوله ، وكثيرا ماسرت فى الليل محزونا وحدى ، لأنى كنت رجلا مثقلا بالأحزان فى أيام أعمال الله الأولى فى نفسى . . . . ثم وجهنى الله إلى الطريق ، ويسر لى إدراك حبه ، وهو حب خالد لانهاية له ، يفوق كل معرفة تتيسر للناس فى حالتهم الطبيعية أو يمكنهم الحصول عليها من صفحات من التاريخ أو من بطون الكتب(٥٣) .

وسرعان ما أحس بأن الحب الإلهى قد اختاره ليبشر الجميع بالنور الباطن ويعظهم . وفى اجتماع الأنصار العماد فى لبسترشير « حل الله عقدة لسانى فأعلنت لهم جيما الحقيقة الخالدة ، وظللتهم جيعا قوة الله(٥٤) » وذاع عنه أنه يتمتع « بروح بصيرة » ، ومن ثم جاء الناس أفواجا ليستمعوا إليه . « حلت قوة الله وكان لها ايحاءات وإلهامات وتنبؤات عظيمة(٥٥) » . بينها كنت أسير فى الحقول قال لى الله : اسمك مكتوب فى سجل الحياة لدى المسيح ، الذى وجد قبل خلق العالم(٥٦) . أى أن جورج قر الآن عينا بما وقر فى نفسه من أنه بين القلة التى اختارها الله قبل الخليقة ، لتتلقى نعمته ورحمته وبركته الأبدية . وأحس آنذاك أنه مساو لأى إنسان . ومنعه زهوه بهذا الاصطفاء الإلهى من « أن أخلع قبعتى لأى من كان : حقيرا أو أميرا ، وأنتم فى حاجة إلى ، أيها الرجال والنساء ، دون اعتبار لغنى أو فقير ، وعظيم أو حقير(٥٧) » .

وإذ اقتنع بأن الدين الحق لايوجد فى الكنائس بل فى القلب المستنير، فإنه دلف إلى كنيسة فى نوتنجهام وقاطع الموعظة صائحا بأن الاختبار الحق ليس فى الأشعار المقدسة بل فى « النور الباطن » . وقبض عليه فى

١٦٤٩ ، ولكن عمدة البلدة أطلق سراحه ، وصارت زوجة هذه العمدة من أول المتنقين لمذهبه . واستأنف فوكس جولاته التبشيرية ودخل كنيسة أخرى وهناك كما قال « دفعت لأعلن الحق للكاهن والناس ، ولكنهم انهالوا على « فى غضب شديد وطرحونى على الأرض . وضربونى ضربا مبرحا وآذونى ايذاء شديدا بأيديهم وكتبهم المقدسة وعصيهم » فاعتقل مرة ثانية ، وأخلى الحاكم سبيله ، ولكن الأهالى قذفوه بالحجارة إلى خارج البلدة(٥٨) . وفى دربى تحدث مهاجما الكنائس والأسرار المقدسة على أنها تقرب لاغناء فيه إلى الله . فحكم عليه بالإقامة فى الاصلاحية لمدة ستة شهور (١٦٥٠) ، وعرضوا عليه اخلاء سبيله شريطة الالتحاق بخدمة الجيش ، فكان جوابه مهاجمة فكرة الحرب . عند ذلك أودعه سجنا وممتقلا قذرا كريه الرائحة غائرا فى الأرض ، ليس فيه فراش ، مع ثلاثين من المجرمين ، « حيث قضيت قرابة نصف عام(٥٩) . ومن سجنه كتب إلى القضاة والحكام معترضا على عقوبة الاعدام . وربما ساعدت شفاعته على انقاذ امرأة شابة محكوم عليها بالاعدام بتهمة السرقة من حبل المشنقة .

وبعد عام قضاه فى السجن استأنف التجوال لنشر تعاليمه . وفى ويكفيلد حول جيمس نايلر ، وفى بفرلى دخل كنيسة ، وجلس منصتا حتى انتهت الموعظة ثم سأل الواعظ : هل لم يشعر بالخجل « حين يتقاضى ثلثمائة جنيه سنويا ليبشر بالأسفار المقدسة(٦٠) ؟ » وفى بلدة أخرى دعاه القسيس لالقاء عظة فى الكنيسة فأبى ، ولكنه تحدث فى فنائها إلى جمع من الناس .

أعلنت إلى الناس أنى لم أحضر لأعترض سبيل معابدهم الوثنية ولا قساوستهم . ولا عشورهم ... ولا احتفالاتهم وتقاليدهم اليهودية الوثنية لأنى أنكرت هذا كله . وقلت لهم أن هذا المكان ليس أكثر قدسية من أى مكان آخر .... لذلك نصحت الناس أن ينبذوا كل هذه

الأشياء ، وأرشدتهم إلى روح الله ونعمته فيهم أنفسهم ، وإلى نور المسيح في قلوبهم (٦١) .

وفى سوورثمور فى بور كشيرحول إلى مذهبه مرجريت فل ، ثم زوجها القاضى توماس فل ، وأصبحت دارهما ، قاعة سوورثمور ، أول مركز أساسى لاجتماع الكويكرز ، وهو إلى يومنا هذا مزار يحج إليه الأصحاب

وليس علينا أن نتتبع قصة فوكس إلى أبعد من هذا . وكانت أساليبه فجة غير ناضجة ولكنه عوض بما تذرع به من صبر وجلد فى ملاقاة سلسلة الاعتقالات والصدمات العنيفة ، وهاجمه البيوريتانيون والمشيخيون والأنجليكانيون ، لأنه نبذ الأسرار المقدسة والكنائس والقساوسة . وأرسل الحكام الكويكرز إلى السجون ، لا لأنهم انتهكوا حرمة العبادات العامة وأغروا الجنود بالكف عن الاشتراك فى الحرب ، فحسب ، بل كذلك لأنهم رفضوا تأدية يمين الولاء للحكومة . واحتج الكويكرز بأن اليمين أيا كانت عمل غير أخلاقى ، ويكفى القول (بنعم) أو (لا) . وتعاطف كرومول مع الكويكرز ، واجتمع مع فوكس فى لقاء ودى (١٦٥٤) وقال له عند انصرافه : « تعال إلى ثانية أننا ، أنت وأنا ، لو اجتمعنا ساعة من نهار ، لاقترب الواحد منا من الآخر » (٦٢) . ، فى ١٦٥٧ أصدر (حامى الحمى) توجيهاته بالافراج عن المسجونين من الكويكرز ، كما أصدر تعليماته إلى القضاء بأن يعاملوا هؤلاء الوعاظ الذين لا كنائس لهم على أنهم (أشخاص واقعون تحت تأثير وهم شديد) (٦٣) .

إن أسوأ اضطهاد وأشده هو ما أصاب شيعة جيمس نايلر الذى بلغ به الإيمان بنظرية النور الباطن ، حد الاعتقاد أو الإدعاء بأنه هو المسيح مجسدا من جديد ، وأنبه فوكس على هذا ولكن بعض أتباعه المخلصين الغيورين عبدوه ، وأكدت إحدى النسوة أنه أعادها إلى الحياة بعد أن ظلت يومين فى عداد الموتى . وعندما ركب نايلر إلى بريستول ، ألقت

النسوة بأوشحتهن أمام جواده وأنشدن : « مقدس ، مقدس ، مقدس رب القربان المقدس » وقبض عليه بتهمة التجديف . ولما سألوه عن دعاواه أو الدعاوى التى نسبوها إليه ، لم يكن جوابه سوى جواب للمسيح « أنت قلت » وعرض البرلمان إذ ذاك ، وكان البيوريتانيون يسيطرون عليه لقضية نايلر (١٦٥٦) وظل أحد عشر يوما يناقش موضوع إعدامه . وسقط القرار بأغلبية ٩٦ ضد ٨٢ صوتا . ولكن سادت روح تنادى بحل وسط إنسانى فحكم عليه بأن يقف ساعتين كاملتين وعنقه فى آلة التعذيب (المشهرة) ، ويجلد ١٣٠ جلدة ، وتدمغ جبهته بالحرف الأول من لفظة مجدف (B فى الانجليزية) ، وأن يثقب لسانه بقضيب من الحديد المحمى ، واحتمل هذه الفظائع بشجاعة . وحياه أتباعه على أنه شهيد ؛ وقبلوا جراحه وامتصوها واحتجزوه وحيدا فى معتقل لا قلم ولا ورق ولا تدفئة ولا ضوء فيه ، وانهارت روحه المعنوية يوما بعد يوم ، فاعترف بأنه غرر به ، فأفرج عنه فى ١٦٥٩ ، وقضى نحبه فقيرا معدما فى ١٦٦٠ (٦٤) .

ولقد تميز الكويكرز بما بدا لبعض معاصريهم بأنه أشياء غريبة تثير المتاعب . إنهم لم يجيزوا أى أثر للزخرف والتبرج فى ملابسهم . وأبوا أن يخلعوا قبعاتهم لأى إنسان مهما كانت مكانته ، حتى فى الكنيسة أو القصر أو المحكمة . ولم يخاطبوا أى فرد بغير ضمير المفرد (أنت) بدلا من ضمير الجمع (أنتم) الذى يوحى أصلا بالتشريف والتكريم . ونبذوا الأسماء الوثنية لأيام الأسبوع وشهور السنة ، فكانوا يقولون على سبيل المثال : « اليوم الأول من الشهر السادس » وأقاموا الصلوات فى العراء أو بين الجدران بنفس السهولة واليسر وطيب النفس ، وكان كل فرد من المصلين يدعى ليخبر بما أوحى به إليه الروح القدس أن يقول ، ثم يروح الجميع بعد ذلك فى صمت رهيب يكلله الجلال والوقار ، وكأنما هذا الصمت عقار مهدىء مسكن بعد نوبة الحماس والغيرة — وهو صمت يعنى فى أساسه عندهم « إحساس بروح خيرة فى أعماقهم » . ورخص للنساء فى الصلاة

الزوجية فوق أى لوم أو أية شائبة . وحد من تكاثرهم ما تواضعوا عليه من الزواج بعضهم من بعض ، وعلى الرغم من ذلك بلغ عدد الكويكرز فى ١٦٦٠ فى انجلترا ستين ألف « صاحب » إذ ما اشتهروا به من أمانة وكياسة وجد وبعد عن الإسراف ، ارتفع بهم من المراتب الوضيعة التى ظهروا فيها أول ما ظهروا إلى الطبقات الوسطى التى ينتسب معظمهم الآن إليها .

٧ - الموت والضرائب

أن الطبقات الوسطى هى التى تمتعت بأعظم الازدهار، فى عهد كرومول. وفوق كل شيء انصرف التجار إلى التجارة الخارجية ، وضم البرلمان آنذاك أفرادا يمثلون للصالح الاقتصادية أو يمتلكونها . ومن أجلهم قضى قانون الملاحة الصادر فى ١٦٥١ بنقل الواردات من المستعمرات إلى بريطانيا على مراكب إنجليزية — ومن الواضح أن هذا إجراء موجه إلى الهولنديين . وراودت كرومول فى بعض الأحيان فكرة التحالف مع المقاطعات المتحدة ، ابتغاء حماية البروتستانتية وتعزيزها ، ولكن تجار لندن آثروا الربح على التقوى والورع . وسرعان ما وجد كرومول نفسه (١٦٥٢) متورطا فى الحرب الهولندية الأولى . وكانت النتائج مشجعة كما رأينا .

واستمرت حمى الإمبريالية بنمو البحرية . وأوحت ذكرى هوكنز ودريك إلى التجار وإلى كرومول نفسه بإمكان كسر شوكة الأسبان وسيطرتهم فى الأمريكتين ، واستيلاء انجلترا على تجارة الرقيق الرابحة وتوجيه المعادن النفيسة من الدنيا الجديدة إلى لندن ، وفوق ذلك كله ، كما أوضح كرومول ، فان غزو جزر الهند الغربية يمكن المبشرين والوعاظ الإنجليز من تحويل هذه الجزر من الكاثوليكية إلى البروتستانتية (٦٥) .

وفى ٥ أغسطس ١٦٥٤ بعث كرومول إلى فيليب الرابع ملك أسبانيا بتوكيدات الصداقة بينهما . وفى ٦ أكتوبر أرسل إلى البحر المتوسط أسطولا بقيادة بليك . وفى ديسمبر أتبعه بأسطول آخر تحت امرة وليم بن (والد أحـــد أعضاء الـكويكرز) وروبرت فينابل ، للاستيلاء على جزيرة هسبانيولا (احدى جزر الهند الغربية) من أسبانيا وأخفقت هذه المحاولة الأخيرة ، ولـكن بن استولى على جمايكا لانجلترا (١٦٥٥) .

وفى ٣٠ نوفمبر ١٦٥٥ وقع كرومول ومازاران « وكلاهما يخضع الدين للسياسة » تحالفا انجليزيا فرنسيا ضد أسبانيا . إن الحرب التى كانت أسبانيا قد استمرت تشنها على فرنسا بعد معاهدة وستفاليا ١٦٤٨ كانت قد شغلت هاتين الدولتين أيما شغل عن التدخل فى شأن كرومول واستيلائه على مقاليد الحـكم فى انجلترا ، أما الآن فإنها هيأت لسياسته الخارجية نجاحا رائعا ، وإن كان عارا . وتربص بليك لوقت غير قصير ، لأسطول الفضة القادم من أمريكا ، حتى عثر عليه فى ميناء سانتا كروز فى جزر كنارى ، ودمره عن آخره (٢٠ أبريل ١٦٥٧) . وأخذ الجنود الإنجليز زمام المبادرة فى هزيمة الجيش الأسبانى فى معركة تلال الدونز (بالقرب من دنـكرك) فى ٤ يونيه ١٦٥٨ . ولما انتهت الحرب بصلح البرانس (١٦٥٩) تخلت فرنسا عن دنـكرك لانجلترا ، وبدا كرومول وكأنه عوض عن فقدان مارى تيودور لثغر كاليه قبل ذلك بقرن من الزمان . أنه فـكر فى أن يضفى على اسم الإنجليز من العظمة ما كان للرومان من قبل ، وكان قاب قوسين أو أدنى من تحقيق هدفه ، فقد أصبح لانجلترا السيادة على البحار ، ومن ثم كانت المسألة مسألة وقت حتى تسيطر على أمريكا الشمالية ، وتمـد حكمها وسلطانها فى آسيا . ونظرت أوربا كلها بعين الفزع إلى البيوريتانى الذى كان يسبح الله ولـكنه ابتنى بحرية ، وألقى المواعظ ولـكنه كسب معركة ، والذى أسس الإمبراطورية البريطانية بالقوة العسكرية وهو يردد اسم المسيح . أن الرؤوس التى تملوها

التيجان ، والتى حسبته محدث نعمة دعيا مغرورا ، بدأت الآن تخطب وده وتلتمس التحالف معه دون أن تعير اللاهوت اهتماما .

ولكن جون ثورلو سكرتير مجلس الدولة أنذر كرومول بأنه كان من الخطأ أن يساعد فرنسا ضد أسبانيا ، لأن فرنسا آخذة فى الصعود على حين أن أسبانيا كانت آيلة للإضمحلال ، وأن سياسة انجلترا فى تدعيم توازن القوى فى القارة ، إن لم تتطلب مساعدة أسبانيا ، تقتضى يقينا عدم مساعدة فرنسا . والآن فى ١٦٥٩ كان لفرنسا السيادة فى البر ، وكان الطريق أمامها مفتوحا للتوسع فى الأراضى الوطيئة وفرانش كونتيه واللورين . وكم من رجل إنجليزى كان يجود بحياته لوقف أطماع لويس الرابع عشر العدوانية .

وفى نفس الوقت ازدهرت أحوال أمراء التجارة بسبب الحروب ، وأعيد فى ١٦٥٧ تنظيم شركة الهند الشرقية بوصفها مشروعا برأس مال مشترك ، « وأقرضت » كرومول ستين ألف جنيه ، حتى تتجنب تدقيق الحكومة فى خص شئونها(٦٦) . وكانت هذه الشركة الآن من أقوى العوامل فى اقتصاد انجلترا وفى سياستها . وواجهت الحكومة نفقات الحرب برفع الضرائب إلى حد لم تبلغه فى عهد شارل الأول وشارل الثانى . وباعت معظم أراضى التاج وأراضى الكنيسة الأنجليكانية ، وضياع كثير من الملكيين ، ونصف أراضى أيرلنده ، وبرغم ذلك كله بلغ متوسط العجز السنوى ٤٥٠ ألف جنيه بعد ١٦٥٤ . ولم ينتفع المواطن العادى إلا قليلا . وطرحت جانبا كل الأهداف التى ناضلت من أجلها الثورة الكبرى فيما بين ١٦٤٢ — ١٦٤٩ . ولم يقل فظاعة عن ذى قبل فرض الضرائب دون موافقة البرلمان ، والاعتقال غير القانونى ، والمحاكمة دون محلفين ، وبات حكم الجيش وحكم القوة دون تستر أشد ازعاجا وظلما عن ذى قبل ، مذ أضفوا عليه مسحة من الدين . وأضحى حكم كرومول بغيضا بغضا ليس له مثيل ، لا من قبل ، ولا من بعد(٦٧) » .

وكانت انجلترا ترقب موت حامى الحمى بصبر نافذ . وكم من مؤامرة دبرت لاغتياله ، وكان عليه دوما أن يأخذ حذره ، وزاد الآن عدد حرسه إلى ١٦٠ رجلا ، واستخدم ضابط متطرف سابق (برتبة مقدم) يدعى سكسبى Sexby ، أحد السفاحين لقتله . وكشفت المؤامرة (يناير ١٦٥٧) ، واعتقل السفاح ومات فى السجن . وفى شهر مايو نشر سكسبى كتيبا بعنوان « قتل ليس بقتل » ، كان دعوة صريحة للاطاحة برأس كرومول ، وعثر على سكسبى ومات هو أيضا فى السجن . ودبرت المؤامرات فى الجيش وفى دوائر الملكيين ، حيث ازداد أملهم بشكل جنونى فى عودة أسرة ستيوارت إلى الحكم . واعتنقت ابنة كرومول الكبرى ، زوجة اللواء المتطرف شارل فليتوود المبادىء الجمهورية ، ونعت على والدها دكتاتوريته(٦٨) .

وحطمت الهموم والمخاوف وفقدان الأهل والولد روح الرجل الحديدى . إنه مثل كثير ممن بلغوا ذروة السيطرة والسلطان ، استشعر الأسف أحيانا لأنه تخلى عن حياة الدعة والهدوء فى أيامه الأولى يوم كان من مالكى الأرض فى الريف . « إنى أقول ، وأشهد الله على ما أقول » لو أنى عشت فى ظل تعريشة ورعيت قطيعا من الغنم ، لكان خيرا من أن أتولى حكومة مثل هذه(٦٩) » وفى أغسطس ١٦٥٨ ماتت اليزابث أحب بناته إليه ، بعد مرض طويل أليم ، وبعد تشييع جنازتها بفترة وجيزة لزم كرومول فراشه وقد انتابه حمى متقطعة ، وربما أفاد الكينين فى شفائه ، ولكن طبيبه أبى أن يستخدمه لأنه علاج حديث أتى به الجزويت الوثنيون إلى أوربا(٧٠) . وبدا أن كرومول أبل من مرضه ، وتحدث فى جرأة وشجاعة إلى زوجته قائلا : « لاتظنى أنى سأفارق الحياة ، انى واثق من عكس هذا(٧١) » . وطلب إليه مجلسه أن يعين من يخلفه فأجاب « ريتشارد » أى ابنه الأكبر . وفى الثانى من سبتمبر أصيب بنكسة ، وأحس باقتراب

منيته . ودعا الله أن يغفر له خطاياه ويحفظ البيوريتانيين . وبعد ظهر اليوم التالى فارق الحياة . وكتب السكرتير ثورلو : « لقد صعد إلى السماء مضمخا بدموع شعبه ، على أجنحة صلوات القديسين ودعواتهم[٧٢] » ولما وصلت أنباء موت كرومول إلى أمستردام « أضيئت المدينة أيما اضاءة » وكأنما نطلقت من عقالها ، ومضى الأطفال فى القنوات هاتفين متهللين فرحا لموت الشيطان[٧٣] .

٨ — طريق العودة

١٦٥٨ — ١٦٦٠

لم يمتلك الشيطان نفس ريتشارد بن كرومول . كما أنه لم يكن لديه من الصلابة والإرادة الحديدية مايمكن أن يقيد به انجلترا فى الأغلال التى صنعتها القوة والتقوى . وكان ريتشارد يشارك أخته ، رقة العقل مما جعلهما ينظران فى فزع خفى إلى سياسة الدم والحديد التى انتهجها والدهما . لقد جثا ريتشارد من قبل على ركبتيه أمام أبيه ، ضارعا إليه أن يبقى على حياة شارل الأول . وطيلة عهد الجمهورية والحماية ، عاش فى هدوء وسلام فى الريف على الضيعة التى حصل عليها بالزواج ولم يكن به من طموح فى أن يصبح فى ٤ سبتمبر ١٦٥٨ ، بناء على وصية والده ، « حامى حمى » انجلترا ووصفته لوسى هتشنسون بأنه « وديع مهذب فاضل ، ولكنه فلاح بطبيعته ، ولم تكن تليق له العظمة[٧٤] » .

وأفلتت الآن ، فى جرأة أكثر ، كل العناصر التى كان أوليفر قد كبح جماحها ، عندما أدركت وهن نسيج ريتشارد . من ذلك أن الجيش الذى كره فيه خلفيته المدنية ، والذى رغب فى أن يحتفظ بالسلطة التى كانت على عهد والده عسكرية بشكل صريح ، تقول إن هذا الجيش التمس منه أن يتخلى عن إدارة الجيش إلى فليتوود ، فأبى ، ولكنه هدأ من روع زوج أخته

بتعيينه قائدا . ولما كانت الخزانة خاوية مثقلة بالديون ، فإنه دعا برلمانا اجتمع فى ٢٧ يناير ١٩٥٩ ، وراجت الشائعات بأنه يدبر عودة أسرة ستيوارث إلى العرش . فجاء ضباط الجيش تتبعهم زمر من الجنود إلى ريتشارد وطلبوا إليه فض البرلمان ، فأرسل إلى حرسه ليتولوا حمايته فتجاهلوا أوامره . واستسلم ريتشارد للقوة ووقع أمرا بحل البرلمان (٢٢ أبريل) ، وأصبح الآن تحت رحمة الجيش . ودعا الجمهوريون المتحمسون فى الجيش يتزعمهم اللواء جون لمبرت ، أعضاء البرلمان الطويل الباقين على قيد الحياة للاجتماع من جديد ، وممارسة السلطة التى كانت لهم ، كما كانت للبرلمان المبتور ، حتى مجيء كرومول ، وطرده إياهم بمعونة الجمهوريين المتحمسين فى الجيش ١٦٥٣ . والتأم عقد هذا البرلمان المبتور الجديد فى وستمنستر فى مايو ١٦٥٩ . ولكن ريتشارد الذى لقى من السياسة نصباً ، أرسل استقالته إلى هذا البرلمان فى ٢٥ مايو . واعتزل الحياة العامة ، وفى ١٦٦٠ آوى إلى فرنسا حيث عاش فى عزلة تحت اسم مستعار هو جون كلارك . وعاد إلى انجلترا فى ١٦٨٠ ، حيث وافته منيته فى ١٧١٢ وهو فى السادسة والثمانين من العمر .

وكتب أحد الملكيين فى ٣ يونية ١٦٥٩ يقول : « أن الفوضى كانت تعتبر كمالا ، إذا قيست إلى نظامنا الراهن وحكومتنا الحاضرة(٥) » واستمر الصراع على السلطة بين الجيش والبرلمان ، ولكن قطاعاته المقيمة فى اسكتلنده وايرلنده أيدت البرلمان . وكان ثمة حزب ملكى قوى فى البرلمان الذى كانت غالبيته من الجمهوريين . وفى ١٣ أكتوبر حشد لمبرت جنوده عند مدخل قصر وستمنستر وطرد البرلمان ، وأعلن أن الجيش سيتولى مقاليد الحكومة . وبدا أن تعاقب الأحداث التى بدأت بحركة برايد فى التطهير ، سوف تتكرر : مع كرومول آخر هو لمبرت .

وقال ملتون عن « انقلاب » لمبرت « أنه عمل أبعد ما يكون عن

الشرعية ، ومن أشدالأعمال خزيا وعارا٠٠٠٠إنى لأخشى أن أكون واحدا فى مجتمع همجى متبربر ٠٠٠ والا فكيف يجرؤ جيش مأجور أن يخضع لسلطانه هو السلطة العليا التى أقامته ، على هذا النحو(٧٦) «ولكن الشاعر كان عاجزا لاحول له ولا قوة . إن القوة الوحيدة فى بريطانيا ، التى كان فى مقدورها أن تقف فى وجه الدكتاتورية العسكرية هى جيش آخر ، أو العشرة آلاف جندى الذين خصصهم البرلمان من قبل للجنرال جورج مونك لإقرار سيادته فى اسكتلنده . ولسنا ندرى إذا كانت ثمة أطماع شخصية خفية وراء اعتزام مونك تحدى الجيش فى لندن ومقاومة اغتصابه السلطة. فأعلن مونك : « أن الضمير والشرف يقضيان على بأن أحرر انجلترا من حكومة السيف التى كبلتها فى أغلال العبودية التى لاتحتمل » . وأثار بيانه الحماسة والحمية فى عناصر مختلفة معارضة للحكم العسكرى . ورفض الأهالى دفع الضرائب وأعلن الجيش فى أيرلنده والأسطول وصبيان الحرفيين ، انضمامهم إلى البرلمان . ورفض صرافو لندن أن يدفعوا للقادة المغتصبين القروض التى اعتمدوا عليها فى دفع الرواتب للجند . وأحست الآن طبقات التجار والصناع الذين كانوا قد أقروا من قبل خلع شارل الأول ، أن الفوضى التى تنتشر ويتفاقم خطرها ، تهدد الحياة الاقتصادية فى انجلترا ، وبدأوا يعجبون ويتساءلون : هل من المستطاع استعادة الاستقرار السياسى أو الاقتصادى دون ملك ، تهدىء شرعية مركزة من روع الناس ، وتوفر الضرائب وتسكن العاصفة ؟ . وفى ٥ ديسمبر قاد مونك قواته إلى انجلترا . وأرسل قادة الجيش قوات لاعتراض طريقه ، ولكنها رفضت القتال ضد مونك ، وسلم الضباط المغتصبون بالهزيمة وأعادوا البرلمان ، واستسلموا له ، وصاروا تحت رحمته (١٤ ديسمبر) .

وكان عدد أعضاء البرلمان المنتصر ٣٦عضوا ، ولا يزال يميل إلى النظام الجمهورى . وكان من أول القرارات التى اتخذها ، قرار يتطلب من الأعضاء

الحاضرين وممن ينضمون إليهم فى المستقبل ، أن يتعهدوا بالتخلى عن أسرة ستيوارت . كما رفض هذا البرلمان عودة المشيخيين الذين بقوا على قيد الحياة من أعضاء البرلمان المبتور السابق ، على أساس أنهم يحبذون عودة شارل الثانى . وازدري الناس هـذا البرلمان على أنه مجرد أحياء لبركان مبتور لا يمثل انجلترا ، وعبروا عن مشاعر الاحتقار « بشواء ردف البقرة » على هيئة تمثال يلقى به فى النيران الكثيرة المشتعلة فى الهواء الطلق ، حتى بلغ عدد هذه الحرائق ٣١ فى شارع واحد فى لندن . وأما الجنرال مونك الذى كان جيشه قد وصل إلى لندن فى ٣ فبراير ١٦٦٠ فقد أنذر البرلمان القائم بأنه إذا لم يدع إلى انتخابات جديدة موسعة ، ويحل نفسه فى موعد غايته ٦ مايو ، فإنه — أى مونك — لن يتولى حمايته بعد ذلك . كما أشار على البرلمان بإعادة الأعضاء المشيخيين الذين سبق إبعادهم ، ففعل . وأعاد مجلس العموم الموسع (ازداد عـدد أعضائه) إقرار مذهب المشيخية (البرسبتريانز) فى انجلترا ، وأصدر الدعوة إلى انتخابات جديدة ، وأعلن حل نفسه . وعند ذلك كانت النهاية الرسمية الشرعية للبرلمان الطويل (١٦ مارس ١٦٦٠) .

وفى اليوم نفسه محا أحد العمال ، أو لطخ بالطلاء ، عبارات « أخرج أيها الطاغية ، هذا آخر ملك » التى كانت الجمهورية قد علقتها فى « بورصة لندن » . ثم ألقى العامل بقبعته وهتف « فليبارك الله الملك شارل الثانى » وعندئذ ، كما يروى ، « انضم كل من كان فى المكان يهتفون بأصوات مدوية(٧٨) » وفى اليوم التالى التقى مونك سرا برسول شارل ، سير جون جرينفل ، الذى أسرع فى الذهاب إلى بروكسل يحمل رسالة مونك إلى الملك غير ذى العرش .

٩ — ويعود الملك ١٦٦٠

منذ غادر شـــارل الثانى انجلترا فى ١٦٥٠ هاربا لاقى فى هربه عنتا ومشقة ، عاش متشرداً قلقاً فى القارة . واستقبلته أمه هنريتا ماريافى باريس ، ولـكن الفرنسيون كانوا قدأفقروها • وقضى شارل وحاشيته بعض الوقت فى أشـد العوز ، عالة على الإعانات ، حتى أن مستشاره المخلص ، فيما بعد ، ادوارد هايدكان يعيش على وجبة واحدة فىاليوم • أماشارل نفسه الذى لم يكن لديه مايسد الرمق فى البيت ، فـكان يتناول الطعام فى الحانات فى معظم الأحوال نسيئة ، على حساب تطلعاته . ولما عاد لويس الرابع عشر إلى أيام الوفرة والرخاء أجرى شارل معاشا سنوياً قـــدره ستة آلاف فرنك ، ومن ثم بدأ شارل يستمتع بحياة رغـدة طليقة إلى أبعد حد ، حتى يدخل السرور على قلب أمه •

وتعلم فى أيام باريس هذه كيف يحب أخته هنريتا آن أعمق حب وأخلصه وجهدت الأم والأخت كلتاهما فى ضمه إلى الـكاثوليكية ، كما أن الكاثوليك الانجليز المهاجرين إلى فرنسا لم يألوا جهداً فى تذكيره ، حتى لا ينسى ، مافعلوه من قبل لنصرة أبيه . ووعده مبعوثو المهاجرين المشيخيين بالمساعدة على عودته إذا ارتضى حماية مذهبهم . واستمع لـكلا الجانبين فى لطف وكياسة ، ولـكنه عبر عن تصميمه على التزام مذهب الـكنيسة الانجليكانية الذى قاسى أبوه من أجله ماقاسى (٧٩) ، وربما نزع به الجدل الذى حاصروه به ، إلى الشك فى الدين كله • ولـكن يبدو أن العبادة الـكاثوليكية التى رآها حوله فى فرنسا ، كان لهـا أثر قوى عليه ، وبات سراً مكتوما فى حاشيته الصغيرة أنه لو أطلقت يداه لانحاز إلى الـكنيسة الـكاثوليـكية (٨٠) وفى ١٦٥١ كتب إلى البابا انوسنت العاشر يعـده بأنه لو عاد إلى عرش انجلترا فلسوف يبطل كل القوانين التى صدرت ضد الـكاثوليك • ولم يجب البابا بشىء • ولـكن جماعة الجزويت أبلغوا شارل أن الفاتيكان لا يمـكن أن يؤيد أميراً هرطيقاً (٨١) •

وعندما شرع مازاران فى التفاوض لعقد تحالف مع كرومول أقنع شارل مستشاروه بمغادرة فرنسا . ووافق الكاردينال مازاران على الاستمرار فى صرف المعاش لشارل ، فانتقل إلى كولون ومنها إلى بروكسل . وهناك فى ٢٦ مارس ١٦٦٠ حمل إليه جرينفيل رسالة مونك : إذا وعد شارل بعفو عام ، باستثناء مالا يزيد عن أربعة أشخاص ، ومنح ، حرية الفكر ، وثبت الملاك الحاليين للممتلكات المصادرة ، فإن مونك يلتزم بمساعدته . وفى نفس الوقت ، حيث أن انجلترا مازالت فى حرب مع أسبانيا ، فيحسن بشارل أن يترك الأراضى الوطنيئة الأسبانية . فانتقل شارل إلى بريدا فى إقليم برامانت الهولندى ، وهناك فى ١٤ ابريل وقع اتفاقا قبل فيه شروط مونك من حيث المبدأ ، تاركا التفاصيل الدقيقة للبرلمان الجديد .

وجاءت الانتخابات بمجلس عموم ذى أغلبية ساحقة من الملكيين ، واتخذ اثنان وأربعون من صغار النبلاء مقاعدهم فى مجلس اللوردات الجديد وفى أول مايو تليت فى المجلسين كليهما الرسائل التى حملها جرينفيل من شارل وفى « إعلان بريدا » قدم الملك الشاب عفوا عاما فيما عدا الأفراد الذين يستثنيهم البرلمان فيما بعد » ، وترك للبرلمان تسوية موضوع الأملاك المصادرة ووعد « بألا يزعج شخصاً أو يستدعيه لمساءلته لخلاف فى الرأى فى أمور العقيدة ، وألا يعكر صفو الأمن فى المملكة » . ثم أضاف بياناً حكيما أعده له المستشار هايد :

> أنا نؤكد لكم ، تحت كلمتنا الملكية أن بعض أسلافنا كانوا يقدرون البرلمان أكثر مما نقدره نحن . وإنا لنؤمن بأن هذا كله جزء حيوى من دستور المملكة ، ضرورى لحكومتها ، إلى حد أننا ندرك تمام الإدراك أنه ليس ثمة شعب أو أمير يمكن أن يحيا حياة سعيدة إلى درجة مقبولة بدونه . ولسوف ننظر دوما إلى نصائحهم على أنها أفضل تراث منهم ، ولسوف نكون معتزين بمآثرهم مهتمين بالمحافظة

عليها وحمايتها ، قــدر اعتزازنا واهتمامنا بأقرب شيء إلى
أنفسنا ، وألزم شيء لصيانتنا والحفاظ علينا .

وسر البرلمان لهذا ، وفى ٨ مايو نادى بشارل الثانى ملـكا على انجلترا ، مؤرخا لقبه من يوم وفاة والده ، غير مستند فى ذلك إلى أى قرار برلمانى ، بل إلى حق المولد الوراثى . كما أقر إرسال مبلغ خمسين ألفاً من الجنيهات إلى شارل مع دعوته إلى القدوم فوراً لاعتلاء عرشه .

وابتهجت انجلترا كلها تقريبا بانتهاء عقــدين من السنين سادهما العنف ، بعودة النظام دون إراقة قطرة من الدماء . ودقت النواقيس فى طول البلاد وعرضها . وفى لنــدن جثا الناس فى الشوارع وشربوا نخب الملك (٨٢) . وهللت كل الرؤوس المتوجــة فى أوربا لانتصار الشرعية ، حتى المقاطعات المتحدة ، وهى جمهورية بشكل قوى ، كرمت شارل طوال رحلته من بريدا إلى لاهاى ، وقدمت له الجمعية التشريعية التى كانت قد تجاهلته حتى الآن ، مبلغ ثلاثين ألف جنيه لنفقاته ، عربونا للنيات الطيبة فى المستقبل . وجاء إلى لاهاى أسطول انجليزى ترفرف عليه الأعــلام مزدانة بالحروف الأولى من « الملك شارل » وحمله إلى انجلترا فى ٢٣ مايو .

وفى ٢٥ مايو وصل الأسطول إلى دوفر ، واحتشد على الشاطىء عشرون ألفا لاستقبال الملك . ولما اقتربت السفينة من الشاطىء سجد الجميع ، كما سجد الملك عنــدما وطئت قدماه الأرض ، شكرا لله . وكتب فولتير : « أنبأنى العجائز الذين كانوا هناك أن معظم العيون أغرورقت بالدموع » . وربما لم يحدث من قبل مشهد مؤثر إلى هذا الحد (٨٣) . وعلى طول الطريق الذى احتشدت فيه الجموع السعيدة على مسافات قريبة ، ركب شــــارل ومرافقوه ، تتبعهم مئات الناس ، إلى كنتربرى ، ثم روشستر ومنها إلى لندن . وهناك خرج (١٢٠ ألفا للترحيب به ، حتى الجيش الذى حارب ضده ، انضم الآن إلى قوات مونك ، فى هذا العرض . وانتظره أعضــاء مجلسى

البرلمـان فى قصر هو يتهول . وقال رئيس مجلس اللوردات : « أيها الملك المهيب ، أنت مناط رغبة ثلاث ممالك ، وقوة لمختلف طبقات الشعب وسند لها ، فى تخفيف الانفعالات والآلام ، وتسوية الخلافات .... واستعادة شرف هذه الأمم المنهار [٨٤] . » وتقبل شارل كل هـذه التحية والإطراء فى لطف وتملكه شعور خاص ، وعندما آوى إلى شىء من الراحة بعد أن أرهقه الانتصار ، قال لأحد أصدقائه : « لابد أنه كان من الخطأ أنى لم أحضر من قبل ، فإنى لم ألتق اليوم بفرد واحـــد لم يحتج بأنه كان دوما راغبا فى عودتى [٨٥] » .

الفصل الثامن

ملتون

١٦٠٨ — ١٦٧٤

١ — جون بنيان : ١٦٢٨ — ١٦٨٨

فى غمرة التحمس للدين والأخلاق لم يحس البيوريتانيون بالحاجة إلى أدب دنيوى . وكان فى انجيل الملك جيمس الأول (أى الذى ترجم إلى الإنجليزية فى عهده) زاد كاف لهم من الأدب . وبدا كل شىء فيما عداه ، تقريبا ، تافها أو خبيثا آثما . وفى ١٦٥٣ اقترح أحد أعضاء البرلمان ألا يدرس فى الجامعات سوى الأسفار المقدسة و « كتاب يوم وما يماثله[1] » . وقد يبدو هذا الأمر مزعجا محزنا ، ولكن يجدر أن نلاحظ أنه فى ذروة هيمنة البيوريتانيين (١٦٥٣) نشر سير توماس اركهارت ترجمته الرائعة لرابليه(*) ، مؤثرا الأدب الداعر المكشوف على الإيمان بالبعث والحساب . وفى العام نفسه أخرج إيزاك والتون كتابه صياد السمك المثالى Compleat Angler كشف فيه عما فى الماء من أسماك ، وحتى فى أيامنا هذه التى نقفز فيها قفزات حكيمة من نوع من السمك إلى آخر ، نجد هذا الكتاب ممتعا فى بساطته وعذوبة أسلوبه ، كما أنه يذكرنا بأنه على حين كانت انجلترا تمر بثورة لا تقل عنفا عن ثورة ١٧٨٩ ، فإن الناس كانوا يستطيعون أن يقصدوا فى هدوء إلى القنوات فى الريف ليصيدوا ويوقعوا فى شراكهم مخلوقا حذرا يقظا .

(*) الكتابان الأول والثانى ١٦٥٣ ، والثالث ١٦٦٣ . وأكمل بيير موتيه الترجمة فى ١٧٠٨ .

انحرف قليلا عن الطريق أيها العالم الجليل ، أعرج بنا عن الطريق قليلا حيث يمكن أن نجلس ونغنى عند هذا السياج من الشجيرات الغنية برحيق الأزهار ، حتى تفرغ هـــذه السحابة ماءها على الأرض التى تنبت الزرع[٢] » .

وحافظ أندرو مارفل على حياته بحكمة وتعقل ، طيلة التعديل المستمر فى الحكومات من يوم مولده فى ١٦٢١ إلى يوم وفاته فى ١٦٧٨ ، ورحب بعودة كرومول من أيرلنده فى قصيدة غنائية قوية عذبة ، ولكنه تجرأ فيها على التعاطف مع الملك القتيل شارل الأول : —

إنه لم يأت بأمر مبتذل أو دنىء ، فى هذا المنظر المشهود ، بل تفحص ببصره الحاد نصل البلطة ، كما أنه ما أهاب بالآلهة فى حنق بذىء لتدافع عن حقه اليائس ، ولكنه حنى رأسه الوسيم ، وكأنه يحنيه على الفراش[٣] .

وأصبح مارفل مساعدا لملتون فى وظيفة سكرتير لكرومول للغة اللاتينية . وانتخب عضوا فى برلمان ١٦٥٩ ، وساعد على انقاذ ملتون من انتقام الملكيين المنتصرين ، وعاش ١٨ عاما فى ظل الملكية العائدة ، واستنكر مباذلها وفسادها وعجزها ، فى قصائد هجاء أحجم فى حرص شديد عن نشرها .

وكتبت روائع جون بنيان ، مثلها فى ذلك مثل ملاحم ملتون ، بعد عودة الملكية . ولكن الرجلين كليهما تشكلا فى ظل النظام البيوريتانى . وهو يقول : « كان منبتى وضيعا حقيرا ، وكان بيت أبى من أحط البيوت مكانة ، وكان موضع أشد الازدراء من الأسرات ممن حولنا[٤] » . وكان أبوه (سمكريا) يصلح القدور والغلايات فى قرية الستو بالقرب من بدفورد . وحصل الوالد ، توماس بنيان ، من مهنته على ما يكفى لإرسال ابنه جون إلى مدرسة بدفورد حيث تعلم من القراءة والكتابة قدرا كافيا على الأقل « ليتفحص الأسفار المقدسة » ، ويكتب أشهر الكتب الإنجليزية .

وفى القرية اشتغل صبيا لوالده الذى لقنه تعليما شفويا بطريقة السؤال والجواب فى أمسيات أيام الأحد . وعن أولاد المدينة تعلم الكذب والتجديف فى الدين . وهو يؤكد لنا « أنه لم يضارعه إلا القليل فى هـذه الأفانين »(٥) . وأكثر من هذا أنه أدين بالرقص وممارسة الألعاب وتناول قدح من الجعة فى إحـدى الحانات . وكلها أمور يحاسب عليها البيوريتانيون الذين لم يكونوا قد استولوا بعد على مقاليد الأمور ، فى سني شبابه (١٦٢٨ — ١٦٤٨) . وهو يقول عن نفسه « كنت أتزعم أعمال الرذيلة والشر والفسوق(٦) » ومثل هـذه الاعترافات بالخطايا الجسيمة كانت أمرا شائعا مألوفا بين البيوريتانيين ، حيث عملوا على جذب أشد الانتباه إلى اصلاحهم الدينى ، وأظهروا قدرة الله على أن يهبهم نعمة الخلاص . ولما انتشرت التعاليم البيوريتانية من حوله ، أغض مضجعه وحد من نزعة الشر عنده ، تفكيره فى الموت وفى يوم الحساب وفى الجحيم . ورأى مرة فيما يرى النائم أن السماء كلها فوقه تضطرم بالنيران وأن الأرض تحته تزلزلت ، فنهض من نومه مذعورا ، وأزعج الأسرة بصرخاته : « يا إلهى ، أسألك الرحمة بى ، وقعت الواقعة ، ولم أعد نفسى ليوم الحساب(٧) » .

وفى سن السادسة عشرة سيق إلى جيش البرلمان حيث خدم لمدة ثلاثين شهرا فى الحرب الأهلية . وهو يقول عن فترة الجندية « لم أكف عن الخطيئة والإثم ، وإزداد تمردى على الله ، وعدم اكتراثى بالخلاص(٨) » . وبعد تسريحه من الجيش تزوج من فتاة يتيمة (١٦٤٨) كان كل صداقها اثنين من الكتب الدينية ، وذكرياتها التى لاتفتأ ترددها عن تقى أبيها وورعه . ومذ خلف جون أباه فى الحانوت ، فأنه استطاع أن يعولها « بالسمكرة » . وازدهرت أحواله ، وتردد على الكنيسة بانتظام ، وتخلى عن نزوات شبابه شيئا فشيئا . وكان يقرأ الكتاب المقدس كل يوم تقريبا ، حتى صارت لغته الإنجليزية البسيطة هى لغة بنيان نفسه . وتحدثت قرية الستو عنه على أنه مواطن نموذجى .

ولكن الشكوك اللاهوتية أرهقته ، كما يقول . ولم يكن على ثقة من أن رحمة الله قد وسعته ، وبدون هذه الرحمة سيلاقى أشد العذاب . وارتاب فى أن معظم أهل الستو وبدفورد سيكون مصيرهم بالفعل إلى نار الجحيم . وأزعجه تفكيره فى أن معتقداته المسيحية كانت مجرد حدث جغرافى . وتساءل فيما بينه وبين نفسه : « ماذا نقول إلا أن الأتراك لديهم كتاب مقدس عظيم ، مثل كتابنا ، يثبت أن رسولهم (محمداً) سوف يكون شفيعهم لهم ، كما يجب أن نثبت نحن أن المسيح مخلصنا (٩) ؟ » « لقد غرقت روحى فى بحرين من التجديف على الله والمسيح والأسفار المقدسة ... وثارت فى نفسى التساؤلات عن حقيقة وجود الله وابنه الوحيد الحبيب . وهل يوجد حقا إله أو مسيح ؟؟ . وهل كانت الأسفار المقدسة إلا خرافة أو قصة بارعة أكثر منها كلمة الله المقدسة الخالصة ؟ (١٠) وانتهى إلى أن هذه الشكوك أثارها شيطان يسكن بين جنبيه . « إنى لحظت الكلب والضفدعة وحسبت ما أعد الله لهما مما جعلهما فى حالة أفضل من حالى بكثير .. لأنهما ليس لهما نفس ترزح تحت وطأة عذاب النار أو الخطيئة ، كما هو محتمل أن تفعل نفسى (١١) » .

وبينما كان يوما فى طريقه إلى الريف مستغرقا فى التأمل فى شرور قلبه تذكر كلمات القديس بولس : « صنع السلام بما سفك من الدم على صليبه (١٢) »

« وقويت فى ذهنه فكرة أن المسيح مات من أجله ومن أجل الآخرين » ، حتى كنت مستعدا أن أغرق فى نشوة ... من الحبور والهدوء الحقيقيين (١٣) » . وانضم إلى كنيسة معمدانية (١٦٥٣) فى بدفورد ، وعمد ، وقضى عامين فى حياة تسودها السعادة والهدوء الروحيين ، وفى ١٦٥٥ انتقل إلى بدفود وعين شماسا فى هذه الكنيسة ، وفى ١٦٥٧ كلف بالوعظ ، وكان موضوعه هو رسالة لوثر : ما لم يؤمن المرء إيمانا راسخا بأنه قد تخلص من جنوحه إلى الإثم بالطبيعة ، بسبب موت المسيح بن الله ،

فإنه لا بد بصرف النظر عن فضائله — لاحق بالأكثرية العظمى من البشر الذين يحشرون فى نار جهنم . إن تضحية المسيح المقدسة بنفسه ، هى وحدها التى يمكن أن تعدل جسامة خطيئات الإنسان . وكان من رأيه أن يلقن الأطفال هذا الأمر فى وضوح تام : —

فى اعتقادى أن الناس يسلكون طريقا خاطئا فى تعليم أبنائهم العبادة ويبدو لى أنه من الأفضل أن ينبىء الناس أطفالهم ، فى وقت مبكر ، وقبل فوات الأوان ، أية مخلوقات بغيضة لعينة هم ، وكيف أنهم يبوؤون بغضب من الله ، بسبب الخطيئة الأولى الأصلية الفعلية ، كما يظهرونهم على طبيعة غضب الله ، وخلود البؤس والشقاء (١٤) .

ووسط هذه النصائح والتحذيرات ، ضمت مواعظ بنيان كثيراً من الآراء الحكيمة فى تنشئة الأطفال ومعاملة المستخدمين ، وكان مثل غيره من الوعاظ ، عرضة لتحديات الكويكرز ، الذين قالوا إنه ليست الأسفار المقدسة ، بل النور الداخلى هو الذى يهيىء المعرفة والخلاص . وفى ١٦٥٦ وضع كتابين هاجم فيهما الطائفة الجديدة المزعجة . فكان جوابهم أنهم اتهموه بأنه يسوعى ، قاطع طريق ، زان ساحر(١٥) . أما أسوأ الشدائد فقد حلت عليه بعودة الملكية ، فقد جدد القانون القديم الذى صدر فى عهد اليزابث والذى قضى بحضور كل الانجليز الصلوات الأنجليكانية دون غيرها ، وأذعن بنيان إلى حد إغلاق مكان اجتماعاته الخاص فى بدفورد ، والتقى بجمهور المصلين فى أماكن خفية وألقى عليهم مواعظه ، فاعتقل ، وعرض عليه إطلاق سراحه إذا وعد بألا يعظ علانية . فرفض وأودع سجن بدفورد (نوفمبر ١٦٦٠) ، وهناك قضى اثنى عشر عاما ، مع بعض فترات تمتع فيها بحرية محدودة . وتجدد فى أوقات متفرقة عرض الإفراج عنه ، بنفس الشروط ، مثيراً نفس الرد : « إذا أطلقتم سراحى اليوم فسأشرع فى الوعظ غداً (١٦) » .

وربما أصبحت حياة الأسرة عبئا ثقيلا ، لقد توفيت زوجته الأولى فى ١٦٥٨ تاركة له أربعة أطفال أحدهم أعمى ، وكانت الثانية حاملا . وعاون الجيران فى إقامة أود الأسرة ، وأسهم بنيان فى نفقاتها بصنع بعض المخرمات فى السجن وتدبير أمر بيعها ، وأجيز لزوجته وأولاده أن يزوروه كل يوم كما أجيز له أن يعظ رفاق السجن ، وأن يغادر السجن متى شاء ، حتى للسفر إلى لندن (١٧) . ولكنه استأنف الوعظ سرا فضيقوا عليه الخناق فى السجن . وفى المعتقل قرأ الكتاب المقدس المرة تلو المرة ، كما قرأ كتاب فوكس « سجل الشهداء » ، وأذكى حرارة الإيمان عنده بمحارق الأبطال البروتستانت ، ووجد متعة عظيمة فى رؤى سفر الرؤيا ، ولابد أنه كان مزوداً بالقلم والقرطاس ، لأنه فى السنوات الست الأولى من احتجازه كتب ست قطع دينية ، كما وضع مؤلفه المظيم « الرحمة تتسع لكبير الخطائين » . وهو سيرة حياته الروحية ، وهو رؤيا تكاد تكون مفزعة من رؤى العقل البيوريتانى .

وفى ١٦٦٦ . وفى ظل « الإعلان الأول للتسامح » الذى أصدره شارل الثانى ، أطلق سراح بنيان فعاود الوعظ فأعيد إلى السجن . وفى ١٦٧٢ أجاز « الإعلان الثانى للتسامح » الذى أصدره شارل الثانى ، للقساوسة المنشقين أن يلقوا المواعظ ، فأفرج عن بنيان ، وانتخب على الفور راعيا للكنيسة القديمة . وفى ١٦٧٣ أبطل العمل بإعلان التسامح ، وتجدد تحريم الوعظ على المنشقين ، فلم يمتثل بنيان له ، وأعيد إلى السجن (١٦٧٥) ، ولكن سرعان ما أخلى سبيله .

وفى هذه المرحلة الثالثة والأخيرة كتب بنيان الجزء الأول من « انطلاق الحجيج من هذه الدنيا إلى العالم الثانى » ، وقد نشر هذا الجزء فى ١٦٧٨ وأعقبه الجزء الثانى فى ١٦٨٤ . (فى مقدمة شعرية مضحكة رديئة غير معقولة زعم بنيان أنه كان قد وضع هذا الكتاب ملهاة وتسلية لنفسه دون أن يفكر فى نشره) وعرض القصة ، فى لطف ، فى صيغة وهم أو

خيال جامح .

« بينما كنت أضرب فى فيافى هــذا العالم ، جئت إلى مكان معين حيث كانت ثمة « خلوة » فتمددت فى هذا المكان لأنام ، وإذ غلبنى النعاس رأيت فيما يرى النائم حلما (١٨) » .

إن كريستيان استبد به فى هذه الرؤيا . التفكير فى أنه يجب عليه أن يتخلى عن كل شيء وينسى كل شيء ، وألا يلتمس سوى المسيح والجنة . فيهجر زوجته وأولاده ، ويبدأ رحلته إلى « المدينة السماوية » . ويلحق به « للوحى بالأمل Hopeful » الذى يعبر عن العقيــدة البيوريتانية فى إحكام بارع :

كنت يوما فى حزن شديد ، أحسب أنه أشد مالقيت فى حياتى . ونتج هذا الحزن عن رؤية صادقة لجسامة آثامى وفظاعتها . ولما كنت آنذاك لا أفكر فى شيء إلا الجحيم والعذاب المقيم . فإنى فجأة ، وأنا غارق فى التفكير ، رأيت يسوع المسيح ينظر إلى من علياء السماء ، قائلا : « آمن بيسوع المسيح وسيكتب لك الخلاص (١٩) » . ولكنى أجبته : إنى خطاء كبير خطاء كبير جداً ، فأجاب « رحمتى تتسع لك » ... وهنا غمرنى الفرح(٢٠)

وبعد شيء كثير من المحنة والنزاع يصل الحجيج إلى « المدينة السماوية » فندرك هذ الذى كانوا يأملون فيه فى حماسة بالغة :

ومن عجب أنهم حين دخلوا ، تغيرت هيئتهم وأحاطت بهم هالة من الجلال ، وارتدوا ملابس بدت وكأنها من ذهب . كما كان هناك من قابلهم بالقيثارات والتيجان وأعطاهم إياها — القيثارات — لترتيل آيات المدح والثناء والتيجان رمز للتكريم والتشريف ، وانظر ان « المدينة السماوية » يتألق نورها وكأنه ضياء الشمس ، والشوارع مكسوة أرضها بالذهب ، وفيها سار خلق كثير تعلو رؤوسهم التيجان ويمسكون بأغصان الغار فى أيديهم ، ومعهم قيثارات من الذهب ينشدون عليها ترانيم الثناء والشكر (٢١) .

أما « الجهل المسكين » الذى تبعهم ، متعثرا فى عرجه ، دون أن يتزود بالإيمان الصادق ، فإنه يأتى إلى أبواب « المدينة السماوية » ، ويطرقها ، فيسأل عن جواز مروره فلا يجده ، فيلقى به فى الجحيم(٢٢) — إن القصة تروى بشكل جذاب ، ولكننا نعطف أحيانا على « العنيد » الذى يقول عن المسيحى ورفاقه ، « هناك فئة من هؤلاء المخبولين المغرورين الذين ، حين يمسكون بطرف من الخيال ، يظنون أنهم أعقل حتى ممن يستطيعون تحكيم عقولهم(٢٣) » .

أن فكرة حج النفس من نطاق المغريات الدنيوية إلى نعيم الآخرة ، فكرة قديمة ، وتلك كانت صفتها المجازية فى العصور الوسطى ، ويحتمل أن بنيان كان قد قرأ بعضا من هذه الكتب(٢٤) . وجر النسيان ذيوله الآن عليها فى غمرة النجاح الخارق الذى لاقته القصة الجديدة ، حيث صدر منها تسع وخمسون طبعة فى المائة العام الأولى من ظهورها ، وبيع منها مائة ألف نسخة قبل وفاة بنيان . وبيع منها ملايين من النسخ منذ هذا الوقت ، وترجمت إلى ١٠٨ من لغات أمريكا البيوريتانية . وكانت تقتني فى كل بيت تقريبا . ودخلت منها إلى الحديث الدارج عبارات كثيرة — (سلبخ) التخلص من الجزع ، غرور الدنيا رجل الدنيا الحكيم . وفى القرن العشرين فقد الكتاب شعبيته بسرعة ، حيث لم يعد للخلق البيوريتانى وجود ، ولم يعد هناك ايمان بما جاء فى الكتب ولم يعد يقتنى ، ولكنه لايزال فيضا من اللغة الإنجليزية البسيطة العذبة الواضحة .

وضع بنيان نحو ستين كتابا ، وليس ثمة ما يدعو اليوم إلى قراءتها . وبعد إطلاق سراحه للمرة الأخيرة ١٦٧٥ أصبح واحداً من ألمع الوعاظ فى عصره ، والزعيم المعترف به لطائفة المعمدانيين فى انجلترا . وأبدى إعجابه بشارل الثانى . وأمر أتباعه بالولاء والإخلاص لملك أسرة ستيوارت بوصفه درع انجلترا وحاميها ضد البابا(٢٥) . وبعد انقضاء ثلاث سنوات على إعلان شارل الثانى اعتناقه الكثلكة وهو على فراش الموت ، أنهى

بنيان رسالته ، ومن الغريب أن نهايته كانت مثل نهاية لوثر . ذلك أنه حدث في ريدنج (مدينة في وسط انجلترا) نزاع باعد بين والد وولد كان بنيان حولها بهما ، فسافر إليهما على ظهر جواد من بدفورد • فأصلح بين الفريقين المتخاصمين ، ولكنه عندما قفل راجعا على ظهر جواده ، فاجأته العاصفة وبللته قبل أن يعثر على مأوى يعصمه منها ، وانتابته حمى لم يبل منها قط . ووري التراب في مقبرة للمنشقين في بنهل فيلدز (Bunhill Fields) حيث يرقد حتى اليوم مع شاهد حجري على قبره •

الشاعر الشاب ١٦٠٨ - ١٦٤٠

كان جد ملتون كاثوليكيا حكم عليه في ١٦٠١ بدفع غرامة قدرها ستون جنيها لتغيبه عن الصلوات الأنجليكانية ، وحرم ابنه من الميراث لأنه تخلى عن الكنيسة الرومانية . أما جون ملتون ، الذي تبرأوا منه وأنكروه فقد حصل على قدر لا بأس به من المال بوصفه كاتبا عموميا في لندن ، صاحب قلم برع في كتابة أو نسخ المخطوطات والوثائق والمستندات القانونية • وأولع بالموسيقى ، ونظم القصائد الغزلية القصيرة ، واحتفظ في داره بكثير من الآلات الموسيقية ومن بينها أرغن ، وانتقل هذا الانعطاف نحو الموسيقى إلى الشاعر الذي ربما أقر بأن المرء لكي يجيد الكتابة ، لابد أن تتغلغل الموسيقى في نفسه ، وأن تكون له أذن موسيقية واعية • أما الأم ، ساره جفري ، فكانت ابنة خياط تاجر ، أنجبت لزوجها ستة أبناء كان صاحبنا جون ثالثهم • أما أخوه الأصغر فأصبح ملكيا يدين بالولاء لأسرة ستيوارث ، وواحدا من رجال الكنيسة التقليدية . على حين أن جون أصبح جمهوريا بيوريتانيا من أنصار كرومول . وكان البيت في « برد ستريت » مؤسسة بيوريتانية تقية مخلصة ، ولكن غير متزمتة ، فان حب الجمال الذي ساد عصر النهضة ، امتزج هنا بالنزوع إلى الخير والفضيلة ، الذي أتى به الإصلاح الديني .

واشترى جون الأكبر عقارا ، وأثرى، واستخدم معلمين (بيوريتانيين) من أجل جون الأصغر ، وأرسله في سن الحادية عشر إلى مدرسة سانت بول . وهناك تعــلم الصبي اللاتينية واليونانية والفرنسية والإيطالية وبعض العبرية ، وقرأ شكسبير ولكنه آثر عليه سبنسر . وأنا لاحظ ، مابرين ، أنه تأثر كثيرا بالترجمة الإنجليزية لكتاب « الأسبوع » لمؤلفه دي بارتاس (١٥٧٨)، وهو عبارة عن ملحمة تصف خلق الدنيا في سبعة أيام :

كان بي نهم شديد إلى العلم والمعرفة ، إلى حد أني ، منذ بلغت الثانية عشرة كدت لا أترك الكتاب أبداً ، ولا آوى إلى النوم قبل منتصف الليل . وهذا أدى في الأساس إلى فقد بصرى . وكانت عيناى (مثل عيني أمه) ضعيفتين بطبيعتهما ، وكنت عرضة للإصابة بالصداع كثيرا ، ولكن هذا على أية حال لم ينقص من حبي للاطلاع ، ولم يعوق تقدمي في التحصيل(٢٦) .

وفي سن السادسة عشرة انتقل إلى كريست كولدج في كمبردج . وهناك أدى نزاعه مع أحد المدرسين إلى التضارب والتلاكم بالأيدي . وأحس صمويل جونسون « بالخجل حين أروى ما أخشى أن يكون حقيقة ، وهي أن ملتون كان من أواخر من وقعت عليهم العقوبة البدنية من طلبة الجامعتين كلتيهما »(٢٧) . وطرد لمـــدة فصل دراسي واحد ثم سمح له بالعودة ، وكان بالفعل ينظم شعرا جيدا . وفي ١٦٢٩ ، وهو في الحادية والعشرين ، نظم قصيدة غنائية رائعة في الاحتفال « بصبيحة عيد الميلاد » . وبعد ذلك بعام واحد ، نظم قصيدة من ستة عشر بيتا ، احياء لذكرى شكسبير ولتنقش على قبره ، وقد ووفق بعد ذلك على نشرها في الطبعة الثانية لأعمال شكسبير :—

ماحاجة شكسبير العزيز إلى جهد جيل في إقامة أحجار مكومة لعظامه المكرمة ، أو لإخفاء رفاته المقدسة تحت هرم يشير إلى النجوم ؟

أيها العزيز الذي لا يغيب عن الذاكرة ، أيها العظيم سليل الشهرة ، ماذا

يريد من شاهد هزيل على اسماك الرنان(*) .

وقضى ملتون فى كمبردج ثمان سنوات، وحصل على درجة البكالوريوس فى ١٦٢٨ ، والماجستير فى ١٦٣٢ . ثم تركها دون أن يحس بالولع المعهود فى المتخرجين بحضور يوم الكلية التى تخرجوا فيها . وكان أبوه يتوقع أن ينخرط فى سلك الخدمة الكهنوتية . ولكن الشاب المغرور أبى أن يقسم يمين الولاء المذهب الأنجليكانى وطقوسه الدينية : —

ومذ رأيت كيف غزا الطغيان الكنيسة — بمعنى أن الذى يرسم قسيسا يجب أن يتعهد بأن يكون عبدا رقيقا ، وفوق ذلك يقسم اليمين الذى لو لم يلتزم به إلتزاما يبعث على الضجر فإنه أما أن يحنث فى يمينه أو يرائى فى إيمانه — فأنى وجدت من الأفضل ايثار الصمت البرىء أمام الوظيفة المقدسة ، وظيفة الكلام والوعظ ، التى تشترى بالعبودية والقسم الكاذب(٢٩) .

وآوى ملتون إلى بيت والده الريفى فى هورتون بالقرب من وندسور ، ومن الواضح أن والده تولى الانفاق عليه هناك ، وتابع هو دراساته القديمة بصفة أساسية ، إلى أن ألم حتى بأصغر المؤلفين اللاتينيين شأنا . وكتب قصائد باللغة اللاتينية ، أثنى عليها كاردينال كاثوليكى . وسرعان ماجعل دفاعه باللاتينية عن سياسة كرومول يرن صداه فى أنحاء أوربا . وحتى حين كتب نثرا بالإنجليزية ، فأنه كتب باللاتينية حيث كان يخضع الإنجليزية لتقديم وتأخير وتعقيدات والتواءات كلاسيكية ، ولكنه كان يكتب فى لغة غريبة ساحرة رنانة .

ويحتمل أنه فى هورتون وسط الحقول المورقة والخضرة فى الريف الإنجليزى ، كتب القطع المزدوجة ، التى خلدت ذكرى الابتهاج الخالى من

(*) يؤسفنا أن نضيف أنه لما وكل إلى ملتون مهمة الدفاع عن اعدام شارل الأول ، ذكر من بين المساوىء التى تلطخ ذكرى هذا الملك اعتزازه وولعه بشكسبير(٢٨) .

الهم ، ونوبات الكـآبة فى شبابه العابر ، سواء بسواء . إن كل سطر من « Allegro » يطالب بأن يتغنى به الناس . و « اللجرو » هى « الإبنة الجميلة ، الممتلئة الجسم ، المرحة اللطيفة ، المولودة من « زفير » الريح الغربية العليلة وهى تداعب أورورا الفجر » أن كل شىء فى مشهد الريف يدخل الآن البهجة على قلب الشاعر : القنبرة تشق سكون الليل ، الديك يختال فى مشيته أمام دجاجاته ، الـكلاب تقفز عند سماعها بوق الصياد ، شروق الشمس « فى أشعة وضاءة فى لون الـكهرمان » (أصفر ضارب للحمرة) ؛ بائعة اللبن التى تغنى والقطعان التى تلوك غذاءها ، ورقص الشبان والشابات على الحشائش ، والأمسيات بجوار المدفأة أو فى المسرح :

إذا مثل بن جونسون احدى تمثيلياته الراقية أو صدح شكسبير الشاعر العذب القوى الخيال بألحان الغابة الشعبية الفطرية الموسيقى .

وتفك الأغلال التى تقيد روح التآلف والانسجام الخفية ، إنك إذا استطعت أيها المرح أن توفر لى هـذه المباهج كلها ، فإنى أود أن أحيا معك .

وحتى الآن لم يـكن ثمة بيوريتانى متجهم عبوس مكتئب ، بل شاب إنجليزى مفعم بالصحة يجرى فى عروقه بعض دم شعراء عصر اليزابث .

ولـكن طرأ بين الحين والحين مزاج آخر ، حتى بدت هذه المسرات تافهة للعقل المفـكر ، حين يتذكر المأساة (التراجيديا) ، ويفتش عن مغزى ، ولا يجد فى الفلسفة إجابات ، بل تساؤلات لم يحس بها من قبل . عندئذ يأتى « Penseroso » المفـكر : يسير دون أن يراه أحد :

حيث يرى القمر المتجول ، راكبا قرب الظهيرة ، وكأنه رجل ضل الطريق ، عبر السموات المترامية الأرجاء الخالية من المسالك .

أو يجلس وحيدا إلى جانب المدفأة :

حيث الجمرات المتوهجة فى الغرفة تعلم الضوء كيف يـكتسى بالظلمة بعيدا عن أى مصدر للابتهاج والفرح ، اللهم إلا صرار الليل على الموقد .

أو أنه قابع « فى برج عال منعزل » ، تغلبت عليه النجوم ، يقلب صفحات أفلاطون ، ويتساءل أين المساء .

أية عوالم وأية أقطار شاسعة تتسع لهذا العقل الخالد الذى تخلى عن قصره فى زاوية من جسده .

أو هو يتذكر مآسى العشاق والميتات الحزينة للملوك . وخير من هذه الفلسفة الصارمة هناك « صحن الدير الذى يعج بالجهد والجد فى العمل والدرس » فى الكاتدرائية الكبرى ، ونوافذها التى تروى مشاهد التاريخ وضوئها المظلل :

فليعزف الأرغن المجلجل ، للمرتلين ذوى الأصوات الممتلئة أدناه ، فى أصوات عالية وترنيمات صافية ، فلربما غمرتنى عذوبة الأنغام فى أذنى بنشوة ، وأبرزت كل السموات أمام ناظرى » .

تلك هى المتعة والمسرات التى يجدها « الرجل المفكر » ، وإذا بدت مرتبطة بالكآبة ، فان الشاعر سيقضى حياته مع الكآبة . فى هاتين القصيدتين البهيجتين ، يكشف ملتون عن ذاته وهو فى الرابعة والعشرين ، شابا تتحرك مشاعره لكل مافى الحياة من جمال ، ولايجد حرجا فى المسرات والملذات ، كما وجد التفكير المحير فى الحياة والموت طريقه إلى نفسه فتأثر به ، كما أحس بالصراع بين الدين والفلسفة يحتدم بين جوانحه .

وحانت أول فرصة ليبرز فيها الشاعر ويذيع صيته فى ١٦٣٤ حين كلف بكتابة مسرحية ريفية يمثلها ممثلون مقنعون فى الاحتفالات بتولية ارل رد جوروتر رئيسا « لمجلس الغرب » . ولحن هنرى لاوس الموسيقى التصويرية . أما شعر ملتون فكان مجهولا اسم مؤلفه تواضعا . وكان موضع ثناء واطراء ، إلى حد أنه حمل على الاعتراف بأنه مؤلفه . واطراه سير هنرى وتون قائلا : فى أغانيك وقصائدك رقة دورية (نسبة إلى الدوريين الذين غزوا بلاد الأغريق فى القرن ١٢ ق . م) لم أر لها مثيلا فى لغتنا حتى اليوم(٣٠)

« وكان عنوان القطعة فى الأصل » مسرحية فى قصر لدلو (فى شروبشير)» أما اليوم فهى تسمى « كومس Comus » (المسرحية) وقد مثلها اثنان من صغار النبلاء مع شقيقتهما ، وكانت فتاة فى ربيعها السابع عشر ، من وصيفات الملكة هنريتا ماريا . وعلى الرغم من أن معظم المسرحية كان شعرا مرسلا غير مقفى ، محشوا بالأساطير ، فقد كانت زاخرة بالغناء العاطفى المرح والأناقة الرائعة الشجية : وتميزت ببراعة لم تتكرر فى شعر ملتون فيما بعد وكانت الفكرة الرئيسية فكرة تقليدية : عذراء فاتنة ، تتجول فى الغابات على غير هدى ، وهى تشدو : « بأغنيات ربما خلقت نفسا من تحت براثن الموت » .

ويدنو منها الساحر « كومس » ويقرأ عليها تعويذة حتى تتخلى عن عفتها ، ويتوسل إليها أن تلهو معه ، وقد تألقت نضارة وشبابا ، فتدافع الفتاة ، فى فصاحة بالغة عن الفضيلة وضبط النفس و « الفلسفة السماويه » ، وجرت كل الأبيات على خير وجه . فيما عدا قطعة ربما كانت مشئومة ، أشارت إلى « الجمهورية » ، كان من المحتمل أن تؤدى بهذا الجمع الحاشد المسرف النفور والاستياء :

إذا كان لكل رجل منصف ، يصيبه الآن الهزال والنحول تحت وطأة العوز قدر متواضع يليق به ، من هذا الترف الفاجر الذى تنعم به الآن فئة قليلة فى إسراف بالغ ، لتوزعت كل خيرات الطبيعة توزيعا عادلا فى أنصبة متساوية غير زائدة عن الحاجة ، ولما اختزنت الطبيعة مثقال ذرة هذه الخيرات(٣١) .

وفى ١٦٣٧ اعتل مزاج الشاعر وتكدر صفو حياته بغرق صديقه الشاب ورفيقه الشاعر إدوارد كنج . وأسهم ملتون فى كتاب تذكارى عن كنج ، بقصيدة رثاء « ليسيداس Lycidas » منظومة فى شكل رعوى مصطنع محشوة بالآلهة الموتى ، ولكنها غنية بالأبيات التى لا تزال تحلق فيها الذكرى الحبيبة .

وا أسفاه ماذا يحملنا على أن نرهق أنفسنا بهذا الهم المقيم ، فى النهوض بصنعة الراعى (نظم الشعر) البسيطة المحتقرة ، ولنتأمل بكل ما أوتينا من قوة فى ربة الشعر الجحود ؟ . أما كان من الخير ، كما يفعل الآخرون ، أن يلهو ويلعب مع الراعية أما ريلاس فى الظل ، أو يعبث بخصلات شعر « نيرا » . أن الشهرة هى الحافز الذى يثير الروح الصافية وهى آخر الوهن فى العقل الرفيع) ، ليزدرى بالمباهج ، ويكد ويشقى طوال أيامه . ولكن حين نأمل فى الحصول على الجزاء الوفاق . ونفكر فى الانطلاق إلى الوهج الخاطف تأتى « الروح العمياء » (ملك الموت) بآلاتها البغيضة ، لتقضى على الحياة الواهنه الخيوط .

ويبدو أن جون ملتون الأكبر (الوالد) أحس بأن ست سنوات من الإنصراف إلى العمل فى روية وأناة فى هورتون كانت جزاء وفاقا للموهبة التى أبدعت مثل هذه القطع الغنائية . وليكمل حسن صنيعه أرسل ابنه ليتجول فى أنحاء القارة مع دفع كل النفقات . وغادر ملتون انجلترا فى أبريل ١٦٣٢ يرافقه خادم . وقضى بضعة أيام فى باريس (وكانت آنذاك تحت قبضة ريشليو العسكرية) ، وأسرع إلى إيطاليا ، حيث أقام شهرين فى فلورنسة ، زار خلالها جاليليو الكفيف نصف السجين ، والتقى برجال الأدب ، وجاس إلى الجامعيين ، وتبادل معهم التحية فى شعر باللاتينية ، ونظم بالإيطالية قصائد السونيت ، وكأنه نشأ وترعرع على ضفاف نهر أرنوا أو نهر بو . وفى نابلى استقبله ورحب به وكرمه نفس المركيز مانسو الذى صادق وناصر تاسو ومارينى من قبل وقضى فى رومه أربعة أشهر ألتقى فيها ببعض الكاردينالات المثقفين وأحبهم ، ولكنه أعلن بصراحة مذهبه البروتستانتى . ثم عاد إلى إلى فلورنسة ، ثم قصد إلى البندقية عبر بولونيا وفيرارا ، ثم ذهب إلى فينيس عبورا بمدينة فيرونا وميلان ثم قفل راجعا إلى لندن مرورا بجنيف وليون وباريس (أغسطس ١٦٣٩) .

وفى كتاباته الأخيرة دون قطعتين مشهورتين عن رحلته فى إيطاليا .

وكتب ردا على تعريض أحد الخصوم به : « أشهد الله أنه فى كل تلك الأماكن التى لاتلقى فيها الرذيلة إلا أيسر الاستنكار والتثبيط ، وترتكب فى أقل خجل وأيسره ، لم أحد أنا قط عن جادة الفضيلة والنزاهة[٣٢] » . ويتذكر كيف امتدح النقاد الايطاليون شعره :

وهكذا بدأت أوافق كل الموافقة على ماذكره هؤلاء النقاد الايطاليون أو يقول نفر من أصدقائى هنا فى بلدى ، كما استمع بنفس القوة إلى استحثاث داخلى ينمو بين جوانحى كل يوم ، من أنه بالعمل الجاد والانكباب على الدرس (وهذا ما اعتبره قدرى فى هذه الحياة) بالاضافة إلى الميل الطبيعى ، بهذا كله يمكن أن أخلف شيئا مكتوبا للأجيال القادمة . قد لايرتضون أن يفنى (بل يبقى ويخلد على الزمن)[٣٣] .

ويبدأ ملتون الآن يخطط للملحمة تخلد ذكر وطنه وعقيدته ، وتخلد اسمه على مر القرون . وكان لزاما أن تمضى الآن عشرون سنة قبل أن يتمكن من البدء فيها ، وتسع وعشرون سنة قبل أن يتمكن من نشرها . وفيما بين فترتى نظمه الشعر : الفترة الأولى (١٦٣٠ - ١٦٤٠) والثانية (١٦٥٨-١٦٦٨) ، لعب دورا فى الثورة الكبرى ، وسخر قلمه للحرب والنشر .

٣ — المصلح : ١٦٤٠ — ١٦٤٢

فى ١٦٣٩ استأجر ملتون مسكنا لرجل أعزب فى « سانت بريد تشير شيارد » فى لندن ، حيث تولى التدريس لأبناء أخته . وبعد سنة واحدة انتقل معهم إلى أولد رزجيت ستريت » ، وهناك (١٦٤٣) استقبل عددا آخر من التلاميذ بين سن العاشرة إلى سن السادسة عشرة آواهم وعلمهم ، وحصل من ذلك على دخل متواضع يكمل به المبلغ الذى خصصه له والده .

وفى كتاب إلى « مستر هارتلب (١٦٤٤) صاغ ملتون آراءه فى التعليم . فأتى لهذه اللفظة بتعريف قوى رائع : « أقول أن التعليم التام الواسع هو الذى يعد الانسان لينهض ، بحق ومهارة ورحابة صدر ، بكل مهامه الخاصة

والعامة ، فى السلم والحرب ، سواء بسواء[٣٤] » وأول واجب على المعلم هو أن يغرس الخلق القويم فى نفس التلميذ ، « ويصلح ما أفسده آباؤنا الأولون » — أى أن يقهر نزعة الشر الطبيعية فى الانسان (الخطيئة الأولى) — أو (كما يجدر بنا أن نذكر الآن) أن يعيد تكييف الخلق القومى الذى سبق تشكيله وفقا لحاجات مرحلة الصيد ، نقول تكييفه تبعا لمتطلبات حياة المدنية الحالية » . وأحس ملتون أن هذا يمكن تحقيقه على خير وجه بأن نغرس فى الذهن الناشىء إيمانا قويا بإله واحد بصير ، وأن نعوده على ضبط النفس وفقا لنظام رواقى (التحرر من الانفعال ، عدم التأثر بالفرح أو الترح ، الخضوع دون تذمر لحكم الضرورة) وضرب لتلاميذه مثلا يحتذونه : « الدراسة الشاقة والطعام اليسير » . فقلما أجاز لنفسه يوما « للهو والمتعة[٣٥] وبعد الدين والأخلاق ، يجب أن تأتى الدراسات اللاتينية والأغريقية القديمة ، والتى لم يستخدمها ملتون مجرد نماذج للأدب ، بل وسائل لدراسة العلوم الطبيعية والجغرافيا والتاريخ والقانون والأخلاق والفسيولوجيا والطب والزراعة وهندسة العمارة ، والخطابة والشعر والفلسفة واللاهوت . وإذا كان هذا التوفيق الفريد بين العلم والانسانيات قد أفترض أن النزر اليسير قد أضيف ألى العلم منذ سقوط رومه ، فيجب أن نلاحظ أن هذا حقيقى فعلا ، اللهم إلا بالنسبة لجاليليو ، بل أن كوبر نيكس نفسه كان له سلفه الأغريقى فى شخص أرستار خوس . وفوق ذلك ، اقترح ملتون تعريف تلاميذه كذلك ببعض النصوص الحديثة فى العلوم والتاريخ ، بل حتى ببعض النماذج الحية فى الفنون العملية ، وكان يأمل فى أن يستقدم إلى حجرات الدراسة صيادين وبحارين وبستانيين ومشتغلين بالتشريح وصيدلين ومهندسين ومعماريين ، لينقلوا إلى التلاميذ أحدث ألوان المعرفة فى هذه المجالات[٣٦] وخصص وقتا كافيا للموسيقى والتمثيل ، وساعة ونصف الساعة يوميا للرياضة البدنية والتدريب العسكرى . ويمكن أن يطوف طلابه أرجاء البلاد فى جماعات على صهوات الجياد ، يرافقهم أدلاء معروفون

بالرزانة والحصافة ، ليتعلموا و يلاحظوا ، « أو » يلتحقون بالبحرية بعض الوقت ليتعلموا الملاحة ومصارعة البحر ، وأخيراً وبعد بلوغهم سن الثالثة والعشرين ، يمكنهم أن يسيحوا خارج انجلترا . وهذا برنامج شاق ، ليس لدينا دليل على تطبيقه تطبيقاً كاملا فى مدرسة ملتون ، وربما كان فى حيز الامكان تطبيقه لو أن التلاميذ اقتبسوا من معلمهم شيئاً من غيرته وجده .

وراوده أحياناً حلم إنشاء أكاديمية تنافس أكاديمية أفلاطون وأرسطو . ولكنه افتتن بأحداث العصر البارزة وانشغل بها . من ذلك أن التئام البرلمان الطويل (١٦٤٠) كان نقطة تحول فى حياته ، بل يكاد يكون تحولا عنيفاً غير طبيعى عن الشعر والتعليم إلى السياسة والاصلاح . وفى ١١ ديسمبر قدم حزب « الجذر والفرع » البيوريتانى الذى انتسب إليه بعض أصدقائه قدم إلى البرلمان عريضة صارخة ممهورة بخمسة عشر ألف توقيع (يحتمل أن يكون من بينهم ملتون) يلتمسون فيها اقصاء الأساقفة عن الكنيسة الانجليزية . ورد جوزيف هول أسقف اكستر على العريضة « باحتجاج متواضع إلى المحكمة العليا فى البرلمان » (يناير ١٦٤١) ، دافع فيه عن النظام الأسقفى بأنه مأخوذ عن « عصر الرسل الأبرار بلا انقطاع ... حتى العصر الحاضر(٣٨) » فاستل خمسة من الكهنة المشيخيين أقلامهم فى « الرد على الاحتجاج المتواضع » (مارس ١٦٤١) وقعوه باسم مستعار مكون من الأحرف الأولى من أسمائهم (*) . ورد الأسقف هول وبعض الأسقفيين الآخرين ، وأقر مجلس العموم الاقتراح ، ورفضه اللوردات . واشتد الجدل على المنابر وفى الصحف وفى البرلمان ، وانضم ملتون إلى المعمعة بكتيب من تسعين صفحة « إصلاح عن نظام الكنيسة فى انجلترا (يونية ١٦٤١) .

وفى عبارات قوية لاهثة ، استوعب بعضها نصف صفحة ، عزا ملتون تدهور الكنيسة الرسمية إلى سببين : الابقاء على الطقوس الكاثوليكية ،

(*) هم ستيفن مارشال ، ادموند كالامى ، توماس ينج ، ماثيو نيوكومن ، وليم سبرستو .

واحتكار الأساقفة لسلطة تعيين القساوسة . وهزأ ملتون « بهذه الطقوس الفارغة التي لا معنى لها ، والتي تحتفظ بها الكنيسة لمجرد أنها علامة خطيرة للإنزلاق نحو رومه ، والتي لا تستخدم إلا كمجرد مسرحية تعرض أبهة الأساقفة(٣٩) » . إن الأساقفة — كانوا يتسللون خلسة إلى الكاثوليكية في طقوسهم — وتلك طعنة صريحة لرئيس الأساقفة لود الذي كان قد قدمت له قبعة الكاردينالية . وأنكر ملتون مازعمه جيمس الأول وشارل الأول من أن الأساقفة ضرورة لازمـــة لحكومة الكنيسة وللنظم الملكية . وأهاب بالاسكتلنديين المشيخيين أن يواصلوا حربهم القديمة ضد النظام الأسقفي ، وتضرع إلى الثالوث الأقدس أن يرعى المصلحة العامة :

يا الهي : أول عنايتك لكنيستك البائسة التي كادت تنهار وتلفظ أنفاسها الأخيرة ، لا تتركها هكذا فريسة لتلك الذئاب للزعجة التي تتربص وتفكر طويلا لتلتهم قطيعك الوديع ، تلك الخنازير البرية التي سطت على كرمتك ، وتركت بصمات حوافرها المدنسة على نفوس عبادك . لا تدعهم ينفذون خططهم اللعينة التي تقف الآن على مدخل الهاوية غير ذات القرار ، مترقبة أن يفتح الحارس ويطلق الجراد والعقارب الفتاكة ، لتحتوينا في ظلام جهنم الدامس ، حيث لن تشرق علينا بعده شمس حقيقتك ، ولن نعود نأمل في بزوغ الفجر البهيج ، أو نسمع زقزقة العصافير في الصباح(٤٠) .

واختتم هذه العبارة بإلقاء جماعة الطقوس التقليدية في الجحيم :

ولكن أولئك الذين يتوقون إلى مناصب الحكم الرفيعة والارتقاء هنا في هذه الدنيا ، على حساب إفساد عقيدتهم الحقة والانتقاص منها ، وعلى حساب كروب بلدهم واستعباده ، لابد أنهم ، بعد خاتمة مزرية في هذه الحياة (التي وهبهم الله إياها) ، سيلقى بهم في الدرك الأسفل من النار ، وهناك يتلقاهم من سبقهم من المحكوم عليهم بالهلاك الأبدي ، فيتحكمون فيهم في حقد وحسد ، ويطأونهم بأقدامهم ويزدرونهم ، وفي حمأة تعذيبهم ، لن يجدوا الراحة إلا في ممارسة أشـــد ألوان الطغيان عسفاً ووحشية ، معهم

بوصفهم أرقاءا وعبيداً لهم ، وسيبقون على هذه الحال إلى الأبد ، مخلدين في أحط وأسفل مهاوي الهلاك الأبدي وأشـــدها كآبة واحتقاراً واضطهاداً (٤١) .

وعندما رد الأسقف هول على القساوسه الخمسه المشيخيين وهاجمهم بعنف ، انبرى ملتون لنصرتهم في بيان عاصف لابد أنه أخرج الأسقف وهو في الخامسه والستين من ردائه الكهنوتي : « نقد لاذع لدفاع المحتج على بيان المشيخيين » ، ظهر ، مجهولا كاتبه ، في يوليه ١٦٤١ . واعتذر ملتون في المقدمه عن عنفه فقال :

في الكشف عن إنسان سيء السمعه عدو للحق ، ولسلام بلاده وإدانته وبخاصه إذا اغتر بأن له لساناً ذرياً منطلقاً مؤثراً ، فإنه لا يتنافى مع اعتدال المسيحيه وتواضعها أن ترد على مثل هذا الرجل بأسلوب أعنف وأشد من أسلوبه ، وأن تشيع غطرسته إلى مثواها مضمخه بمائه المقدس(٤٢) .

وأعاد الأسقف وابنه الكرة ببيان عنوانه « حجه داحضه متواضعه جديدة » (يناير ١٦٤٢) هاجما فيه كاتب « النقد اللاذع » بحدة تميز بها هذا العصر المغيظ المحنق(٤٣) . فرد ملتون كيد الأسقف في نحره ببيان عنوانه « دفاع ضد الحجه الداحضه المتواضعه » (أبريل) اعتذر فيه مرة أخرى عن سوء معاملته للأسقف هول ، وشجب الفريه العريضه « التي أوردها هول » وهي اتهام ملتون بأنه طرد من كمبردج ، وأكد ملتون للعالم بأسره بأن زملاءه في « كريست كولدج » دعوه ، بعد تخرجه ، للإقامه معهم ، وأكد من جديد طهارته التي لا مطعن فيها :

على الرغم من أني لم ألقن إلا قدراً يسيراً من المسيحية ، فإن شيئاً من التحفظ والنزعة الطبيعية والقواعد الخلقية ، استقيته من أنبل فلسفة ، كان كافياً ليجعلني أحتقر من ألوان الفجور ماهو أقل كثيراً مما يجري في المواخير . ولكني قد عرفت مبدأ الأسفار المقدسة التي تكشف عن الأسرار السامية الطاهرة ... التي تقول بأن « الجسد للرب ، والرب للجسد »

فإنى كذلك سألت نفسى : إذا كان التجرد عن العفة فى المرأة التى ينعتها القديس بولس بأنها فخر الرجل ، فضيحة وخزياً وعاراً ، فالأمر يقيناً كذلك فى الرجل الذى هو صورة الله وفخره معاً ، فإنه لابد أن يكون أشد فساداً وعاراً ، لأنه يقترف الإثم ضد جسده ، وهو الجنس الأكمل ، وضد فخره الذى يكمن فى المرأة ، والأنكى من ذلك ضد صورة الرب وفخره ماثلين فى شخصه هو(٤٤) .

ومن ثم نجد ملتون يرثى لأخلاق كثير من الشعراء القدامى ، ويؤثر عليهم دانتى وبترارك ، اللذين لم يكتبا قط إلا تكريماً وتشريفاً منهما لأولئك الذين نذرا لهم أشعارهما التى عرضا فيها أفكاراً سامية نقية ، دون تأثيم وانتهاك للحرمات . ولم ألبث إلا قليلا حتى تأكد عندى هذا الرأى : إن هذا الذى لا يمكن أن يخيب أمله فى أن يكتب كتابة جيدة ، يجدر أن يكون هو نفسه قصيدة صادقة ، أى مركباً مكوناً من أفضل الأشياء وأشرفها ، لا يقدم على أن يكون قصيده عقود مدح وثناء للرجال البطوليين أو المدائن المشهورة ، إلا إذا أوتى من التجربة والخبرة والمران على كل ماهو أهل للثناء والاطراء(٤٥) .

وبعد هذا المثال الذى اقتبسناه ، انتقل ملتون إلى الحديث عن قدمى الأسقف وجوربه الذى يبعث « برائحه منتنه إلى السماء » . وإذا بدت هذه اللغه غير لائقه باللاهوت فإنه دافع عنها « بقواعد أعظم البلغاء » وبأنه يحذو حذو لوثر ، وذكر قراءه بأن « المسيح نفسه وهو يتحدث عن التقاليد البغيضة لايتردد فى استعمال ألفاظ مثل الغائط والمرحاض »(٤٦) .

والآن نكتفى بهذا القدر من النزاع الكريه الكئيب ، الذى سقناه لأنه يلقى ضوءاً على شخصية ملتون وعلى آداب السلوك فى ذاك العصر ، ولأنه وسط هذا الهراء القاسى وفوضى الأجرومية والجمل الطويلة ، كانت هناك قطع نثرية ذات جرس موسيقى ، مشرقة تهز المشاعر مثل شعر ملتون

وفى نفس الوقت (مارس ١٦٤٢) ، كان قد نشر باسمه كتيباً أكثر موضوعية : « اثارة تفكير حكومة الكنيسة فى حظر السلطة الأسقفية » : « هذا النير البغيض الذى لا يمكن أن يزدهر أى عقل حر أو موهبه ممتازة تحت وطأة مايفرضه من غباء وعداء تعسفى وطغيان »(٤٧) . وسلم بالحاجة إلى نظام أخلاقى واجتماعى . والحق أن ملتون أدرك أن فى نهوض النظام وسقوطه مفتاح ارتقاء الدول وانهيارها :

ليس فى هذا العالم شيء أعظم أهمية وأشد إلحاحاً وخطراً فى كل حياة الإنسان بأسرها من النظام . وهل أنا فى حاجة إلى ضرب مثل على ما أقول ؟ إن كل من قرأ فى تبصر وتدبر عن الأمم والدول ... لا بد أن يقر على الفور بأن ازدهار المجتمعات المتحضرة واضمحلالها ، وكل تحركات الأحداث البشرية وتحولاتها ، إنما تروح وتجيء وكأنها على محور عجلة النظام . وأنه ليس ثمة كمال اجتماعى فى هذه الحياة ، مدنى أو دينى ، يمكن أن يسمو فوق النظام وقواعد الانضباط . لأن النظام هو الذى ، بفضل أوتاره الموسيقية يحافظ على كل أجزاء الحياة ويمسك بها متضامة بعضها إلى بعض(٤٨) .

ومثل هذا النظام ، على أية حال يجب ألا يستقى من أية هيئة كهنوتية متسلسلة فى رتب كنسية ، بل من ادراك أن كل إنسان بذاته يمكن ان يكون كاهنا .

وفى كل المراحل كان ملتون يعى ويدرك كل قدراته ومواهبه . أنه قدم للجزء الثانى من رسالته بقطعة عن سيرة حياته ، أبدى فيها حزنه لأن النزاع قد باعد بينه وبين إخراج عمل عظيم شغل باله طويلا : إن هذا الذى أداه أعظم العباقرة وصفوتهم فى أثينا وروما أو ايطاليا الحديثة ، والعبرانيون القدامى : لبلادهم ، يمكن أن أقوم به أنا لبلدى ، بدورى ، وبقدر حظى من الحياة والعمل ، هذا بالإضافة إلى أنى فوق كل شيء مسيحى(٤٩) .

« وروى ملتون كيف أنه كان بالفعل يعد الموضوعات التى يضمنها مثل هذا

الكتاب . ولكنه أراده عملا يستطيع من خلاله « أن يصور تصويرا نابضا بالحياة وبصف . . . سجل الطهر والفضيلة بأسره » ، و « كل ما هو سام ومقدس فى العقيدة الدينية(٥٠) ، « وكأنما كان يتنبأ بأن الأعوام الستة عشر قد تنقض قبل أن تدع له الثورة الكبرى فرصة للشروع فى الكتابة : فقال يعتذر عن تأخره :

لست أخجل من الاتفاق مع قارىء فطن ذى دراية ، على أنه فى بضع سنين يتعهد بدفع ديونى الحالية ، لأنه عمل ليس نتاجا لنزوة الشباب أو لعب الخمر بالعقل ، مثل هذا الذى يسيل به « قلم عاشق شرس » بذىء فى أوقات الضياع ، أو شاعر متطفل فى فورة حقده . كما أنه عمل لا يمكن إنجازه بالتضرع وقراءة التعاويذ للذاكرة وبناتها المغويات (بنات الأفكار) ، بل بالدعوات والصلوات المخلصة الخاشعة « للروح الأبدى الخالد الذى يستطيع اثراءنا بالتعبير والمعرفة ، ويبعث إلينا بأحد ملائكته (وحارس عرشه) ساروفيم ، مع نار مذبحة المقدسة ، ليمس ويطهر شفتى من يشاء . ويجدر أن يضاف إلى هذا ، دأب على القراءة الجادة المنتقاة ، ومثابرة على الملاحظة الدقيقة ، وتبصر بالفنون والمسائل العامة الجذابة والواسعة ، حتى إذا تم العمل ، إلى حد ما تحت مسؤليتى وبجهدى الخاص ، فإنى عندئذ لا أرفض أن أزكى هذا الأمل المنشود عند كثير ممن لا يتفرون من المغامرة بالوثوق إلى هذا الحد بما أقطع على نفسى لهم من تعهدات أو وعود(٥١) .

٤ — زواج وطلاق ١٦٣٤ - ١٦٤٨

فى « الحجة الداحضة المتواضعة » كان الأسقف هول قد اتهم ملتون بأنه يسعى لشهرة أدبية ، ويعلن عن مواهبه وقدراته وتجاربه وثقافته وبيئته السابقة ، أملا فى الفوز « بأرملة ذات ثراء » أو أية جائزة أخرى . وفى « الرد » عليه عمد ملتون إلى تسفيه هذه الفكرة والتنديد بها ، وقال أنه على النقيض من ذلك ، « نشأ فى بحبوحة من العيش » واتفق فى الرأى مع « أولئك الذين يؤثرون فى حكمة وتبصر وبروح طيبة ... عذراء غير ذات

ثراء عريض ، وذات أصل كريم ، على أغنى الأرامل »(٥٢) . وبينما انساقت انجلترا إلى الحرب الأهلية (١٦٤٢) ، انطلق ملتون إلى الزواج (١٦٤٣) .

لم ينضم ملتون إلى جيش البرلمان ، وعندما اقتربت القوات الملكية من لندن (١٢ نوفبر ١٦٤٢) نظم قصيدة (سونيت) يشير فيها على قادتها أن يحموا بيت الشاعر وشخصه ، كما فعل الاسكندر الأكبر مع الشاعر بندار من قبل ، واعدا إياهم بأن ينشر على الملأ شعرا « حسن صنيعهم (٥٣) » . على أن القوات الملكية ردت على أعقابها . ولم يمس بيت ملتون بأذى ، وبقى ليستقبل زوجته .

وكان ملتون قد التقى بماری باول Powell فی فورستهل فی اكسفوردشير ، حيث كان والدها قاضى الصلح . وهذا الوالد ، ريتشارد باول كان قد اعترف من قبل ، فى ١٦٢٧ ، بأنه مدين لملتون ، وكان آنذاك فى كمبردج ، بمبلغ ٥٠٠ جنيه ، خفف فيما بعد إلى ٣١٢ ، ولكن لم يسدد بعد . والظاهر أن الشاعر قضى عند أسرة باول شهراً (مايو — يونية ١٦٤٣) ولسنا ندرى ليسترد الدين أو يحظى بزوجة . وربما أحس جون وهو فى الرابعة والثلاثين ، بأنه قد آن الأوان للزواج والنسل ، وواضح أن مارى كانت تتحلى بالمذرية التى ينشدها . وفاجأ أبناء أخته بعودته إلى لندن متأبط ذراع زوجة .

ولم تدم السعادة طويلا لأحد . فقد كره أبناء الأخت مارى كدخيلة عليهم ، وكرهت هى كتب ملتون ، وافتقدت أمها و « القدر الكبير من الصحبة والأنس والبهجة والرقص . . » الذى كانت تنعم به فى فورست هل . ويقول أوبرى « كثيراً ما كانت تسمع أبناء الأخت هؤلاء يضربون فيتعالى صراخهم(٥٤) منذ رأى ملتون أن مارى محدودة التفكير ضيقة الأفق ليس لديها سوى النزر اليسير من الأفكار ، التى هى فى جملتها ملكية » فإنه انصرف ثانية إلى كتبه . وتحدث فيما بعد عن « شريكة حياة بكماء

جامدة كئيبة لا روح فيها » ، ورثى « للإنسان الذى يجد نفسه مرتبطا بأوثق رباط بهيكل من طين وبلغم ، كان يأمل منه أن يكون شريك مجتمع علؤه السعادة والبهجة والسرور (٥٥) » ويعتقد بعض الباحثين فى الزواج غير المتكافىء أن مارى أبت عليه البناء بها(٥٦) . وبعد شهر طلبت السماح لها بزيارة والديها ، فوافق ملتون ، مع التفاهم بينهما على عودتها . ولكنها ذهبت ولم ترجع . وبعث إليها برسائل تجاهلتها ، ولما لم يجد أى متنفس آخر لمشاعره ، كتب ونشر دون توقيع « مبدأ الطلاق ونظامه » (أغسطس ١٦٤٣) ، وأهداه إلى « برلمان انجلترا والجمعية » أى جمعية وستمنستر التى كانت تصوغ آنذاك اعترافا بالمذهب المشيخى . وتقدم إلى البرلمان برجاء أن يتحلل من أغلال التقاليد ، ويسير بالإصلاح قدما ، باقرار أسس أو شروط أخرى للطلاق ، غير الزنى ، وعرض أن يوضح : —

أن التصور ، وعدم الأهلية أو تنافر العقول الناشىء عن سبب طبيعى لا يتسنى تغييره ، مما عوق ، والأرجح أنه كثيراً ما يعوق إلى الأبد ، مزايا الحياة الزوجية ، وهى السلوى والبهجة والهدوء والطمأنينة ، نقول أن هذا سبب للطلاق أقوى من البرودة الزوجية الطبيعية ، لا سيما إذا لم يكن هناك أطفال ، وكانت هناك موافقة من الطرفين (٥٧) .

واقتبس ملتون القانون اليهودى القديم الذى ورد فى التوراة (سفر التثنية ٢٤ ـ ١) « إذا أخذ رجل امرأة وتزوج بها ، فإن لم تجد نعمة فى عينيه لأنه وجد فيها عيب شىء . وكتب لها كتاب طلاق ودفعه إلى يدها وأطلقها من بيته » . وواضح أن السيد المسيح رفض هذا الجزء من شريعة موسى . فقد جاء فى انجيل متى (٥ ـ ٣١ ، ٣٢) « وقيل من طلق امرأته فليعطها كتاب طلاق . وأما أنا فأقول لكم أن من طلق امرأته إلا لعلة الزنى يجعلها تزنى » ، واحتج ملتون بأنه « المسيح لم يقصد أن يؤخذ كلامه بمعناه الحرفى ، كلمة بكلمة »(٥٨) ، وكثيراً ما أعلن أنه لم يأت ليغير مقدار ذرة من شريعة موسى . وكافح ملتون حتى يجعل تفسيره الواسع يشتمل

قضيته الشخصية ، حتى أنه ذهب إلى حد تبرير الطلاق لعدم القدرة على الإسهام « في حديث مناسب معقول . « لأن عدم الصلاحية والتخلف في العقلية التي تنفر من الزواج » يمكن أن تهبط بالزواج إلى « حالة أسوأ من حياة الوحدة الموحشة » حيث تكون النفس النابضة بالحياة مربوطة إلى مجرد جثة (٥٩) .

ونفد الكتاب الصغير بسرعة ، لأنه قوبل باستنكار عام . وفي فبراير ١٦٤٤ نشر ملتون طبعة مزيدة منقحة ظهر عليها اسمه في جرأة وشجاعة . ورد على ناقديه في أسلوب العالم المتفقه ، في « Tetrochordon » ثم في أسلوب أخف في Colasterion (صدر كلاهما في ٤ مارس ١٦٤٥) ، تناولهم فيهما بأقسى القدح والألفاظ المقذعة — كتلة من الطين ، خنزير ، خنزير بري ، ذو أنف بشع ، محام له مخ الديك ، حمار صفيق ، بغيض ، كريه الرائحة (٦٠) لقد استطاع ملتون في الصحيفة الواحدة أن يقفز من مرتفعات بارناسوس إلى أحط مهاوي السفاهة والبذاءة .

وحيث أخفق في أن يحصل من البرلمان على تعديل في قانون الطلاق ، اعتزم أن يتحدى القانون ، ويتخذ زوجة ثانية ، وكان يفضل مس دافيز التي لا نعرف عنها شيئاً إلا أنها رفضته . ولما ترامت شائعات هذه الخطبة إلى مسامع ماري باول قررت أن تستعيد زوجها ، على أي الأحوال ، حلوها أو مرها ، قبل فوات الأوان . وذات يوم بينما كان ملتون في زيارة لصديق فاجأته ماري وجثت بين يديه وتوسلت إليه أن يعيدها إلى مخدعه وبيته . وتردد هو ، ولكن أصدقاءه ناصروا قضيتها ، فقبل عودتها إليه . وانتقل الآن إلى بيت أوسع في باربيكان ستريت ، ضمها كما ضم أباه وتلاميذه . وسرعان ما جاء أبواها للاقامة أيضاً مع الشاعر ، بعد أن تدهورت حالهما بهزيمة الملكية ، مما جعل هذا البيت أقرب ما يكون إلى دار للمجانين ، أو للفلسفة . وزاد الامر ضغثاً على أبالة في ١٦٤٦ ، مولد طفلة ملتون الأولى آن . وخفف من هذه الفوضى موت ريتشارد باول في يولية ، كما أن جون

ملتون الأكبر (الوالد) اختتم حياته المديدة الكريمة فى مارس التالى .
ومن ثم أصبح الشاعر وريثا لمنزلين أو ثلاثة فى لندن ، ولبعض المال ، وربما لبعض العقارات فى الريف . وفى ١٦٤٧ فض ملتون مدرسته وانتقل مع زوجته وابنته واثنين من أبناء أخته إلى « هاى هلبورن ستريت » وفى ١٦٤٨ ولدت له ابنته الثانية مارى .

٥ — حرية الصحافة ١٦٤٣ - ١٦٤٩

فى ١٣ أغسطس ١٦٤٤ ، تحدث الكاهن المشيخى هربرت بالمر أمام مجلس البرلمان ، واقترح أن تحرق علنا رسالة ملتون عن الطلاق . ولم تحرق الرسالة ، ولكن شكوى بالمر ربما أدت « بشركة المكتبات » التى تضم كل باعة الكتب الإنجليز ، إلى لفت نظر مجلس العموم (٢٤ أغسطس) إلى أن الكتب والنشرات تخالف القانون الذى يتطلب تسجيلها واجازتها بمعرفة الشركة . وكان هذا القانون قد صدر فى عهد اليزابث ، كما أن البرلمان كان قد جدد العمل به فى ١٤ يونيه ١٦٤٣ ، بإصداره أمرا ينص على :

أنه لايطبع كتاب أو نشرة أو ورقة ، أو أى جزء من شىء من هذا القبيل ، أو يعرض للبيع ، قبل التصديق على نسخة منه واجازته من أشخاص يعينهم لهذا الغرض أحد المجلسين أو كلاهما معا ، وقبل أن يسجل فى السجل المعد لذلك فى شركة المكتبات ، طبقا لما جرى عليه العرف من زمن بعيد(٦١) .

ويعاقب أى خرق لهذا القانون بالقبض على من تولوا التأليف والطبع .

وكان ملتون يهمل دوما تسجيل ما ينشره نثرا . وعلى الرغم من أن كتابه « مبدأ الطلاق ونظامه » ظهر بعد صدور الأمر سالف الذكر بشهرين ، فإنه تجاهل ما يقضى به . وربما كان شاعرنا ذا حظوة لدى البرلمان لأنه ناصره فى صراعه مع الملك . على أن البرلمان على أية حال ، تغاضى عنه وحده ولكن الأمر ظل سيفا مصلتا على رأسه وعلى رؤوس سائر المؤلفين فى بريطانيا . وبدا لملتون ضربا من المحال أن يزدهر الأدب فى ظل

مثل هذه الرقابة . فماذا يجدى خلع ملك وتحطيم نظام أسقفى استبدادى قاس ، إذا استمر البرلمان والكنيسة على التدقيق والتحقيق فى كل كلمة يتفوه بها الإنجليز ؟ . وفى ٢٤ نوفمبر ١٦٤٣ أخرج دون تسجيل أو إجازة أروع أعماله النثرية « أريوباجيتيكا : حديث من جون ملتون عن حرية المطبوعات دون أجازة ، إلى برلمان انجلترا »(*) وليس فى هذا الحديث قذف ولا طعن ولا نقد لاذع ، بل كان على مستوى عال من اللغة والفكر وفيه يطلب إلى البرلمان بكل اجلال واحترام ، أن يعيد النظر فى قانون الرقابة ، من حيث أنه ينزع إلى « تثبيط الهمم فى سبيل العلم والمعرفة ، ويعوق بل يقضى على أى ابداع واكتشاف يمكن أن يخرج فى المستقبل إلى حيز الوجود فى مجال الحكمة الدينية والمدنية كليهما . » ثم يستطرد فى قطعة مشهورة قيمة :

لست أنكر أنه من أعظم صلاحيات الكنيسة والدولة أن ترقب بعين يقظة كيف تحط الكتب من قدرها ومن أقدار الناس ، ومن ثم تحتجز أو تسجن أو تطبق أقصى ما تقضى به العدالة على عوامل الشر لأن الكتب ليست أشياء ميتة اطلاقا ، بل أن فيها من الفعالية والحيوية ما يجعلها نشيطة فى مثل نشاط النفس التى أنتجتها . ليس هذا فحسب ، بل أنها كذلك ، تحفظ ، وكأنما تحفظ فى قنينة ، أنقى عصارة وقوة مؤثرة للفكر الحى الذى نماها وأبدعها . وإنى لأدرك أنها نشيطة قوية الإنتاج مثل أسنان التنين الخرافية إذا نثرت على الأرض هنا وهناك انبعث منها رجال مسلحون (هكذا تقول الخرافة) . ومن جهة أخرى ، فإنه إذا لم يكن ثمة حيطة وحذر ، فان قتل الإنسان يعدل تقريبا قتل الكتاب الجيد . إن من يقتل رجلا يقتل مخلوقا عاقلا ، صورة الله ، على حين أن من يدمر الكتاب الجيد ، يقتل العقل نفسه ، بل يقتل صورة الله ، فى صميمها . وكم من إنسان

(*) Areopagitica — يقصد بها المسائل المتعلقة بالمحكمة العليا فى أثينا ، واسمها أريوباجوس ، نسبة إلى الجبل الذى كانت تجتمع عليه . واقتبس ملتون هذا العنوان من رسالة وجهها آيزوقراط ٣٥٥ ق . م . إلى هذه المحكمة .

يعيش حملا ثقيلا على الأرض ، ولكن الكتاب الجيد هو دم الحياة الغالى للروح السامية يصان ويختزن ، قصدا لحياة وراء الحياة . حقا أن أى عصر لن يستطيع استعادة الحياة ، وقد لايكون فى هذا خسارة ، ولا تعوض ثورات العصور فى الغالب عن فقدان حقيقة منبوذة ، ساءت حال امم بأ كملها من أجل افتقارها إليها .

وينبغى لذلك أن نكون حذرين يقظين لأى اضطهاد نصبه على الأعمال الحية لمشاهير الرجال البارزين ، وكيف نبدد حياة الرجل الناضجة المحفوظة المختزنة فى كتاب . فإذا رأينا عملا من أعمال القتل يرتكب على هذه الصورة ، وهو فى بعض الأحيان استشهاد ، وإذا امتد هذا إلى كل الإنتاج ، حتى ينتهى الأمر إلى مذبحة ، فمن ثم لاينتهى الإعدام عند خنق الحياة الفطرية ، بل ينفذ إلى الجوهر السماوى الخامس البالغ الرقة ، أى روح العقل ذاته ، فيقضى على الخلود أ كثر مايقضى على مجرد حياة(٦٢) .

ويستشهد ملتون بالنشاط الفكرى فى أثينا القديمة ، حيث لم تفرض الرقابة إلا على الكتابات التى تتضمن إلحادا أو قذفا ، وهكذا حكم قضاة محكمة أريوباجوس العليا بإحراق كتب بروتاجوراس ، وبنفيه خارج البلاد ، لمقالة بدأها بالاعتراف بأنه لايدرى « إذا كان هناك آلهة أم لا » . ويمتدح ملتون حكومة رومة القديمة لإتاحتها قدرا كبيرا من الحرية للكتاب ، ثم يصف نمو الرقابة فى رومة الإمبراطورية والكنيسة الكاثوليكية . ويحس ملتون بأن قانون الرقابة هذا تشتم منه رائحة « البابوية » « وما فائدة أن تكون رجلا : لامجرد تلميذ فى مدرسة ، إذا كنا فقط هربنا عن الدرة أو العصا « لنقع تحت نير الرخصة (للطباعة)(٦٣) » ؟ أن الحكومات ومراقبيها ليسوا معصومين من الخطأ ، فليس لهم أن يفرضوا ما يروق لهم أو ما يفضلونه من آراء ومبادىء على الناس ، والأولى بهم أن يتركوا الناس ليختاروا ويتعلموا ، حتى ولو كلفتهم التجربة والخطأ أبهظ الثمن :

إنى لا أستطيع أن أمتدح فضيلة مفروضة عليها الحماية والرقابة ، لا يمارسها أحد ولا ينشق عبيرها أحد ، لا تنطلق قط لترى خصومها ، بل تتسلل بمعزل عن الناس(٦٤) . . أعطنى الحرية لأعرف وأتحدث وأناقش ، بلا قيد ، وفقا لما يمليه الضمير ، فوق كل الحريات(٦٥) . . ومع أن كل رياح المذاهب والمبادىء أطلقت لتهب على الأرض ، حتى إذا دخلت الحقيقة إلى الميدان ، أسأنا إليها بالرقابة والحظر ، لنشكك فى قوتها ، فلنتركها مع البهتان يتصارعان ، فمن ذا الذى رأى يوما أن الحقيقة تنهزم فى معركة حرة مفتوحة(٦٦) ؟ .

ومهما يكن من أمر فان ملتون لا يطالب بالحرية المطلقة للمطبوعات ، فهو يؤمن بأن الإلحاد والتشهير والفحش يجب أن يحرمها القانون ، ويرفض التسامح مع الكاثوليكية لأنها عدو للدولة ، ولأنها هى نفسها موصومة بالتعصب(٦٧) . وفيما عدا ذلك ، فان الدولة التى تسود فيها حرية الفكر والكلام لا بد أن ترق وتنمو فيها سائر الأشياء سواء بسواء .

يخيل إلى أنى أرى بعين البصيرة أمة كريمة قوية تستيقظ وتنفض النوم عن جفونها ، مثل رجل قوى يفيق من سباته ، وتهز خصلات شعرها . ويبدو لى أنى أراها مثل نسر ، يجدد شبابه ويفتح عينيه الحادتين(٦٨) فى وقدة الظهيرة .

ولم يلتفت البرلمان لدفع ملتون أو حجته ، بل على النقيض من ذلك ، سن قوانين تصاعدت صرامتها (١٦٤٧ ، ١٦٤٩ ، ١٦٥٣) ضد اصدار مطبوعات غير مرخصة . وشكا أعضاء شركة المكتبات من أن ملتون لم يكن قد سجل « الأريوباجيتيكا » . وعين مجلس اللوردات اثنين من رجال القضاء لمساءلته ، ولسنا نعرف النتيجة . ولكن من الواضح أنهم لم يزعجوه ، لأنه كان صوتا ذا نفع وقيمة للبيوريتانيين المنتصرين .

وفى فبراير ١٦٤٩ ، أى بعد اعدام شارل الأول بأسبوعين اثنين ، نشر ملتون رسالة عن « ولاية الملوك والحكام » ، ارتضى فيها نظرية العقد

الاجتماعى التى تقول بأن سلطة الحكومة مستمدة من سيادة الشعب ، وإنه من حق من يملكون السيادة أن يحاسبوا أى طاغية أو ملك شرير ، وعزله وإعدامه ، بعد إدانته إدانة عادلة(٦٩) » . وبعد شهر واحد دعاه مجلس الدولة فى الحكومة الثورية ليكون « سكرتير المجلس للغات الأجنبية » . فنحى ملحمته جانبا ، ليتفرغ لمدة أحد عشر عاما ، لخدمة جمهورية البيوريتانيين وحكومة « الحماية » على عهد كرومول .

٦ - سكرتير اللغة اللاتينية ١٦٤٩ - ١٦٥٩

كان النظام الجديد فى حاجة إلى من يتقن اللغة اللاتينية ، ليحرر للراسلات الأجنبية ، وكان ملتون للرشح البارز لهذا العمل . حيث كان يستطيع الكتابة باللغات اللاتينية والايطالية والفرنسية كأحد أبناء روما القديمة أو فلورنسة أو باريس ، كما أنه كان قد أثبت فى أشد أوقات الحرج أنه مخلص لقضية البرلمان فى نزاعه ضد الأساقفة والملك . وكان مجلس الدولة لا « كرومول » هو الذى استخدمه لهذا العمل . ولم يكن له صلة وثيقة بالحاكم الجديد ، ولكنه لا بد أن يكون قد رآه كثيراً ، وأنه قد أحس فى تفكيره وفى كتاباته ، بالتقارب مع هذه الشخصية المرعبة . ولم يستخدم المجلس ملتون لمجرد ترجمة رسائله الأجنبية إلى اللاتينية ، بل كذلك ، ليبرز للحكومات الأجنبية ، فى نشرات لاتينية ، وجه العدالة والحق فى السياسة الداخلية التى ينتهجها المجلس ، كما يبرز ، فوق ذلك كيف كان من الحكمة وسداد الرأى الاطاحة برأس الملك .

وفى أبريل ١٦٤٩ ، فور تقلده منصبه ، انضم ملتون إلى موظفين آخرين فى المجلس فى وقف نشرات الملكيين وأنصار المساواة ضد نظام الحكم الجديد(٧٠) . وكانت الرقابة على المطبوعات آنذاك أشد صرامة منها فى أى وقت مضى فى تاريخ انجلترا ، متبعة فى ذلك القاعدة العامة التى تقول بأن الرقابة تشتد بتزعزع مركز الحكومة . إن الرجل الذى كان قد دبج بأفصح بيان النداء الذى لم يكن له نظير من قبل ، من أجل حرية الصحافة

بات الآن ينظر إلى الرقابة من وجهة نظر السلطة الحاكمة . على أنه يجدر بنا أن نلاحظ أن ملتون قال من قبل الأريوباجيتيكا : إنه من أهم صلاحيات الكنيسة والدولة أن ترقب بعين يقظة كيف تحط الكتب من قدرها ومن أقدار الناس ومن ثم تحتجز أو تسجن أو تطبق أقصى ماتقضى به العدالة على عوامل الشر »(٧١) .

ومذ كان جون للبيرن بصفة خاصة كاتباً مزعجاً من أنصار المساواة ، فإن المجلس أصـــدر تعليماته إلى ملتون ليتولى الرد على كتابه المتطرف « اكتشاف أغلال جديدة » . ولسنا ندرى هل قام ملتون بهذه المهمة أو لم يقم . ولكنه يروى هو نفسه(٧٢) أنه « أمر » أن يرد على « صورة ملك » وامتثل لهذا الأمر فنشر فى ٦ أكتوبر ١٦٤٩ كتاباً من ٢٤٢ صفحه تحت عنوان « محطم الصورة » . وارتياباً ، ولكن اعتراضاً منه بأن « صورة الملك » هو ما أوهم بأنه من تأليف شارل الأول نفسه ، فإنه — أى ملتون تناول حجة الملكية فقرة فقرة ، وانبرى لتفنيدها بكل ما أوتى من قوة ومن خلال ذلك دافع عن سياسة كرومول ، وبرر إعدام الملك ، وأبدى احتقاره « لتلك الشرذمة من الغوغاء المتقلبين الذين يعوزهم التفكير البهائم المولعين بالصور ، . . قطيع ساذج عاجز تربى على الذل والخنوع . . . . يفتتن بالطغيان(٧٣) » .

واستبد الغيظ والحنق بشارل الثانى ، وهو يتجول فى القارة ، فاستأجر أعظم علماء أوربا كلود سوميز ليتولى الدفاع عن الملك الميت ، وسرعان ماأصدر « سالماسيوس » « دفاعه عن الملك السابق شارل الأول » ، فى ليدن (نوفمبر ١٦٤٩) ، نعت فيه كرومول وأتباعه بأنهم « أوغاد متعصبون . . . وأنهم العدو المشترك للبشرية » وأهاب بكل الملوك ، من أجلهم هم أنفسهم : أن يجهزوا الجيوش للقضاء على هذا الوباء . . . يقيناً أن دم الملك العظيم يستصرخ كل الملوك والأمراء فى العالم المسيحى للثأر له . ولا يمكن أن يقوموا بعمل فيه هدوء روحه وسكونها خيراً من أن يعيدوا لوريثه

الشرعى كل حقوقه كاملة ، ويستردوا له عرش أبيه .... وأن يذبحوا ، كضحايا على جدث الميت المقدس ، هذه الوحوش البالغة الضراوة ، الذين تآمروا على قتل مثل هذا الملك العظيم(٧٤) .

وخشى كرومول أن — تزيد حملات مثل هذا العالم الذائع الصيت فى أوربا من الاستياء السائد فى القـــارة ضد حــكومته ، فطلب إلى ملتون الرد على سالماسيوس . وجهد السكرتير اللاتينى فى انجاز هذه المهمة قرابة عام كامل ، فى ضوء الشموع ، على الرغم من تحذير طبيبه له بأنه يفقد بصره تدريجيا ، وأنه مهدد بالعمى . وكانت احدى العينين عاطلة بالفعل ، وفى ٣١ ديسمبر ظهر « دفاع الشعب الإنجليزى عن نفسه ضد دفاع سالماسيوس عن الملــكية — لجون ملتون » ، بدأ بالسخرية من سالماسيوس لبيعه خدماته لشارل الثانى ، واستطرد ليظهر أن سالماسيوس قبل أربع سنوات فقط كتب يهاجم النظام الأسقفى الذى يدافع عنه الآن :

أيها العميل الفاسد المرتشى المـــأجور ... أيها الجبان المحتقر المرتد الخارج على مبادئك ... يا أشد الحمقى سذاجة وبلاهة .... أنت جدير بعكازة المهرج ، حين تظن أنك تغرى الملوك والأمراء بالحرب ، بمثل هذه الحجج الصبيانية الواهية ... هل تتخيل إذن ، أيها المتلعثم المحامى الصغير الحقير ، الذى لم يولد إلا لينسخ ويقلد كبار الكتاب ، الذى لم يؤت أية موهبة أو ذكاء أو عبقرية ، أنك ستنتج شيئا تـكتب له الحياة من عندياتك ؟ صدقنى أنك وكتاباتك العقيمة معا ، ستلقى فى زوايا النسيان فى الجيل القادم . لولا أن « دفاعك عن الملك » سيدين ببعض الفضل للرد عليه ، بمحض الصدفة ، وعلى الرغم من أنه قد أغفل وطرح جانبا لبعض الوقت ، فإنه لذلك سيبعث من جديد(٧٥) .

وهذا هو ماحدث على وجه الدقة . أن سالماسيوس كان قد أضفى على شارل الأول صورة مثالية . ولــكن ملتون يحط من قدره . ويشتبه فى أن شارل حرض دوق بكنجهام على دس السم لوالده جيمس الأول ، ويتهم

الملك الميت بكل « ضروب الفساد الخلق والإثم » مع الدوق المذكور ، ويتهم شارل بتقبيل النسوة فى المسرح ، وبمداعبته أثداء العذارى والعقيلات علنا[٧٦] » . وكان سالماسيوس قد أطلق على ملتون أسماء كثيرة ، فثأر ملتون بأن نعت سالماسيوس بأنه ، غبى ، خنفساء ، حمار ، كذاب ، قذاف مفتر ، مرتد ، معتوه ، جهول ، متشرد ، عبد ذليل ، ويسخر من سالماسيوس لسيطرة زوجته عليه ، ويعنفه على أخطائه اللاتينية . ويدعوه إلى أن يشنق نفسه ، ويضمن له الدخول إلى الجحيم[٧٧] . ونظر توماس هوبز إلى هذه الكتب المتنافسة من علياء فلسفته ، فأعلن أنه عاجز عن أن يقرر أى الفريقين أقوى لغة وأيهما أضعف حجة[٧٨] . على أن مجلس الدولة قدم الشكر لملتون .

تلقى سالماسيوس نسخة من « دفاع » ملتون أثناء وجـــوده فى بلاط الملكة كريستينا فى ستكهلم ، ووعد بالرد عليه ، ولكنه أبطأ . وفى الوقت نفسه انصرف ملتون عن الشئون الخارجية إلى شئون بيته . ففى ١٦٤٩ انتقل إلى دار فى « شيرنج كروس » ليكون قريبا من عمله . وهناك وضعت زوجته ولدا ، لم يلبث أن مات ، وفى ١٦٥٢ وضعت بنتا ، « ديبورا » كلفته ولادتها حياة أمها . وفى تلك السنة فقد ملتون بصره تماما . وعندئذ نظم قصيدة من أروع قصائده (السونيت) « عندما أتدبر كيف فقدت نور عينى » . وأبقى عليه المجلس سكرتيرا لاتينيا ، وخصص له كاتبا ليدون له ما يمليه عليه .

ومنى ، وهو رهين العمى ، بخسارة أخرى ، ففى ١٦٥٣ انهارت الجمهورية التى طالما هلل لها ورحب بها ، إلى « ملكية عسكرية » وأصبح فيها « حامى الحمى » كرومول ، فى واقع الأمر ملكا . وراض ملتون نفسه على هذه التطورات بقوله : « أن أساليب العناية الإلهيـــة يحوطها الغموض والإبهام[٧٩] . وظل على اعجابه بكرومول وامتدحه بأنه « أعظم بنى الوطن وأكثرهم تألقا وامتيازا ... إنه أبو البلاد » ، وأكد له « أن فى التلاف

المجتمع الإنسانى ليس ثمة شيء أحب إلى الله ، أو أكثر إلتئاما مع العقل من أن يتولى أسمى العقول السلطة العليا[٢٨] » .

وسرعان ماطلب إليه أن يتولى الدفاع عن « حامى الحمى » فى اتهام خطير . ذلك أنه فى ١٦٥٢ ظهر كتاب يشكل عنوانه نفسه صيحة الحرب « صرخة الدم الملكى إلى السموات ضد الإنجليز الذين قتلوا أباهم » وبدأ الكتاب بأن نعت ملتون بأنه « حيوان شرير بشع ، قبيح المنظر ، ضخم الجسم ، مكفوف البصر .... جلاد ... يستحق الشنق » . وقرن الكتاب اعدام شارل الأول بصلب المسيح ، واعتبر قتل الملك كبرى الجوائم[٨١] وسخر من جهر « الغاصبين » بإيمانهم بالدين :

أن لغة وثائقهم العامة محشوة بالتقى والورع وكان لزاما أن يجاريها أسلوب كرومول ومن يدافعون عنه ، وأنه لمما يثير الاشمئزاز ، كما يثير السخرية المريرة ، إلى أى حد من الوقاحة والصفاقة يخفى هؤلاء الأوغاد الخفيون واللصوص الظاهرون حقيقة شرورهم بذريعة أوستار من الدين [٨٢] .

وكما فعل سالماسيوس ، أهاب المؤلف المجهول بدول القارة أن تغزو انجلترا وتعيد آل ستيوارث إلى العرش . وختم الكتاب بتوجيهه إلى الحارس القذر المتوحش ، جون ملتون ، المدافع عن قتل الآباء وقتلتهم ، مع الأمل فى أن يلقى وشيكا شر الجزاء فيضرب بالسياط :

حول هذا الرأس الحانث سدد الضربات جيدا ، وشوه كل بوصة فيه بآثار العصا ، إلى أن تصبح الجثة كتلة هلامية واحدة . هل توقفت ؟ اضرب حتى تتفجر الصفراء من كبده من خلال عينيه الداميتين[٨٣] .

واستحث مجلس الدولة ملتون للرد على هذا العنف ، ولكنه تمهل توقعا لحملة من سالماسيوس ، أملا فى أن يرد على الخصمين فى رسالة واحدة . ولكن سالماسيوس قضى نحبه (١٦٥٣) دون أن يتم رده . وخدع ملتون فى اعتقاده بأن كاتب « صرخة الدم الملكى » هو الكسندر مورس —

Morus ، وهو قسيس عالم فى مدلبرج فطلب إلى مراسليه فى المقاطعات المتحدة موافاته ببيانات عن حياة مورس العامة والخاصة(٨٤) . وكتب أوريان أولاك ، طابع الكتاب ، إلى هارتاب ، صديق ملتون ، مؤكدا أن مورس ليس هو المؤلف(٨٥) . ولكن ملتون أبى أن يصدق هذا ، وأيده فى هذا ، ما يتناقله الناس فى امستردام . وفى أبريل ١٦٥٤ كتب جون درورى إلى ملتون ، محذرا اياه بأنه مخطىء فى نسبة « صرخة الدم الملكى » إلى مورس ، ولكن ملتون تجاهل هذا التحذير ، وفى ٣٠ مايو كتب الدفاع الثانى للشعب الإنجليزى » - جون ملتون .

وكان سحر البيان فى هذا الكتاب الذى بلغ عدد صفحاته ١٧٣ ، أمرا مشهودا ، حيث أملاه باللاتينية رجل كف بصره تماما . وعزا أعداؤه ما أصابه من عمى إلى العقاب الإلهى جزاء خطاياه الفادحة . وأجاب ملتون على هذا بأنه لا يمكن أن يكون ، لأن حياته كانت مثالية ، وهو يشعر بالفرح والابتهاج لأن الدفاع الأول :

هكذا أصاب غريمى بهزيمة ساحقة .... إلى حد أنه استسلم من فوره وقد تحطمت روحه وانهارت سمعته ، وعلى مدى السنوات الثلاث التالية من حياته ، ولو أنه كان يهدد ويرغى ويزيد كثيرا . فإنه لم يعد يزعجنا ، فيما عدا أنه استعان بالجهد التافه لشخص جدير بكل الازدراء ، حرضه بما لست أدرى من الملق القبيح المسرف ، على أن يرقما قدر الإمكان عديحهما ، ماحل بشخصه مؤخرا من دمار غير متوقع(٨٦) .

ثم يعرج ملتون على عدوه الجديد ، فيذكر أن « مورس » تعنى بالأغريقية « مغفل » ، ويتهمه بالهرطقة والتهتك والزنى ، وبأن خادمة سالما سالماسيوس حملت منه سفاحا ، ثم هجرها . بل أن طابع « صرخة الدم الملكى » نفسه يجلد بالسوط ، وكل إنسان يعرف أنه غشاش مفلس سىء السمعة(٨٧) .

وفى ظرف وصرح أكثر ، يستعرض ملتون أعمال كرومول ، ويدافع عن حملاته فى أيرلنده ، وعن حل البرلمان ، وعن استيلائه على السلطة ،

ويوجه الحديث إلى « حامى الحمى » :

إننا جميعاً نقدرك حق قدرك ونقر بفضلك الذى لايدانيه فضل ، فامض فى طريقك القويم ، يا كرومول ، ... يامحرر بلادك ، ويامن أرسى دعائم الحرية فيها ، ويامن تفوقت بأعمالك الجيدة ، لا على انجازات الملوك فحسب ، بل على مغامرات أبطالنا الأسطورية أيضاً (٨٨) .

ولكن بعد عبارات الإجلال والإكبار هذه ، لم يتردد ملتون فى أن يمحض كرومول النصح فى أمر السياسة . فأشار عليه بأن يحيط نفسه برجال من أمثال فليتوود ولمبرت (وهما من المتطرفين) ، وأن يدعم حرية الصحافة وأن يترك الدين منفصلا تمام الانفصال عن الدولة . كما ينبغى ألا تجمع أية عشور لرجال الدين ، فانهم بالفعل متخمون ، (وكل مافيهم سمين ، حتى عقولهم دون استثناء (٨٩) » . ويسترسل ملتون فيحذر كورمول من أنه « ونحن نعده ، دوننا جميعاً ، أعدل وأقدس وأفضل رجل » إذا أقدم على قمع الحرية التى دافع عنها ، فلن تكون النتيجة إلا وبالا ودماراً ، لا لشخصه فحسب ، بل كذلك لكل متطلبات الفضيلة والتقوى (٩٠) . ويوضح ملتون بأجلى بيان أنه لا يقصد « بالحرية » الديموقراطية ، وهو يسأل الناس :

لماذا يؤكد لكم أى إنسان حقكم فى الاقتراع العام ، أو قدرتكم على انتخاب من تريدون للبرلمان ؟ هل من أجل أن تتمكنوا من انتخاب رجال من حزبكم فى المدن ، وفى الأقاليم ، تنتخبون الرجل الذى مد لكم الموائد فى بذخ بالغ ، أو أسرف فى تقديم الشراب لرجال الريف والفلاحين السذج ، سواء كان جديراً أو غير جدير بالانتخاب ؟ ومن ثم لا يجتمع لنا فى البرلمان أعضاء اتسموا بالحصافة والحكمة والخبرة والثقة ، بل أعضاء صنعتهم الحزبية وموائد الطعام !! . وبعبارة أخرى نحصل على أعضاء من تجار الخمور والباعة المتجولين ، من الحانات فى المدن ، ومن الرعاة ومربى الماشية فى الريف ، فهل يجدر بأى إنسان أن يكل أمور الجمهورية لأمثال هؤلاء الذين لايثق أحد فى أن يعهد إليهم بشأن من شئونه الخاصة (٩١) ؟ .

كلا ، إن مثل هذا الاقتراع العام لا يعتبر حرية :

فلأن أن تكون حراً ، هو بالضبط أن تكون تقياً عاقلا عادلا معتدلا مكتفياً بذاتك ، لا تمد يديك إلى ما بأيدي الناس ، وقصارى القول ، أن تكون شهماً رحب الصدر شجاعا . أما إذا تجردت من هذا كله أو كنت على نقيضه ، فإنك لن تعدو أن تكون عبداً رقيقاً . وقد حكم الله على الأمة التي لا تستطيع أن تحكم نفسها وتدبر أمورها بنفسها ، والتي استعبدتها شهواتها ، بأنها لابد أن تستسلم لسلطان غيرها ، فتقع في ذل العبودية بإرادتها وضد إرادتها معاً (٩٢) .

وفي أكتوبر ١٦٥٤ أعاد أولاك طبع « الدفاع الثاني » لملتون ، في لاهاي ، مع رد عليه بقلم مورس بعنوان « دليل دامغ » . وفي المقدمة أكد الطابع أن مورس ليس مؤلف « صرخة الدم الملكي » ، وأنه ، أي أولاك ، تسلم مخطوطته من سلماسيوس الذي أبى أن يميط اللثام عن إسم المؤلف . وأنكر مورس انكاراً تاماً أنه المؤلف ، وأكد أن ملتون قد أبلغ بهذا مراراً وتكراراً ، واتهمه بأنه قد رفض من قبل تغيير « دفاعه » ، لأنه لن يتبقى منه شيء يذكر إذا حذف منه السباب الذي وجهه إلى مورس . وفي أغسطس ١٦٥٥ أصدر ملتون كتاباً من مائتين وأربع صفحات « دفاع عن النفس » ورفض أن يصدق انكار مورس ، وأورد من جديد فعلته الشائنة مع خادمه سالما سيوس ، وأضاف أنها ، في شجار مشروع أوسعت مورس ضرباً وطرحته أرضاً ، وكادت أن تفقأ عينيه(٩٣) . ولكن تبين في خاتمة المطاف أن أحد رجال اللاهوت البروتستانت ، واسمه بيير دي مولان ، هو الذي كتب « صرخة الدم الملكي » ، وأن مورس هو الذي نشره وكتب إهداءه(٩٤) . ولما دعى مورس ليكون راعياً لإحدى كنائس الإصلاح قرب باريس ، أرسل شاعرنا عدة نسخ من « الدفاع الثاني » إلى الأبرشية لمنع تعيينه(٩٥) . ولكن مجلس الأبرشية عينه على الرغم من ذلك كله ، وختم مورس سيرته التي اكتنفتها المضايقات (١٦٧٠) وهو أنصح

الوعاظ البروتستانت بياناً فى باريس أو فيما حولها .

ويبدو ملتون فى مظهر أرق فى قصيدة السونيت « مذبحة بيد مونت » (١٦٥٥) (*). ويحتمل أنه هو الذى دون الرسائل التى أهاب فيها كرومول بدوق سافوى ليضع حداً لاضطهاد « الفدوا Vaudois » (أتباع بيتر فالدو — بيوريتانيون منشقون فى جنوب فرنسا) ، وإلى مزران وحكام السويد والدنمرك والمقاطعات المتحدة ومقاطعات سويسرا ، ليتوسطوا لدى الدوق .

وفى ١٦٥٦ ، بعد أربع سنوات من حياة العزوبة ، تزوج ملتون من كاترين وودكوك التى لم تكتحل عيناه بمرآها ، بطبيعة الحال ولكنها أثبتت أنها بركة ونعمة عليه ، فكانت ممرضة صابرة متجلدة لزوج مكفوف عنيف ، وأما لبناته الثلاث ، ولكنها قضت نحبها (١٦٥٨) ، أثناء وضع طفل لم يعمر . وكانت تلك سنة عصيبة على ملتون ، حيث رحل عن الوجود وكرومول أيضاً ، فكان لزاماً على السكرتير اللاتينى أن يحافظ على منصبه ، قدر طاقته ، فى غمرة فوضى الأحزاب التى انحدرت بريتشارد كرومول إلى مجرد رجل عاجز تافه محب للخير . وعلى الرغم من أن ملتون لابد كان يدرك أن انجلترا سائرة فى طريق استعادة ملكية آل ستيوارت ، فإنه أصدر فى أكتوبر ١٦٥٨ طبعة جديدة من « دفاع الشعب الانجليزى عن نفسه » فى أسلوب يغرى بالاستشهاد . وفى مقدمة رائعة وصف ملتون « الدفاع الأول » بأنه « أثر ... تتعذر إزالته بسهولة » ، وزعم أنه من وحى السماء ووضعه فى المرتبة التالية لمآثر كرومول ، الذى أنقذ حرية انجلترا(٩٦).

وقاوم فى شجاعة عمياء حركة إعادة شارل الثانى ، وعندما وصل جيش مونك إلى لندن ، وتردد البرلمان بين الجمهورية والملكية ، نشر ملتون فى فبراير ١٦٦٠ رسالة موجهة إلى البرلمان ، تقع فى ١٨ صحيفة ، « الطريق الممهد السهل لإقامة جمهورية حرة ، ومزاياه المرتقبة بالمقارنة إلى مساوىء ومخاطر

* أنظر الفصل السادس عشر — الفقرة الأولى .

إعادة الملكية فى هذه الأمة » . ومهرها فى جرأة وبسالة باسمه (بقلم جون ملتون) وفيها ناشد البرلمان :

ألا يلوث ويهزأ بدم آلاف الانجليز المخلصين البواسل الذين خلفوا لنا هذه الحرية ، التى اشتريت بحياتنا نحن . وماذا عسى أن يقول جيراننا عنا وعن إسم انجلترا عامة ، إلا أنهم على أحسن الفروض ، سيسخرون منا ، قدر السخرية بهذا الرجل الغبى ، الذى أورد (مخلصنا) ذكره ، والذى بدأ يبنى صرحاً وعجز عن إتمام البناء ؟ أين صرح الجمهورية الشامخ الذى تباهى الانجليز بأنهم سيقيمونه ليتقلص ظل الملوك ، وتصبح انجلترا رومة أخرى فى الغرب ؟ .... ماهذا الجنون الذى اعترى هؤلاء الذين يستطيعون فى شرف وكرامة أن يدبروا شئونهم بأنفسهم ، حتى يحولوا كل هذه السلطات إلى شخص رجل واحد ! ياللجبن والنذالة أن نحسب أن مثل هذا الفرد هو مناط حياتنا ، ونعلق عليه كل سعادتنا وأمتنا وسلامتنا وخيرنا ، وبدونه لا يكون لنا وجود ، أو نكون مجرد أفراد كسالى بلداء أو أطفال ! إنه ليجدر بنا أن نعتمد على الله وحده ، وعلى أنفسنا نحن ، وعلى فضائلنا العملية وعملنا الجاد(٩٧) .

وتنبأ ملتون بأن كل (الاعتداءات القديمة) التى ارتكبتها الملكية ضد حرية الشعب سوف تعود وشيكا بعودة الملكية . واقترح أن يحل محل البرلمان (مجلس عام) يضم أقدر الرجال الذين ينتخبهم الشعب للعمل حتى الموت ، ولا يخضعون للعزل إلا عند الإدانة بإحدى الجرائم ، ويجدد المجلس بانتخابات دورية . وعلى هذا المجلس ، على أية حال أن يوفر أكبر قدر ممكن من حرية الكلام والعبادة والحكم المحلى . واختتم ملتون رسالته بقوله : «أرجو أن أكون تحدثت إلى حد الإقناع إلى مجموعة كبيرة من الرجال الواعين المخلصين ، أو إلى بعض من قد يقيمهم الله من هذه المقاعد الحجرية ليصبحوا « أبناء الحرية » ، ويوفقهم ويجمعهم على قرارات حكيمة تقيم ما أعوج من أمورنا ، وتصلح ما فسد من أحوالنا ، وتعالج هذا الخبال العام

المتفشى فى الجمهور الذى أسىء استغلاله وأعوزه من يوجهه ويرشده(٩٨)» .

وتجاهل البرلمان هذا الالتماس الذى ينطوى على القضاء عليه . وظهرت النشرات المطبوعة التى تهاجم ملتون ، وحبذت إحداها شنقه وأصدر مجلس الدولة ، وهو آنئذ ملكى النزعة ، أمرا بالقبض على طابع رسالة ملتون ، وفصله من منصبه (السكرتير اللاتينى للمجلس) فكان جوابه على ذلك إنه أصدر طبعة ثانية مزيدة من الرسالة «الطريق الممهد السهل» (أبريل ١٦٦٠) وحذر البرلمان من أن الوعود التى يقطعها الآن شارل من اليسير أن تنقض بمجرد تثبيت دعائم السلطة الملكية الجديدة . وسلم بأن غالبية الشعب ترغب فى عودة شارل الثانى ، ولكنه دفع بأن الأغلبية ليس لها الحق فى استعباد الأقلية أو التحكم فيها . إنه لمن الأعدل .... إذا وصل الأمر إلى حد الفرض بالقوة ، أن ترغم الأقلية مجموعة أكبر منها على أن تعيد إليها حريتها. من أن تفرض الأغلبية على أقلية من الناس من بنى وطنهم أن يكونوا عبيدا أرقاء لهم ، بشكل يسىء إليهم أبلغ اساءة (٩٩) . وتكاثرت الهجمات والحملات على ملتون وناشدت إحداها الملك شارل الثانى ، وكان آنذاك فى بريدا أن يتذكر جيدا الإهانات التى وجهها ملتون من قبل فى رسالته «محطم الصور» وغيرها ، إلى والده شارل الأول . واقترحت أن يضم ملتون إلى قائمة قتلة الملك الفعليين ، لأنه يستحق الإعدام(١٠٠) .

وقبل أن تصل هذه النشرة إلى شارل الثانى ، كان قد أبحر هو بالفعل إلى انجلترا ، وفى ٧ مايو ، ودع ملتون أولاده وآوى إلى مخبأ مع أحد الأصدقاء . ولكن كشف أمره وأودع السجن وبات مصيره لمدة ثلاثة أشهر مرهونا بما يقرره البرلمان الملكى ورأى كثير من الأعضاء أنه إذا كان ثمة من يستحق الإعدام ، فهو ملتون . وكان هذا متوقعا . ولكن مارفل دافينانت وبعض الأعضاء الآخرين توصلوا إلى البرلمان أن يرحم شيخوخته وبصره المكفوف فاكتفى البرلمان بالأمر بإحراق بعض كتب بعينها من مؤلفاته ، حيثما وجدت . وأطلق سراحه فى ١٥ ديسمبر ، فاتخذ دارا

فى هلبورن ، انتقل إليها هو وأولاده ، حيث انصرف — بعد أحد عشر عاما صاخبا عصيبا مضطربا ، عن النثر ، إلى الفترة الثانية من نظم الشعر ، وهى فترة بالغة الروعة والعظمة .

٧ — الشاعر العجوز : ١٦٦٠ — ١٦٦٧

وجد ملتون بعض السلوى والعزاء فى العزف على الأرغن وفى الغناء ، ويقول أوبرى « كان صوته رخيما رقيقا[١٠١] » وفى ١٦٦١ انتقل إلى دار أخرى ، وفى ١٦٦٤ استقر به المقام نهائيا فى بيت فى Artillery WolK ، فيه حديقة صغيرة استطاع أن يتمشى فيها دون أن يقوده أحد سوى يديه وقدميه . وكثيرا ماقدم إليه أبناء أخته لزيارته ومعاونته ، وقد نسوا ماكان لهم من ضرب فى سابق الأيام ، كما جاء إليه الأصدقاء ليقرأوا له ، أو يستكتبوا ما يمليه عليهم . وتولى بناته الثلاث خدمته بصبر نافد وجهد جهيد . وكانت كبراهن — آن — عرجاء شوهاء لكناء . وكانت ديبورا تتولى له الكتابة ، وتعلمت هى وأختها مارى قراءة اللاتينية واليونانية والعبرية والفرنسية والإيطالية والأسبانية ولو أنهما لم تكونا تفهمان ماتقرآن[١٠٢] . والحق أن أيامنهن لم تذهب قط إلى مدرسة ، ولكنهن تلقين بعض الدروس الخاصة . ولكن لم يحظين من التعليم إلا بأقل نصيب ، على أحسن الفروض وباع ملتون معظم مكتبته قبل وفاته ، لأن بناته لم تعنين بالكتب إلا قليلا . وشكا من أنهن بعن الكتب خفية ، وأنهن أهملن شأنه فى وقت الحاجة والشدة ، وأنهن تآمرن مع الخدم على مغالطته وسلبه عند شراء حاجيات المنزل[١٠٣] ، ولم يشعر البنات بالسعادة فى هذا البيت الكئيب ، مع والد قاس كثير المطالب سريع الغضب . ولما سمعت ابنته مارى بأنه يرتب لزواج جديد قالت : « ليس ثمة أنباء تستحق أن تسمع عن زفافه ، ولكن النبأ الجدير بالاستماع هو نبأ وفاته »[١٠٤] . واتخذ ملتون فى ١٦٦٣ ، وهو آنذاك فى الخامسة والخمسين ، زوجة ثالثة ، هى اليزابث منشول M nshull ، وكانت فى الرابعة والعشرين من العمر . وتولت خدمته

بإخلاص وأمانة حتى آخر أيام حياته . وبعد سبع سنوات مع زوجة الأب التى وصفها أوبرى بأنها « وديعة مسالمة مرحة مقبولة »(١٠٥) هجر البنات الثلاث منزل والدهن ، ليتعلمن ، على نفقة ملتون بعض الحرف .

وكانت عودة الملك قد كلفته كثيراً ، وكادت أن تكلفه حياته ، ولكنها مهدت الطريق لنظم « الفردوس المفقود » . فلولاها ربما أفنى ملتون نفسه فى التراشق بالنشر فى المعركة ، لأن « المقاتل » كان فى مثل قوة « الشاعر » فى شخصه . وبرغم هذا كله ، لم يودع ملتون قط الأمل فى أن يكتب لانجلترا شيئاً تتغنى به لقرون قادمة . وفى ١٦٤٠ أعد بياناً بموضوعات يمكن أن تكون ملحمة أو دراما ، كان من بينها موضوع خطيئة آدم (خروجه من الجنة) ، وأساطير الملك آرثر (ملك بريطانيا الذى يفترض أنه عاش فى القرن السادس ق . م ، وبطل المائدة المستديرة) وتأرجح بين اللاتينية والإنجليزية ، بأيتهما يكتب ، وحتى حين قرقراره على « الفردوس المفقود » ، موضوعاً له ، فكر فى أن يكتبه على شكل مأساة إغريقية ، أو رواية دينية ، على غرار روايات العصور الوسطى ، وفى أوقات مختلفة نظم بعض أبيات أو مقطوعات أدخلت فيما بعد فى القصيدة . ولم يتسن له إلا بعد وفاة كرومول ، أن يجد فسحة من الوقت يومياً ، ليكتب الملحمة ، وفى ١٦٥٨ فقد بصره تماماً .

فى الأيام السود ، وألسنة السوء ، ولو أنها ولت ، فقد لفنا الظلام واكتنفتنا الأخطار من كل جانب(١٠٦) .

وتواردت على ذهنه الأبيات ، حين كان يرقد عاجزاً أرقاً ، ويكاد ينفجر بها . فينادى على من يكتب له قائلا : « إنه يحتاج إلى من يحلبه(١٠٧) » . وكانت تنتابه حمى الشعر ، فيملى أربعين بيتاً « فى نفس واحد » ، ثم يجد فى تصحيحها عندما تعاد تلاوتها عليه . ويحتمل ألا تكون ثمة قصيدة نظمت بمثل هذا الجد والكد والشجاعة والجراءة . وداخل ملتون شعور قوى بأنه يمثل لانجلترا هوميروس واشعيا معاً ، حيث اعتقد بأن الشاعر

صوت الله ، وأنه نبي أوحى إليه أن يعلم الناس .

وفى ١٦٦٥ ، حين انتشر الطاعون بلندن ، اتخذ التدابير صديق سجين من الكويكرز ، هو توماس الوود ، لنقل ملتون ليقيم فى « كوخه المكون من عشر حجرات فى « كالفونت سانت شيل فى بكنجهامشير » . وهناك فى هذه « المقصورة الجميلة » أكمل الشاعر « الفردوس المفقود » ولكن من ذا الذى يقدم على نشرها ؟ لقد كانت لندن فى اضطراب بالغ فى ١٦٦٥ — ١٦٦٦ بسبب الحريق الذى جاء فى أعقاب الطاعون ، وإذا كان ثمة شىء من الفرح والمرح باق ، فهو عودة الملكية فى صخبها وعربدتها . وفى حالة نفسية ليس معها مجال للملحمة من ١٠٥٥٨ بيتا عن الخطيئة الأولى . لقد حصل ملتون من قبل على ألف من الجنيهات عن رسالته « دفاع الشعب الإنجليزى » أما الآن ، فى ٢٧ أبريل ١٦٦٧ ، فقد باع كل حقوقه فى « الفردوس المفقود » إلى الناشر صمويل سيمونز لقاء خمسة جنيهات نقداً ، مع الاتفاق على دفعات أخرى قيمة كل منها خمسة جنيهات ، يتوقف تسديدها على مايباع من الكتاب ، فكان كل ما حصل عليه هو ١٨ جنيها(١٠٨) . ونشرت القصيدة فى أغسطس ١٦٦٧ . وبيع منها فى العامين الأولين ١٣٠٠ نسخة ، وفى الأحد عشر عاما الأولى بيع ٣٠٠٠ نسخة . وربما لا يقبل على قراءة القصيدة بأكملها مثل هذا العدد من القراء فى أية سنة فى أيامنا هذه ، فليس لدينا فراغ كبير ، حتى لقد اخترعنا كثيرا من الأدوات التى توفر الجهد .

وتشترك « الفردوس المفقود » مع « الياذة فرجيل » ، فيما أصاب كلتيهما من نكسة وتعويق ، لظهورهما بعد الياذة هوميروس ، فان مشاهد للمعركة والمحاربين الخارقين للطبيعة يفقدون قوتهم وسحرهم ، لكونهم تقليدا ومحاكاة . ولا ريب فى أن هوميروس قلد نماذج قديمة ، ولكننا نسيناها ولم نعد نذكرها ، وذهب جونسون إلى أن « الفردوس المفقود » ، بطبيعة موضوعها ، تمتاز على ما عداها ، بأنها ممتعة مشوقة للجميع دائما « ولكنه

اعترف بأن « أحدا لم تساوره الرغبة فى أن تكون أطول مما هى(١٠٩) ».
أن موضوع « الخطيئة الأولى للإنسان . وثمار الشجرة المحرمة التى جلب مذاقها القاتل الموت والفناء على العالم ، وجلب علينا كل الكروب والويلات » ، كان موضوعا مناسبا إلى حد كبير ، لأيام شباب ملتون ، حين كان يتلقى سفر التكوين على أنه تاريخ ، وحين كانت الجنة والنار ، والملائكة والشياطين ، هى نسيج التفكير اليومى . أما اليوم فان موضوع القصيدة أكبر عائق فى سبيلها ، إنها قصة خرافية تروى للشبان فى أحد عشر قسما ، وأن الاستمرار فى مشاهدة مثل هذا العرض الطويل اللاهوت من البداية حتى النهاية جاف قاس عتيق ، ليتطلب اليوم جهدا شاقا متصلا . وما كان الهراء ليسبغ عليه يوما مثل السمو والرفعة قط . ان عظمة المشهد وجلاله ، ومعانقة الجنة والنار والأرض ، والانسياب الفخم المهيب للشعر المرسل ، ومعالجة الموضوع المعقد ببراعة فائقة ، والوصف الرقيق الجديد للطبيعة ، والمحاولة الموفقة لأسباغ الوقعية والشخصية على آدم وحواء ، وكثرة القطع الشعرية البالغة الروعة والقوة ، كل أولئك بعض الأسباب التى جعلت من « الفردوس المفقود » أعظم قصيدة فى اللغة الإنجليزية .

وتبدأ القصه فى جهنم حيث الشيطان على هيئه طائر « ضخم الجسم » ، ذى جناحين مبسوطين ، ينصح ملائكته الهابطين بألا ييأسوا :

لم يضع كل شىء ، فان الإرادة التى لاتقهر ، وتدبر الأخذ بالثأر والكراهيه التى لايخبوا أوارها أبداً ، والشجاعه التى لا تخضع ولا تستسلم ، أما أن تنثنى متوسلة للرحمه ، على ركبتين ضارعتين ، وتعظم من سلطانه . . . فهذا أمر دنىء حقا هذا خزى وعار أنكى من هذا السقوط ويبقى العقل والروح ولا سبيل إلى قهرهما(١١٠) . . .

وكأنى بهذه الأبيات تردد صدى كرومول وهو يتحدى شارل الأول ، وصدى ملتون وهو يتحدى شارل الثانى ؛ وثمه عدة قطع فى وصف الشيطان تذكرنا بملتون :

عقل لايغير منه زمان أو مكان ، فالعقل راسخ فى مكانه ، يستطيع فى نفسه أن يجعل من الجنه جحيما ، ومن الجحيم جنه (١١١) .

وفى الأجزاء القديمه من القصيدة نجد أن فصاحه ملتون أغرته بأن يرسم لابليس صورة تكاد تتسم بالود والعطف ، وكأنه زعيم ثورة ضد السلطة الرسمية الاستبدادية . وتخلص الشاعر من أن يجعل الشيطان بطل الملحمة بتصويره ، فيما بعد ، بأنه «أبو الأكاذيب» الذى « يجثم مثل ضفدع الطين » أو كالأفعى التى تنزلق ملتوية فوق الوحل(١١٢) . ولكن فى هذا القسم من الملحمه نفسه ينهض الشيطان مدافعا عن المعرفه :

المعرفه محرمه محظورة ؟ لماذا ينفس عليهما ربهما ذلك ؟ هل تكون المعرفه اثما ؟ أو تكون فناء ؟ هل يعيشان (آدم وحواء) على الجهل وحده ؟ أو أن حالتهما السعيدة هى دليل طاعتهما وإيمانهما ؟ سأثير فى عقليهما مزيدا من الرغبه فى المعرفه(١١٣) . . .

ومن ثم يحاور حواء وكأن كنيسة عقلانيه تحمل على كنيسة جامدة تعيش فى ظلام الجهل ، تقف عقبه كأداة فى طريق انتشار المعرفه :

لماذا إذن كان هذا التحريم ؟ . لماذا كان ، إلا ليرهب عباده ويبقيهم على حالة من الإنحطاط والجهل ، إنه يعلم أنه فى اليوم الذى تأكلان من تلكما الشجرة ، فان أعينكما التى تبدو الآن صافيه ولكنها كليلة ، سوف تنفتح وتصفو تمام الانفتاح والصفاء ، ومن ثم تكونان مثل الآلهه(١١٤) .

ويأمر روفائيل ، وهو أحد الملائكة ، آدم ، بأن يكبت من حبه لاستطلاع الكون ، فليس من الحكمة أن يتطلع الانسان إلى معرفة ماوراء نطاقه الفانى(١١٥) فالإيمان أعقل من المعرفة .

وكان لنا أن نتوقع ألا يفسر ملتون « الخطيئة الأولى » بأنها رغبة فى المعرفة ، بل أنها علاقة جنسية . أنه على النقيض من ذلك ، ينشد تسبيحة غير بيوريتانيه اطلاقا ، من أجل مشروعيه اللذة الجنسيه ، فى حدود الزواج ، ويصور آدم وحواء منغمسين فى مثل هذه القيم المادية ، مع

بقائهما على « حالة البراءة »(١١٦) ، ولكن بعد « الخطيئه » أى أكل الفاكهه المحرمه من شجرة المعرفه — بدأا يستشعران الخزى والعار فى الاتصال الجنسى(١١٧) . وهنا ينظر آدم إلى حواء على أنهما مصدر كل الشر ، « ضلع أعوج بالطبيعه » ويرثى لأن الله خلق المرأة :

لماذا خلق الله فى النهايه هذه البدعه على الأرض ، هذه العلة الجميلة فى الطبيعه ، ولم يملأ العالم على الفور ، برجال مثل الملائكة ، دون إناث ، أو يجد طريقة أخرى لتوالد بنى البشر(١١٨) ؟ .

ومن ثم فان الإنسان الأول ، فى تاريخ الزواج فى الكتاب المقدس ، سرعان ما اصطنع ذريعة ليطلق الرجل زوجته فى سهولة ويسر ، وهنا نجد ملتون ينسى آدم ، ويكرر شعرا ما سبق أن ذكره نثرا ، عن خضوع المرأة خضوعا حقيقيا تاما للرجل(١١٩) . وسيعود إلى هذه اللازمة فى قصيدة « Samson Agonistes »(١٢٠) . فهى حلمه الأثير الحبيب إلى نفسه . وفى رسالته السرية « العقيدة المسيحية » دافع عن إعادة « تعدد الزوجات » ألم يجزه العهد القديم . ألم يترك العهد الجديد هذا القانون الحكيم الشجاع دون إلغاء أو تعطيل ؟(١٢١) .

ومهما فسرت « مخالفة الإنسان الأول لأمر ربه » (الخطيئة الأولى) ، فقد ثبت أنها موضوع أصغر من أن يملأ اثنى عشر قسما ، لأن الملحمة تتطلب سلسلة من الأحداث والأعمال ، ولكن حيث أن ثورة الملائكة انتهت حين بدأت القصة . فان المسرحية لا تدخل إلى القصيدة إلا عن طريق الذكريات أو العودة إلى الماضى ، وهو صدى آخذ فى الذبول والزوال . ومشاهد المعركة موصوفة وصفا جيدا ، بما فى ذلك التصارع المناسب بالسلاح ، وشج الرؤوس وتقطيع الأوصال ، ولكن من العسير أن تشعر بالألم أو بنشوة الابتهاج لهذه الضربات الخيالية . وعلى غرار الكتاب المسرحيين الفرنسيين يطلق ملتون لنفسه العنان للخطابة ، فالجميع ابتداء من « الله » إلى حواء يخطبون ، ولم يجد الشيطان فى سعير جهنم مايحول بينه وبين البلاغة وأنه

لمن المزعج حقا أن نعلم أنه حتى فى الجحيم سنكون مضطرين إلى الاستماع إلى محاضرات » .

« والرب » فى هذه القصيدة ليس هو التألق الذى يجل عن الوصف الذى تحس به فى « جنة دانتى » فهو فى القصيدة فيلسوف سكولاس (فيلسوف نصرانى من العصور الوسطى) ، يدلى بأسباب مطولة غير مقنعة ، لأنه وهو القادر على كل شىء ، يجيز للشيطان أن يوجد ، وأن يغوى الإنسان ، متنبئا ، طوال الوقت ، بأن هذا الإنسان سيذل ويخضع ، ويجلب على البشرية بأسرها قرونا من الخطيئة والشقاء والتعاسة . ويحاج بأنه بدون حرية الإثم لا تكون الفضيلة ، وبدون التجربة لا توجد الحكمة والتعقل ، ويرى أنه من الأفضل أن يواجه الإنسان الإغراء ويقاومه ، من عدم التعرض للاغراء اطلاقا ، دون أن يتوقع أبدا أن الصلوات سوف تتوسل إلى الله ألا يقود الإنسان إلى الغواية والإغراء . ومن ذا الذى يطيق التعاطف مع تمرد الشيطان على هذا السادى الذى لا يصدق ؟ (السادية : الابتهاج بالقسوة المفرطة) .

وهل كان ملتون يؤمن حقا بهذا الهول الجبرى المقدر ؟ . من الواضح أنه كان كذلك ، لأنه بسط الكلام فيه ، لا فى « الفردوس المفقود » فحسب ، بل فى رسالته المرية « العقيدة المسيحية » كذلك ١٢٢) . أى أن الله ، قبل خلق الإنسان بزمن طويل ، قدر أى الأرواح يكتب لها الخلاص ، وأيها قدر عليها العذاب المقيم . وانطوت هذه الرسالة ، على أية حال ، على شىء من الهرطقة . ولم ينشرها ملتون قط ، ولم يكشف أمرها إلا فى ١٨٢٣ ، ولم تصل إلى المطبعة إلا فى ١٨٢٥ .

إن هذه الرسالة وثيقة جديرة بالذكر ، فهى تبدأ فى إطار من التقوى ، ودون جدل أو لجاجة ، بافتراض أن كل كلمة فى الكتاب المقدس هى وحى من عند الله . وسلم ملتون بأن نصوص الكتاب المقدس قد طرأ عليها « التزييف والتشويه والتبديل » ولكنها حتى فى صيغتها الراهنة ، من صنع

الله . وهو لايجيز غير التفسير الحرفى الأمين . فإذا جاءت الأسفار بأن « الرب » ، إستراح ،أو خاف ، أو ندم ، أو كان غاضبا ، أو حزينا ، فإنه ينبغى أن تؤخذ هـذه الألفاظ بمعناها الظاهرى ، وألا تخفف على أنها مجازات ، بل كذلك أجزاء الجسم والصفات الجسدية التى تنسب إلى « الله » يجب قبولها على أنها حقيقية من الوجهه الماديه[١٢٣] . ولكن « الله » بالإضافه إلى هذا الكشف الظاهرى الذى جاءت به الأسفار المقدسه والذى يكشف به عن كنهه فإنه ، زودنا بوحى داخلى ، هو الروح القدس الذى يتحدث فى داخل قلوبنا. وهذا الوحى الداخلى «الملك الخاص لكل مؤمن ، أسمى بكثير ... ومرشد أصدق ، من الأسفار المقدسة[١٢٤] . ومهما يكن من أمر ، فإن ملتون يقتبس من الكتاب المقدس ، مايؤيد ما يسوق من حجج ، على أنه البرهان الحاسم الدامغ .

وعلى أساس من الأسفار المقدسة ، ينبذ ملتون نظرية الثالوث الأقدس التقليدية ، ويؤثر عليها هرطقة آريوس (الذى يقول بأن المسيح ليس من مادة الله ، بل هو خير خلقه فقط) ، فالمسيح بكل معنى الكلمة ، ابن الله ، ولكن الأب ولده فى زمن ما ، ومن ثم فهو غير معاصر للأب وليس متساويا معه أبدا . فالمسيح هو الوسيط الذى خلقه الله على أنه « اللوجوس أى الكلمة » الذى سيخلق منها كل من عداه . ولا يسلم ملتون « بالخلق من العدم » ، فعالم المادة ، مثل عالم الروح ، إنبثاق أو فيض سرمدى من المادة الآلهية . وحتى الروح نفسها ، فهى مادة رقيقة جدا أثيرية ، ولا يجوز تمييزها تمييزا حادا عن المادة . وفى النهاية ، المادة والروح ، والجسم والنفس فى الإنسان ، شىء واحد[١٢٥] . وثمة شبه كبير يستحق الملاحظة بين هذه الآراء ، وآراء هوبز (١٥٨٨ — ١٦٨٩) وسبينوزا (١٦٣٢ — ١٦٧٧) ، وقد ترى أنهما فارقا الحياة فى نفس العقد من السنين الذى مات فيه ملتون (١٦٠٨ — ١٦٧٤) . وربما اطلع ملتون على مؤلفات هوبز التى كان لها دوى ملحوظ فى بلاط شارل الثانى .

وظلت عقيدة ملتون خليطا غريبا من التوحيد والمادية ، ومن مذهب حرية الإرادة عند جاكوب أرمينيوس (لاهوتى برتستانتى هولندى ١٥٦٠ — ١٦٠٩) ، ومن مذهب الجبرية أو القضاء والقدر عند كالفن . ويبدو فى كتاباته أنه كان رجلا متعمقا فى أمور الدين . ومع ذلك لم يذهب قط إلى الكنيسة حتى قبل فقـــد بصره ، ولم يقم الشعائر الدينية فى بيته(١٢٦) . وكتب دكتور جونسون : « فى توزيع ساعاته لم يخصص وقتا للصلاة ، وحده ، أو مع أهل بيته . وحذف الصلوات العامة ، لقد حذف الصلوات جميعا ١٢٧) » . وازدرى رجال الدين ، ونعى على كرومول احتفاظه بعدد من رجال الدين تدفع الدولة رواتبهم ، على أنه لون من « عبادة الأوثان » ، يؤذى الدولة والكنيسة معا(١٢٨) . وفى أحد بياناته الأخيرة « بحث فى العقيدة الحقة ، والهرطقة والإنشقاق عن الكنيسة والتسامح ، وأمثل الطرق للحيلولة دون نمو البابوية » (١٦٣٣) عارض بطريق مباشر الاعلان الثانى الذى أصدره شارل الثانى عن التسامح (١٦٧٢) ، محذرا انجلترا من التسامح مع الكاثوليك وأنصار التوحيد ، أو أية شيعة أخرى لا تعترف بالكتاب المقدس أساسا وحيدا لمذهبها .

أن هذا الرجل الذى تفوح منه رائحة الهرطقة ، عرف عنه مقاومة رجال الدين وتدخلهم فى الشئون العامة والخروج على الكنيسة ، هو نفس الرجل الذى أخرج للعقيدة المسيحيه أكرم شرح حديث لها .

٨ — السنوات الأخيرة : ١٦٦٧ - ١٦٧٤

احتفظ ملتون مع دخوله فى العقد السابع من العمر ، فيما خلا فقد البصر ، بصحه جسمه وإعتداده بنفسه ، وهما اللذان دعماه وسانداه فى كل الصراعات الدينيه والسياسة التى خاضها . ويصفه أوبرى بأنه « نحيل ... متوسط القامه » ... فهو جسم جميل متناسب الأجزاء ، وبشرته فوق المتوسطه ... صحيح الجسم ، لايشكو علة ، قلما يتناول الدواء ، وكل مافى الأمر أن النقرس انتابه فى أخريات أيامه(١٢٩ » . وكان شعره الذى فرقه

فى الوسط يتدلى على كتفيه فى حليقات أو عقصات • ولم تنبىء عيناه عن فقد بصره • وظلت مشيته ثابتة منتصبه • وكان إذا غادر بيته بدا على زيه شدة الحساسه والكلف بملابسه ، وتمنطق بسيف، لأنه كان فخورا ببراعته فى المبارزة واللعب بالسيف(١٣٠) • وأضفت عليه الثقة الزائدة عن الحد وقارا ، وعزوفا عن المرح • ولكنه كان مع ذلك حلو الحديث إلا إذا لقى معارضه • ولم يكن بيوريتانيا بكل معنى الكلمه : كان عنده شعور البيوريتانيين بالإثم ، والجحيم والإصطفاء والأسفار المقدسه التى لا تخطىء ، ولكنه استساغ الجمال واستمتع بالموسيقى ، وألف روايه ، واحتاج إلى عدة زوجات ، وتخلفت آثارة من حيويه عصر النزابث وسط رزانته الخاليه من المرح • وكان أنانيا ، أو أنه كشف عن أنانيته الطبيعيه إلى حد الافراط غير المألوف • إنه كما قال أنطونى رود : « لم يكن يجهل مواهبه(١٣١) » ، وكما قال جونسون « قل من الرجال من كتب كثيرا وامتدح قليلا من الناس ، مثله(١٣٢) » ، وربما تطلبت العبقريه أنانيه يدعمها اعتداد داخلى بالنفس ، حتى تقف فى ثبات فى وجه الجمهور • إن أثقل ما يمكن قبوله فى ملتون هو طاقه الكراهيه والبغضاء عنده ، وإساءته المفرطه لمن اختلفوا عنه وذهب إلى أنه ينبغى علينا أن نصلى من أجل اعدائنا ، ولكن ينبغى أيضاً أن نستنزل اللعنات جهاراً على أعداء الله وأعداء الكنيسه ، وكذلك على الأخوان المضللين الزائفين ، أو من يقترفون الآثام الفظيعه ضد الله ، أو حتى ضد أنفسهم(١٣٣) » • أما الوجه الآخر لهذه العاطفه المشبوبه ، فهو شجاعه النبى فى استنكار زمانه ، فإنه بدلا من أن يكمم فاه ماااقترن بعودة الملكيه من شغب وصخب ، هاجم فى عنف ، غراميات البلاط « فى عهد شارل الثانى » « والشهوات والاغتصاب » فى القصور ، و « البسمات المشتراة على شفاه بنات الهوى » و « المسرحيات الخليعه أو حفلات الرقص فى منتصف الليل(١٣٤) » •

وكأنما كان ملتون يقذف ، بآخر سهم فى جعبته تحديا للعصر المظلم ،

حين نشر فى يوم واحد (٢٠ سبتمبر ١٦٧٠) فى غير ماشفقه ولا رحمة ، اثنين من أعماله : « الفردوس المستعاد » و « شمشون الجبار » . فى ١٦٦٥ بعد أن انتهى توماس الوود من قراءة ملحمة ملتون الأولى تحداه قائلا : « لقد تحدثت هنا كثيرا عن الفردوس المفقود ، فماذا عساك تقول الآن عن الفردوس الذى وجد ؟(١٣٥) » ، وطرقت الفكرة ذهنه بشدة ، ولكنه تساءل : كيف يعرض استعادة الفردوس فى أيه مرحلة فى التاريخ ، فإن موت المسيح نفسه لم يطهر الإنسان من الجريمة والشهوة والحرب ولكنه فكر أنه رأى فى مقاومة المسيح لاغراء الشيطان ، وعدا بأن جانب الله فى الإنسان لابد يوما أن يقهر جانب الشيطان فى الإنسان نفسه ، ويهيئه للحياة تحت حكم المسيح والعدالة على الأرض .

ومن ثم فان ملتون فى الأقسام الأربعة من « الفردوس المسترد » ، لم يركز فى حياة المسيح على الصلب ، بل على « تجربة الاغراء فى البرية » ، حيث يقدم الشيطان للمسيح « ولدانا ... أجمل من سقاة الآلهة » ، ثم « الحور والعذارى الفاتنات ، وسيدات من حدائق التفاح الذهبى » ثم يعرض عليه المال والثراء — ولكن أولئك دون جدوى . ثم يريه الشيطان رومه الإمبراطورية تحت حكم تيبريوس المنهوك المكروه الذى لم يعقب ، فهلا يريد المسيح أن يقود ثورة بعون من الشيطان ، وينصب نفسه امبراطور على العالم ؟ . ولما لم يرق هذا فى عيني يسوع ، ولم يستهو قلبه فإن الشيطان أراه أثينا بلد أرسطو وأفلاطون ، فهلا رغب فى اللحاق بهما ليكون فيلسوفا ؟ ثم يدخل المسيح والشيطان فى حوار غريب حول مزايا الأدب اليونانى والعبرى . فينحاز المسيح إلى جانب أنبياء وشعراء بني إسرائيل على أنهم أسمى بكثير من اليونانيين :

أخذت اليونان عنا هذه الفنون ، ولم تحسن تقليدها(١٣٧) .

وبعد قسمين من الملحمة استغرقهما الحوار ، أقر الشيطان بهزيمته ، وبسط جناحيه وطار ، على حين تتجمع فرقة من الملائكة حول المسيح

المنتصر ، وتنشد :

الآن انتقمت لآدم المغدور به ، وبالتغلب على الإغراء استعدت الفردوس المفقود(١٣٨) .

ولم يرو ملتون لنا القصة بمثل الروعة الفياضة الرنانة التي تجلت في الملحمة الأولى الكبرى ، ولكن بمثل براعته في الشعر ، وميله إلى المحاجة ، وهما أمران معهودان فيه ، كما كشف في القصة طوال الوقت عن سعة معلوماته في الجغرافية والتاريخ . ولم يستمر في القصة حتى حادث صلب المسيح ، وربما كان مرد ذلك إلى أنه لم يتفق مع القائلين بأن موت المسيح هو الذي فتح أبواب الجنة من جديد . فالفضيلة وضبط النفس وحدهما اللذان يجلبان السعادة . ولم يدرك ملتون قط لما رفضت إنجلترا أن تأخذ مأخذ الجد ، إعادة كتابة الأناجيل على هذا الشكل المضحك ، وذهب إلى القول بأن الملحمة الثانية ليست أقل من الملحمة الأولى ، اللهم إلا من حيث مداها(١٣٩) . وكان لا يطيق أن يسمع أن « الفردوس المفقود » تفضل « الفردوس المسترد »(١٤٠) .

وتألقت عبقرية ملتون لآخر مرة في « شمشون أجونست — الجبار » . إنه بعد أن تحدى هوميروس وفرجيل ودانتي ، بملحمته ، نراه الآن يتحدى أخيلس وسوفوكليس برواية ارتضت كل قيود المأساة (التراجيديا) اليونانية . وهو في المقدمة يطلب إلى القارئ أن يلحظ أن المسرحية (الدراما) تخضع للوحدات التقليدية القديمة ، وتتجنب « خطأ الشاعر في خلط المادة الهزلية (الكوميدية) بأحزان المأساة ووقارها ورهبتها ، أو في إدخال شخوص تافهين متبذلين . وهنا نجد ملتون يولي ظهره لعصر اليزابث ، ويشق طريقه إلى اليونان ولا يبعد كثيراً عن النماذج اليونانية . إن شمشون الذي فارقته قوته بعد أن حلقت دليلة سبع خصلات من شعر رأسه ، وقلع من أوثقوه من الفلسطينيين عينيه ، نقول أن شمشون هذا لا يحكي فقط ، أوديب المكفوف في كولونس ، بل أنه يحكي ملتون نفسه يعيش في عالم بغيض لا يرى منه أثراً —

« ضريرين أعداء ، أواه هذا شيء أسوأ من الأغلال أو الزنزانة أو التسول ، أو العجز بفعل الهرم ، فالضياء ، وهو فاتحة صنع الله ، منطفيء أمامي ، ولا أملك من مباهجه شيئاً . ربما كان يهدئ من آلامي وأحزاني ، آه ، أه ظلام والقتام والحلكة وسط وهج النور عند الظهيرة ، ينشر كسوفا كليا لا خلاص منه ، دون أي أمل في بزوغ النهار (١٤١) ».

والحق أن الرواية كلها يمكن تفسيرها بأنها قصة رمزية متناغمة متماسكة : فملتون هو شمشون يناضل ويتعذب في محنته ، وبنو إسرائيل المقهورون هم البيوريتانيون ، أي الشعب المختار حطمته عودة الملكية ، والفلسطينيون هم الملكيون الوثنيون المنتصرون ، وهدم هيكلهم يكاد يكون تنبؤا « بالثورة الجليلة » التي أطاحت بآل ستيورات « الوثنيين » في ١٦٨٨ . أما دليلة فهي المرأة الخائنة ماري باول Powell . وتكرر فرقة الموسيقى (الكورس) حجج ملتون ومناقشاته من أجل الطلاق (١٤٢) . ويكاد ملتون يكون قد تخلص من غضبه وحقده بترديد تلك الحجج والمناقشات على لسان شمشون الذي يتقبل نهايته التي لا بد آتية :

« سوف تمضي سلالة المجد ، أما سلالة الخزي والعار التي ستبقى فسألحق بها وشيكا (١٤٣) » .

وفي يوليه ١٦٧٤ أحس ملتون بأنه يضعف وتنحط قواه ، ولأسباب لا نعلمها أهمل تدوين وصيته . وبدلا من ذلك ، وجه إلى أخيه كريستوفر وصية « شفوية » تكاد تكون غير مسطورة ، نقلها كريستوفر على الوجه الآتي :

« أخي ، إني أترك نصيبي من تركه مستر باول Powell والد زوجتي السابقة ، لأولادي العاقين ، ولكني لم أتسلم شيئاً منه ووصيتي ومقصدي ألا يستولوا على أي جزء آخر من ضيعتي أكثر من الجزء المذكور ، ومما ضيعت من أجلهم ، غيره ، لأنهم قصروا أشد التقصير في القيام بواجبهم نحوي ، أما بقية ضيعتي فأني أضعها تحت تصرف زوجتي الحبيبة اليزابث » (١٤٤) وأعاد ملتون هذه الوصية الشفوية على أسماع زوجته وأناس غيرها في أوقات مختلفة .

وتشبث ملتون بالحياة فى عزيمة قوية . ولكن آلام النقرس اشتدت عليه يوما بعد يوم حتى شلت يداه وقدماه . وفى ٨ نوفمبر ١٦٧٤ أنهكت الحمى قواه ، وفارق الحياة فى تلك الليلة . وعاش ملتون خمسا وستين سنة وسبعة أشهر . ودفن فى مقبرة كنيسة الأبرشية ، فى سانت جيل كربلجيت ، بجوار والده .

وكان القانون الإنجليزى يعترف بالوصايا الشفوية حتى ١٦٧٧ ، ولكن المحاكم كانت تدقق فيها تدقيقاً شديداً . واعترض البنات على وصية أبيهم ، ورفضها القاضى ، وأعطى ثلثى المال للزوجة ، والثلث الباقى ، وقدره ٣٠٠ جنيه للبنات . أما الحصة فى أموال باول فلم يدفع منها شىء قط .

وأنا لنعلم عن ملتون أكثر كثيراً مما نعلم عن شكسبير ، ولا بد من تدوين الكثير عنه حتى نخرج له صورة حقيقية أو نصفه وصفا كاملا . ولكننا لا نزال نجهل مايكفى للحكم عليه ـ إذا كان هذا ممكنا بالنسبة لأى رجل . فنحن لا نعلم ، بشكل كاف ، لماذا أثار بناته إستياءه إلى هذا الحد ، ولا كيف عاملن زوجته الثالثة التى واسته وأراحته فى سنى شيخوخته ، ولكننا نستطيع فقط أن نبدى الأسف على أنه عجز عن كسب حبهم . ولسنا ندرى بالتفصيل لماذا ارتضى أن يكون رقيبا على الصحافة أيام كرومول ، بعد دفاعه المجيد عن « حرية المطبوعات » . ويمكن أن نعزو كثيراً من تعسفه وبذاءته فى الخصومة إلى أحوال العصر ومعاييره . وقد نغتفر غروره وأنانيته باعتبارهما الركيزة التى تستند إليها العبقرية إذا لم تجد إلا القليل من ثناء الدنيا واطرائها . ولسنا بحاجة إلى الاستمتاع به رجلا ، والإعجاب به شاعراً ، وواحداً من أعظم الناثرين الإنجليز .

إن الذين يعتزمون قراءة الفردوس المفقود من البداية إلى النهاية ، سيتولاهم الدهش إذ يجدون أنها غالبا ما تحلق فى آفاق عالية من الخيال والبيان ، حتى ليغتفرون ان عاجلا أو آجلا ، الصفحات المملة المحشوة بالنقاش أو العلوم أو الجغرافيا ، وكأنها بمثابة فترات لالتقاط الأنفاس من من فرط التأثر والتحليق . وأنه لمن الحمق أن نتوقع أن تبقى هذه التحليقات

المفرطة فى التناغم والعاطفة بصفة مستمرة ، فقد يكون هذا فى القصائد القصيرة . وهناك فى نثر ملتون وبخاصة فى « الأريوباجيتيكا » ، قطع ، لا يسمو عليها ، فى قوتها وروعتها ، وفكرها وموسيقاها ، شىء من سلسلة الأدب الدنيوى فى العالم .

وأضفى عليه معاصروه شهرة يشوبها الحسد والتذمر ، وفى الفترة التى صعد فيها حزبه إلى منصة الحكم ، كان مناضلا ثائراً ، ونسيت قصائده الغنائية الأولى . ونشر ملتون قصائده الكبرى فى عهد عودة الملكية ، ذلك العهد الذى احتقر شيعته ، ورضى له البقاء على قيد الحياة ، على كره منه . وعندما طلب لويس الرابع عشر من سفيره فى لندن أن يعدد له أحسن الكتاب الإنجليز الأحياء ، كان جواب السفير : لا يوجد منهم من يستحق الذكر إلا ملتون الذى دافع من قبل ، من سوء الحظ ، عن قتل الملوك الذين كانوا آنذاك يشنقون أحياء أو أمواتا . وحتى فى هذا العصر المستهتر المشاغب ، على أيه حال ، نجد أن أشهر شعرائه ، جون دريدن ، الذى قال عنه ملتون من قبل أنه « ناظم قواف جيد ، وليس بشاعر(١٤٥) » . نقول ان دريدن هذا ، اعتبر « الفردوس المفقود » « من أعظم وأروع وأسمى ما أبدع هذا العصر وهذه الأمة من قصائد(١٤٦) » . وبعد أن دالت دولة أسرة ستيورات عاد إلى ملتون مجده ومكانته الرفيعة . وأطنب أديسون فى إمتداحه فى مجلة « سبكتاتور » . ومنذ ذلك الوقت إزدادت صورة ملتون رفعة وقداسة فى ضمير بريطانيا (١٤٧) حتى ناجاه وردزورث فى ١٨٠٢ :

«أى ملتون ، ما كان أجدرك أن تكون حيا بيننا فى هذه الساعة . . ، أن روحك مثل نجم رحل عنا بعيدا ، لقد كان لك صوت يهدر كالبحر ، صاف مثل السموات المكشوفة ، صوت كريم حر » .

أن نفسه كانت مثل أثر باق ، قام بعيدا عن أقرب الناس إليه ، ولكن عقله حلق مثل السموات العلى ، فوق كل هموم البشر ، وصوته يدوى فى الأسماع مثل « البحر المتلاطم الأمواج » عند هوميروس .

الفصل التاسع

عـــودة الملكية

١٦٦٠ — ١٦٨٥

١ — الملك السعيد

دخل الملك شارل الثانى لندن فى اليوم التاسع والعشرين من مايو ١٦٦٠، أى بعد ثلاثين سنة كاملة من مولده، وسط مظاهر فرح وابتهاج، تفوق كل ماتعيه ذاكرة انجلترا من مثلها، يواكبه عشرون ألفا من حرس المدينة، ترفرف أعلامهم اعتزازا وزهوا، ويلوحون بأسيافهم وسط شوارع انتشرت فيها الأزهار، تتدلى فيها البسط المزدانة بالرسوم والصور، تدوى فيها الطبول والنواقيس وهتافات الترحيب، وتكتظ بنصف سكان المدينة. وكتب ايفلين: « وقفت على « الشاطىء » ورأيت هذا المشهد « وحمدت الله[1] » . وهو مشهد كشف عن مزاج انجلترا، وخيبة البيوريتانيين واخفاقهم، فقد اقتضى خلـــع شارل الأول ست سنوات من الحروب والاضطرابات، على حين لم ترق نقطة دم واحدة فى سبيل عودة ابنه إلى العرش. وتقاطر الإنجليز على قصر هويتهول لتحية الملك، طوال هذا الصيف الذى غمرته البهجة. وقال أحد شهود العيان : « كان تلهف الرجال والنساء والأطفال على رؤية جلالته وتقبيل يديه، شديدا إلى حد أنه لم يكد يجد فسحة من الوقت لتناول الطعام لعدة أيام ... ولما كان الملك راغبا كل الرغبة فى ارضاء نفوسهم، فإنه لم يرد عنه أحدا، ولم يغلق الأبواب دون أى من الناس[2] » وصرح بأنه يريد أن يكون كل شعبه سعيدا مثله.

ولو أن الملك أخذ أية مشكلة مأخذ الجد فى أيام الظفر هذه، لجلت

الشدائد والمصاعب التى ورثها شهر العسل بالسواد والقتام . فقد بلغ رصيد الخزانة ١١ جنيها و ٢٨ شلنا و ١٠ بنسات ، وكانت الحكومة مدينة بمليونى جنيه . ولم تسدد رواتب الجيش والبحرية لعدة سنوات ، وكانت انجلترا فى حرب مع أسبانيا . وأخذت ميناء دنكرك ، بشكل غير مستقر ، لقاء مائة ألف جنيه سنويا ، وطالب بالتعويض عشرة آلاف من الفرسان الذين حاربوا من قبل فى صفوف شارل فسلبهم كرومول أموالهم . ثم أن عشرات الآلاف من الرجال الوطنيين قدموا ظلامات يلتمسون فيها إلحاقهم بالوظائف ذوات الرواتب الكبيرة والعمل اليسير ، وأجاب شارل على كل هذا بالإيجاب ، فى غير اكتراث ، تراوده الثقة فى أن يوفر البرلمان الاعتمادات .

وكان البرلمان ، بدوره ، سعيدا ، سيطرت عليه للوهلة الأولى ، نزعة الامتثال الموسوم بالابتهاج للملك العائد : إننا وأبناءنا من بعدنا نضع أنفسنا تحت تصرف جلالتكم ونلتزم بطاعتكم إلى الأبد[٣] » وقرر مجلس العموم « أن أعضاءه أنفسهم وشعب إنجلترا بأسره لن يبرأوا من الجريمة البشعة ، جريمة الثورة الأخيرة غير الطبيعية ، ولن ينجوا من العقوبات المترتبة على هذه الجريمة إلا إذا حظوا بصفح صاحب الجلالة وعفوه وبناءا على ذلك قصد إليه البرلمان بكامل هيئته وجثوا أمام الملك الضاحك المبتهج ، لينالوا غفرانه[٤] . وأحس مجلس العموم بمزيد من الإثم لأنه اجتمع دون دعوة من الملك ، أو دون موافقته ، ولذلك أطلق المجلس على نفسه متواضعا اسم « اجتماع أو مؤتمر » ، حتى تطيب نفس الملك ، فيعلن أنه برلمان شرعى[٥] . وبعد انتهاء هذه المراسم ، ألغى البرلمان كل التشريعات التى أصدرها البرلمان ولم يكن قد وافق عليها شارل الأول ، ولكنه أكد على الامتيازات التى كان ذلك المجلس قد منحها للبرلمان ، بما فى ذلك سيادة البرلمان فى كل ما يتعلق بالضرائب ، وثبت شارل الثانى هذه الامتيازات . وشارك البرلمان للملك الانتصار الحاسم الذى أحرزته السلطة المدنية على

السلطة العسكرية ، فدفعت الرواتب المتأخرة للجيش الذى حكم انجلترا لمدة عقد من السنين ، وسرح الجنود البالغ عددهم أربعين ألفا ، وانصرفوا إلى بيوتهم .

وكان شارل قد وافق على الصفح عن كل أعدائه ، فيما عدا من يستثنيهم البرلمان من العفو العام . وقضى البرلمان عدة أسابيع فى جدل حول من يسلمهم إلى يد الجلاد ، ومن يبقى على حياتهم . وفى ٢٧ يولية ١٦٦٠ ، شخص الملك إلى مجلس اللوردات ، مناشدا إياهم أن يصدروا قرارا سريعا حكيما :

« أيها اللوردات ، إنكم إذا لم تشاركونى فى القضاء على الخوف الذى استولى على قلوب الناس وأرقهم ، ... فإنكم بذلك تحولون بينى وبين الوفاء بالوعد الذى قطعته على نفسى ، وأنا مقتنع بأنه لولاه لما كنا ، لا أنا ولا أنتم هنا الآن ... ولقد أدركت جيدا أن هناك أناسا لا يمكن أن يغفروا لأنفسهم ما اقترفوه ، ولا أن نغفر لهم نحن ذلك .. وإنى لأشكر لكم عدالتكم مع هؤلاء — القتلة المباشرون لوالدى — ولكنى — وسأكون صادقا معكم — لم أفكر قط فى استثناء أحد غيرهم من العفو العام . أن هذه الرحمة ، وهذا التسامح هما خير وسيلة تجعل الناس يستشعرون خالص الندم . وتجعلهم رعايا صالحين مخلصين ، كما تجعلهم أصدقاء وجيرانا صالحين لكم أنتم(٦) » .

ورغب البرلمان فى التوسع فى عملية الانتقام ، ولكن شارل أصر على ألا يستثني من العفو إلا من وافقوا الحكم بإعدام والده(٧) . وكان ثلث هؤلاء قد فارقوا الحياة ، كما لاذ الثلث الثانى بالهروب ، وقبض على ٢٨ وحوكموا ، وحكم على ١٥ بالسجن مدى الحياة ، وشنق ١٣ ثم مزقوا أربا (١٣ ، ١٧ اكتوبر ١٦٦٠) . ويقول شاهد العيان بيبز : أن توماس هاريسون ، وهو أول من نفذ فيه الحكم ، « كان يبدو مرحا ، كما يمكن أن يفعل أى رجل فى مثل هذا الموقف » وتحدث بشجاعة من فوق المشنقة

قائلا أن دوره في الاقتراع على إعدام شارل الأول أملاه الله عليه(٨).
ويضيف بيبز « وفى الحال مزق أربا ، وعرض رأسه وقلبه على الجمهور ، فتعالت صيحات الفرح(٩) » وفى ٨ ديسمبر أصدر البرلمان أمرا بإخراج جثث كرومول وأيرتون وجون برادشو من كنيسة وستمنستر ، وتعليقها على أعواد المشانق. وتم ذلك بالفعل فى ٣٠ يناير ١٦٦١ ، وكأنما كان هذا لونا من الاحتفال بذكرى موت شارل الأول ، وعرضت رؤوسهم طيلة يوم كامل فى أعلى قاعة وستمنستر (حيث اجتمع البرلمان). ودفنت الأشلاء فى حفرة تحت مشنقة تيبرن ، كل أولئك جعل جون ايفلين يبتهج ويهلل « لحكم الله ، وهو حكم هائل تحار فيه الألباب(١٠) » . وثمة ضحية أخرى ، هارى فين ، الذى كان يوما محافظا لمستعمرة خليج ماساشوست ، فقد شنق فى ١٦٦٢ ، لأنه كان أداة فعالة فى تدبير إعدام سترافورد . وفى هذه القضية أغمضت رحمة الملك جفونها ، فقد وعد من قبل بالإبقاء على « سير هارى » الرجل الشعبي المحبوب ، ولكن جراءة السجين وشجاعته أثناء المحاكمة أوغرت صدر الملك فتحجر قلبه .

وفى ٢٩ ديسمبر ١٦٦٠ حل « المؤتمر » (البرلمان) نفسه ، حتى يمهد الطريق لانتخاب أعضاء أكثر تمثيلا للشعب . وفى غضون ذلك واجهت الحكومة أول مظاهرة عدائية تنازع فى شعبيتها فى العاصمة . أن هذه الحكومة لم تفعل شيئاً لاسكات الشيع الدينية التى ظلت تأمل فى نظام جمهورى : فكان المشيخيون وأنصار تجديد العماد والمستقلون وأصحاب مذهب الملكية الخامسة يخطبون ضد الملكية ، وتنبأوا بأن الإنتقام الإلهى سيحل بها سريعاً ، فيرسل الزلازل والدم والضفادع تنقض على بيوت موظفى الملك . وفى ٦ يناير ١٦٦١ ، وبينما كان الملك فى تورتسموث يودع أخته الحبيبة هنريتا وهى فى طريقها إلى فرنسا ، نادى بالتمرد والعصيان أحد المشتغلين بصناعة دنان النبيذ فى مجمع « لقديسى الملكية الخامسة » ، وعندئذ سلح سامعوه المهتاجون أنفسهم ، وأسرعوا إلى الشوارع يرددون أن المسيح

وحده هو الذى ينبغى أن يكون ملكا ، ويعملون القتل فى كل من اعترض سبيلهم ، وعاشت المدينة فى ظل الإرهاب طيلة نهارين وليلتين ، وانتشر « القديسون » فى كل مكان يقتلون الناس فى حماسة بالغة ، حتى تمكنت آخر الأمر فرقه صغيرة من الحراس كانت الحكومة الواثقة من نفسها تعتمد عليها فى حفظ الأمن ، من تطويق للشاغبين وإقتيادهم إلى حبل المشنقة . وعاد شارل مسرعا إلى العاصمة ، ونظم فرقا جديدة من الشرطة للمحافظة على الأمن فيها .

وفى ٢٣ أبريل ، فى يوم عيد سانت جورج راعى إنجلترا وحاميها ، توج الملك السعيد فى كنيسة وستمنستر ، فى كل مظاهر العظمة والجلال ، ذات القيمة الكبرى لدى الملوك والتى يعتز بهـا الشعب ، وحرص رجال الكنيسة الأنجليكانية التى استعادت مكانتها ، وهم يمسحون الملك الداعر بالزيت المقدس ، على التوكيد على تعهد الملك والتزامه بالدفاع عن العقيدة وعن الكنيسة . وفى مايو اجتمع « برلمان الفرسان » الذى سمى كذلك لأن غالبية أعضائه كانوا ملكيين أكثر من الملك ، متلهفين على الإنتقام من البيوريتانيين . ووجد شارل مشقة فى أن يثنيهم عن الاسترسال فى إعدام أعداء والده ، واسترد البرلمان ، من الوجهة النظرية ، كثيراً من الإمتيازات التى كان قد فقدها شارل الأول : من ذلك أنه لا يصبح أى تشريع نافذ المفعول إلا بعد أن يوافق عليه المجلسان كلاهما ، والملك . وكانت للملك السلطة العليا على القوات الإنجليزية المسلحة فى البر والبحر ، وأعاد البرلمان تنظيم مجلس اللوردات ، وأعاد إليه أساقفة الكنيسة الرسمية ، ولكنه رفض تجديد قاعة النجم أو محكمة اللجنة العليا وأبقى على حق التحقق فى قانونية القبض على المسجونين بغير محاكمة ، وأعيدت إلى الفرسان أملاكهم التى صادرها كرومول من قبل ، مع تعويض ضئيل لمن اشتروها ، واسترجعت الأرستقراطية القديمة ثراءها ونفوذها . وانقلبت الأسرات التى جردت من أملاكها على ملوك آل ستيوارت ، وانضمت فيما بعد إلى صغار النبلاء وأبناء

الطبقات الوسطى ليشكلوا « الأحرار » ضد « المحافظين » .. إن شارل في النصف الأول من حكمه بلغ من الضعف والوهن حدا لم يستطع معه أن يفرض أى قدر من السلطة المطلقة ، من ذلك أنه أجاز « لبرلمان الفرسان » أن يستمر لمدة سبعة عشر عاما ، على الرغم من حقه الشرعى فى حله . أنه كان من الناحية العملية ملكا دستوريا . فإن النتيجة الجوهرية لثورة ١٦٤٢ — ١٦٤٩ ، وانتقال السلطة العليا من يد الملك إلى البرلمان ، ثم من مجلس اللوردات إلى مجلس العموم ، كل أولئك عاش بعد عودة الملكية ، على الرغم من قيام الملكية المطلقة من الوجهة النظرية .

وكان من حسن حظ البرلمان أن شارل كان عزوفا عن الحكم ، وكأنه بعد أربعة عشر عاما من التشرد والشقاء ، قد منحته العناية الآلهية الحق فى السعادة والهناءة ، وأدخل جنات عدن التى وعد بها المسلمون . وكان الملك أحيانا ينهمك بجد وكد فى شئون الدولة ، وقد بولغ فى إهماله لها(١١) . وقبيل نهاية حكمه دهشت الأمة إذ رأته يأخذ كل شيء على عاتقه ، وينصرف بكليته إلى إدارة شئون البلاد فى كفاية وعزيمة صادقة . ولكنه فى أعوام العسل كان قد فوض إلى إدوارد هايد ، الذى عينه أرل كلارندون فى ١٦٦١ ، إدارة دفة الحكم ، بل تقرير السياسة .

وتسربت شخصية الملك ، بشكل مؤثر إلى عادات العصر وأخلاقه وسياسته وغلب الطابع الفرنسى على أصله وتعليمه . فأمه فرنسية ، وأبوه ابن حفيدة مارى جيز أو اللورين ، أضف إلى هذا جدا اسكتلنديا ودنمركيا وإيطاليا ، ومن ذلك نجد خليطا ضافيا ولكنه غير راسخ . لأنه عاش من سن السادسة عشرة إلى سن الثلاثين فى القارة ، حيث تعلم الأساليب الفرنسية ، ثم رآها فى أبهى صورها فى أخته هنريتا آن . وكان شعره الأسود وجلده الأسمر يذكران بجدته الإيطالية مارى دى مديتشى ، وكان مزاجه لاتينيا مثل والدة جدته لأمه مارى ملكة اسكتلنده ، وربما ورث عن جده الغسقونى هنرى نافار ، شفتيه الشهوانيتين وعينيه البراقتين وأنفه المتطفل .

بل وربما ميله إلى النساء كذلك .

أما فيما يتعلق بالناحية الجنسية ، فقد كان شارل الثانى أخزى قادة زمانه ، وأسوأهم ، فإن تصرفاته كانت أسوأ مثال تحتذيه حاشيته والمجتمع الإنجليزى والمسرح بعد عودة الملكية ، فانفلت الزمام للفجور والخلاعة فى هذه كلها ، وأننا لنعرف أسماء ثلاث عشرة من خليلاته ، أنه وهو فى الثامنة عشرة ، حين جاء من هولنده إلى إنجلترا ليقاتل من أجل والده ، وجد فسحة من الوقت لينجب من « السمراء الجميلة الجريئة » لوسى وولتر ، ولدا كبر وترعرع تحت اسم جيمس سكوت ، اعترف شارل ببنوته فيما بعد ، وعينه دوق موغوث . ولحقت لوسى بشارل فى القارة ، وخدمته بإخلاص ، والواضح أنه كان معها مساعدون آخرون لانعرف الآن أسماءهم . وفور أن استقر به المقام فى القصر الملكى ، دعا بربارا بالمر لتسرى عنه همومه وتخفف من متاعبه . وكانت بربارا هذه — مثل بربارا فلمييرز — قد أقامت لندن وأقعدتها بجمالها . وفى سن الثامنة عشرة (١٦٥٩) تزوجت من روجر بالمر الذى أصبح أرل كاسلمين . وفى سن التاسعة عشرة وجدت طريقها إلى مخدع الملك ، ومن ثم سيطرت على روحه الوادعة ، إلى حد أنه خصص لها جناحا فى قصر هويتهول ، وأنفق عليها أموالا طائلة وأجاز لها بيع المناصب السياسية ، والتحكم فى مصائر الوزراء . وولدت له ثلاثة أبناء وابنتين أعترف ببنوتهم جميعاً ، وساورته الشكوك على أية حال ، لأنها وسط حبها الشديد للملك ، لم تتورع عن الاتصال برجال آخرين(١٢) ، وازدادت تقواها بازدياد علاقاتها غير المشروعة . وفى ١٦٦٣ — أعلنت تحولها إلى الكاثوليكية . والتمس أقاربها من الملك أن يثنيها عن عزمها ، فأجابهم بأنه لم يتدخل قط فى « نفوس » السيدات(١٣) .

وفى ١٦٦١ فكر شـــارل فى أنه قد حان الوقت للزواج ، ومن بين المرشحات اختار كاترين براجنزا ابنة جون الرابع ملك البرتغال التى قدمت إليه مع صداق هيأته العناية الالهية ليفى بحاجات ملك مبذر ودولة تاجرة :

٥٠٠٫٠٠٠ جنيه نقداً ، وميناء طنجة ، وجزيرة (والمدينة الصغيرة فيما بعد) عباى ، وحرية الاتجار مع كل ممتلكات البرتغال فى آسيا وأمريكا وتعهدت انجلترا فى مقابل ذلك ، بمساعدة البرتغال فى المحافظة على استقلالها ولما وصلت الأميرة العروس الغالية إلى بورتسموث كان شارل فى استقبالها للترحيب بها ، وتزوجا فى ٢١ مايو وفقاً للطقوس الكاثوليكية أولا ثم الأنجليكانية ، وكتب شارل إلى والدتها يقول أنه « أسعد إنسان فى العالم » وأحسن معاملة حاشيتها من السيدات ذوات « التنورات » الواسعة المطوقة ، ومن الرهبان الوقورين ، ووقعت الأميرة فى غرامه لأول نظرة ، وسارت الأمور سيراً حسناً لعدة أسابيع ، ولكن فى يوليه وضعت كاسلمين ولداً شهد شارل تعميده على أنه « العراب » (أبوه فى العماد) — وتلك مناسبة أخرى يستخدم فيها إسم الله عبثاً ولغواً . ومذ هجرت باربارا زوجها ، أصبحت الآن تعتمد كل الاعتماد على الملك ، وتوسلت إليه ألا يتخلى عنها ، فاستسلم لرجائها ، وسرعان ما استأنف علاقته بها ، وفى إخلاص موصوم بأشد الخسة والعار . ونسى الملك قواعد السلوك القويمة المألوفة ، فقدم باربارا علانية إلى زوجته . فنزفت أنف كاترين دما وانتابتها إغماءة ، من فرط الشعور بالمهانة والإذلال ، وحملت إلى خارج القاعة وبناء على إلحاح من الملك ، أوضح لها كلارندون أن عملية الزنى امتياز ملكى معترف به للملوك فى أعرق أسرات أوربا . وبمرور الوقت كيفت الملكة نفسها مع أساليب زوجها الشرقيـة ، ولكنها كانت تزوره ذات يوم ، فوقعت عيناها على « شبشب » صغير بجوار سريره ، فانسحبت فى رفق وتلطف « حتى لا تصاب الحمقاء الجميلة الصغيرة » المختفية وراء الستائر بالبرد(١٤) ، وكانت هذه المرة الممثلة — هول دافيز . هذا فى الوقت الذى حاولت فيه كاترين كثيراً أن تنجب لشارل طفلا ، ولكنها — مثل كاترين أراجون مع ملك سابق — أجهضت عدة مرات . وفى ١٦٧٠ أقر البرلمان قانوناً بالتوسع فى أحكام الطلاق . وأشار بعض رجال البلاط المتلهفين على وريث بروتستانتى ، على

شارل بأن يطلق كاترين ، ولكنه أبى ، حيث كان قد عرف آنذاك كيف يحبها حباً عميقاً على طريقته الخاصة .

ويصف بيبز البلاط في ٢٧ يوليه ١٦٦٧ فيقول :

« يقص على فن Fenn أن الملك وسيدتى كاسلمين قد حدثت بينهما جفوة شديدة ، وأنها ستفارقه ، ولكن بين جنبيها جنين ، إن الملك لابد معترف ببنوته ، وإلا فانها ستحمل الوليد إلى قصر هويتهول ، وتهشم رأسه أمام عيني الملك . ثم يضيف أن الملك والحاشية لم يكونوا في أي زمان في العالم بأسره أسوأ منهم الآن ، بسبب اللهو والدعارة والفجور والسكر والعربدة ، وغيرها من أحط الرذائل البغيضة ، مما لم ير العالم مثيلاً لها ، وهذا أمر يجر الهلاك والدمار على الجميع ، لا محالة(١٥) » .

وضاق شارل ذرعا بغضبات كاسلمين ، وفي إحدى زياراته الأخيرة لها ، فاجأ عندها جون تشرشل ـ دوق مالبرو فيما بعد ، الذي قفز من النافذة حتى يتجنب لقاء الملك(١٦) ، كما يروى الأسقف بيرنت . على أن شارل خلع على كاسلمين لقب دوقة كليفلند ، ورتب لها مخصصات من الأموال العامة مدى الحياة .

وقد يشوقنا أن نقص كيف أن امرأة واحدة بعينها خيبت علانية أمل الملك المغرور المختال وصدته : تلك هي فرانسيس ستيوارت التي قيل إنها ربما كانت أجمل وجه وقعت عليه العين(١٧) ويقول أنطوني هاملتون « يندر أن يتيسر العثور على امرأة أقل ذكاء أو أكثر جمالا(١٨) » . وظل الملك يلحف في الوصول إليها حتى بعد زواجها من دوق وتشموند ويصف بيبز الملك وهو يجدف وحده في الليل إلى قصر سومرست ، « وهناك حيث وجد باب الحديقة موصدا تساق الجدران ليزور هذه المرأة وتلك فضيحة مخزية فظيعة(١٩) » .

وفي ١٦٦٨ رأى شارل « نل جوين » وهي تمثل في « مسرح درورى لين » ، وهي التي نشأت في فقر مدقع ، وكانت تسلى رواد الحانة بأغنياتها ،

وتبيع البرتقال في المسرح ، وتقوم بالأدوار الصغرى أو الأدوار الرئيسية في الروايات الهزلية ، واحتفظت طوال عملها ، تلقائياً بروح طيبـــة وارادة طيبة ، مما سحر لب الملك الذي لا يبالي بشيء ، والذي سئم الملذات ، ولم تقم الممثلة أية عقبات في سبيل أن تـكون عشيقة لجلالته . واستنزفت مبالغ طائلة من كيسه الذي يشـكو خلو الوفاض ، ولـكنها أنفقت القدر الأكبر منها في أعمال البر والإحسان . ولـكن سرعان ما كان عليها أن تنافس امرأة مغوية خطرة موفدة من فرنسا (١٦٧١) لتثبت شارل على العقيـــدة الـكاثوليـكية والتقاليد الفرنسية ؛ تلك هي لويز كيروال التي قلدت نل مظاهرها الارستقراطية تقليداً ساخراً شيطانياً . وكل العالم يعرف ، كيف أنه ، حيث حسب سكان لندن خطأ أن نل هي منافستها الـكاثوليـكية ، فسخروا منها ، أخرجت رأسها الصغير من نافذة العربة وصاحت بهم « صه أيها الشعب الطيب ، أنا البغي البروتستانتية(٢٠) » واستمرت تحظى بعطف شارل إلى آخر حياته ، ولم تبرح مخيلته حتى في ساعـــة احتضاره . أما كيروال التي عينت على الفور دوقة بورتسموث ، فقـــد أثارت حفيظة لندن ، حيث نظروا إليها هناك على أنها عميلة فرنسية باهظة التـكاليف تبتز من الملك في كل عام ٤٠ ألف جنيه ، لتقتني الجوهرات وتعيش في ترف باذخ أهاج معدة جون ايفلين(٢١) وتقاص ظل سلطانها في ١٦٧٦ حين اكتشف شارل هورتنس مانسيني ابنة شقيق الـكاردينال مازاران المرحة المفعمة بالحيوية والنشاط .

وكان لشارل سقطات أخرى : انه في أيام شبابه التعس فقد كل الثقة في البشر ، وحكم على الرجال والنساء جميعاً بأنهم كما وصفهم « لاروشفوكول » ومن ثم فإنه قلما استطاع أن يكون مخلصاً لأحـــد — اللهم إلا أخته — وضيع نفسه في أهوائه وغرامياته ، ولم تـكن ثمة ود خالص متيم يأتي ضياء حقيقياً على البريق الأجوف في حياته . وباع بلاده بنفس اليسر الذي اشترى به النساء . وضرب لحاشيته أكبر المثل في المقامرة بمبالغ طائلة . وعلى الرغم

من الجمال الطائش فى سلوكه وعاداته ، فانه أبدى فى بعض الأحيان افتقاره إلى الرقة والكياسة اللتين كان من العسير التماسهما عند والده . من ذلك ، على سبيل المثال ، أنه لفت نظر جراموت إلى أن خدمه يؤدون عملهم وهم راكعون(٢٢) . ولم يكن كثير الادمان على الخمر فى أغلب الأحيان ، ولكنه أدمن بشكل مخيف لعدة أيام عقب صدور قانون ضد تعاطى المسكرات(٢٣) . وكان عادة يتقبل النقد بصدر رحب ، ولكن حين جاوز سيرجون كوفنترى حده ، وتساءل فى البرلمان علانية « هل يجد الملك متعته بين الرجال أو بين النساء ؟ » . أمر شارل رجال حرسه أن « يجعلوا منه عبرة » فكمنوا له وهاجموه وهشموا أنفه(٢٤).

على أن فئة قليلة من الناس كانوا لا يملكون إلا أن يحبوه ، ومنذ شباب هنرى الثامن لم يوجد فى انجلترا ملك فى مثل شعبية شارل بين حاشيته ، وكانت حيويته الجسمية تبعث على الرضا والسرور ، ولم يكن به شح أو بخل ، بل كان يرعى الحقوق ، عطوفاً كريماً . فانه ، بعد أن ينقد رجال حاشيته رواتبهم ، كان يجد الوسيلة للبر والإحسان والصدقات . وجعل من المتنزه الخاص به مرتعاً لمختلف الحيوانات ، ولم يلحقها أى أذى . وكانت كلبته المدللة تنام ، ويفترسها رفيقها وتلد وترضع صغارها فى حجرة نوم الملك(٢٥) . وكان شارل بعيداً عن التكلف ، أنيساً ، حلو المعاشرة ، يسهل الوصول إليه أو التحدث معه ، سرعان ما يهدئ من روع محدثيه ويطمئن بالهم . وذكر كل الذين تحدثوا عن شارل — فيما عدا كوفنترى ، أنه « ملك ودود طلق المحيا(٢٦) » ، وعده جراموت « من ألطف الرجال وأرقهم وأكثرهم وداعة(٢٧) » . وقال عنه أوبرى « إنه نموذج فذ فى المجاملة(٢٨) » وكان شارل قد صقل عاداته وسلوكه فى فرنسا ، وكان ، مثل لويس الرابع عشر يرفع قبعته لأية سيدة ، حتى ولو كانت من أحط الطبقات وكان يفضل شعبه بكثير فى التسامح مع أية آراء أو مذاهب دينية معارضة إلى حد أنه شرب نخب خصومه السياسيين ، وسر كثيراً بالهجاء حتى

ولو كان موجها إلى شخصه . وكان حسن التقدير فيه ، مبعث ابتهاج لدى حاشيته . ووصفه بيبز بأنه كان يقود الحلقة فى رقصة ريفية قديمة cuckoldo All Awry . وما كان يقطع عليه مرحه ولهوه الصاخب — لفترات قصار ، إلا أنباء الطاعون أو الحريق أو الافلاس أو الحرب .

ولم يكن الملك شارل الثانى عميق التفكير ، ولكنه لم يتعامق بتوافه الأمور إلى حد كبير ، وتخلص يوما من رجل زعم أنه يتنبأ بالطالع ، بأن أخذه إلى سباق الخيل ، ولحظ أنه يخسر ثلاثة أشواط متوالية . وأولع ولعا شديدا بالعلوم ، وأجرى التجارب ، وأصدر براءة تشكيل « الجمعية الملكية » وأغدق عليها الهبات والمنح ، وشهد كثيراً من اجتماعاتها . ولم يهتم كثيراً بالأدب ، ولكنه أولى الفنون عناية كبيرة ، واعتز برافائيل وتيشيان وهولبين وجمع أعمالهم . وتجلى فى حديثه كثير من الحيوية والتنوع اللذين تميزت بهما الجماعات المثقفة فى فرنسا . فتحدث جيدا عن الشعر مع دريدن ، وعن الموسيقى مع بورسل (الملحن) ، وعن هندسة العمارة مع رن . وكان حاميا ونصيراً حسن التمييز فى كل هذه المجالات ، ولابد أنه كان ثمة قدر كبير من مناقب ومآثر حميدة محببة تحلى بها رجل قالت عنه أخته وهى تلفظ أنفاسها الأخيرة « إنى أحببته أكثر من حبى للحياة نفسها . وليس ثمة شىء آسف عليه فى موتى ، إلا إنى أفارقه »(٢٩) .

٢ — مرجل الدين

هل تمسك الملك بأية عقيدة دينية ؟ أن حياته من هذه الناحية توحى بنفس النزعة التى سادت كثيراً من الفرنسيين المعاصرين الذين عاشوا ملحدين وماتوا كاثوليكيين . ويبدو أن هذا يسر الفوز بمتاع الدنيا والآخرة معا ، كما أنه كان أفضل كثيرا من « رهان » بسكال . ويقول بيرنت « أن إحساسه الدينى كان ضعيفا ، إلى درجة أنه لم يكثر من التظاهر بالنفاق ولكن بسلوكه الموصوم بالتهاون فى الصلوات وفى الأسرار المقدسة ، كان لأى

إنسان يراه أن يدرك كيف وقر فى ذهن الملك أنه لا علاقة له بهــذه الأمور[٣٠] » . وقال أحد الوعاظ مرة لنبيل غلبه النعاس وهو جالس بين جماعة المصلين « سيدى ، سيدى : إنك تغط فى نومك بصوت عال ، وقد توقظ الملك[٣١] » : وقال عنه سانت إيفرموند الذى كان يعرفه حق المعرفة أنه كان « ربوبيا[٣٢] » ـ وهو الذى يؤمن بوجود كائن أسمى غير مجسم تقريباً ، ويفسر بقية المذاهب الدينية بأنها شعر شعبى . واتفق أرل بكنجهام ومركيز هاليفاكسى مع سانت إيفرموند فى هذا الرأى[٣٣] ويروى بيرنت « قال لى الملك ذات مرة ، أنه ليس ملحدا ، ولكنه لا يظن أن الله يعذب الإنسان لأخذه بشىء من أسباب المتعة واللذة عرضا أو خطأ[٣٤] » . ورحب الملك بصداقة هوبز الذى يدين بالمادية ، وتولى حمايته من رجال اللاهوت الذين طالبوا بتقديمه للقضاء بتهمة الهرطقة . ويرى فولتير أن « لامبالاة الملك المطلقة » بكل الصراعات الدينية التى تفرق بين الناس عادة ، أسهمت بدرجة غير يسيرة ، فى حكمه السلمى[٣٥] .

ويحتمل أن شارل كان متشككا ، مع شىء من الإنعطاف نحــو الكثلكة ، بمعنى أنه كان يشك فى اللاهوتيات ، ويؤثر الكاثوليكية ، لطقوسها النابضة بالحياة ، وتعلقها بالفنون ، وتساهلها مع الجسد ، وتأييدها للملكية . وربما غاب عن ذاكرته أن العصبة الكاثوليكية وبعض الآباء اليسوعيين قد أقروا من قبل قتل الملك . ولكنه تذكر أن الكاثوليك الإنجليز دافعوا عن أبيه ، وأن ثلث النبلاء الذين ماتوا فى سبيل النضال عن شارل الأول كانوا من الكاثوليك[٣٦] ، وأن الكاثوليك الأيرلنديين بقوا على ولائهم لأسرة ستيوارت ، وأن حكومة كاثوليكية كانت تمد له يد العون فى منفاه الطويل الأمد — إن روح التعاطف التى تملكته بصفة عامة ، جنحت به إلى الرغبة فى التخفيف بعض الشىء من القوانين التى صدرت فى انجلترا ضد الكاثوليك ، وهى فى تقدير « هلام » قوانين « صارمة غاية الصرامة ، بل هى فى بعض الأحيان ، دموية أو متعطشه للدم[٣٧] . ولم

يشارك الملك البروتستانت الإنجليز فيما عاق بأذهانهم من ذكرى « مؤامرة البارود « ١٦٠ » » أو الخوف من محاكم التفتيش أو البابا فى رومه . ولم يغضب لالتزام أخيه العلنى بالمذهب الكاثوليكى — والمفروض أنه وريث العرش • وقد يجوز لنا أن نحكم ، من تحوله إلى الكثلكة وهو على فراش الموت ، أنه كان من الجائز أن يعترف هو أيضا بها ، لو أن الاعتراف بها كان أمرا عمليا من الوجهة السياسية .

وهكذا فإن شارل ، وهو السياسى اللطيف الودود ، قبل الكنيسة الأنجليكانية ودعمها إنها قد دانت بالولاء لوالده ، وفنيت فى الدفاع عنه ، وعانت ما عانت فى أيام كرومول ، وكافحت كفاحا شديدا فى سبيل عودة الملكية • واعتبر شارل أنه من القضايا المسلم بها أن تكون هناك عقيدة دينيه تحظى بموافقة الدولة ومعونتها ، على أنها وسيلة لنشر التعاليم وإقرار النظام الاجتماعى . انه ، أساسا ، كانت تزعجه البيوريتانية ، فوق أنها أتيحت لها من قبل فرصة الحكم ، فكانت صارمة بغيضة إلى حد بالغ . ولم ينس قط أن البرسبتيريانز سجنوا أباه وأن البيوريتانز اطاحوا برأسه ، وأنه هو نفسه أرغم على قبول مذهبهم والاعتذار عن أخطاء آبائه . ووقع القانون الذى أصدره « البرلمان المؤتمر » ، بإعادة الكهنة الأنجليكانيين إلى أبرشياتهم ، التى كانت « الجمهورية » قد جردتهم منها ، وكان وجه العدالة والإنصاف واضح فى هذا القانون . وعلى الرغم من ذلك ، كان قد وعد « بالحرية لذوى الضمائر الواهنة » ، وألا يضار أى إنسان بسبب الخلافات الدينية مادامت مسالمة . واقترح شارل فى أكتوبر ١٦٦٠ تسامحا شاملا مع كل الفرق المسيحية ، بل كذلك تخفيف القوانين المعاديه للكاثوليكية . ولكن البرسبتيريانز والبيوريتانز الذين خشوا مغبة هذا التراخى ، انضموا إلى الأنجليكانيين فى رفض هـــذا المشروع . ورغبة فى المصالحة بين البرسبتيريانز والأنجليكانيين عرض الملك طقوسا تكون حلا وسطا بين الطائفتين ونظاما أسقفيا محدوداً يتولى بمقتضاه بعض المشايخ المنتخبين

تقديم العون والمشورة للأساقفة . ولكن البرلمان عارض هذه الفكرة . وأبلغ « مؤتمر سافوى » المكون من اثنى عشر أسقفا ، ومثلهم من المشايخ — أبلغ الملك « أنهم لم يستطيعوا الوصول إلى اتفاق[٣٨] » .

وتلك فرصة ضيعت، لأن البرلمان الجديد كان أنجليكانيا بأغلبية ساحقة. فنكأ الجراح القديمة بإعادة النظام الأسقفى فى اسكتلنده وأيرلنده ، وأعاد المحاكم الكنسية المعاقبة على « التجديف » ، والتخلف عن دفع العشور للكنيسة الأنجليكانية ، وجعل « كتاب الصلوات العامة الانجليكانى » إلزاميا على جميع الإنجليز ، وبمقتضى «قانون التوحيد» (٢٠ نوفمبر ١٦٦١) حرمت المناصب العامة على كل الأشخاص الذين لم يتلقوا الأسرار المقدسة وفقا للطقوس الأنجليكانية قبل الانتخابات ، وبمقتضى « مرسوم التنسيق (١٩ مايو ١٦٦٢) طلب إلى كل رجال الدين والمعلمين أن يقسموا اليمين على ألا يقاوموا الملك ، وأن يعلنوا موافقتهم التامة على كتاب الصلوات العامة. وكان على رجال الدين الذين رفضوا هذه الشروط أن يتخلوا عن مراكزهم فى موعد غايته ٢٤ أغسطس ورفضها نحو ١٢٠٠ منهم فطردوا . وهؤلاء بالإضافة إلى ١٨٠٠ آخرين أخرجوا عند عودة الأنجليكانيين ، انضموا جميعا ، مع مجموعة كبيرة من الجامع ، إلى العدد المتزايد من « الشيع » أو « المنشقين » ، الذين أرغموا أولى الأمر فى النهاية على أصدار قانون التسامح ١٦٨٩ .

وحاول شارل أن يعدل من « مرسوم التنسيق » فطلب من البرلمان أن يستثنى من العزل أولئك القساوسة الذين لم يعترضوا إلا على ارتداء اللباس الكهنوتى الأبيض ، أو استخدام الصليب فى التعميد ، فوافق اللوردات ورفض النواب. وسعى الملك للتخفيف من أثر الطعنة ، بتأجيل تنفيذ المرسوم لمدة ثلاثة أشهر ، ولكن أحبطت هذه المساعى كذلك . فأصدر فى ٢٦ ديسمبر ١٦٦٢ بيانا أعلن فيه عن عزمه على أن يستثنى من العقوبات التى نص عليها القانون الأشخاص المسالمين الذين أبت عليهم ضمائرهم

أداء القسم المطلوب ، ولكن البرلمان ، إرتاب فى هذا الاجراء ورفضه ، باعتبار أنه ينطوى ضمنا على سلطة الملك فى الاعفاء من إطاعة القوانين . وعبر الملك عن مشاعره بالإفراج عن الكويكرز المتقلين (٢٢ أغسطس ١٦٦٢) وبالتوكيد على التسامح الدينى فى المواثيق التى منحها لجزيرة رود وكارولينا ، وفى التعليمات التى وجهها إلى حاكمى جمايكا وفرجينيا .

وأحس البرلمان أنه ليس ثمة متسع لهذا التسامح فى انجلترا . ولكى يمنع اجتماعات الكويكرز السرية للعبادة ، قال إنها تضم أكثر من خمسة أشخاص بالإضافة إلى أفراد البيت ، وحكم ١٦٦٢ على كل شخص يحضرها بدفع غرامة قدرها خمسة جنيهات ، أو بالحبس لمدة ثلاثة أشهر ، للمخالفة الأولى ، ومضاعفة العقوبة (١٠ جنيهات غرامة أو ستة أشهر فى السجن) للثانية ، والنفى إلى مستعمرات المجرمين ، للثالثة ، أما المخالفون الذين يعجزون عن دفع نفقات إنتقالهم إلى المستعمرات فكان عليهم أن يخدموا لمدة خمسة سنوات ، مما لا يعقود عمل خاصة . أما المدانون أو المخالفون المرحلون الذين يهربون أو يعودون إلى إنجلترا قبل انقضاء ، المدة المحكوم بها ، فتكون عقوبتهم الإعدام ، وفى ١٦٦٤ امتدت هذه الإجراءات إلى البرسبتيريانز والمستقلين . وحظر « قانون الأميال الخمسة » (١٦٦٥) على القساوسة الذين امتنعوا على حلف اليمين ، أن يقيموا فى نطاق خمسة أميال فى أية مدينة ذات مجلس بلدى ، أو يقوموا بالتدريس ، فى أية مدرسة خاصة أو عامة . وأطلق على هذه القوانين « تشريع كلارندون » لأن الذى فرضها هو كبير وزراء الملك ضد إرادة الملك أو رغباته الصريحة ، وقبل شارل هذه التشريعات الصارمة لأنه كان يناشد البرلمان إقرار الاعتمادات التى طلبها . ولكنه لم يغفر قط لكلارندون ، كما فقد ثقته فى الأساقفة وقل إحترامه لهم ، لأنهم ما لبثوا أن اعيدوا حتى بدأوا ينتقمون أشد الإنتقام ، ويقبضون أيديهم عن البر والإحسان . وانتهى شارل إلى « أن المشيخية ليست مذهبا يليق بالرجل الماجد المهذب ، وأن الأنجليكانية ليست

مذهبا يليق بالرجل المسيحي(٣٩) » .

وإذ أدركت الكنيسة الأنجليكانية اعتمادها على الملكية ، فإنها أكدت من جديد ، ويشكل أكثر إيجابية عن ذي قبل ، « حق الملك الإلهي » ، والإثم العظيم الذي يؤدي إلى الهلاك ، في مناهضة حكومة ملكية قائمة . وفي ١٦٨٠ نشر كتاب سير روبرت فلمر « سلطة الملوك الطبيعيه المعترف بها » بعد موت المؤلف بسبعه وعشرين عاما ، وأصبح الدفاع القياسي عن النظرية . وفي كتاب أكسفورد « القضاء والقانون » (١٦٨٣) أعلن زعماء الكنيسه الأنجليكانيه أنه « زيف وتحريض على الفتنه ، بل هو هرطقه وتجديف « ومن ثم جريمه عقوبتها الإعدام » « أن يتمسك امرؤ » بأن السلطه مستمدة من الشعب ، وأن الحكام الشرعيين يفقدون الحق في الحكم إذا أصبحوا طغاة ، وأن الملك ليس له إلا حق مناظر لحق السلطتين الأخرين : مجلس اللوردات ومجلس العموم . وأضاف الكتاب « أن الطاعه العمياء هي سمه كنيسه إنجلترا وخصيصتها(٤٠) » . وتلك كانت نظريه تثير القلق والمتاعب ، عندما حاول جيمس الثاني ، بعد عامين من هذا التاريخ ، أن يحول إنجلترا إلى الكاثوليكيه .

ان الكنيسه الأنجليكانيه ، التي استعادت مكانتها ، على الرغم من تعصبها ، تجلت فيها صفات تدعو إلى الإعجاب ، فقد أباحت آفاقا رحبه للتفكير اللاهوتي بين أعضائها ، ابتداء من « اللوردين » (الذين عرفوا فيما بعد بأنهم الذين يؤكدون على الطقوس التقليديه High Churchmen) الذين اقتربوا من المذهب والطقوس الكاثوليكيه ، إلى « المتحررين المتسامحين » (الذين عرفوا فيما بعد باسم ذوي الأفق الواسع — Brood Charchmen) وهم الذين جنحوا إلى لاهوت متحرر ، وأكدوا على الجانب الأخلاقي ، لا على الجانب المذهبي أو العقائدي ، في المسيحيه ، ووقفوا في وجه الاضطهاد ، وسعوا إلى المصالحه وتسويه الخلاف بين البيوريتانيين والمشيخيين والأنجليكانيين . وساعد شارل هؤلاء المتحررين

المتسامحين » وقدر فيهم الإيجاز النسبي فى عظاتهم(٤١) . وكان أعظم هؤلاء المتحررين ، جون تللوتسون ، الذى عينه شارل قسيس القصر ، ثم عينه وليم الثالث رئيس أساقفه كنتربرى (١٦٩١) . وكان رجلا « راجح العقل حلو الشمائل(٤٢) » ، ناهض « البابويه » والإلحاد والاضطهاد بنفس القدر من الحماسه والغيرة ، وتجاسر فبنى المسيحيه على العقل . وكان يقول « لسنا فى حاجه إلى دليل على خطأ إنسان أقوى من أن نسمعه يتهم العقل ويحط من قيمته ، ومن ثم يرى أن العقل ضده(٤٣) » ومال صغار رجال الدين الأنجليكانيين « الكهنه » إلى أن يكونوا الخدم الروحيين للوردات المحليين ، بل حتى لبعض مالكى الأرض ، حتى قاربوا أن ينحدروا إلى وضع العامه(*) . ولكن فى المدن والمناصب الكنسية ذوات الرواتب الأكبر ، اشتهر كثير من رجال الدين الأنجليكانيين بسعه الإطلاع والمقدرة الأدبيه حتى أنهم أخرجوا فيما بعد بعضا من أفضل كتب التاريخ الرسمى فى أوربا . وبصفه عامه سادت روح من الاعتدال المذهبي فى الكنيسه الأنجليكانيه ، أكثر منها بين المنشقين الذين زاد الاضطهاد من تعصبهم لمذهبهم وتزمتهم .

ولم يعان البيوريتانيون آنذاك من الاضطهاد السياسى وحده ، بل إنهم كذلك كانوا موضع سخريه وازدراء من أولئك الذين أحسوا بالضيق والإنزعاج أيام الحكم البيوريتانى بسبب أخلاقياتهم الهينه اللينه الخاليه من التزمت . ولكن البيوريتانيين احتملوا فى جلد وشجاعه دوران عجلة الزمن . وهاجر بعضهم إلى أمريكا ، وأدى كثير منهم القسم المطلوب . وكان ريتشارد باكستر ألمع شخصية بينهم فى ذاك العصر ، وكان رجلا ذا إتجاه معقول ، مستعدا لقبول أيه تسويه لا تخل بلاهوته المتقدم ، فإنه على الرغم من إخلاصه الشديد للمذهب البيوريتانى حتى النهايه ، استنكر إعدام شارل

(*) هناك وصف مبالغ فيه لهذا الموضوع فى كتاب ماكولى « تاريخ انجلترا » (١ : ٢٥٣ — ٢٥٥) أنظر لكى « تاريخ انجلترا فى القرن الثامن عشر » (٢ : ٧٥ — ٧٩) .

الأول ، وحكم كرومول حكما استبداديا مطلقا ، وحبذ عودة الملكية . ومنع بعد ١٦٦٢ من الوعظ ، واعتقل مرارا وتكرارا لمخالفته أمر الحظر. وكان من أكثر البيوريتانيين استنارة ، ولكنه مع ذلك استحسن أحراق السحرة فى سالم ومساشوست ، وفكر فى ربه على أساس جعل « مولوخ » (اله سامى كان يعبد عن طريق تضحيه الأطفال على مذبحه) بجانبه ودودا لطيفا من هم الذين كتب لهم الخلاص ؟ ويجيب باكستر : «إنهم فئه قليلة من البشر الضائع ،قدر لهم اللهمنذ الأزل هذه الراحه(٤٤)». وأكد فى عظاته على عذاب الجحيم التى « أوجدها الرب بنفسه » .. إن تعذيب الملعونين المحكوم عليهم بالهلاك ينبغى أن يكون شديداً ، لأنه مظهر الإنتقام الإلهى .. إن العقاب رهيب ، ولكن الإنتقام أمر لا سبيل إلى التخفيف منه(٤٥) » وحرم باكستر الإتصال الجنسى إلا بقصد الإنجاب مع حليلة شرعيه . ومذ رأى أن هذا التقييد يتطلب ضبط النفس على طريقه الرواقيين ، فإنه أوصى بالحمام البارد والتغذى على الخضروات ، للتخفيف من الشهوة الجنسيه(٤٦) وقد نغتفر له لاهوته إذا رأيناه ، وهو فى السبعين من العمر (١٦٨٥) واقفا فى قفص الإتهام أمام القاضى الوحشى الغليظ القلب « جفرى » ، لأنه تفوه ببضع كلمات ضد مزاعم الأنجليكانيين ولم تتح له أيه فرصه للدفاع عن نفسه أو تفسير آرائه ، وحكم عليه بدفع غرامة قدرها ٥٠٠ جنيه ، أو السجن حتى يدفع المبلغ كاملا(٤٧) . وأفرج عنه بعد ١٨ شهرا ، ولكنه لم يسترد عافيته بعد ذلك قط .

وظل الكويكرز يعانون الاعتقال ومصادرة الممتلكات لرفضهم تأديه القسم أولتخلفهم عن الصلوات الأنجليكانيه ، أوعقد الاجتماعات غير المشروعه. وفى ١٦٦٢ كان فى السجون الإنجليزيه أكثر من ٤٢٠٠ منهم : « وحشر بعضهم فى السجن حشراً لايدع مجالا للجلوس وحرموا من فرش القش ليرقدوا عليها ، وكثيرا ما منع عنهم الطعام(٤٨) . ولكن جلدهم ومثابرتهم وتشبثهم أكسبهم المعركة آخر الأمر ، وخفت حدة الاضطهاد عمليا ، إن

لم يكن قانونا . وفى ١٦٧٢ أطلق شارل سراح ١٢٠٠ رجل منهم(٤٩) ، وفى ١٦٨٢ منح أخوه جيمس دوق يورك براءة مقاطعه جرسى الشرقية فى أمريكا ، إلى روبرت باركلى وهو كويكرى اسكتلندى ، و « الصاخب » الكويكرى الغنى « وليم بن » وبعض زملائهم الآخرين .

وكان بن وهو إبن أمير البحر وليم بن الذى استولى على جمايكا لانجلترا . قدمر وهو صبي فى الثانية عشرة بأطوار مختلفة من الانفعال الدينى الذى فوجىء فى أثنائه لفوره براحة فى أعمـــاق نفسه ، وبهالة متألقة فى الغرفة ، إلى حد أنه قال عدة مرات بأنه منذ تلك اللحظة ختم بخاتم القداسة والخلود . « الإيمان الراسخ » بأن هناك الها وأن نفس الإنسان يمكن أن تنعم بهذا الاتصال الإلهى(٥٠) . وفى ١٦٦١ طرد من أكسفورد وحكم عليه بدفع غرامة لأنه رفض حضور الصلوات الأنجليكانية . ولما عاد إلى أبيه أوسعه ضربا بالسياط ، وطرده من المنزل لإعلانه اعتناق مذهب الكويكرز . ثم رق قلب الوالد فبعث بإبنه إلى فرنسا ليتعلم « المرح الباريسى » ، وربما اكتسب من هناك بعض الكياسة والأساليب المصقولة التى تحلى بها ، وفى ١٦٦٦ ارتضى لنفسه اثم الخدمة فى الجيش الإنجليزى الذى يعمل فى ايرلنده ، ولكن بعد عام واحد شهد اجتماعا للكويكرز فى كورك ، وإلتهبت حماسته من جديد ، فطرد جنديا ضايقه بكثرة الأسئلة فاقتيد إلى السجن ، ومنه كتب إلى حاكم مونستر يلتمس إباحة حرية العبادة . وبعد عودته إلى إنجلترا أحرق مراكبه من خلفه ، وأصبح واعظا كويكريا ، وقبض عليه المرة بعد المرة . ولعبت محاكمته ١٦٦٩ دورا فى تاريخ القانون الإنجليزى . ذلك أن هيئة المحلفين برأته ، فحكم القاضى على المحلفين بالسجن والغرامة بتهمة إهانة المحكمة وإزدرائها . فاستأنف المحلفون أمام محكمة الدعاوى المشتركة ، التى أعلنت عدم شرعيه القبض عليهم ، وكان فى هذا تثبيت لحق هيئة المحلفين وسلطتهم فى انجلترا . ولكن بن أودع السجن ، على أية حال ، لأنه رفض أن يخلع قبعته فى المحكمة . وأخلى سبيله فى الوقت

المناسب ليحضر وفاة أبيه (١٦٧٠) ، وقد ترك له دخلا يقدر بألف وخمسمائة جنيه فى العام ، ودينا على التاج قدره ١٦ ألفا من الجنيهات أقرضه أبوه لشارل الثانى وأعيد إلى السجن لقيامه بإلقاء العظات، وفيه كتب أبلغ دفاع عن التسامح تحت عنوان « القضية الكبرى لحرية الضمير » ، (١٦٧١) ، وفى احدى الفترات التى تمتع فيها بالحرية تزوج من امرأة ثرية ، واشترى حصة فى النصف الغربى لما يعرف الآن بولاية نيوجرسى . وصاغ لهذه المستعمرة دستورا يؤكد فيه على التسامح الدينى وسلطة المحلفين فى التحقيق والحكومة الشعبية ، ولكن الزمام أفلت من يده ، ولم تطبق مواد هذا الدستور .

وفى ١٦٧٧ عبر بن وجورج فوكس وروبرت باركلى وجورج كيث القنال الإنجليزى ليبشروا بمذهب الكويكرز فى القارة . وأسس جماعة من « كرهيم » ممن حولهم بن إلى مذهبه ، مدينة « جرمانتون » ، فى بنسلفانيا ، وكانوا أول من أعلن أنه من الخطأ أن يكون للمسيحيين رقيق . ورجع بن إلى انجلترا ، وأخذ زمام المبادرة فى منع الكويكرز من الإنضمام إلى حركة اضطهاد الكاثوليك من أجل ما يسمى « بالمؤامرة البابوية » . وكان « خطابه إلى البروتستانت من جميع المذاهب » (١٦٧٩) نداء قويا للتسامح الدينى فى أكمل صوره . وفى ١٦٨١ قبل التاج اقتراح بن التنازل عن حقه فى المطالبة بالدين ، لقاء منحه ما يعرف الآن باسم بنسلفانيا . أن بن اقترح اسم « سلفانيا » للجزء المترامى الأطراف الكثيف الأحراش ، فألحق شارل الثانى « مقطع » بن « بهذه اللفظة ، تخليدا لذكر أمير البحر . وعلى الرغم من الخضوع التام للملك ، فان حكومة المستعمرة الجديدة كانت ديموقراطية ، وكانت العلاقة مع الهنود دودية قائمة على العدل والإنصاف ، كما أطاق الكويكرز ، وهم يشكلون غالبية المستوطنين ، الحرية الدينية . وعمل بن فى هذه المستعمرة بجد لمدة عامين ، ولكنه فى ١٦٨٤ سمع بنبأ اضطهاد جديد عنيف تتعرض له طائفته . فأسرع بالعودة إلى لندن . وهناك بعد عام واحد أصبح صديقه دوق يورك ملكا على إنجلترا ، وهو جيمس الثانى ، كما صار بن من ذوى

النفوذ والمكانة فى الحكومة، ولنا معه لقاء آخر .

أن طريق المقاومة السلبيه الذى انتهجه الكويكرز ضد الاضطهاد كان أكبر قوة فعاله ساعدت على التسامح الدينى فى عصر التعصب ، وقدر أحد المنشقين أنه كان هناك ستون ألف حاله اعتقال بسبب الخلاف الدينى بين عامى ١٦٦٠ و ١٦٨٨ ، وأن خمسة آلاف ممن اعتقلوا قضوا نحبهم فى السجن(٥١) . وكان تعصب البرلمان أسوأ من جور البلاط والمسرح . وذكر مؤرخ كتب التاريخ مثل ما صنعه تقريبا « فى هذه الفترة الدقيقة الحرجة » كاد الملك أن يكون الصوت الوحيد الرحيم الذى ينادى بآراء عصرية حديثة ودأب طوال حكمه على النضال من أجل التسامح(٥٢) وفى ١٦٦٩ عندما صدر الحكم على ثلاثه أشخاص بدفع غرامة كبيرة للتاج ، بناء على قانون قديم صدر فى عهد الملكة اليزابيث ، لتخلفهم عن حضور الصلوات الأنجليكانية ، أعفاهم شارل من دفعها ، وأعلن أنه لن يسمح بتطبيق هذا القانون بعد اليوم « لأنه من رأيه وقناعته الخاصة أنه لا يجوز أن يضار أحد بسبب تفكيره وما يمليه عليه ضميره(٥٣) » .

وكان من المحتمل أن يقر وجهة نظر الملك فى التسامح عدد متزايد من الانجليز ، لولا أنهم كانوا يرتابون فى رغبته فى التخفيف من ويلات الكاثوليك فى انجلترا التى كانت لا تزال تخشى سيطرة البابا ، ومحاكم التفتيش الأسبانية وحكومة القساوسة ، إلى حد أن البرسبتيريانز والبيوريتانيين آثروا تحريم عبادتهم على السماح بالعبادة الكاثوليكية فى انجلترا . وكان الانجليز الكاثوليك يشكلون آنذاك نحو ٥ ٪ من السكان(٥٤) . وكانوا من الناحية السياسية ضعافا عاجزين ، ولكن الملكة كانت كاثوليكية ، كما أن شقيق الملك لم يبذل إلا أيسر الجهد فى إخفاء تحوله إلى الكثلكة (١٦٦٨) وكان فى انجلترا حينذاك ٢٦٦ من اليسوعيين ، كان أحدهم أبنا غير شرعى للملك ، وبدأوا يظهرون علنا فى جرأة وثقة ، على الرغم من القوانين البالغة التشدد ، وكانت المدارس الكاثوليكيه تقام فى الدور الخاصه ،

وأرهقت انجلترا . وأقام البروتستانت في كل عام عرضا تظاهروا فيه ضد البابوية ، وحملوا إلى « سميثفيلد » تماثيل للبابا والكرادلة ، أحرقوها هناك . أنهم لم ينسوا « جي فوكس » . ولكن الكاثوليك صبروا وصابروا ولم يفقدوا الأمل ، فمن الجائز الآن أن يرقى كاثوليكي عرش انجلترا في أية لحظة

٣ — الاقتصاد الانجليزي ١٦٦٠ — ١٧٠٢

قدر عدد سكان انجلترا وويلز في ١٦٦٠ بنحو خمسة ملايين نسمة (٥٥) ربما ازداد إلى خمسة ملايين ونصف المليون في ١٧٠٠ (٥٦) ، أي أنه لا يكاد يبلغ ربع عدد سكان فرنسا أو ألمانيا ، وأقل من ربع سكان إيطاليا أو أسبانيا (٥٧) . وكان سبع السكان من طائفة « اليومن » ، أي صغار مالكي الأرض الأحرار الذين يملكون الأرض التي يفلحونها ، وشكل المزارعون المستأجرون الذين يعملون في أراضي النبلاء وذوي الحسب والنسب ، نحو سبع آخر من السكان . أما بقية السكان فكانوا يقيمون في المدن .

وبازدياد السكان نقص نصيب الأسرة من الخشب ، وتزايد استخدام الفحم في البيوت والحوانيت ، وتطور علم المعادن واستخراجها من المناجم وأصبحت شفيلد مركزاً لصناعة الحديد ، وسرت في انجلترا حمى الانتاج وجمع الثروات . وتوسل أصحاب المصانع إلى البرلمان أن يصدر تشريعات ترغم العاطلين الكسالى على مزاولة العمل . وتزايد تشغيل الأولاد في الصناعات المحلية ، وبخاصة النسيج . وتهلل وابتهج ديفو لأنه في « كولشستر وتونتون » لم يكن ثمة ولد فوق الخامسة من العمر ، في المدينة أو فيما حولها من القرى ، أهمله والده أو لم يتلق تعليما ، إلا استطاع أن يكسب قوته » وبالمثل حول « وست رايدنج » : « لا يكاد يوجد ولد جاوز الرابعة إلا كفته يداه مؤونة العيش (٥٨) » .

وكان معظم الصناعة يتم في المنازل أو في حوانيت الأسرة . وحدث

توسع في نظام المصانع في النسيج والحديد . وتذكر نشرة ظهرت في ١٦٨٥ كيف أن « أصحاب المصانع يشيدون بتكاليف باهظة ، دوراً ضخمة تضم كل القائمين بعمليات صناعة الصوف ، من فرز وتمشيط وغزل ونسج وكبس بل وصباغة ، في صعيد واحد » . وقيل أنه كان هناك مصنع من هذا القبيل يعمل فيه ٣٤٠ شخصا . وكان في جلاسجو في ١٧٠٠ مصنع نسيج يضم ١٤٠٠ عامل(٥٩) . وكان تقسيم العمل والتخصص فيه آخذين في التقدم ، وكتب سير وليم بتي في ١٦٨٣ « في صناعة الساعة » ، إذا قام فرد بعمل التروس ، وآخر يصنع الزنبرك ، فثمه ثالث يحفر القرص المدرج ، ورابع يتولى صناعه الأغلفه ومن ثم تخرج الساعه أحسن وأرخص مما لو كلف بالعمل كله فرد واحد(٦٠) .

وظلت أجور الأعمال الزراعية يحددها الحكام المحليون وفقا لقانون الغلمان للمهنيين « الذى صدر فى ١٥٨٥ فى عهد اليزابث ، فإذا دفع رب العمل ، أو أخذ العامل ، أكثر من الأجر المحدد ، تعرض كلاهما للعقاب . وتراوحت أجور الأعمال الزراعية فى تلك الفترة بين خمسة وسبعة شلنات فى الأسبوع مع الإقامة والطعام(٦١) . أما الصناعة فكانت الأجور فيها أعلى قليلا . فكان الأجر اليومى شلنا فى المتوسط ، وربما كان هذا ، من حيث القيمة الشرائية ، يعادل ، دولارين ونصف دولار فى ١٩٦٠ . أما أجور المساكن فكانت منخفضة نسبيا ، حيث كان ايجار البيت المتوسط الاتساع فى لندن يبلغ نحو ٣٠ جنيها فى السنة(٦٢) . وكانت البيرة رخيصة الثمن ، أما السكر والملح والفحم والصابون والأحذية والملابس ، فكانت أثمانها فى ١٦٨٥ تعادل أثمانها فى ١٨٤٨(٦٣) . وازدادت أسعار الحبوب إلى خمسة أمثالها بين عامى ١٥٠٠ و ١٧٠٠(٦٤) . وأكلت طبقات العمال خبز الجاودار والشعير والشوفان ، أما خبز القمح فكان ترفا ينعم به ذوو اليسار ، ونادرا ما ذاق الفقراء اللحم . واعتبر الفقر الذى كان عليه جمهور الشعب أمرا عاديا ، ولو أنه ربما كان أشد منه فى أخريات العصور الوسطى(٦٥) . ويقول ثورولد روجرز :

« سعى مالكو الأرض طوال القرن السابع أن يحصلوا من مستأجرى الأرض على أكبر مايستطيعون من ايجار ، وبأقصى مايمكن من قوة فرضوا على العمال أجورا تؤدى بهم إلى الجوع والعوز ، وبذلوا قصارى جهدهم فى استغلال التشريع ليحصلوا من المستهلك على أسعار عالية تقرب الناس من حافة المجاعة والقحط . والتاريخ زاخر بالشواهد الكثيرة على تفاقم الحال يوما بعد يوم(٦٦) » .

وفى ١٦٩٦ قدر جريجورى كنج أن ربع سكان انجلترا كان يعيش على الصدقات ، وأن الأموال التى تجمع لإعانة الفقراء كانت تعادل ربع تجارة الصادرات(٦٧) . وقهر الأغنياء الفقراء وغلبوهم على أمرهم إلى حد بات معه الأجراء والفلاحون أضعف من أن يثوروا ويتمردوا ، ولمدة نصف قرن خمد صراع الطبقات فى انجلترا(٦٨) .

أما الكنيسة الانجليكانية التى كانت قد تجاسرت أيام شارل الأول على أن تدافع عن الفقراء من وقت لآخر ، فقد خلصت الآن ، نتيجة للثورة البيوريتانية ، إلى أن مصالحها تحقق على أحسن وجه ، إذا ربطتها بمصالح طبقات الملاك ربطا تاما(٦٩) . وكان البرلمان شكلا من ائتلاف بين مالكى الأرض وأصحاب المصانع والتجار والرأسماليين . ومن ثم أصغى ، بحكم شعور الزمالة المتبادل ، إلى صيحات طبقة أرباب العمل ليخلصهم من القوانين التى تعوق انطلاق القوى الاقتصادية للعمل دون قيود . وقبل نهاية القرن السابع عشر ، وقبل ظهور آدم سميث بزمن طويل ، سمعت انجلترا صيحة رب العمل « اتركه يعمل » (سياسة عدم التدخل) من أجل الحرية الاقتصادية ، وتخلص أرباب العمل من العوائق القانونية والإقطاعية والنقابية ، فى تشغيل العمال والإنتاج والتجارة(٧٠) ، وتجاوزوا القيود النقابية وانهارت النظم المهنية ، وبطل العمل بتحديد الأجور عن طريق الحكام المحليين ، بفعل القوة النسبية للمساومة بين أرباب العمل الأثرياء والعمال الجياع(٧١) . إذن الأيديولوجيه الحديثه الحريه ، بدأت هنا الآن ، حين طالب المقاولون

والملتزمون المغامرون ، فى صخب وغضب ، بالتحرر من القيود القانونيه والأخلاقيه .

وباتت التجارة الآن عنصرا هاما فعالا فى الاقتصاد الإنجليزى ، وعاملا حيويا فى حصول البرلمان على الاعتمادات التى يقررها ، إلى حد أنها ، أى التجارة ، شقت طريقها لتفعل ما تشاء مع حكومه يسيطر عليها مالكو الأرض . وأصبح التشريع الإنجليزى فى التجارة ، يحابى الإنجليز لا على حساب الهولنديين وحدهم ، بل على حساب الايرلنديين والاسكتلنديين كذلك ، وحرم استيراد الماشية والأغنام والخنازير من ايرلندة واستبعد الغلال الاسكتلندى ، وفرضت ضرائب ثقيلة على واردات اسكتلنده . إن الرغبه فى التوسع فى التجارة الإنجليزيه وتوفير الحمايه العسكريه لها ، هى التى حثت على التحالف مع البرتغال ، وزواج شارل الثانى من كاترين براجانزا ، وعلى تجدد الحرب مع المقاطعات المتحدة ، والتصميم على الاحتفاظ بجبل طارق . وتضاعف حجم تجارة إنجلترا بين عامى ١٦٦٠ و١٦٨٨ ، بسبب الانتصار على الهولنديين ، إلى جانب أسباب أخرى(٧٢) ، وكتب شارل الثانى إلى أخته يقول : « إن أقرب شىء إلى قلب هذه الأمة هو التجارة وكل ما يتعلق بها(٧٣) » . وبات ثراء التجارة ينافس الآن اقتناء الأراضى الواسعة الطيبة.

ومدت المشروعات المغامرة الإنجليزية أذرعها فى كل اتجاه ، فاتسعت المستعمرات الجديدة فى نيويورك ونيوجرسى ومنسلفانيا وكارولينا وكندا ، ومنحت شركة الهند الشرقية كل الحقوق فيما تستطيع أن تضع يدها عليه فى الهند ، وكان لهذه الشركة أسطولها وجيشها وحصونها وعملتها وقوانينها ، وكانت تعلن الحرب وتفاوض لعقد الصلح ، وتم الاستيلاء على بمباى بالمصاهرة فى ١٦٦١ ، وعلى منهاتان (فى نيويورك) بحق الفتح فى ١٦٦٤ . وفى العام نفسه استولى الإنجليز على الممتلكات الهولندية على الساحل الغربى لأفريقية . ومن أجل تزويد هذه المستعمرات بالأيدى العاملة نشأت عادة « الإكراه » وهى إغراء الشبان الإنجليز بالعمل فى هذه « المزارع » بتقديم الخمر لهم أو ضربهم حتى يفقدوا وعيهم ، وعندئذ يحملونهم إلى ظهر سفينة

على وشك الإقلاع ، ثم يوضحون لهم فيما بعد أنهم كانوا قد وقعوا عقدا العمل(٧٤) . إن القانون حرم هذا الإجراء ، ولكنه لم ينفذ . وكان موقف البرلمان واضحا ، فإنه على حين انتهت ثورتا ١٦٤٢ — ١٦٤٩ و ١٦٨٨ — ١٦٨٩ إلى تغلب البرلمان على الملك ، حدثت فى نفس الوقت ثورة إقتصادية متزامنة انتهت بسيطرة التجارة والصناعة والمال على البرلمان .

وكان فى انجلترا فى تلك الأيام مئات من « الصائغين أصحاب المصارف » (مقرضو النقود) الذين يدفعون ٦٪ أرباحا على الودائع ، ويتقاضون ٨٪ على القروض(٧٥) . وكان شارل الثانى يلتمس أى منفذ لتجنب سلطة البرلمان على الخزانة ، فلجأ إلى الاستدانة كثيراً من أصحاب المصارف هؤلاء ، حتى بلغت ديونه منهم فى ٢ ينـاير ١٦٧٢ ، ١٫٣٢٨٫٥٢٦ جنيها(٧٦) ، وفى هذا التاريخ كان مجلس الملك على وشك أن يشن الحرب على المقاطعات المتحدة فأحدث فى مجتمع المال هزة عنيفة « باغلاق خزانة الدولة » أى منع تسديد فوائد ديون الدولة لمدة عام . فساد الذعر ، ورفض أصحاب المصارف الوفاء بالتزاماتهم تجاه أصحاب الودائع ، أو تنفيذ إتفاقاتهم مع التجار ، وعمل المجلس على تهدئة العاصفة بوعود قاطعة باستئناف الدفع فى نهاية العام . واستؤنف الدفع فى ١٦٧٤ ، وسدد رأس المال عن طريق تعهدات والتزامات حكومة جديدة . والواقع أنه فى ٢ يناير ١٦٧٢ تحددت بداية الدين الوطنى فى انجلترا ، وتلك حيلة جديدة فى تمويل الدولة .

ومذ باتت لندن موطن أصحاب المصارف وأمراء التجارة ومركز الثروة المجموعة عن طريق نظام الأسعار ، من منتجى الطعام والسلع ، فإنها كانت الآن أكثر مدن أوربا اكتظاظا بالسكان ، فنافست قصور رجال الأعمال قصور الأرستقراطية فى البذخ والترف ، إن لم يكن فى الذوق . وكانت فيها مجموعة من المخازن بدعاراتها الفاتنة ولافتاتها المزخرفة ونوافذها ذات العمد الحجرية ، تعرض منتجات العالم(*) أمام أنظار الأقلية ، ورصفت

(*) حوالى هذه الفترة بدأت النوافذ الزجاجية تحل محل النوافذ القديمة ذات الاطارات

الشوارع الرئيسية وحدها بالحصى عادة وحوالى ١٦٨٤ أضيئت بنور ضعيف حتى منتصف الليل فى الليالى غير المقمرة بقناديل يعلق واحد منها كل عشرة أبواب . ولم يكن فى الشوارع أرصفة للمشاة ، وكانت نهاراً تمج بالحركة الصاخبة من الباعة المتجولين الذين يعرضون بضاعتهم فى سلال أو عربات يد ، أو عجلات يد ، وبالمنادين الذين يعرضون القيام بخدمات منزلية مثل « قتل الفيران والجرذان(٧٧) » . وكان هناك المتسولون واللصوص فى كل شارع ، كما وجد أيضاً المغنون الذين يرفعون عقيرتهم بالأغنيات من أجل الحصول على بنس . وكان حى الأعمال يسمى « السيتى » . وكان يحكمه عمدة وهيئة البلدية ومجلس ينتخب أرباب البيوت فى الأحياء أعضاءه . وإلى القرب من هذا الحى ، كان يقع « الحى السياسى » وستمنستر ، وفيه الكنيسة والقصر اللذان يحملان هذا الاسم (وكان القصر مقر البرلمان) ، وفيه القصران الملكيان هويتهول وسان جيمس . وخارج هذين القسمين من المدينة كانت أحياء الأكواخ التى تمج بالفقراء الكثيرى التناسل . ولم تكن الشواع فيها مرصوفة فكانت العربات ترش ، مزهوة ، ماء المطر أو الوحل على المشاة ، وهى تصطدم بالجدران فى الأزقة الضيقة . وكانت المنازل متقاربة جداً بعضها من بعض ، والأدوار العليا متلاصقة متقابلة ، بما لايدع مجالا لضوء الشمس المتقطع أن ينفذ إليها . ولم يكن نظام المجارى الحالى معروفا فى لندن آنذاك ، بل كانت مراحيض خارجية وبالوعات ، وكانت العربات تحمل الفضلات وتقذف بها خارج حدود المدينة ، أو فى نهر التيمز بطريقة خفيه غير مشروعة

وكان تلوث الهواء آنذاك بالفعل مشكله وبناء على طلب الملك أعد جون افلـين ونشر فى ١٦٦١ خطه لتبديد الدخان الذى علق بسماء لندن ، قال :

« إن الاسراف فى استخدام الفحم يعرض لندن لأسوأ الازعاج والخزى

= الخشبية الثقيلة ، لأن الزجاج يسمح بنفاذ قدر أكبر من الضوء .

والعار ، وليس هذا ناشئا من نيران المطابخ التى لا يكاد يرى لها أثر ، بل من بعض مداخن معينة فى مصانع البيرة ومحال الصباغة وإحراق الجير ، ومصانع الملح وغلى الصابون وبعض مصانع أخرى ، تكفى فوهة إحدى المداخن فيها ، وحدها وبشكل واضح ، لتلويث الهواء وإزعاج لندن أكثر مما تفعل كل مداخن المدينة مجتمعة ... إن لندن تكون أقرب شبها ببركان اتنه أو بضواحى جهنم ، منها بمجتمع تعيش فيه مخلوقات عاقلة ، حين تفتح هذه المداخن أفواهها وتنفث القتام والسخام ... أن السائح المنهوك سرعان مايشم ، من مسافة عدة أميال ، رائحة المدينة التى يقصد إليها ، قبل أن يراها ... أن هذا الدخان الأسود الكريه ... يقرح الرئتين ، وهذا داء لا شفاء منه ، إلى حد أنه يقضى على أعداد كبيرة من الناس ، نتيجة السل المنهك الخطير ، كما ينبىء بذلك نشرات الوفيات الأسبوعية(٧٨) » .

وأعد ايفلين مشروع قانون للبرلمان الذى كان أقرب منالا لرجال الصناعة الأثرياء منه للجمهور الذى يعوزه التنظيم ، ومن ثم لم يحرك هذا البرلمان ساكنا . وبعد ثلاثة عشر عاما سويا رفع سير توماس براون صوت الطب عاليا ، يحذر من :—

« الروائح الكريهة التى تنفثها البالوعات العامة ، والأماكن المنتنة وفضلات المواد المغلية التى تستخدمها المصانع القذرة غير الصحية كما أن الضباب والسديم يعوقان دخان الفحم من أن يهبط ويتبدد ، ومن ثم يمتزج بالسديم ويتنفسه الناس ، ولكل هذا آثار سيئة ، حيث يلوث الدم ويعرض السكان للنزلات الشعبية والسعال(٧٩) » .

إن الهواء الفاسد ، وضعف الرعاية الصحية وسوء التغذية كان يهدد بانتشار الأوبئة فى كل عام وما أن تجىء فترة تتجمع فيها ظروف غير مواتية ، حتى تنزل كارثة الطاعون . وفى ٣١ اكتوبر ١٦٦٣ دون بيبز فى مذكراته : « أن الطاعون منتشر فى أمستردام ، ونحن فى فزع منه هنا » . وكانت السفن القادمة من هولنده تخضع للحجر الصحى ، وفى ديسمبر ١٦٦٤ مات شخص واحد بالطاعون فى لندن ، واثنان فى أبريل ١٦٦٥ ،

وفى مايو ٤٣ شخصاً ، وهكذا تفاقم الحال حتى حل الصيف الحار مع مطر قليل يساعد على تنظيف الشوارع ، فكان ضغثا على إبالة ، وأيقنت لندن التى ملأها الفزع والجزع ، أنها تواجه شيئاً شبيها بالموت الأسود ١٣٤٨ الذى لا تزال ذكراه عالقة بالأذهان . وكان ديفو آنذاك صبيا فى السادسة ، ولكنه استطاع أن يعى قدرا كبيراً مما تردد فى هاتيك الأيام عن الطاعون : فكتب قطعة خيالية بعنوان « صحيفة عام الطاعون » تكاد تكون فى منزلة التاريخ (٨٠) :

« منذ الأسبوع الأول من يونيه انتشرت العدوى بصورة رهيبة ، وارتفعت أرقام الوفيات ، وعمد الناس إلى إخفاء قلقهم قدر الطاقة ، حتى يحولوا دون ابتعاد جيرانهم عنهم ، أو دون إغلاق الحكومة لبيوتهم . وفى يونيه تزاحم الأغنياء على مغادرة المدينة ، وفى هويتشا بل ما كان يمكن أن ترى إلا العربات ، وعربات اليد تحمل البضائع والنسوة والأطفال وغيرهم ، بالإضافة إلى عدد لا يحصى من الرجال على ظهور الخيل .. وهو منظر رهيب كئيب (٨١) » .

وزادت النذر والتنبؤات عن المصير المشئوم من الرعب ، وأغلقت المسارح وحلبات الرقص والمدارس ودور المحاكم . وانتقل الملك وحاشيته فى يونيه إلى أكسفورد « حتى يحوطهم الله برعايته إن شاء » دون أن يمسهم سوء ، ولو أن صيحات التأنيب تعالت ضدهم لأنهم هم الذين جلبوا هذا البلاء ، عقابا من عند الله ، على فسادهم وفجورهم ، وبقى رئيس أساقفة كنتربرى فى مقره فى لامبث ، ينفق فى كل أسبوع عدة مئات من الجنيهات عونا للمرضى والأموات . وبقى موظفوا المدينة فيها يقومون بأعمال بطولية . وأرسل الملك ألف جنيه ورجال الأعمال فى « السيتى » ستمائة جنيه أسبوعيا ، وهرب كثير من الأطباء ورجال الدين ، وبقى آخرون وقضى كثيرون نحبهم متأثرين بالعدوى . وجرب الناس الأدوية والعلاجات على اختلاف أنواعها ، فلما أخفقت لجأوا إلى التمائم والتعاويذ التى قد تصنع

المعجزات . وفى ٣١ أغسطس ١٦٦٥ قال بيبز « فى هذا الأسبوع مات ٧٤٩٦ شخصا منهم ٦٠٢ بالطاعون » . وكان حفارو القبور يحملون من يموتون فى الشوارع على عربات اليد ، ويدفنونهم فى مقابر عامة . وبلغت جملة من ماتوا بالطاعون من أهالى لندن فى ١٦٦٥ ، نحو سبعين ألفا ، وهذا سبع السكان . وخف الوباء فى ديسمبر ، وعاد الناس لمزاولة أعمالهم شيئاً فشيئاً . وفى فبراير ١٦٦٦ عادت الحاشيه إلى العاصمة .

وما كاد السكان الباقون على قيد الحياة يروضون أنفسهم على احتمال ما كلفهم الطاعون من خسائر حتى داهمت المدينة كارثة اخرى . وكانت كارثة حقا ، ذلك أنه فى يونيه ١٦٦٦ أبحر الهولنديون فى جرأة إلى التيمز ودمروا المراكب الإنجليزية فيه بمدافع سمع صوتها فى لندن . ولكن فى الساعة الثالثة من صباح الأحد ٢ سبتمبر ، فى حانوت خباز فى بودنج لين ، شب حريق ، أتى فى ثلاثة أيام على معظم الجزء من لندن الواقع شمال النهر . ومرة أخرى تآمرت الظروف وتجمعت المصائب : صيف جاف ، وبيوت كلها تقريباً مبنية من الخشب ، متلاصقة ، كثير منها خال من السكان الذين يقضون عطلة نهاية الأسبوع فى الريف ، مخازن ملأى بالزيت والقار والقنب والكتان والخمور وغيرها من المواد القابلة للاحتراق فى الحال ، ثم هبت ريح عاصفه حملت النار من بيت إلى بيت ، ومن شارع إلى شارع ، أضف إلى ذلك سوء التنظيم وعدم الاستعداد لمواجهه مثل هذا الحريق فى مثل هذا الوقت من الليل . ومن حسن حظ ايفلين أنه كان فى سوثوارك ، فأسرع إلى شاطىء النهر .

« حيث شهدنا المدينة بأسرها وقد اندلع فيها اللهب الرهيب بالقرب من الماء ، فى كل الدور من جسر لنـــدن ، وفى شارع التيمز ، صعدا نحو تشيبسيد ... وامتدت النيران فى كل مكان ، وعرت الدهشة الناس ، إلى حد أننا لم ندر منذ البداية ، ماذا تولاهم من قنوط وجزع حتى أنهم بشق النفس تحركوا لاخمادها ، فلم نكن نسمع أو نرى إلا الصرخات والعويل والنواح

وهم يجرون هنا وهناك ، ذاهلين مخبولين . كذلك أحرقت النار الكنائس والقاعات العامة ، وسوق الأوراق المالية والمستشفيات والآثار والزخارف والبيوت والأثاث أنها أتلفت كل شيء ...»

وهنا رأينا النهر مغطى بالبضائع الطافية فوق الماء والزوارق والقوارب محملة بالبضائع التى وجـــد بعض الناس فسحة من الوقت وأوتوا شيئاً من الشجاعة لانقاذها . كما كان هناك على الجانب الآخر العربات وغيرها ، تنقل إلى الحقول ، التى انتشرت لعدة أميال كل المنقولات من كل نوع ... كما نصبت الخيام ليأوى إليها الناس وما استطاعوا أن يستخلصوه من بضاعة ومتاع . ياهول المنظر الأليم المفجع الذى لم تصادف الدنيا مثله منـذ بدء الخليقة . وغطت ألسنة النيران وجه السماء ، فبدت وكأنها أتون ملتهب ... انى أرجو الله ألا تقع عيناى ثانية على مثل هذا المنظر ، منظر أكثر من عشرة آلاف بيت تحترق كلها فى لحظة واحـدة وكان صوت اللهب المندلع وفرقعته ورعده ، وصراخ النساء والأطفال ، وهرولة الناس ، وسقوط الأبراج والمنازل والكنائس ، أشبه شيء بعاصفة هوجاء ، وكان الهواء ساخناً إلى حد أن الناس اضطروا إلى الوقوف جامدين ، تاركين النار يشتد أوارها ، وتمتد ألسنتها لمسافة تقرب من ميلين طولا وميل عرضا(٨٢) » .

وأبلى الملك وأخوه المكروه جيمس ، كلاهما ، بلاء حسنا فى هـذه الأزمة ، وجدوا فى العمل بأيديهم مع مكافحى النيران ، وأشرفوا على أعمال الإغاثة ومولوها وهيأوا المأوى والطعام لمن بأتوا بلا مأوى ، وأصروا ، برغم المعارضة الشديدة ، على هدم البيوت ليحولوا دون امتداد الحريق ، مما كان له أثره فى انقاذ جزء من المدينـــة فى شمال التيمز(٨٣) وكاد الحى التجارى أن يمحى عن آخره ، أما حى السياسة « وستمنستر » ، فقد أنقذ ، ودمر ثلثاً مدينة لندن ، بما فى ذلك ١٣٢٠٠ منزل ، ٨٩ كنيسة بما فيها كنيسة سانت بول العتيقة ، ولقى ستة أشخاص فقط مصرعهم ، ولكن مائتى ألف شخص فقدوا مساكنهم(٨٤) . ودمرت معظم المكتبات واحترق من الكتب

ما قيمته ١٥٠ ألف جنيه . وقدر مجموع الخسائر والأضرار بنحـــو ١٠٫٧٣٠٫٠٠٠ جنيه[٨٥] ، وهو ما ربما يعادل اليوم ٥٠٠ مليون دولار .

وبعد الكارثة نظم المجلس البلدي في لندن إدارة للمطافئ ، وركبت خراطيم الماء في أنابيب الماء الرئيسية . وكان على كل شركة أن تعين بعض أعضائها ليكونوا على أهبة الاستعداد لتشغيلها لدى سماع أي انذار ، وكان على كل العمال أن يحذوا حذوهم إذا استدعاهم عمدة المدينة . وأعيد بناء لندن في شيء من التمهل ، على طراز أمتن وأقوى ، وإن لم يكن أجمل من ذي قبل . وبأمر من الملك حل الطوب والحجر محل الخشب ، واختفت الطوابق العليا الناتئة ، وأصبحت الشوارع أوسع وأكثر استقامة ، ورصفت بالحجر السلس الأملس ، وخصصت الطوارات للمشاة . وتحسنت الرعاية الصحية . وقضت النيران على كثير من الأقذار والفيران والبراغيث والجراثيم فتخلصت لندن من الطاعون ، وجدد المهندس المعماري « رن » بناء كنيسة سانت بول .

٤ — الفن والموسيقى ١٦٦٠ - ١٧٠٢

ولد كرستوفر رن Wren في أحضان الدين ، ورضع لبان العـــلم ، وتوجه بالفن . كان أبوه كبير كهنة وندسور ، وعمه أســقف الى Ely ، والتحق بمدرسة وستمنستر ، ثم كلية وادهام في « أكسفورد » وفي ١٦٥٣ حصل وهو في الحادية والعشرين على منحة لمتابعة الدراسة في كليـــة « جميع النفوس » . ثم أصبح في سن الخـــامسة والعشرين أستاذا للفلك في كلية جريشام في لندن ، وفي سن التاسعة والعشرين شغل « كرسي » « سافيل » للفلك في أكسفورد . وبدا أنه وهب نفسه للعلم ، فقد سحرت لبه الرياضيات والميكانيكا والبصريات والأرصاد الجويه والفلك . فقوم السيكلويد (وجد أن الخط المستقيم مكافيء لانحناء السيكلويد) . وشرح قوانين التصادم ، ونسب إليه نيوتن كثيرا من التجارب التي أدت إلى وضع قوانين الحركة الثلاثة[٨٦] . وعمل بجـد على تحسين التلسكوب وصقل

العدسات وبحث فى دوائر زحل . وابتكر طريقة لتحويل الماء المالح إلى ماء عذب ، وأدى من أجل بويل أول عملية حقن للسائل فى مجرى الدم فى الحيوان . وأثبت أن الحيوان يمكن أن يعيش بسهولة بعد إزالة طحاله . واشترك مع توماس ولس Willis فى تشريح المخ . وأعد الرسوم اللازمة « لتشريح ولس المشهور » وكان من أوائل أعضاء « الجمعية الملكية » وهو الذى كتب مقدمة ميثاقها . وما كان أحد ليحلم أنه سيخلد فى التاريخ على أنه أعظم مهندس معمارى انجليزى .

أن الظروف قد تغير مجرى الحياة . وربما كانت مهارة رن فى الرسم هى التى حدت بشارل الثانى إلى تعيينه مساعدا لسير جون دنهام (١٦٦١) رئيس المساحة فى الأشغال العامة . وسرعان ما وجد فى العمارة ذلك التزاوج بين العلم والفن ، أى اضفاء الجمال على الحقيقة ، وهذا هو ما كان يشغل كل تفكيره . وكتب يقول : « هناك لونان من الجمال : الجمال الطبيعى والجمال المألوف أو العادى المتعارف عليه . والجمال الطبيعى تأتى لنا به الهندسة ، أما الثانى ، الجمال المألوف ، فإنه يتأتى من ترويض حواسنا على الأشياء التى تبعث السرور والبهجة عادة ... فى نفوسنا ولكن المعيار الحقيقى دائما هو الجمال الطبيعى أو الجمال الهندسى (٨٧) » . فالشىء الصحيح هندسيا ، كما يرى رن ، يسرنا هو نفسه ، ويكون جميلا (أحد الجسور الكبرى فى العالم مثلا) . ومن هذه الزاوية آثر العمارة الكلاسيكية على العمارة القوطية . وفى تصميماته الأولى ترسم خطى اينجو جونز .

وفى ١٦٦٣ وضع تصميم مسرح شلدون فى أكسفورد للأسقف جلبرت شلدون ، وهو منذ البداية ، اتبع مبادىء كلاسيكية . فرفع الصرح الدائرى الضخم ، على نفس الطراز الذى وضعه فتروفيوس فى قديم الزمان وفينولا فى عصر النهضة . وساعدت إقامته الطويلة فى فرنسا ١٦٦٤ — ١٦٦٦ على ترسيخ ميوله الكلاسيكية . ولكن إعجابه بكنيسة فرنسوا مانسارت فى فال - دى - جراس ، جنح به إلى إضافة شىء من زخارف الباروك إلى

واجهات مبانيه . كما أنه تذكر قبه فال ـ دى ـ جراس ، وهو يعيد بناء كنيسه سانت بول .

وعاد رن إلى لندن فى مارس ١٦٦٦ . وفى أبريل ، بناء على طلب الأسقف شلدون وضع خطة لإصلاح الكاتدرائية المتداعية ، التى ساخت من العمر آنذاك نحو ٦٠٠ عام . وفى ٢٧ أغسطس وافقت لجنة اصلاح كنيسة سانت بول على مشروع رن . ولم يمض على ذلك أسبوعان حتى دمر حريق لندن التاريخى الكنيسة ، وجرى الرصاص الذى أذابته النيران من سقفها فى الشوارع .

أن هذا الحريق الذى أتى على ثلثى العاصمة هيأ للعمارة فرصة لم تتح لها منذ حريق رومه . وكانت النيران لا تزال كامنة تنفث الدخان حين عرض رن على شارل الثانى مشروعه الرائع لإعادة بناء المدينة . وقبل الملك المشروع ، ولكن أعوزه المال اللازم له ، كما أن المشروع تعارض مع حقوق الملكية القوية . وشغل رن نفسه بمشروعات أخرى ، وأعد فى ١٦٧٣ تصميما لكنيسة سانت بول جديدة . ولكن رجال الكاتدرائية اعترضوا بأن التصميم تبدو عليه سيماء معبد وثنى ، وحثوا رن على التزام الطراز القوطى فى الكنيسه العتيقة ، ووافق كارها على حل وسط ، بحيث يكون الداخل عبارة عن أقواس وجناح من الكنيسه ومكان خاص بالمرتلين ، وكلها على الطراز القوطى ، على أن تكون الواجهه من طراز عصر النهضة : مدخل ذو رواق معمد وقوصرة كلاسيكية وبرجان من طراز الباروك . وكانت النتيجة خليطا كريه المنظر من الطراز ، ولو أن رن أصلح منه بعض الشيء بتتويج الجزء الداخلى بقبة تنافس قبة برونلسكى فى فلورنسة وميكلانجلو فى رومه وستظل سانت بول أروع كنيسة شادها البروتستانت

وعلى حين مضى هذا المشروع فى طريق التنفيذ لمدة خمسه وثلاثين عاما ، كان رن الذى خلف دنهام فى تولى شئون المساحة العامة ، وضع تصميما

لثلاث وخمسين كنيسة أخرى . اشتهر كثير منها بأبراجها وقممها المستدقة التى جمعت بين حاسة الجمال عنده وبين نزعته الرياضية . أضف إلى هذا دار الجمارك فى لندن ، والمستشفى فى كل من جرينتش وشلس ، والكنائس الصغيرة فى كلية بمبروك فى كمبردج وترينتى كولدج فى أكسفورد ، ومكتبة ترنيتى كولدج فى كمبردج والجناح الشرقى الكلاسيكى فى قصرها مبتون كورت ، وستا وثلاثين دارا نقابية ، وعددا من الدور الخاصة بل يبدو أنه فى الأربعين عاما الأخيرة من القرن السابع عشر . لم يشيد مبنى له قيمته وأهميته ، إلا كان رن هو المهندس الذى تولاه(٨٨) . واحتفظ رن بمنصبه فى المساحة طوال حكم شارل الثانى ، وجيمس الثانى ، ووليم ومارى ، وآن . وتقاعد عن العمل فى سن السادسة والثمانين ، ولكنه ظل لخمس سنوات أخرى يشرف على العمل فى كنيسة وستمنستر ، وينسب بعضهم إليه فضل إقامة أبراجها ، وفارق الحياة فى سن الحادية والتسعين ، ودفن فى كنيسة سانت بول .

وكان فن النحت لايزال يتيما فى انجلترا . ولكن الحفر على الخشب كان فنا رفيعا . وكان جرنلنج جيبونز معاونا له قيمته للمهندس رن ، قام بحفر المقاعد فى المكان المخصص للمرتلين وصندوق الأرغن الفخم فى كنيسه سانت بول ، والزخارف فى قصر وندسور وقصر كنسنجتن وهامبتون كورت .

واستمر فن الرسم فى انجلترا على أن يستقدم الأساتذة ويثبط من همم بنيه . وعلى الرغم من ذلك ، كان بعضهم يعد جون ريلى أعظم رسام لصور الأشخاص فى فترة عودة الملكيه وأدرك جون أن الوجه المدروس الذى يرسم فى روية ، هو فى ذاته سيرة حياة ، فاستطاع أن يقــرأ خطوطه ، وفى بصيرة نافذة كشف فى ثناياه عن خفاياه وأسراره وأبرزها فى شجاعه غير مريحه . وكاد تعليق شارل الثانى على صورة رسمها له ريلى يكون سببا فى انهيار الفنان ودماره ، حين قال الملك : « أهذه صورتى » ؟ ياخيبه الأمل ،

اذن أنا رجل قبيح المنظر » ومضى زمن طويل قبل أن تدرك الحاشية أن هذا كان مجرد تحية عفوية لأمانة الفنان . وبنفس الدقة والأمانة أخرج ربلى صور الملك الأحمق جيمس الثانى ، وادموند وإلر الشاعر المرتد ، وارل آروندل الأرستقراطى التافه المختال . ولكنه حين رسم كرستوفررن وربرت بويل ، وقع على العبقرية ووضع يده على إماراتها فى الوجه ، وعلى بريقها فى العينين. قال هوراس ولبول « ربما كان فى مقدور ريلى ، بربع غرور سيرجودفرى نللر ، أن يقنع العالم بتفوقه وسموه(٨٩) . وفارق الحياة فى ١٦٩١ وهو فى سن الخامسة والأربعين .

وكان للى الهولندى ونللى الألمانى فارسى الحلبة المرموقين فى رسم الأشخاص فى عصر آل ستيوارت الثانى . وكان والد للى جنديا هولنديا اسمه فان درفاس . (واشتق لقبه هذا (للى) من زنبقة كانت مرسومة على داره . وانحدر اللقب إلى الإبن . ولد بيتر فى وستفاليا ١٦١٨ ، ودرس الرسم فى هارلم ، وعبر البحر إلى انجلترا (١٦٤١) حين سمع أن شارل الأول أوتى الذوق والمال ، ووفق فى أن يخلف فانديك بوصفه مصور الأشخاص الذى يبتغيه الناس ، وظل محتفظا بمكانته هذه على عهد كرومول وشارل الثـــانى ، واقتبس للى أسلوب فانديك فى اضفاء الأناقة والرشاقة على الجالسين أمامه (لرسمهم) . ولو فى اللباس فقط . وحاصرته ربات الجمال فى الحاشية ، من ذلك أننا نرى فى قاعة المتحف الوطنى لوحة نل جوين ريانة فاتنة داعرة . وكونتس شروزبرى التى ساءت سمعتها ، بمغامراتها الغرامية كما نرى على جدران قصر هامبتون كورت ليدى كاسلمين ولويزدى كيروال ، تزدهيان بحلمات أثدائهما . وأجمل من ذلك جون تشرشل وهو طفل مع أخته (٨٩) أزابلا(٩٠) ومن الذى كان يتوقع أن يصبح هذا الطفل الملائكى والطفلة الملائكية دون مالبرو القوى الجبار ، والعشيقة التى تصحب زحزحتها لجيمس دوق يورك ؟ . وعن طريق مثل هذه اللوحات حصل لى على لقب فارس ، وجمع ثروة . فقد جلس أمامه شارل الثانى وستة من الأدواق

لرسمهم . ورأى بيبز أنه جبار معتد بنفسه .. يحظى بمنزلة رفيعه[٩١] » ،
وكان يعيش « عيشه مترفه باذخه[٩٢] » وحدد له موعدا للقائه بعد
ثلاثه أسابيع .

وفى ١٦٧٤ ، أى قبل وفاة للى بست سنوات ، قدم إلى لندن رجل
ألمانى عقد العزم على أن يخلف سير بيتر (للى) فى رسم الأشخاص وفى
كسب المال وفى الفروسية ، وحقق الرجل برنامجه وكان الرجل ، وهو
جوتفريد فون نللر ، آنذاك فى الثامنة والعشرين ، وعينه شارل الثانى
« مصور البلاط » واحتفظ نللر بهذا المنصب فى عهد جيمس الثانى ووليم
الثالث الذى منحه لقب فارس ، ورسم سير جودفرى لوحات لثلاثة وأربعين
من أعضاء « نادى كيت كات » ذى المكانة السياسية البارزة[٩٣] ولعشر
من النساء الخطيرات المغويات فى بلاط وليم[٩٤] . وغطى على شهرة دريدن
ولوك . ومثلما يتلهف أى إنسان على الخلود ، حول نللر مرسمه الفخم إلى
مصنع ينتج بالجملة ، بهيئة لم يسبق لها مثيل من المساعدين ، يتخصص كل
منهم فى شىء معين : الأيدى ، الثياب الأشرطة والخطوط الملونه . وفى بعض
الأحيان جلس أمامه أربعة عشر شخصا فى يوم واحد . وشيد قصرا فى
الريف ، وتنقل بينه وبين بيته فى المدينة فى عربة تجرها ستة جياد . واحتفظ
بحياته فى كل التقلبات السياسية . وفاضت روحه وهو فى فراشه معززا
مكرما فى سن السابعة والسبعين (١٧٢٣) وفى تلك السنة ولد رينولدز ،
وكان هوجارث فى السادسه والعشرين من العمر ، وبدأ الرسم الوطنى
يترعرع ويشق طريقه .

وقضى البيوريتانيون تقريباً على الفن ، ولكنهم لم يخرسوا الموسيقى .
ولم يخل من الآلات الموسيقيه إلا أحقر البيوت ، ولحظ بيبز وجود
العذراويه (آلة تشبه البيان الصغير بدون قوائم) فى كل قارب من ثلاثه من
القوارب التى تحمل البضائع المنقذة فى التيمز أثناء الحريق[٩٥] ، وكتب
يقول : « لا بد أن أفسح المجال للموسيقى والنساء مهما كنت مشغولا » .

وكان يورد ذكر صفارته ومزهره وعوده وقيثارته . قدرما يذكر أسلحته(٩٦) وكل إنسان ورد ذكره فى مذكراته ، كان يعزف ويغنى • وكان من القضايا المسلم بها عنده أن أصدقاءه كان فى مقدورهم أن يشاركوا فى الغناء(٩٧) • وأنه هو وزوجته وخادماتهما كانوا يغنون فى حديقته غناء متناغما ، بشكل مقبول إلى حد أن جيرانهم كانوا يفتحون النوافذ ليستمعوا إليهم .

وفى الابتهاج بعودة الملكية صدحت الموسيقى من كل شكل ولون • واستقدم شارل الموسيقيين من فرنسا • وسرعان ماجعل الناس يدركون أنه كان يحبذ الألحان الرخيمة المبهجه الواضحه التى لاتحسب الرياضيات تناسقا أو تناغما • ووضعت آلات الأرغن من جديد ولعلعت فى الكنائس الرسميه • وكان الأرغن الذى صمم لكنيسه سانت جورج فى وندسور ، وللكاتدرائيه فى أكستر ، من بين عجائب الدنيا التى أحدثت دويا فى ذاك العصر • ولكن حتى فى جماعه المنشدين فى الكنيسه حل محل الوقار والرهبه عروض مسرحيه من فنانى والالآت المنشدين المنفردين • وأمر شارل الثانى وجيمس الثانى باعداد الموسيقى للشعر الغنائى وحلبات الرقص التى تقام إحتفالا بالمناسبات الملكيه . واستخدمت الكنائس الموسيقى لقاء أجر ، وجازفت المسارح بالأوبرا ، وبدأ الملحنون والعازفون الانجليز يرتزقون من جديد •

وفى ١٦٥٦ أقنع سير وليم دافنانت حكومه الحمايه انترخص له فى إعادة افتتاح مسرح ، على أساس أنه سيخرج أوبرا ، لاروايه وفى « حفلة الأيام الأولى » التى مثلها لم يكن هناك أوبرا بقدر ما كان هناك سلسلة من الحوارات سبقتها وتخللتها وأعقبتها الموسيقى . ولكن فى العام نفسه عرض دافنانت فى مسرحه الخاص « رتلندهاوس » أول أوبرا إنجليزيه « حصار رودس(٩٨) » ولكن إغلاق المسارح بسبب الطاعون والحريق ، عوق هذة التجارب • على أنه فى ١٦٦٧ عرض دافنانت المغامر ، فى صورة

صوره موسيقية معدلة « العاصفة » التي زعم أنها من عمل أبيه . وحددت أوبرا بورسل « ديدو وإينياس » بداية الأوبرا الكاملة في إنجلترا .

وكما هو الحال غالبا في تاريخ الموسيقى ، فإن عبقرية هنرى بورسل كانت في معظمها نتاج وراثة اجتماعية — أي بيئة سن المراهقة . فكان أبوه رئيس المرتلين في وستمنستر ، وكان عمه يشغل وظيفة « ملحن القيثارات لصاحب الجلالة » . وكان أخوه ملحنا وكاتبا مسرحيا . وتابع ابنه وحفيده عمله في العزف على الأرغن في الكنيسة . أما هو فلم يمتد به الأجل لأكثر من سبعة وثلاثين عاما (١٦٥٨ — ١٦٩٥) ، وتولى الترتيل في الكنيسة الملكية وهو لا يزال صبيا ، حتى ضعف صوته . وألف في شبابه ترانيم دينية ظلت تسمع في الكاندرائيات الإنجليزية على مدى قرن من الزمان : وألحانه الإثنى عشر من نوع السوناتة (١٦٨٣) لقيثارتين أو لأرغن وبيان قيثارى ، هي التي جلبت شكل السوناتة من إيطاليا إلى إنجلترا ، ويقول بيرني أن أغانيه وترانيمه والكانتاتا (قصه تنشدها المجموعة على أنغام الموسيقى من غير تمثيل) وموسيقى الفرقه التي ألفها « فاقت إلى حد بعيد كل ما أنتجته أو استوردته بلادنا من قبل ، إلى حد يبدو معه أن سائر الألحان الموسيقيه باءت بالاحتقار أو لاذت بزوايا النسيان(٩٩) .

ولما كان بورسل منهمكا في عمله ، عازفا على الأرغن وملحنا ، فإنه لم يتيسر له أن يخرج « ديدو وإينياس(*) » قبل ١٦٨٩ ، لنخبه مختارة من المتفرجين ، في إحدى مدارس البنات في لندن . وتبدو الموسيقى لنا الآن ، حتى الاستهلال المشهور ، هزيلة نحيلة ، ولكن يجب أن نتذكر أن الأوبرا كانت آنذاك في المهد ، وأن جمهور المستمعين آنذاك لم يولع بالضوضاء والصخب مثلنا اليوم أما اللحن الأخير — عويل ديدو ونواحها : « عندما

(*) في الأساطير الرومانية — ديدو أميرة صور إلى أسست قرطاجه وأصبحت ملكة عليها ، وتقول الياذة فرجيل ، أنها رحبت بإينياس حين قدم إلى قرطاجة بعد سقوط تراوده ، ووقعت في شراك غرامه ، ثم قتلت نفسها حين غادرها .

أتوسد الثرى » فإنه من أكثر مايهز المشاعر ويؤثر فى النفوس ، من الحان فى تاريخ الأوبرا بأسره » .

أما « الملك آرثر » (١٦٩١) التى كتب كلماتها دريـــدن ووضع موسيقاها بورسل ، فليست أوبرا بالمعنى الكامل ، حيث يبدو أن الموسيقى لم تكن مرتبطه إلا إرتباطا يسيراً بجو الروايه أو أحداثها ، مثلما أن الروايه لم يكن لها صلة وثيقه بعصر آرثر كما نراه فى مالورى وتنيسون . وبعد ذلك بعام واحد ، أحرز بورسل تقدما أكثر فى موسيقى ثانويه لروايه « فيرى كوين : الملكة الجنيه » ، وتكييف مجهول الاسم « لحلم ليله منتصف الصيف » . ولم يمتد به الأجل ليشهد إخراجه ، وضاعت الألحـــان ، ولم تكتشف إلا فى ١٩٠١ وهى الآن تعد من أحسن ما أنتج بورسل .

وفى ١٦٩٣ وضع أكثر قصائده الغنائيه الكثيرة ، أحكاما واتقانا ، فى الاحتفال بيوم سانت سيسيليا . ولكن أرق هذه القصائد هى « تسبيحة الشكر والابتهاج » المرحة ١٦٩٤ . وكانت تعزف سنويا فى الإحتفال « بأبناء رجال الكنيسة » حتى ١٧١٣ ، حتى اشتركت فى هذا الشرف مع مقطوعة هاندل « تسبيحة الشكر من أوترخت » ، فكانتا تعزفان بالتبادل سنويا حتى ١٧٤٣ . ومن أجل جنازة الملكة مارى ١٦٩٥ ، ألف بورسل ترتيلة مشهورة « يا ربنا : أنت أعلم بخفايا قلوبنا » . وفى سنواته الأخيرة اسهم فى الموسيقى الثانويه لروايه دريدن « الملكة الهنديه » ومن الواضح أنه مرض قبل أن يتمها لأن موسيقى الخاتمة وضعها أخوه دانيل . وحانت منيته ، ربما بسبب السل ، فى ٢١ نوفمبر ١٦٩٥ .

وعلى الرغم مما امتلأت به فترة عودة الملكية من حيوية ونشاط ، فإن الموسيقى الانجليزية لم تكن قد أفاقت بعـــد من نكستها على يد البيوريتانيين بعد عهد اليزابث . وبدلا من ترسيخ جذورها ثانية فى التربة الانجليزية ، حذت حذو الملك ، فانحنت إجلالا وإكباراً أمام الأساليب

الفرنسية والآلات الايطالية . وبعــد أوبرا « ديدو واينياس » غزت الأوبرا الايطالية مسرح الأوبرا الانجليزى ، يقدمها مغنون ايطاليون . كتب بورسل فى ١٦٩٠ « ان الموسيقى الانجليزية لم تبلغ بعد سن الرشد إنها طفل تواق طموح يبشر بما يمكن أن يكون عليه فى المستقبل ... إذا وجد أساتذته مزيدا من التشجيع (١٠٠) » .

٥ — الأخلاق

فلنبدأ أمورنا هنا بالتفريق بين عامة الشعب وأبناء الطبقات العليا ، فالاستهتار الجنسى الذى ساد فترة عودة الملكية ، سرى عن طريق الحاشية إلى الطبقة الوسطى العليا وسكان المدن وماحولها الذين ترددوا على المسارح وربما كانت أخلاق العامه المغمورين أفضل منها فى عصر اليزابث ، لأن النظام الاقتصادى أبقاهم على اعتدالهم وبعدهم عن السرف ، فلم يكونوا يملكون الوسائل التى يترددون بها فى مهاوى الرذيلة والشر ، وظلوا يحسون بوازع من عقائدهم البيوريتانيه . ولكن فى لندن ، وبوجه أخص ، فى الحاشيه الملكيه ، فإن التحلل من القيود البيوريتانيه ورد الفعل الناجم عن ذلك ، أديا إلى اتصال جنسى غير مشروع ومرح صاخب غير برىء . أما الشباب الارستقراطى الذى اقتلع من أرض الوطن وأطلق لنفسه العنان فى فرنسا ، فقد ترك أخلاقه وراءه فى المنفى ، وأتى معــه لدى عودته بضروب من الفوضى الموسومه بالرشاقه والظرف ، وانتقاما منهم للسنوات التى عانوا فيها عنت الظلم والحرمان والسلب والنهب ، شنوا بكل ما أتوا من قوة وذكاء ، الحرب على زى البيوريتانيين وحديثهم ولا هوتهم ومبادىء الأخلاق عندهم ، إلى حد لم يجرؤ معه واحد من أبناء طبقتهم أن ينبس ببنت شفه من أجل الحشمة والوقار . وباتت الفضيلة والتقوى والأمانة الزوجية كلها ألوانا من البراءة أو السذاجة الريفية وأصبح الزانى الذى يوفق كل التوفيق فى هذه الرذيله ، هو بطل عصره وفريد زمانه ، (كما هو الحال فى رواية وتشرلى : الزوجة الريفية) والواقع أن الديانه فقدت مكانتها

وإعتبارها بين الناس ، ولم يبق لها شيء من هذا إلا عند الحرفيين والفلاحين. وصار الوعاظ موضع الإحتقار والازدراء على أنهم منافقون كئيبون أغبياء منزعجون مملون ثقال الظل . وأصبحت الديانة الوحيدة الصالحة للسيد الماجد هي الأنجليكانية المهذبة التي يحضر فيها المولى (رب العمل أو مالك الأرض) صلاة الأحد لتدعيم مركز القسيس الذي يزرع الخوف من نار الجحيم في نفوس القرويين ، ويسبح بالحمد والشكر ، في إيجاز مناسب ، من جانب المنصة التي يجلس إليها المولى أو سيد القرية . . وأصبح أقرب إلى طابع العصر أن يكون المرء ماديا على مذهب هوبز ، لامسيحياً مثل ملتون ، الأحمق العجوز الأعمى الذي نظر إلى سفر التكوين على أنه تاريخ ، وفقدت نار الجحيم التي بولغ فيها في العشرين سنة الماضية ، رهبتها وهيبتها لدى طبقات المالكين . أما الجنة في رأيهم ، فهي مائلة دوما في مجتمع متحرر من الثورة الإجتماعية والسكبت الخلقي في ظل حاشية وملك ضربا المثل وتقدما الركب في الفسق والفجور والميسر واللهو والعبث .

وكان ثمة عدة رجال أفاضل ونساء فضليات بين أفراد البلاط الملكي ، وكان كلارندن مثلا رجلا ذا مبادىء وسلوك قويم حتى سارت ابنته في طريق الغواية فاهتاج وفقد صوابه ، وأوصى بقتلها وتحلى أرل سوثمبتون الرابع ودوق أورمند الأول بالحشمة والوقار ، وكان بين رجال الدين الأنجليكانيين نفر من المخلصين الأتقياء ، حتى من الأساقفة أو ذوى المراتب الكنيسة العالية . وصدقت عزيمة الملكة وليدى فانشو والآنسة هملتون ، أو السيدة جودولفين فيما بعد ، في التمسك بأهداب الفضيله . ويقينا كان هناك أفراد غير هؤلاء وهؤلاء ، ضاعت ذكراهم في ثنايا التاريخ لأن الفضيلة لا تعلن عن نفسها .

وكلما علت المكانة أنحطت الأخلاق . فهناك جيمس ، دوق يورك ، شقيق الملك ، الذي يبدو أنه بز الملك في حصته من الخليلات العشيقات(١٠١) . وبينما هو في المنفى تسلل إلى مخدع آن هايد ابنة قاضي القضاة ، فلما حملت

منه توسلت إليه أن يتزوجها ولكنه كان يماطل ، وأخيراً وقبل أن تضع وليدها بسبعة أسابيع (٢٢ أكتوبر ١٦٦٠) اتخذ منها زوجة شرعية سراً . وعندما سمع أبوها (كلارندون) بنبأ هذا الزواج ، كما تروى سيرة حياته(١٠٢) احتج لدى الملك بأنه لم يعلم شيئاً عن هذا الاتفاق ، وأنه « كان يؤثر أن تكون ابنته خليله الدوق لا زوجته ، وأنهما إذا كان حقا قد تزوجا « فينبغي على الملك أن يزج بالمرأة فى السجن فورا » ، وأن يصدر فى الحال قرار من البرلمان بقطع رأسها ، وأنه لن يوافق على هذا القرار فحسب ، بل سيكون عن طيب خاطر أول من يقترحه » . وهز الملك كتفيه استهجانا للموضوع على أنه هراء لا غناء فيه ، وكأنه يسمع جعجعة ولا يرى طحنا ، وربما أدرك قاضى القضاة أن الملك لن يلزمه بكلمته . وتحدث فى صرامة وتجهم ، على الطريقة الرومانية ، ليعوض عما ثار من ريبه فى أنه رتب أمر الزواج من قبل ، ليجعل من ابنته ملكة على أن ابنته آن ماتت بالسرطان فى ١٦٧١ ، فى سن الرابعه والثلاثين .

واتخذ جيمس ، بينما كانت زوجته (آن) تعانى مثل كل الأمومه ، من أرابلا تشرشل عشيقه له ، وهى التى إرتضى أخوها هذا الوضع حتى يحظى بالترقى فى مناصب الجيش • ورغبة فى معاونة آن وأرابلا والتخفيف عنهما اتخذ الدوق بضع خليلات أخريات لمضاجعته واستثناء إيفلين بصفه خاصه من من سلوكه الشائن مع ليدى دنهام (١٦٦٦)(١٠٣) . ولم يغير تحول جيمس إلى الكثلكة من خلقه شيئاً . فكان كما كتب بيرنت « دائم التنقل من غرام إلى غرام دون أن يحسن الاختيار ، حتى قال الملك يوما أنه يعتقد أن القساوسه هم الذين يقدمون له العشيقات عقوبة يكفر بها عن ذنوبه(١٠٤) » ودامت علاقته بأرابلا نغمة عذبة من الأرغن ، وسط هذا التنقل بين مطارح الهوى ، وبقيت بعد موت آن ، وبعد زواج جيمس (١٦٧٣) من مارى مودينا .

وينبغى علينا أن نضيف إلى ما ذكرنا ، أن دوق يورك نفسه كان يتحلى بمناقب تدعو إلى الإعجاب ، فإنه — وهو أمير البحر

(١٦٦٠ — ١٦٧٣) ، بذل أقصى الجهد فى التغلب على سوء النظام والفساد فى البحرية ، نتيجة لضآلة الأجور والمؤن التى تصرف لرجال البحر وتدريبهم الهزيل ، وأبدى مهارة وشجاعة فى اشتباكاته مع الهولنديين . ونهض بمهام الإدارة فى مقدرة واخلاص . ولم تشب أية شائبة قط اخلاصه العميق لأخيه الملك ، بل انتظر صابرا طيلة ربع قرن من الزمان قبل أن يخلفه على العرش . وكان صريحا مخلصا يسهل الوصول إليه ، ولكنه كان شديد الـكلف بمكانته وسلطانه إلى حد لم يكن معه شعبيا ، وكان صديقا يقيم على الود، وعدوا عنيدا لا يغتفر الاساءة . وكان ذا جلد على العمل الشاق ولكنه لم يكن متوقد الذكاء . وكان يأبى النصح والمشورة أيما إباء .

وكان يحتل المركز الثانى فى البلاط ، جورج فليبردوق بكنجهام الثانى . وكان ابن محظية جيمس الأول التى لقيت حتفها ، ومن ثم قاتل إلى جانب شارل الأول فى الحرب الأهلية ، ومع شارل الثانى فى وورسستر ، وعينه الملك الذى استرد العرش عضوا فى مجلسه الخاص وكان بارعا ذكيا أنيسا كريما ، ولذلك سيطر فى البلاط بسحره وفتنته لبعض الوقت ، وكتب «ملهاة» رائعة . « التجربة » ، وتلهى بالكيمياء القديمة والعزف على القيثارة إلى حد ما . ولكن وجهه وثراءه جلبا عليه الدمار . انه تنقل من امرأة إلى أخرى ، وانغمس فى عبث مخز شائن . وبدد ضيعته الهائلة . وكان يتوق إلى الظفر بكونتيس شروزبرى ، فتحدى زوجها لمبارزته ، وتنكرت هى فى زى خادم ، وأمسكت بجواد بكنجهام أثناء المبارزة ، وصرع بكنجهام الكونت ، وعانقت الأرملة السعيدة الدوق المنتصر الذى كان لا يزال مضرجا بدم زوجها ، وعادا ظافرين إلى قصر الفريسة(١٠٥) . وعزل بكنجهام عن منصبه (١٦٧٤) ، وانصرف إلى اللهو والعبث ، ومات فقيرا معدما يجلله الخزى والعار .

وكان ينافس بكنجهام فى المكانة والذكاء والقصف والعربدة والانحلال

جون ولموت أرل روشستر الثانى ، حصل جون على درجة الأستاذية من أكسفورد فى سن الرابعة عشرة (١٦٦١) وهو أمر لا يصدق ، والتحق بالبلاط فى السابعة عشرة . وأصبح المشرف على حجرة الملك . وكان فى حاجة إلى المال وهو فى سن التاسعة عشرة ، فتودد إلى وريثه ثرية تباطأت فى تحقيق بغيته ، فاختطفها ، ومن أجل ذلك زج به فى السجن ، فرق قلبها له ، ثم حظى بالزواج منها ، ثم بثروتها ، وكم من مرة أبعده شارل عن الحاشيه وأعاده إليها ، مستسيغا فطنته وذكاءه . وكان روشستر — مثل بكنجهام — خبيرا فى التقليد والمحاكاة ، وكان يسر بالتنكر فى زى حمال أو متسول أو تاجر أو طبيب ألمانى ، وكان يوفق فى هذا التمثيل والمحاكاة إلى حد ضلل أو خدع معه أوثق أصدقائه صلة به . وزعم بوصفه طبيبا أنه يبرىء من الأدواء المستعصية عن طريق علمه بالتنجيم . وجذب إليه مئات من المرضى ، وشفى عددا منهم ، وسرعان ماقصدت إليه سيدات البلاط لعلاجهن . وعجز أولئك الذين عرفوه حق المعرفة ، عن التعرف عليه[١٠٦] وفى كل هذه التنكرات تقريبا كان يطارد السيدات ، دون أى اعتبار لمكانتهن . وكن هن يتعقبنه كذلك . وتسلى جون بكتابة قطع من الهجاء البذىء الداعر . وقضى على حياته بالخمر والفجور . وكان يفخر بأنه كان ثملا مخمورا لمدة خمس سنوات بلا انقطاع — ومات فقيرا نادما فى سن الثالثه والثلاثين .

وكان فى الحاشية رجال كثيرون من أمثال ولموت ، حتى أن بيبز نفسه ، وهو غيرها والمزنى تسائل : « ماذا ستكون نهاية كل هذا الشراب وهذا السباب وهذه العلاقات الغرامية الفاجرة[١٠٧] » وعبر بوب عن هذه الحالة فى « بحث فى النقد » ، ولكنه لم ينصف الملك كل الإنصاف ، فهو يقول :

« إذا كانت المهمة الهينة اللينة للملك هى العشق والغرام ، فقلما نراه فى مجلس الحكم ، ولا نراه أبدا فى ساحة الوغى ، فان الدولة يحكمها النساء الحانثات بالعهد اللائى يتنقلن من حب إلى حب ، أما رجال الدولة والسياسة فيكتبون المسرحيات الهزلية الساخرة ولا يستفاد بذوى المواهب ،

والوردات الشبان اليافعون خلو من الذكاء والفطنة ، .... ولم تعد المروحة المتواضعة المحتشمة ترفع ، وعلت الابتسامة وجوه العذارى لما كانت وجناتهن تحمر له حياء وخجلا من قبل(١٠٨) .

وكان من الأمور المسلم بها أن الزوجات — مثل الأزواج — تعوزهن الأمانة والاخلاص ، فان الرجال لم يتطلبن الأمانة والإخلاص إلا فى عشيقاتهم(١٠٩) . إن مذكرات كونت فيليبرت دى جراموت التى دونها بالفرنسية أخو زوجته ، أنطونى هملتون ، كانت ، أحيانا ، عبارة عن قائمة بالمغرورين المختالين،أو سلسلة من الديوثين الذين لا يغارون على زوجاتهم وهم يعلمون انهن يأتين الفاحشة ، كما رآهم الكونت فى منفاه السعيد فى بلاط شارل الثانى .

وكم كانت الساعات تقضى وتخصص للرقص وسباق الخيل وصراع الديكة ولعب البليارد والورق والشطرنج ، والألعاب الأرضية والحفلات التنكرية المرحة ، ثم كما يقول بيرنت « يطوف الملك والملكة وكل أفراد البلاط ، وهم جميعا متنكرون ، بالبيوت غير المعروفة ، حيث يرقصون ويعبثون ويلهون فى صخب فاجر(١١٠) » وكانت المراهنات على مبالغ طائله . يقول ايفلين « فى هـذه الليله ، افتتح جلالة الملك الحلبة ، كما هى العادة ، فألقى « الزهر » بنفسه فى القاعة الخاصة ، . . . وخسر مائة جنيه . (وكان قد كسب فى العام الماضى ١٥٠٠ جنيه) . وأقبل السيدات كذلك على اللعب اقبالا شديدا(١١١) » وحذت الطبقات العليا حذو الحاشية فى القمار والدعارة . وتحدث ايفلين عن شباب انجلترا الفاسق الفاجر الذى فاقت إلى حد كبير دعارته للذهله ، حماقات سائر الأمم المتحضرة مهما كانت(١١٢) . وانتشر اللواط ، وبخاصة فى الجيش . وكتب روشستر رواية عنوانها « سودومى » (نسبة إلى سودوم قرية قوم لوط) مثلت أمام الحاشية . والظاهر أنه كان فى انجلترا عدد من المواخير لهذا الاختلاط الجنسى الشاذ(١١٣) .

وكان عدد الزيجات القائمة على الحب يتزايد . وهناك أمثلة رائعه ، منها زواج دوروثى أو زيورن من وليم تمبل ، الذى ثبت أنه زواج سعيد ، ولو أن دوروثى كتبت تقول . « ليس الزواج القائم على الحب تصرفا معيبا ملوما ، إذا كنا لم نر من بين ألف من الزوجين الحبيبين الذين يقدمون عليه ، زواجا واحد يمكن أن يتخذ مثلا على أنه يمكن اتمامه دون ندم عليه فى المستقبل »(١١٤) . وكتب سويفت إلى سيدة شابة فى موضوع زواجها فتحدث عن الشخص الذى اختاره أبواها ليكون زوجا لها . وأضاف « أن زواجك كان قائما على الحكمة والحصافة والتدبر والشعور الطيب المتبادل ، خاليا من عوائق الانفعال السخيف فى الحب الرومانتيك(١١٥) » . ويذكر كلارندون : « إن رغبتى الأولى فى الزواج لم تتعلق إلا بضيعة ملائمة مريحه(١١٦) » .

ومن الناحيه النظرية كان للزوج كل السيطرة على زوجته ، كما يتحكم حتى فى الصداق الذى أتت به إليه . وفى كل الطبقات كانت مشيئة الزوج قانونا . وفى الطبقات الدنيا استعمل الزوج حقوقه المشروعه فى ضرب زوجته ، ولكن القانون حرم عليه استعمال عصا يجاوز سمكها سمك ابهامه(١١٧) . وكان انضباط الأسرة أو نظامها قويا ، اللهم إلا فى الطبقات العليا فى لندن ، حيث شكا كلارندون من أن الوالدين ليس لهما أى سلطان على الأبناء ، كما أن هؤلاء لا يذعنون للاباء ولا يطيعونهم . بل « ان كل انسان يتصرف كما يحلوله »(١١٨) . وكان الطلاق نادرا ، ولكن يمكن اجازته بقرار من البرلمان . ورأى الأسقف بيرنت — مثل لوثر وملتون — أنه يمكن السماح بتعدد الزوجات فى حالات معينة ، وعرض هذه الفكرة على شارل الثانى ، بسبب عقم الملكة ، ولكن الملك رفضها ، تحاشيا للتمادى فى اذلال زوجته(١١٩) .

وهددت الجريمة الأرواح والممتلكات بشكل مستمر . وكان اللصوص والنشالون يتجمعون فى عصابات ويسطون فى جنح الليل . وكانت المبارزة

محرمة بحكم القانون ، ولكنها بقيت امتيازا للسادة الأماجد ، فإذا صرع مبارز غريمه وفقا للقواعد ، نجا المنتصر عادة بسجن قصير مريح . وسعى القانون جاهدا ليكافح الجريمة عن طريق ما يبدو الآن عقوبات وحشية . ولكن ربما كانت الاجراءات الصارمة لازمة لغزو العقول المتحجرة أو المتبلدة . وكان التعذيب والموت عقوبة الخيانة العظمى . وكان الشنق عقوبة القتل أو الجناية أو تزييف العملة . وكانت الزوجة التي تقتل زوجها تحرق حية . أما السرقات الخفيفة فكانت عقوبتها الجلد ، أو قطع احدى الأذنين ، وضرب أي فرد من حاشية الملك يعاقب بقطع اليد اليمنى . أما التزوير والخداع وغش الموازين والمقاييس فكانت عقوبتها التعذيب في المشهرة ، أحيانا مع دق الأذنين كلتيهما بالمسامير في آلة التعذيب ، أو ثقب اللسان بقضيب من الحديد المحمى (١٢٠) . وكان الناس عادة يستمتعون بمشاهدة مثل هذه العقوبات (١٢١) ، ويحتشدون ، وكأنهم في يوم عطلة ، ليشهدوا سجينا على حبل المشنقة . وضمت السجون في عهد الملك السعيد عشرة آلاف سجين من أجل الديون ، وكانت السجون قذرة ، ولكن كان من الممكن أن يقدم الحراس بعض التيسيرات مقابل رشوة . كانت العقوبات أشد صرامة وقسوة منها في فرنسا المعاصرة ، ولكن القانون كان أكثر تحرراً . ولم تكن في انجلترا « أوامر مختومة » (لا لقاء أي شخص في السجن دون محاكمة) ، بل كان فيها نظام التحقيق في قانونية الاعتقال . إلى جانب نظام المحلفين .

وشاركت الأخلاقيات الاجتماعية في الانحلال العام . وتزايدت أعمال البر . ولكن ربما كان الواحد والأربعون ملجأ في انجلترا مجرد وجه آخر لجشع الأقوياء ، وكان كل فرد تقريبا يعمد إلى الغش أثناء لعب الورق (١٢٢) ودب الفساد في كل الطبقات بمعدل أكبر من المستوى العادي . ومن مذكرات بيبز تفوح رائحة الفساد في مختلف الأعمال ، في السياسة وفي البحرية وفي بيبز نفسه . من ذلك أن المؤسسات والمصانع زادت في اسهمها دون زيادة مقابلة في رأس المال ، وزورت في حساباتها ، وتقاضت من

الحكومة أثمانا فادحة (١٢٣) . وكانت الاعتمادات التى يقرها البرلمان للجيش أو الأسطول يتحول جزء منها إلى جيوب الموظفين ورجال البلاط . وباع موظفو الدولة — حتى ولو كانت رواتبهم كافية تدفع بانتظام — الألقاب والعقود والبراءات والتعيينات وأوامر العفو ، إلى حد « بات معه الراتب الأصلى يشكل الجزء الأصغر مما يدخل إلى جيوبهم (١٢٤) » . وأثرى كبار رجال الحكومة مثل كلارندون ودانبى وسندرلند — أثروا فى سنوات قليلة واشتروا أو بنوا ضياعا لا تتناسب قط مع رواتبهم . وباع أعضاء البرلمان أصواتهم للوزراء ، بل حتى للحكومات الاجنبية (١٢٥) وفى القرارات انتزع مائتا عضو من صفوف المعارضة ، نتيجة لأن الوزراء اشتروا أصواتهم (١٢٦) . وفى ١٦٧٥ قدر أن ثلثى أعضاء مجلس العموم كانوا مأجورين من قبل شارل الثانى ، والثلث الباقى من قبل لويس الرابع عشر (١٢٧) حيث وجد العاهل الفرنسى أنه من الميسور أن يرشو الأعضاء ليصوتوا ضد شارل إذا حاد بشكل مزعج عن سياسة البوربون . أما شارل نفسه فكم من مرة تسلم أموالا طائلة من لويس ، حتى يلتزم الدوران فى فلك فرنسا فى السياسة أو الديانة أو الحرب ، وهكذا كان المجتمع الانجليزى أكثر المجتمعات استهتارا وفساداً فى التاريخ .

٦ — العادات

حاولت العادات أو أساليب الحياة هنا أن تعوض عن النقص فى الآداب — كما فى فرنسا — ، وأن تضفى كياسة متكلفة على الملابس المزركشة الأنيقة والأدب الفاجر ، والحديث الدنس . وكان شارل نفسه مثالا لأسلوب الحياة وتسرب إلى الطبقات العليا ما تجمل به الملك من ظرف ولطف ومجاملة وسحر وفتنة ، وترك كل أولئك بصماته على الحياة فى انجلترا . فتبادل الرجال القبلات عند اللقاء . وقبلوا يد المرأة إذا قدموا إليها . وفى لندن — كما كان فى باريس — استقبلت السيدات الرجال فى الفراش ، فكان هناك صراحة

منعشة واحتقار النفاق فى الأدب وفى المسرح وفى البلاط . ولكن الصراحة أطلقت فيضا من الخشونة على المسرح وفى الحديث اليومى . وكانت البذاءة فى انجلترا بغير مثال . وفى هذا كان شارل من بين الشواذ الخارجين على القاعدة ، حيث كان لا يتجاوز فى السباب « عبارته المفضلة Odds Fish وكان البيوريتانيول الباقون ينأون بأنفسهم عن فحش القول إلا إذا هاجوا خصومهم وسخروا منهم . أما السكويكرز فامتنعوا عن الحلف

وبز الرجال النساء فى الأزياء الغربية ، من الشعر المستعار المضمخ بالمساحيق لأجل التبرج ، إلى الجوارب الحريرية والأحذية ذات « الابزيم » وكان الشعر المستعار بدعه أخرى مستوردة من فرنسا . وكان الفرسان والمختالون وغيرهم ، ممن كان شعرهم قصيراً ، أو ممن يخافون أن يخطئهم الناس على أنهم من البيوريتانيين ذوى الرؤوس المستديرة الذى كانوا يقصون شعورهم قصا قصيرا جدا ، تقول ان هؤلاء وهؤلاء كانوا يغطون قصر شعرهم بشعور أجنبية مستعارة . أما الرجال الذين أبيض شعرهم أو مال إلى الشيب فقد وجدوا فى الشعر المستعار وسيلة ناجحة لاخفاء أعمارهم . وكان كل الرجال تقريبا يحلقون اللحى آنذاك . وكان هذا الشعر المستعار يصلح من شأن بشرة الملك الأسبانية وأنفه الضخم . وجعل بيبز من أول شعر مستعار وضعه مسألة خطيرة ، ورثى لشعره المحبب إليه الذى كان لزاما أن يقص ليفسح الطريق « للباروكة — الشعر المستعار » ويزود بالشعر رأس إنسان آخر(١٢٨) ، وكان لزاما أن يتم تنظيف شعره المستعار من القمل فى أوقات منتظمة (١٢٩) — واختفى الآن طوق الرقبة المكشكش المتيبس الذى كان سائدا فى عهد اليزابث وجيمس الأول . كما اختفت السترة الضيقة والعباءة الطويلة ليحل محلهما الصدرية والمعطف . ووصلت الصدرية على آية حال إلى ربلة الساق . وكانت تشـــد إلى الجسم بحزام . وتوقفت « بنطلونات » الركوب عند الركبتين وتدلت السيوف إلى جوانب الأرستقراطيين أو الأغنياء . وساعد المخملات والمخرمات وبالأشرطة والأهداب وكشكشة الثياب

على استكمال الظرف والكياسة ، وربما استخدم الناس لتدفئة اليدين في الشتاء ، « الموقه » وهى غطاء أنبوبي طويل مكسو بالفراء ، يعلق في العنق .

أما نساء الطبقات العليا الأنيقات (طبقا لآخر طراز) فكن يضمخن شعورهن بالمساحيق والعطور ، ويمشطنها في خصلات فوق جباهن ، وزدن عليهن خصلات مستعارة مرفوعة على أسلاك خفية ، وكسون قبعاتهن بالريش النادر ، ووضعن على خدودهن أو جبهاهن أو أذقانهن « لصوقات تجميلية » (و وهى قطع صغيرة جداً من حرير أسود يلصقها النساء كوسيلة لاخفاء العيوب أوللتبرج) ، زيادة في إغراء الرجال بعطاردتهن . وكشفن عن أكتافهن وعن أجزاء كبيرة من نهودهن ، وهكذا جلست لويز دى كيرووال أمام الرسام للى ليصورها وأحد نهديها عار تماما ، وبزتها نل جوين في ذلك . وكانت النساء تحجبن سيقانهن بشكل مغر . وتزايد الطلب على أدوات التجميل الأنيقة . فكانت المرآة بالفعل شيئا معقدا استخدم الإنسان كل براعته في تشكيله وصنعه ، حتى صورتها احدى الروايات في فترة عودة الملكية ، في شيء من المغالاة والإغراق في الوصف .

« صنعت أسنانها عند ناظم اللآلىء (في بلاك فرايرز) ، وحواجبها من خيوط أو أسلاك مجدولة (في استراند) ، وشعرها في شارع « الفضة » ، فإذا آوت إلى الفراش نزعت عن نفسها كل ماعليها لتضمه في عشرين صندوقا . حتى إذا نهضت من نومها ظهر اليوم التالى ، ركبت كل شيء في مكانه على جسمها من جديد . وكأنها ساعة حائط ألمانية ضخمة(١٣٠) » .

وكان التبذير واجبا حتميا ، لقد أصبحت الحياة مظهرية متكلفة من جديد ، ومن ثم اقتضت تجهيزات معقدة مفصلة . وكان لزاما استئجار عدد كبير من الخدم . فكان منهم لدى والد ايفلين نحو خمسين وكان لدى بيبز طباخ ومديرة للمنزل ووصيفة وخادمة . وكانت وجبات الطعام مروعة

ضخمة . أنظر إلى غداء بيبز في ٢٦ يناير ١٦٦٠ قبل أيام الطيش والغرارة بزمن طويل :

« أعدت زوجتي غداء شهيا جدا : أعني طبقا من « عظام النخاع » ، ونخذا من الضأن ، وقطعة من لحم العجل ، وصحنا من الطيور ، وثلاث دجاجات ، واثنى عشر زوجا من القنبر على طبق واحد ، وكعكة ضخمة محشوة بالمربى والفا كهة المطبوخة (تورتة) ، ولسان بقرة ، وطبقا من السمك الصغير « الأنشوجة » ، وطبقا من القريدس (الجمبرى) والجبن » .

وكانوا يتناولون الوجبة الرئيسية فى الساعة الواحدة . وكان للطبخ إنجليزيا . وعندما أوضح شارل الثانى لجرامونت أن الخدم كانوا يقدمون الطعام للملك ، وهم ركوع ، رمزا للاحترام والإجلال ، قال جرامونت (أوروى أنه قال) : « أشكر لجلالتكم هذا الإيضاح ،فقد ذهب تفكيرى إلى أنهم إنما كانوا يلتمسون المغفرة لتقديمهم طعاما رديئا(١٣١) » .

ولم يكن تناول المشروبات الروحية مجرد مظهر اجتماعى . فقلما كان الناس ، حتى الأطفال ، يشربون الماء(١٣٢) ، وكانت « البيرة » أيسر منالا من الماء الصالح للشرب . ومن ثم تناول كل الناس من مختلف الأسنان ، البيرة ، وأضاف الموسرون إليها الويسكى أو استوردوا النبيذ . وتردد معظم الناس على الحانات مرة واحدة فى اليوم ، وتناول كل الأفراد من جميع الطبقات الخمر من حين إلى حين .

ودخل البن من تركيا حوالى ١٦٥٠ . وحتى ١٧٠٠ كان معظم البن يستورد من اقليم مخا فى اليمن . وفى القرن الثامن عشر نقل الهولنديون زراعته إلى جاوة والبرتغاليون إلى سيلان والبرازيل ، والانجليز إلى جمايكا . وساعد استخدام القهوة فى التغلب على الخمول والكسل وفى شحذ الذهن ، على انتشارها وإقبال الناس عليها . وافتتحت لندن أول مقهى فيها فى١٦٥٢ ، وماوافى عام ١٧٠٠ حتى كان بها ٣٠٠٠ مقهى(١٣٢) واتخذ كل فرد مهما كانت مكانته ، أحد المقاهى محلا مختارا لمقابلاته بانتظام ، حيث يلتقى بأصدقائه

ويستمع إلى آخر الأنباء والمخازى . وحاول شارل الثانى أن يحد من انتشار المقاهى ومن نشاطها باعتبارها مراكز لإهاجة المشاعر السياسية والمؤامرات ، ولكن شهوة الحديث والشراب والاستمتاع برائحة التبغ أحبطت مساعيه . ومن بعض المقاهى نشأت الأندية التى لعبت دوراً فى سياسة القرن الثامن عشر ، ثم أصبحت آنذاك ملاذاً ومهرباً من أحادية الزواج ، واختلفت المقاهى عن الأندية التى ظهرت متأخرة عنها ، لا لمجرد أن القهوة كانت هى المشروب المفضل فيها ، بل لأن الحديث كان يلقى تشجيعاً فيها . كما أن مشاهير الأدباء مثل دريدن وأديسون وسويفت وجدوا فيها منابرهم (فى المقاهى) . كما أن حرية الكلام فى انجلترا انتعشت وازدهرت هناك .

وجاء الشاى إلى انجلترا من الصين حوالى ١٦٥٠ ، ولكنه كان غالى الثمن . إلى حد أنه لم يحل محل البن فى الحياة الانجليزية إلا بعد قرن من الزمان . وحسب بيبز أنه انما كان يقوم بمغامرة حين تناول أول فنجان من الشاى(١٣٤) . وفى نفس الوقت استورد حب الكاكاو من المكسيك وأمريكا الوسطى . وحوالى ١٦٥٨ استحدث شراب جديد بإضافة « الفانيليا » والسكر إلى الكاكاو . وأصبحت « الشكولاته » الناتجة عن هذا المزيج شراباً محبباً مألوفاً فى فترة عودة الملكية ، وكان يقدم فى كثير من المقاهى .

وفى تلك الآونة دخنت التبغ كل الطبقات ، بما فى ذلك كثير من النساء وبعض الأولاد ، فى أنابيب طويلة دوما . وظن النساء أن لهذا التبغ بعض الفائدة فى التطهير وقاية من الطاعون . وربما نشأت عن هذه الفكرة عادة « السعوط » فى تلك الأيام ، أى نشوق التبغ المسحوق .

والآن وقد تخلص الناس من كابوس البيوريتانية ، فقد ازدهرت الألعاب وأسباب التسلية واللهو : واستمتع الفقراء من جديد بمسرح العرائس وعروض السيرك وصراع الديكة ومطاردة الدببة والثيران ، وألعاب البهلوان على الحبال والمصارعة ، والشعوذة والملاكمة والسحر ، وانغمس الموسرون

فى الصيد بنوعيه : صيد النساء وصيد الحيوان . وظل شارل الثانى يمارس لعبة التنس حتى بلغ الثالثة والخمسين . أما ايفلين فقد أحب لعبة البولنج على الأرض الخضراء ، التى لا تزال منظراً محبباً إلى الانجليز حتى اليوم . وكانت لعبة الكريكت قد بدأت تكون وسيلة لقضاء وقت الفراغ فى الأمة بأسرها ولأول مرة فى ١٦٦١ يرد ذكر قطعة من الأرض مخصصة لهذه اللعبة ، ففى تلك السنة خططت حدائق فوكسهول على الضفة الجنوبية للتيمز ، وسرعان ما أصبحت منتجعاً أنيقاً على أحدث طراز . وافتتح شارل الثانى للجمهور متنزه سان جيمس . وأقيمت آنذاك حدائق هايد بارك حيث يقصد إليها فى الامسيات الظريفة ، علية القوم وعلى رأسهم الملك والملكة . إن « المجتمع » بدأ آنذاك يستشفى فى مياه باث المعدنية .

وتنقل الناس — فيما خلا أفقر الطبقات — فى عربات تجرها الجياد ، التى كانت قد بدأت تؤدى خدمة بريدية منتظمة لقاء بنس فى ١٦٥٧ ، ثم استخدمت لنقل الركاب فى مواعيد منتظمة فى ١٦٥٨ ، وكانت هذه العربات قد استخدمت لنقل السلع والتجارة داخل المدينة منذ ١٦٢٥ . وتنقل كبار الأغنياء فى عربات تجرها ستة جياد . وكانوا يصطحبون ثلاث فرق من الجياد ، لا لمجرد العرض وحب الظهور ، ولكن لتجر العربة فى الطريق الموحلة . وكانت الماشية المحلية فى بعض الأحيان تربط أمام الجياد لتشد العربة وتسحبها من المستنقعات العميقة . لقد كانت الطرقات مظلمة بالأتربة أو الأوحال . إن الحانات والانزال على جانبى الطريق ، بالخليط العجيب من نزلائها من سائقى العربات والمسافرين والممثلين والبائعين واللصوص والبغايا ، كانت تهيىء السبيل أمام هؤلاء جميعا للاسهام فى الأدب فى انجلترا وهكذا كانت تتشكل انجلترا الخشنة المحببة الى النفس والمفعمة بالحيوية ، التى عرفها دكنز فى شبابه .

٧ — الدين والسياسة

استمر الصراع بين المذاهب الدينية ، وتجدد النزاع القديم بين الملك والبرلمان ، وسط تفتح الناس وتوافر أسباب الحياة لديهم وتكاثرهم . وأحزن الملك المبتهج أن يرى مجلس العموم ، بعدما أظهر من اذعان وامتثال فى شهر العسل ، يغار من سلطة الملك وقوته ، ويقبض عنه الاعتمادات . لقد كان الملك رقيق القلب ولكنه حازم صلب العود . فولى وجهه شطر ملك فرنسا ليحصل منه على قروض خاصة ، ووعد ، وواضح أنه رغب — فى التخفيف من ويلات الكاثوليك الانجليز ، كما وعد بتأييد سياسة لويس الرابع عشر ضد الأراضى الوطيئة ، وبيع ثغر دنكرك على القنال الانجليزى لفرنسا ، وكان جنود كرومول قد استولوا عليه . والحق أن الدفاع عنه كان يكلف أموالا طائلة ، وكان شوكة فى جنب فرنسا . فتخلى شارل عن دنكرك (١٦٦٢) مقابل خمسة ملايين فرنك بالاضافة الى اعانات سرية من البوربون ، استطاع بها لبعض الوقت أن يتجاهل أو ليجار كية الأرض والمال التى تحكمت فى البرلمان آنذاك

ان هؤلاء الأوليجاركين ، على أية حال ، رأوا أن أموال الحكومة ينبغى أن تستخدم فى شن حرب مربحة أخرى ضد الهولنديين . ان نفس المنافسة على التجارة ومصايد الأسماك التى أدت الى الحرب الهولندية الاولى من قبل فى ١٦٥٢ هى التى عززت فكرة الحرب الثانية ١٦٦٤ . وقاوم شارل هذا الاتجاه الى الحرب ، لأطول مدة ممكنة ، لأنه آثر المحبة والمودة إيثار . وكتب لأخته يقول : لم أر قط مثل هذه الشهوة الجامحة للحرب فى الريف والحضر كليهما ، وبخاصة لدى رجال البرلمان . إنى لأجد أننى الرجل الوحيد الذى لا يريد الحرب فى مملكتى(١٣٥) » .

لقد ساءت الأحوال . وحارب الأسطول الإنجليزى ببسالة على الرغم من سوء تغذيته وضآلة ملابسه وذخائره ، ولكنه خسر بقدر ما انتصر ،

وفى الوقت الذى حمى فيه وطيس الحرب ، ترك الطاعون والحريق لندن موحشة مقفرة ، كما ترك انجلترا مفلسة ، وفى أخريات عام ١٦٦٦ فتح الهولنديون باب المنازعات لعقد الصلح وسر الملك بقرب التوصل إلى تفاهم ، فأرسل مندوبين إلى بريدا . ووثوقا منه بأن الإتفاق كان وشيكا ، ومذ رأى أن أمواله على وشك النفاد ، فإنه نحى جانبا من أسطوله فى «مدواى» ، وسمح للبحارة بالاشتغال على السفن التجارية . فما كان من « دى روتر » إلا أن قاد أسطولا هولنديا إلى التيمز ومدواى ودمر معظم السفن الإنجليزية التى خلت من الرجال . ويقول بيبز أنه فى تلك الليلة « كان الملك يتناول العشاء مع ليدى كاسلمين عند دوقة مونموث ، وقد شغل الجميع إلى حد الجنون باصطياد فراشه مسكينة (١٣٦) » وعندما وصلت أنباء الهجوم إلى لندن ، دعى كل رجل مفتول العضلات إلى حمل السلاح . ولكن الهولنديين كذلك رغبوا فى الصلح ، لأن الفرنسيين كانوا قد أغاروا على إقليم فلاندرز . وأنهت معاهدة بريدا فى ٢١ يوليه ١٦٦٧ ، الحرب الهولندية الثانية بشروط لم يرتح لها الجميع .

وأضعف هذا الإخفاق التام وتلك الكوارث التى توالت على لندن ، مركز الملك إلى حد أن بعض الإنجليز فكروا فى خلعه . وطالب البرلمان بفرض رقابة برلمانية على مصروفات الحكومة . وأذعن الملك ، لأنه كان خالى الوفاض ، ولأن خطوة أخرى قد اتخذت نحو سيادة البرلمان الذى طالب كذلك بعزل كلارندون ، لسوء معالجته للشئون الخارجية . ولم يكن شارل يكره عزله ، لأن مستشاره كان يعارض تحركه فى إتجاه التسامح الدينى ، وينتقد إنغماسه مع الخليلات ، ولم يكتف مجلس العموم باستقالة كلارندون ، فقدم إقتراحا بمحاكمته بتهمة خضوعه الذليل لفرنسا . فاستمع كلارندون لنصيحة الملك ، ولاذ بالفرار إلى القارة . وكانت خاتمة محزنة قاسية لرجل حفل سجل حياته بالخدمات . وكرم الشيخ الهرم منفاه بتدوين أجل مؤلف تاريخى أخرجه الأدب الإنجليزى حتى ذاك اليوم . ووافته المنية فى روان

(على السين فى شمال فرنسا) فى ١٦٧٤ ، وهو فى الخامسة والستين .

وعين الملك شارل (١٦٦٨) خمسة رجال ليحلوا محل كلارندون : توماس كليفورد ، إرل آرلنجتون ، ودوق بكنجهام ، ولورد آشلى (الذى أصبح على الفور إرل شافتسبرى الأول) وإرل لودرديل . وكونت الحروف الأولى من أسمائهم لفظة « كابال Cabal » التى سميت بها الوزارة الجديدة . وكان كليفورد يعلن عن كثلكته، وكان آرلنجتون ميالا إلى هذا المذهب، وكان بكنجهام خليعا فاسقا ، وكان شافتسبرى متسامحا شكاكا ،أما لودرديل فكان من « رجال المواثيق » السابقين ، وهو الذى فرض النظام الأسقفى بالنار والسيف ، على مواطنيه الاسكتلنديين . واستمع شارل إلى أرائهم أو مشوراتهم المتعارضة . ولكن تزايد ، على مر الأيام اعتماده على نفسه والتزامه برأيه الخاص .

وكان للملك هدفان أساسيان : تجديد الملكية المطلقة وإقامة الكاثوليكية ورفع شأنها فى إنجلترا . ونظر بعين الأمل إلى أن الذى سيخلفه على العرش هو أخوه الكاثوليكى جيمس ، وتبادل الرسائل مع زعيم اليسوعيين فى رومه ، وأستقبل سرا مندوبا بابويا قدم إلى لندن من بروكسل(١٣٧) . وفى يناير ١٦٦٩ أبلغ أخاه وكليفورد وآرلنجتون ولورد آرندل أنه يرغب فى المصالحة مع كنيسة رومه ، وفى إعادة كل الإنجليز إلى المذهب القديم(١٣٨) . أن أخته هنريتا لم تكف يوما عن أن تحضه على أن يعلن للملأ فى جرأة وشجاعة عن إرتداده إلى الكثلكة .

وفى مايو ١٦٧٠ أرسل لويس الرابع عشر هنريتا إلى إنجلترا وفى معيتها عدد من الدبلوماسيين الدهاة ، ليعاونوها على ربط شارل بسياسة فرنسية كاثوليكية . وفى أول يونية ١٦٧٠ وقع كليفورد وآروندل وآرلنجتون باسم إنجلترا معاهدة دوفر السرية . ووافق ملك فرنسا على أن يدفع لشارل ١٥٠ ألف فرنك عند إعلان إرتداده إلى الكثلكة . وتزويده ، عند الاقتضاء ، بستة آلاف جندى تتولى فرنسا الانفاق عليهم ، وكان على شارل أن يدخل الحرب إلى جانب فرنسا ضد المقاطعات المتحدة عندما يطلب

إليه ذلك ، على أن يتسلم من فرنسا ٢٢٥ ألف جنيه طيلة قيام الحرب ، وكان لشارل أن يستولى على بعض الجزر الهولندية ويحتفظ بها ، كما كان عليه أن أن يؤيد مطالب لويس الرابع عشر فى أن يرث أسبانيا(١٣٩) . وامعاناً فى خداع البرلمان والشعب فى إنجلترا ، بعث شارل بدوق بكنجهام إلى إلى باريس ليصوغ معاهدة صورية زائفة وقعت فى ٢١ ديسمبر ١٦٧٠ ونشرت على الملأ ، تعهدت فيها إنجلترا بالاشتراك فى الحرب ضد الهولنديين ، ولكن لم يرد ذكر العقيدة الدينية .

وتلكأ شارل نحو خمسة عشر عاما فى اعلان تحوله الى الكثلكة . ولو أن أخاه أعلن تحوله إليها صراحة فى ١٦٧٠ ، ولكن ارل أرلنجوت نفسه ، وهو الذى يؤيد الكاثوليكية ويميل اليها ، حذر الملك من اعلانه التحول الى هذا المذهب — كما فعل أخوه — قد يعجل بقيام ثورة . ومهما يكن من أمر ، فان شارل تحرك نحو هدفه بأن أصدر فى ١٥ مارس ١٦٥٢ ، إعلان التسامح الثانى ، « لذوى الضمائر الرقيقة » يوقف فيه العمل » بكل قوانين العقوبات ، أيا كانت ، فى الأمور الكنسية ، ضد المنشقين أو المتمردين والمخالفين وفى الوقت نفسه أخلى سبيل كل من كانوا أودعو السجون بسبب مخالفتهم لتشريعات البرلمان فى المسائل الدينية . وبذلك أطلق سراح مئات من المنشقين ، من الكويكرز . وأرسل زعماؤهما وفدا عنهم لتقديم الشكر للملك . وصعق المشيخيون والبيوريتانيون حين رأوا أن الحرية الجديدة التى منحت لهم امتد نطاقها لتشمل الكاثوليك وأنصار تجديد المعاد ، كما فزع الأنجليكانيون من « أن البابويين والفرق الدينية ذوات المذاهب المختلفة » يجتمعون علنا فى لندن . ولمدة عام كامل نعمت انجلترا بالتسامح الدينى أو شقيت به .

وفى ١٧ مارس ١٦٧٢ شنت انجلترا الحرب الهولندية الثالثة . وتلك مسألة كان الملك والبرلمان كلاهما على اتفاق فيها . واعتمد البرلمان ٠٠٠ر ٢٥٠ر ١ جنيه للحرب . على أن يسلم هذا المبلغ للحكومة على أقساط كان من الواضح أنها تعتمد على استرضاء الملك البرلمان وموافقته على تشريعاته الدينية وأعلن مجلس العموم « أن قوانين العقوبات فى المسائل الدينية لا يمكن ابطال العمل

بها الابة ىون يسنه البرلمان . وأرسل الى الملك طلبا بسحب اعلان التسامح ومذ كان لويس الرابع عشر يتوق الى أن يرى انجلترا صفا واحدا كالبنيان المرصوص ، تأييدا الحرب ضد الهولنديين ، فانه نصح الملك شارل بالغاء اعلان التسامح حتى تنتهى الحرب بالفوز ، وأذعن شارل ، وألغى الاعلان فى ٨ مارس ١٦٧٣ .

ومن المحتمل أنه فى هذا الوقت ، ترامت الى زعماء البروتستانت أنباء معاهدة دوفر السرية أو أشتموا رائحتها ورغبة فى الحيلولة دون تحول الملك الى الكثلكة ، سن المجلسان كلاهما « قانون الاختبار » الذى ينص على أنه يجب على كل أصحاب الوظائف المدنية والعسكرية فى انجلترا أن يقسموا علنا على تخليهم عن النظرية الكاثوليكية التى تقول بتحول خبز القربان والخمر الى جسد المسيح ودمه وأن يتناولوا الاسرار المقدسة طبقا للطقوس الانجليكانية وكافح كليفورد هذا المشروع بضراوة ، وبعد اقراره استقال من الحكومة ، وآوى الى ضيعته ، وما لبث حتى مات منتحرا كما يظن ايفلين . أما شافتسبرى فقد عضده بكل قوة ، وعزل من الوزارة ، فجعل من نفسه زعيما « لحزب الريف » الذى ناهض ، بعنف يقارب الثورة ، « حزب البلاط » الذى كان يؤيد الملك . وبذلك قضى على الوزارة « الكابال » (١٦٧٣) . وأصبح أرل دنبى كبير الوزراء .

واعتزل جيمس كل مناصبه الحكوميه . وخفف من حدة المعارضة ضده بعض الشيء ، أنه على الرغم من أن زوجته الأولى إرتضت الكثلكة مذهبا من قبل ، فإن إبنتيها — الملكة مارى والملكة آن فيما بعد — نشأتا على المذهب البروتستانتى . لكن زواجه آنذاك (٣٠ سبتمبر ١٦٦٣) من أميرة كاثوليكية أثار ضده حملة من أقسى الإتهامات . تلك هى الأميرة مارى مودينا التى دمغت بأنها « كبرى بنات البابا » ، والمفروض أنها لا بد أن تنشىء أولادهما على الكاثوليكية . وفى الحال قدمت إلى البرلمان مشروعات قوانين تقضى بتنشئة أبناء الأسرة المالكة على المذهب البروتستانتى .

إن تطور الأحداث على هذا النحو أثار سخط انجلترا على الحرب ضد المقاطعات المتحدة وجعلها تحس بالمرارة ، فلو أن ملك انجلترا كان كاثوليكيا لانحاز إن عاجلا أو آجلا إلى جانب فرنسا وأسبانيا فى تدمير الجمهورية الهولندية تدميرا ، تلك الجمهورية التى لم تبد الآن منافسا تجاريا ، بل بدت معقل البروتستانتية فى القارة ، فإذا سقط هذا الحصن الحصين فكيف يتسنى للبروتستانتية الإنجليزية أن تثبت وأن تقاوم ؟ وفوض شارل عن طيب خاطر ، سير وليم تمبل فى توقيع صلح منفرد مع الهولنديين . وفى ٩ فبراير ١٦٧٤ وقعت معاهدة وستمنستر التى أنهت الحرب الهولندية الثالثة .

٨ - (المؤامرة البابوية)

وأعقبت هذه الأحداث فترة كادت أن تتسم بالصفاء والتعقل . وحيث تسلم شارل من لويس الرابع عشر مبلغا اضافيا قدره ٥٠٠ ألف كراون ، فإنه عطل البرلمان المتعب إلى أجل ، وعاد إلى عشيقاته . ولكن السياسة لم تتوقف . فان شافتسبرى وغيره من زعماء المعارضة أسسوا فى ١٦٧٥ « نادى الوشاح الأخضر » . ومن هذا المركز نشر « حزب الريف » دعايته دفاعا عن البرلمان والبروتستانتية ضد ملك يتآمر مع فرنسا الكاثوليكية ، ووريثه الذى زف علنا إلى زوجة كاثوليكية . وفى ١٦٨٠ أطلق على رجال حزب الريف اسم Whigs ، وعلى المدافعين عن سلطة الملك اسم Tories(*) وبدا للملك شارل أن شافتسبرى « أضعف الرجال وأخبثهم(١٤١) » . وقال عنه بيرنت « أن علمه سطحى هزيل ، وأن غروره سخيف ، وأن

(*) من الواضح ان هويج اختصار لكلمة « هويجامور » ، وهذا اسم عصبة من الاسكتلنديين نشطت فى مقاومة شارل الأول (١٦٤٨) . أما تورى فهى لفظة أيرلندية معناها لص . وقد أطلقها تيتسى أوتس على « حزب البلاط » لأول مرة (١٦٨٠)(١٤٠) .

عقليته تافهة(١٤٢) » ولكن جون لوك الذى عاش مع شافتسبرى لمدة خمسة عشر عاما رأى أنه مناضل باسل جرىء عن الحرية المدنية والدينية والفكرية أو الفلسفية. وقال عنه بيرنت أنه يدين بالربوبية (مذهب طبيعى يقوم على العقل لا على الوحى) وقد يحق لنا أن نرتاب فى ديانته من قوله هو نفسه « ليس للعقلاء من الرجال إلا دين واحد » ، فلما سألته احدى السيدات ، وما هو ، كان جوابه « أن عقلاء الرجال لا يفصحون عنه قط »(١٤٣) .

وخفت حدة التوتر الدينى بعض الشىء فى ١٦٧٧ ، حين تزوج وليم أورنج من مارى البروتستانتية كبرى بنات دوق يورك . فإذا ظل جيمس دون عقب ذكر ، فان مارى سوف تخلفه ، فى وراثة العرش ، ومن ثم ترتبط انجلترا بهولنده البروتستانتية بحكم المصاهرة ، ولكن فى ٢٨ أغسطس ١٦٧٨ مثل تيتس أوتس أمام الملك وأعلن أنه أكتشف « مؤامرة بابوية : ذلك أن البابا وملك فرنسا ورئيس أساقفة أرماج واليسوعيون فى انجلترا وأيرلنده وأسبانيا كان يدبرون قتـــل شارل وخلع أخيه ، وفرض الكاثوليكية فى انجلترا بحد السيف ، وأن ثلاثة آلاف سفاح سيتولون ذبح زعماء البروتستانت فى لندن ، وأن لندن نفسها ـ قلعة البروتستانتية ـ كانوا يدبرون احراقها عن آخرها .

كان أوتس ، وهو آنذاك فى التاسعة والعشرين من العمر ، ابن أحد أنصار تجديد العماد . وكان قد أصبح قسيسا أنجليكانيا ، ولكنه فصل من وظيفته الكنسية لسوء سلوكه(١٤٤) . ثم قبل — أو تظاهر بقبول — التحول إلى الكثلكة . وكان قد درس فى الكليات اليسوعية فى بلد الوليد (أسبانيا) وسانت أومر حيث فصل أيضا . آخر الأمر(١٤٥) . وفى نفس الوقت ، زعم الآن أنه كان قد اطلع على خطط الجزويت السرية لغزو انجلترا . واعترف أنه شهد فى ٢٤ أبريل ١٦٧٨ مؤتمرا يسوعيا فى لندن نوقشت فيه

وسائل قتل الملك، وعدد أسماء خمسة من النبلاء الكاثوليك، على أنهم مشتركون فى المؤامرة هم : أروندل، بويس، بتر، ستافورد، بللاسيس. وعندما أضاف أوتس أن بللاسيس هذا كان سيمين قائدا عاما لجيش البابا، ضحك شارل ساخرا، حيث كان بلاسيس طريح الفراش بداء النقرس. وخلص الملك إلى أن أوتس لفق القصة كلها أملا فى الحصول على مكافأة، وصرفه من حضرته.

ولكن المجلس المخصوص ارتأى أنه من الحكمة أن يفترض بعض الصدق فى الاتهامات، واستدعى أوتس ليمثل أمامه فى ٢٨ سبتمبر. وخشى أوتس أن يزج به السجن، فقصد إلى قاضى الصلح سيراد موند برى جودفرى وأودعه اعترافا خطيا مقرونا بقسم، فصل فيه المؤامرة تفصيلا. وأصدر المجلس، متأثرا بهذه الأدلة، أوامره بالقبض على عدد من أنصار البابوية الذين تضمنهم اعتراف أوتس. وكان من بينهم أدوارد كولمان الذى كان لعدة سنوات (حتى عزل بأمر من الملك) سكرتير الدوقة يورك. وأحرق كولمان بعض أوراقه قبل القبض عليه، ولكن الأوراق التى لم يكن لديه متسع من الوقت لاحراقها أوضحت أن كولمان والأب لاشيز قسيس لويس الرابع، تبادلا من الرسائل مايعبر عن أمل الطرفين (شارل ولويس) فى أن تصبح انجلترا كاثوليكية فى أسرع وقت وفى هذه الرسائل اقترح كولمان أن يرسل إليه «لويس الرابع عشر أموالا ليكسب بها أعضاء البرلمان إلى جانب قضية الكثلكة» ثم أضاف «أن نجاحنا سوف يكون ضربة شديدة للعقيدة البروتستانتية، لم تتلق مثلها منذ نشأتها .... تلك هى تحول ثلاث ممالك. ومن ثم، فربما كان فى هذا القضاء التام على هذه الهرطقة الوبيلة(١٤٦) إن اعدام كولمان لمعظم أوراقه حدا بالمجلس إلى الاعتقاد بأن كولمان على علم بالمؤامرة التى وصفها أوتس، وربما كان شريكا فيها. واستنتج شارل نفسه من تلك الرسائل، وجود مؤامرة حقيقية بشكل ما.

وفى ١٢ أكتوبر اختفى القاضى جودفرى ، وبعد خمسة أيام وجدت جثته فى أحد الحقول فى الضواحى . وبات من الواضح أنه قتل بيد عملاء مجهولين ، ولأسباب غير معروفة حتى الآن ، ولكن البروتستانت نسبوا القتل إلى الكاثوليك الذين كانوا يأملون فى الحيلولة دون نشر اعترافات أوتس . ويبدو أن هذا الحادث أكد الاتهامات . وفى هذا الجو الذى سادته الريبة وعدم الثقة ، الذى خلقته معاهدة دوفر السرية ، والخوف من اعتلاء جيمس عرش انجلترا ، كان طبيعيا أن تصدق انجلترا البروتستانتية آنذاك كل ماجاء على لسان أوتس من اتهامات ، وأن يعتريها نوبة من الجنون بدامعها أن حماية البروتستانتية تتطلب اعتقال كل من أورد أوتس ذكرهم فى المؤامرة ، إن لم يكن اعدامهم .

وبدأت فترة من حكم الإرهاب امتدت لنحو أربع سنوات . وفر جيمس إلى الأراضى الوطيئة وتسلح أهالى لندن استعدادا لمقاومة أى غزو متوقع . ونصبت المدافع فى هويتهول . واتخذ الحراس أماكنهم فى الأقبية والسراديب تحت مبنى البرلمان بمجلسيه ليحولوا دون « مشروع بارود » آخر لنسف المبنى . وأقر البرلمان قانونا لطرد الكاثوليك من مجلس اللوردات ، وكرم أوتس بوصفه « مخلص الأمه » وكافأه بتخصيص معاش سنوى له قدره ١٢٠٠ جنيه لمدى الحياة ومنحه مسكنا فى قصر هويتهول . وسرعان ما ازدحمت السجون باليسوعيين والكهنه غير المنتسبين إلى رهبنات ، والكاثوليك العلمانيين الذين أورد ذكرهم أوتس أو وايم بدلو الذى ظهر مدعيا العلم بأشياء تؤكد صحه اتهامات أوتس .

وفى ٢٤ نوفمبر وضع أوتس أمام المجلس اتهاما جديدا مروعا ، ذلك أنه كان قد سمع الملكه تبدى موافقتها على قتل زوجها بالسم ، بيد طبيبها الخاص . وهنا أخذه شارل بهذه الكذبه الصارخه . وفقد ثقته فى أقواله كلها ، وأمر بالقبض عليه . ولكن مجلس العموم أمر بالإفراج عنه ، وبالقبض على ثلاثه من خدم الملكه . واقترع على اصدار بيان يطالب

بعزلها . وقصد الملك إلى مجلس اللوردات ودافع عن إخلاص زوجته وولائها، وأقنع اللوردات بالامتناع عن الموافقة على بيان النواب . وفى ٢٧ نوفمبر حوكم كولمان وكاثوليكي علمانى آخر ، وثبتت إدانتهما وأعدما . وفى ١٧ ديسمبر أعدم ستة من اليسوعيين وثلاثة من الكهنة المنتسبين إلى رهبنات . وفى ٥ فبراير ١٦٧٩ شنق ثلاثة رجال بتهمة قتل جودفرى . وثبت فيما بعد براءة هؤلاء الاثنى عشر .

وتزايدت الحملات إقترابا من الملك ، ففى ١٩ ديسمبر ١٦٧٨ تلقى البرلمان من باريس أنباء تفيد أن دانبى كان قد تسلم من لويس الرابع عشر مبالغ طائلة من المال . ورفض الوزير إيضاح أنها كانت إعانات فرنسية للملك . ووجه مجلس العموم الإتهام إلى الوزير . وخشى الملك الحكم على مستشاره الملكى بالاعدام ، فحل ، فى ٢٤ يناير ١٩٧٩ « برلمان الفرسان » الذى كان قد التأم على فترات متقطعة ، لمدة ثمانية عشر عاما ، أى أنه كان أطول من « البرلمان الطويل » .

ولكن برلمان « الهويج » الذى اجتمع فى ٦ مارس ، كان فى عدائه للكاثوليكية وللملك ، أشد إندفاعا وتحمسا من البرلمان السابق . واتهم مجلس العموم دانبى بالخيانة العظمى ، ولكن اللوردات أنقذوه بزجه فى سجن لندن ، حيث قضى فيه ، فى هدوء وقلق ، السنوات الخمس المضطربة التالية . وبناء على نصيحة سير وليم تمبل ، عين شارل مجلسا جديداً من ثلاثين عضوا ، بينهم — رغبة فى تخفيف حدة المعارضة — زعيما حزب الهويج : شافتسبرى وجورج سافيل ، مركيز هاليفاكس وبناء على توصية الملك اختير شافتسبرى رئيسا للمجلس . وسعيا وراء المزيد من تهدئة العاصفة ، عرض الملك على البرلمان تسوية بديلة لاستبعاد أخيه عن العرش : ألا يسمح لأى كاثوليكى بمقعد فى البرلمان أو بتولى منصب قيادى يتطلب الثقة ، وألا يكون للملك حق التعيين فى المناصب الدينية ، وأن يخضع تعيين القضاء لموافقة البرلمان . وان يكون للبرلمان حق الرقابة والاشراف

على القوات البرية والبحرية(١٤٧). ولكن البرلمان أحس بشيء من الارتياب وعدم الثقة في موافقة جيمس على مثل هذه الاتفاقية. وفي ١١ مايو قدم شافتسبري نفسه أول مشروع قانون لاستبعاده (جيمس) في عبارة واضحة جلية لا لبس فيها « إسقاط حق دوق يورك في وراثة التاج الامبراطوري لهذه المملكة ». وكان موضع فخر وشرف للبرلمان أنه في ٢٦ مايو توسع في حق التحقيق في قانونية الاعتقال: بمعنى أنه يمكن الإفراج بكفالة عن أي سجين، فيما عدا المتهمين بالخيانة أو بجناية، وفي مثل هذه الحالة ينبغي أن يحاكم المتهم في الدورة التالية للمحكمة، وألا أطلق سراحه. وكان على فرنسا أن تنتظر ١١٠ سنوات حتى تنعم بضمانات مماثلة ضد الاعتقالات التعسفية. وفي ٢٧ مايو خشي الملك إقرار « مشروع قانون الاستبعاد » فحل البرلمان.

ولم يكن حق التحقيق في قانونية الاعتقال مجديا بالنسبة لأنصار البابوية الذين اتهمهم أوتس، لأنهم حوكموا مع شيء من التباطؤ، حتى إذا أدينوا بالخيانة أعدموا في سرعة غاضبة، وحشد الكثير منهم إلى المقصلة أو ساحة الإعدام طيلة عام ١٦٧٩، وكانت محاكمتهم سريعة جداً لأن القضاة الذين روعتهم صيحات الجموع المتعطشة للدماء خارج المحكمة، أدانوا كثيرا من المدعى عليهم دون تمحيص الأدلة أو مواجهة الشهود بعضهم ببعض. وهب الشهود المزيفون الذين أغراهم ما أغدق على أوتس من مكافأة، وكأنما هبوا من مرقدهم، وأقسموا بأغلظ الأيمان على ما يقولون: فروى أحدهم أن جيشا من ثلاثين ألفا كان قادما من أسبانيا، وقال آخر أنهم وعدوه بخمسمائة جنيه وبضمه إلى قاعة القديسين إذا هو أطاح برأس الملك، وذكر شاهد مزيف ثالث بأنه كان قد سمع أحد رجال المصارف الكاثوليك الأثرياء يأخذ على نفسه عهد بأن يقوم بمثل هذا العمل(١٤٨). ولم يسمح للمتهم بأي محام أو مستشار قانوني. ولم يبلغ بما نسب إليه إلا في يوم المحاكمة. وكان يفترض أنه مذنب حتى يستطيع أن يثبت براءته(١٤٩). وحتى تسهل

الإدانة أحيوا قانونا قديما كان معمولا به فى عهد اليزابث : وهو أن وجود أى كاهن فى إنجلترا جريمة عقوبتها الإعدام . وكانت الجموع المحتشدة حول مبنى المحكمة تصرخ وتولول فى وجوه شهود الدفاع استهجانا ، وتقذفهم بالحجارة ، ويهتفون ويهللون فرحا عند إعلان الحكم بالأدانة(١٥٠) .

فت كل هذا فى عضد شارل ، وكان إمتحانا قاسيا للملك الذى غمرته يوما البهجة والفرح ، والذى رأى الآن كل آماله تنهار ، وسلطاته تنتقص ، وزوجته تعانى الاذلال ، وأخاه يبوء بالاحتقار والازدراء وينحى . وفى ذروة العاصفة خر شارل مريضاً مرضا خطيراً حتى توقعوا موته بين ساعة وأخرى . واستدعى هاليفاكس جيمس من بروكسل ، ولكن زعماء الهويج أمروا الجيش بالحيلولة دون عودته . واتفق شافستبرى ومونموث ولورد رسل ولورد جراى على أنهم ـ فى حالة وفاة شارل ـ ، سيتزعمون عصيانا مسلحا لمنع أخيه من إرتقاء العرش(١٥١)، وتيسر لجيمس أن يدخل البلاد متنكرا ، وشق طريقه إلى جوار الملك . وتظاهر شارل بأنه أبل من مرضه ، وابتسم للمخاوف التى ساورت حتى أعداءه الذين توقعوا موته . والحق أنه لم يبرأ من علته قط .

وبقى العداء للكاثوليك على أشده حتى تخبط أوتس أثناء محاكمة سير جورج ويكمان طبيب الملكة . ففى شهادته أمام المجلس كان قد برأ الطبيب ، ولكنه فى المحاكمة اتهمه بتدبير دس السم للملك . واكتشف هذا التناقض فى الأقوال قاضى القضاة سكروجز الذى سبق له أن تولى محاكمة الكاثوليك بمنتهى الشدة . وصدر الحكم ببراءة ويكمان ، ومن ثم صارت شهادة أوتس تسمع فى مزيد من التدقيق ، وامتنع الشهود المزيفون الذين كانوا يعززون أقواله ، عن مساندته . وكان إعدام أوليفر بلنكت رئيس أساقفة آرماج الكاثوليكى ، آخر إجراء تم فى حركة الارهاب التى قامت ضد الكاثوليك (١ يوليه ١٦٨١) .

ولما خفت وطأة الرعب والانفعال تأكد لدى بعض عقلاء الرجال أن

أوتس ، عن طريق الريب التى لاتستند إلى أساس من ناحية ومن ناحية أخرى عن الأكاذيب ، عجل بإرسال كثير من الأبرياء إلى الموت قبل الأوان. وانتهوا إلى أنه لم يكن ثمة تدبير لقتل الملك أو ذبح البروتستانت أو إحراق لندن . ولكنهم أحسوا بأنه كانت هناك مؤامرة حقيقية ، كاثوليكية ، وأن لم تكن « بابوية » : تلك هى أن أركان الحكومة دبروا ، أو راودهم الأمل ، بمساعدة أموال (أو جنود إذا لزم الأمر) من فرنسا ، أن يقضوا على عجز الكاثوليك وعدم أهليتهم الشرعية فى إنجلترا ، ويحولوا الملك إلى الكاثوليكية ، ويثبتوا حق أخيه الذى تحول فعلا فى إرتقاء العرش ، ويستخدموا كل الوسائل لتدعيم الكثلكة دينا للدولة ، وفى النهاية للشعب . والواقع أن كل هذا تضمنته معاهدة دوفر السرية التى وقعت من قبل فى ١٦٧٠ وكان شارل قد تراجع عن هذه الإتفاقية . ولكن رغباته لم تتبدل ولم يتخل عنها قط ، وظل مصمما على أن يعتلى أخوه عرش إنجلترا ويكون ملكا عليها .

٩ - خاتمة الملهاة

أما شافتسبرى فقد وطد العزم على نقيض ما يبتغيه الملك . لقد اعترف كولمان أثناء محاكمته بأن جيمس علم أمر المراسلات المتبادلة بينه وبين الأب لاشيز ، وأقرها(١٥٢) . وأحس شافتسبرى بأن ارتقاء جيمس عرش انجلترا لابد أن يحقق المرحلة الأولى من « المؤامرة البابوية » وعرض أن يساند شارل ويقف إلى جانبه إذا هو طلق الملكة العقيم وتزوج من بروتستانتية قد ينجب منها ابنا بروتستانتيا . وأبى شارل أن يدع كاترين دى براجانزا تكرر الدور الذى لعبته كاترين أوف أراجون. فولى شافتسبرى وجهه شطر دوق مونموث الإبن غير الشرعى للملك ، الذى لم يغتفر قط لأبيه خداعه وإبعاده عن العرش بتقصيره فى الزواج من أمه . ونشر شافتسبرى فكرة أن شارل كان بالفعل قد تزوج من لوسى والتر ، وأن دوق مونموث

هو الوريث الشرعى للعرش . فما كان من شارل إلا أن كذب هذا بإعلانه أنه لم يتزوج قط إلا من كاترين أوف براجانزا ، وإذ وجد أن شافتسبرى خصم عنيد ، فإنه أقصاه عن المجلس المخصوص (١٣ أكتوبر ١٦٧٩) .

وأثناء توالى الأزمات والمحن على هذا النحو كاد شارل أن يبدل من خلقه ومن شخصيته ، فودع حياة البهجة والدعة . وباع اسطبلاته ، وانصرف بكليته إلى الإدارة والسياسة ، وحارب أعداءه بتراجع محكم التدبير ، حتى جاوزوا حدودهم فانتهوا إلى الفشل إن الملك فى سنواته الخمس الأخيرة أبدى من قوة العزيمة والمقدرة ما أدهش حتى الأصدقاء . وإذ عاودته الطمأنينة والثقة فقد دعا برلمانه الرابع .

واجتمع البرلمان فى ٢١ أكتوبر ١٦٨٠ . وأقر مجلس العموم فى شهر نوفمبر « مشروع قانون الاستبعاد » الثانى ، وقدم إلى مجلس اللوردات . وهنا تحول هاليفاكس الذى كان يصوت حتى تلك اللحظة إلى جانب « حزب الهويج » تقول تحول الآن إلى جانب الملك ، وبدأ يحظى بلقب « القلب الحول » ويزهو ويختـــال به . إنه كان يبغض جيمس ويرتاب فى الكاثوليكية ، ولكنه اتفق مع شارل فى ضرورة الإبقاء على مبدأ الملكية الوراثية . كما خشى أن يقود شافتسبرى انجلترا إلى حرب أهلية ثانية(١٥٣) . ومن ثم فإنه بفصاحته ومنطقه فى المناقشة الطويلة التى جرت بشأن « مشروع قانون الاستبعاد » أقنع اللوردات برفض المشروع . ورد مجلس العموم على هذا ، برفض الموافقة على أية اعتمادات مالية للملك ، وحظر على التجار وأصحاب المصارف . اقراضه أية أموال . وحاكم هاليفاكس وسكروجز وفيسكونت ستافورد وهو أحد اللوردات الخمسة المعتقلين فى سجن لندن . وحكم على ستافورد بالإعدام بناء على شهادة أوتس ، وضرب عنقه فى ٧ ديسمبر . وفض الملك البرلمان فى ١٨ يناير ١٦٨١ .

وبدلا من أن يضحى شارل بأخيه بسبب حاجته إلى المال ، اعتزم شارل أن يعول الحكومة بأن يصبح من جديد أسيرا للملك الفرنسى لويس الرابع

مصر . وارتضى أن ينظر فى شىء من التجلد ورباطة الجأش إلى سياسة فرنسا العدوانية ، مقابل ٧٠٠ ألف جنيه(١٥٤) — وهو مبلغ يغنيه لمدة سنوات عن اعانات البرلمان واعتماداته . فلما أحس بالقوة دعا برلمانه الخامس . ولكى يحرمه من تأييد جمهور لندن وقوات الطوارىء فيها ، فإنه ، أى الملك أمر باجتماعه فى أكسفورد . وهناك إلتقى الجمعان مدججين بالسلاح : شارل مع عدد كبير من حرسه ، وزعماء الهويج مع أتباعهم حاملين السيوف والمسدسات رافعين أعلاماً كتب عليها « لا بابوية ولا عبودية » وأقر مجلس العموم فى الحال « مشروع قانون الاستبعاد » الثالث ، ولكن قبل أن يصل المشروع إلى مجلس اللوردات حل شارل البرلمان (٢٨ مارس ١٦٨١) .

وتوقع كثير من الناس أن يلجأ شافتسبرى الآن إلى الحرب الأهلية . أما الرأى العام الذى استرجع فى ذاكرته أحداث ١٦٤٢ — ١٦٦٠ فقد تحول عنه وانحاز إلى صف الملك . ودافع رجال الكنيسة الأنجليكانية دفاعا مجيدا عن حق جيمس الكاثوليكى فى ارتقاء العرش . وعندما حاول شافتسبرى أن يعيد تنظيم صفوف النواب المشتتين فى ميثاق ثورى(١٥٥) ، أمر شارل باعتقاله ، ولكن هيئة المحلفين برأته (٢٤ نوفمبر) وعلى الرغم من أنه كان آنذاك مريضا بدرجة لا يكاد معها يقوى على المشى ، فإنه انضم إلى دوق مونموث فى ثورة علنية(١٥٦) . وأمر الملك باعتقالهما كليهما وهرب شافتسبرى من سجن لندن ، وفر إلى هولنده ، وهناك وافته منيته (٢١ يناير ١٦٨٣) بعد أن أنهكته الأحداث ، ولكنه خلف وراءه صديقه لوك ، ليتابع فى مجال الفلسفة ، المعركة التى لم يكتب لها لبعض الوقت التوفيق فى ميدان السياسة .

وصفح شارل عن مونموث ، ولكنه لم يغتفر قط للمحلفين فى لندن تبرئتهم لشافتسبرى . والآن وقد تحول الملك النشوان إلى شخص آخر ، وكان متطرفا فى تحوله هذا ، فإنه عقد العزم على تحطيم استقلال المدن التى ترعرت فيها فكرة الهويج (الأحرار) بل الفكرة الثورية ، فأمر

بمراجعة المواثيق والعهود والقوانين التى هيأت الأجهزة البلدية الخروج على الارادة الملكية ، ووجد بالفعل فى هذه بعض النقص والخلل من الوجهة التشريعية ، فأعلن إلغاءها جميعا ، وصدرت عهود وقوانين جديده تنص على أن يكون للملك حق الاعتراض وحق عزل كل الموظفين الذين ينتخبون لهذه الهيئات البلدية (١٦٨٣) . وخضعت الآن حرية الكلام وحرية الصحافة لقيود جديدة ، وبدأت موجة اضطهاد المنشقين — لا الكاثوليك : لأن معظم المنشقين كانوا من الأحرار (الهويج) . وفى اسكتلنده قاد جيمس حملة التعذيب بنفسه ، وبدا أن انتصار حقوق الملك على اصلاحيات البرلمان بات انتصارا ساحقا كاملا ، وأن انجازات الثورة الكبرى كان واضحا أنه ينبغى التضحية بها فى نكسة أو رد فعل تؤيده أمة تخشى تجدد الحرب الأهلية . وعكس هاليفاكس شعور البلاد حين تخلى عن شافتسبرى ، وانحاز بحكمته المعتدلة البعيدة عن التطرف إلى جانب الملك ليكون فى خدمته (١٦٨٢ — ١٦٨٥) فكان حامل الأختام الملكية .

وقام أتباع شافتسبرى بمحاولة أخيرة . ففى يناير ١٦٨٧ ، اجتمع دوق مونموث وإرل اسكس وإرل كارليل ، ووليم لورد رسل وألجرنون سدنى فى دار جون همدن (حفيد بطل الحرب الأهلية) ورسموا الخطط لتطويق جيمس والتغلب عليه ، وقتل شارل إذا لزم الأمر . وراود سدنى أمل التقدم إلى خطوة أبعد ، وهى إعادة إقامة الجمهورية الانجليزية . وكان حفيد أحد أخوة سير فيليب سدنى « رئيس الفروسية » ، وحارب فى صف البرلمان أثناء الحرب الأهلية وجرح فى مارستن مور • وعين عضوا فى اللجنة التى شكلت المحاكمة شارل الأول ، ولكنه رفض العمل بها على إعتبار أن الشعب لم يمنح اللجنة سلطة محاكمة الملك . وألقى نفسه فى القارة حين عادت الملكية ، فظل بها ، مشغولا بدراساته وأبحاثه ، وتدبير المؤامرات ضد شارل الثانى . وفى الحرب الهولندية الثانية حرض الهولنديين على غزو إنجلترا ، وعرض خدماته على الحكومة الفرنسية ليشعل نار الثورة فى إنجلترا إذا أمدته الحكومة الفرنسية بمائة

ألف كروان(١٥٧) . وفى ١٦٧٧ سمح له شارل بالعودة ليشهد وفاة والده ، وبقى فى إنجلترا وانضم إلى « حزب الريف » (الأحرار ، الهويج) . وفى كتابه « مقالات عن الحكومة » (الذى كتب ١٦٨١ ولم ينشر إلا فى ١٦٨٨) دافع سدنى عن المبادىء شبه الجمهورية ، واستبق لوك فى مهاجمته دفاع فلمر عن حقوق الملوك الإلهية ، وأكد حق الشعب فى محاكمة الملوك وخلعهم . ومن الواضح أن سدنى ورسل ، كليهما تسلما أموالا من الحكومة الفرنسية التى كان يهمها أن يظل شارل مشغولا بمشاكله الداخلية(١٥٨) .

وصح عزم « مجلس الستة » على أسر الملك . وكان معروفا أنه سيشهد سباق الخيل فى شهر مارس فى نيوماركت . وكان لابد له ، لدى عودته إلى لندن من أن يمر « براى هاوس » فى هودزدون فى شمال المدينة ، فتقرر أن تسد عربة محملة بالحشائش الجافة الطريق فى هذا المكان ، ومن ثم يمكن أسر الملك وربما أسر أخيه معه كذلك ، حيين أو ميتين . ولكن فى ٢٢ مارس شب حريق فى ميدان السباق ، وانتهت المسابقات قبل موعدها المقرر بأسبوع ، وعاد الملك سالما إلى لندن قبل أن يعد المتآمرون عدتهم . وخشى أحدهم افتضاح الأمر وراوده الأمل فى العفو ، فأفضى بسر المؤامرة إلى الحكومة (١٢ يونية) . وقبض على كارليل فأكد الاعتراف وعفوا عنه . واحتج مونموث بأنه برىء ، وعلى الرغم من أن شارل علم علم اليقين أن ابنه كاذب فيما يقول ، فإنه ألغى أمر إعتقاله . أما رسل فحوكم وثبتت إدانته وأعدم (٢١ يوليه ١٦٨٣) . وانتحر اسكس فى السجن . وعندئذ قال الملك « ما كان له أن يقنط من الرحمة ، فإنى مدين له بحياة(١٥٩) » فقد مات أبوه من قبل من أجل شارل الأول . وشنق عدد من صغار المشتركين فى « مؤامرة راى هاوس » وأخذ سدنى بجرم لم يقم عليه دليل كاف من الناحية القانونية ، ودافع عن نفسه دفاعا مجيدا ، وقابل الموت بصدر رحب (٧ ديسمبر) . وكان شعاره « يدى هذه هى عدوة الطغاة » . ولكنه كان قد اختار سيفا

ذا حدين . ونطق وهو على المشنقة بكلمات تستحق الذكر : « إن الله ترك للشعوب حرية إقامة الحكومات كما تشاء(١٦٠) » . ورفض أية طقوس دينية قائلا أنه فى سلام مع الله فعلا .

لقد انتصر شارل ولكنه كان مشرفا على النهاية، ونعم، مع جهد مضن، بشعبية جديدة ، وكانت إقتصاديات إنجلترا قد ازدهرت فى عهده ، أما الآن، والبلاد تتطلع إلى هدوء سياسى ، فقد ركنت إلى ملك كان يمثل بقاء الأمة ونظامها ، ولو كان معنى هـــذا ، لفترة من الزمن « ملكا كاثوليكيا » . وغفرت إنجلترا لشارل أخطاءه ، حين رأته ينهار ويذبل قبل الأوان . واتفقت معه ، بعض الشىء ، على أن الحكومة الإنتخابية ـ لا الملكية الوراثية ـ مدعاة للاضطراب والهرج اللذين يصاحبان انتخاب الحاكم عندما يحين موعده . واحترمت فيه اخلاصه لأخيه ، حتى فى الوقت الذى حزنت فيه لنتيجة هذا الإخلاص ، ورأت جيمس منتصرا ، ورأته ثانية قائدا أعلى للأسطول ، يتعقب أعداءه ليثأر منهم . وفى يناير ١٦٨٥ رفع جيمس دعوى مدنية ضد تيتس أوتس يطالبه فيها بتعويض قدره مائة ألف جنيه . وكسب جيمس القضية . ولما كان أوتس عاجزاً عن الدفع فقد أودع السجن . وقال شارل فى حزن بالغ « لست أدرى ماذا سيفعل أخى عندما ينتهى الأجل وأفارق الحياة . أخشى ما أخشاه أنه عندما يأتى ليضع تاج الملك على رأسه ، أن يرغم على العودة من حيث أتى . على أنى سأعنى العناية كلها بأن أترك له مملكة يسودها السلام ، وكل أملى أن يحتفظ لها بهذا السلام لأمد طويل . ولكن هذا يثير كل مخاوفى ، ولست أؤمل فيه كثيرا ، بل لا يكاد أمل يدور بخلدى أنه سيتحقق(١٦١) » . ولما اعترض جيمس على تجول شارل حول لندن راكبا عربته دون حرس ، أمره شارل أن يهدىء من روعة : « لن يقتلنى أحد ليجلسك أنت على العرش(١٦٢) » .

ولا بد أنه اعترض على الأطباء . فإنه فى ٢ فبراير ١٦٨٥ أصيب بحالة تشنج واضطراب شديدة ، شوهت وجهه ، وجعلت فمه ، يرغى ، وأجرى

له دكتور كنج عملية فصد بشق أحد الأوردة . وكان لهذا نتيجة طيبة . ولكن مرافقى الملك استدعوا ثمانية عشر طبيبا آخرين ليشخصوا الداء ويصفوا الدواء . وطيلة خمسة أيام فى عذاب أليم ، استسلم الملك للحملة التى جردوها عليه مجتمعين . فبزلوا أوردته ، ووضعوا كئوس الحجام إلى كتفيه . وقصوا شعره ليزيلوا البثور والقروح من جلدة رأسه ، ووضعوا على باطن قدميه لصوقا من القاروروث الحمـــام . وقال مؤرخ طبيب « ولكى يزيلوا النزوات من مخه نفخوا فى أعلى خياشيمه الحريق (وهو عشب جميل الزهر) ثم جعلوه يعطس . ولكى يتقيأ صبوا فى حلقة الأنتيمون وسلفات الزنك . ولتنظيف أمعائه أعطوه مطهرات قوية ، وعددا من الحقن الشرجية فى تعاقب سريع[١٦٣] » .

وتمادى الملك الذى يحتضر زوجته التى عاشت فى شقاء عقيم ، ولم يكن يدرك أنها جاثية فى أسفل الفراش تدلك قدميه . وفى ٤ فبراير قدم له بعض الأساقفة الأسرار الدينية الأخيرة وفقا للطقوس الأنجليكانية ، ولكنه رجاهم أن يكفوا ، ولما سأله أخوه ، هل يريد كاهنا كاثوليكيا أجاب « نعم ، نعم ، من كل قلبى[١٦٤] » فأرسلوا فى طلب الأب جون هدلزتون الذى كان قد أنقذ حياة شارل فى معركة وورسيستر ، كما أن شارل كان قد أنقذ حياة الأب جون أيام « الارهاب البابوى » وأعلن شارل إعتناقه للمذهب الكاثوليكى ، واعترف بذنوبه وخطاياه ، وعفا عن أعدائه ، وطلب المغفرة من الجميع . ومسحوه مسحا تاما بالزيت المقدس ، وتلقى الأسرار المقدسة . وطلب الصفح والعفو ، بخاصة من زوجته ، ولكنه كذلك أوصى أخاه خيرا بالسيدة لويز كيروال وأبنائه (منها) « لاتترك نللى المسكينة تتضور جوعا[١٦٥] » واعتذر لمن حوله عن أنه قضى مثل هذا الوقت الطويل بشكل غير معقول ، وهو يعانى سكرات الموت[١٦٦] .

وعند ظهر اليوم السادس من فبراير ، كان دوق يورك ملكا .

الفصل العاشر

الثورة الجليلة ١٦٨٥ - ١٧١٤

١ — الملك الكاثوليكي : ١٦٨٥ — ١٦٨٨

من ذا الذي كان يستطيع أن يتخيل حين يقع بصره على الصورة(١) التي رسمها فانديك في اللونين الأزرق والذهبي لدوق يورك وهو في الثانية من عمره، أن هذا الطفل البريء الحيي سيقضي قضاء مبرما على أسرة ستيوارث، ويكمل آخر الأمر، في « الثورة الجليلة » انتقال السلطة من الملك إلى البرلمان، وهو ما كان أبوه قد بدأه بشكل مخز من قبل ؟ ولكن في الصورة التي رسمها ربلي(٢) للشخص عينه تحت اسم جيمس الثاني، نجد أن الحياء قد انقلب إلى ذهول وارتباك . وأن الحساسية تغيرت إلى عناد وتصلب، وأن البراءة تحولت بين أحضان العشيقات المذعنات الطيعات إلى لاهوت جامد لاينثني . فما كان إلا أن حدد هذا الخلق لصاحبه مصيرا فاجعاً، وفيه، وكما يحدث في كل التراجيديات أو المآسي الكبرى، كان كل فريق يناضل من أجل ما يبدو له هو أنه حق، ومن ثم يستحق منا بعض العطف .

لقد أوردنا من قبل ذكر بعض فضائل جيمس الثاني، فكم من مرة عرض نفسه لخطر الموت في عمله في البحرية . ووازن الناس بينه وبين أخيه، موازنة مرضيه، في النشاط الحكومي والإداري، والاعتدال في الإنفاق، وفي ارتباطه بكلمته . أنه استمسك بما أوصاه به شارل وهو يحتضر، من العناية بأمر نل جوين، فسدد ديونها، وخصص لها ضيعة تكفل لها رغد العيش . وبعد ارتقائه العرش ظل لبعض الوقت على علاقته مع آخر عشيقاته كاترين سدلي . ولكنه بناء على اعتراضات الأب بتر أجزل لها العطاء على

خدماتها وأقنعها بمغادرة انجلترا ، لأنه اعترف بأنه إذا وقع بصره عليها ثانية فإنه لا يملك فكاكا من سلطانها عليه(٣) . إن الأسقف بيرنت الذى ساعد على خلعه ، حكم عليه بأنه « صريح مخلص بطبيعته ، ولو أنه فى بعض الأحيان متلهف محب للانتقام ، صديق ثابت على العهد ، إلى أن أفسدت عقيدته الدينية مبادئه وميوله الأولى(٤) » وكان مقتصدا ينمى ثروته بسرعة ، ولم يعمد قط إلى غش العملة ، كما كان رحيما بالشعب فى موضوع الضرائب(٥) . إن ماكولى بعد أن دون ثمانمائة صحفية عن حكم جيمس الذى لم يدم لأكثر من ثلاثة أعوام ، انتهى إلى « أنه تحلى بمناقب كثيرة ، إلى حد أنه لو كان بروتستانتيا ، لا بل كاثوليكيا معتدلا ، لكان عصره عصرا زاهرا مجيدا(٦) » .

وتفاقت أخطاؤه بنمو سلطانه . وكان مغرورا متعجرفا حتى قبل اعتلائه العرش ، ينظر إلى معظم الناس باحتقار ، لا يفتح قلبه إلا لقلة منهم ، وتمسك تمسكا حرفيا بنظرية أبيه ، وهى أنه ينبغى أن يكون للملك مطلق السلطة ، ولم يكن له المزاج الواقعى الذى كان لأخيه والذى أدرك به الحدود العملية لهذه السلطة المطلقة . ويجدر بنا أن نقدر حق التقدير غيرته الدينية ، ورغبته فى منح إخوانه الكاثوليك فى انجلترا حرية العبادة والمساواة فى الحقوق السياسية . وكان مخلصا لأمه وأخته الكاثوليكيتين ، وكان طوال الخمسة عشر عاما السابقة محاطا بالكاثوليك فى بيته ، وكان موضع استغراب عنده أن الديانة التى أنجبت مثل هذا العدد الكبير من أفاضل الرجال وفضليات النساء ، يضع الانجليز أمامها العراقيل ويبغضونها ويحدون من انتشارها . ولم يشاطر البروتستانت ماتناقلوه من ذكريات حية فى أذهانهم عن مؤامرة البارود ، أو خوفهم من أن يولى عليهم ملك كاثوليكى ، يميل ، عاجلا أو آجلا ويقتنع ، بانتهاج سياسة ترضى البابا الايطالى . إن انجلترا البروتستانتية كانت تشعر بأن أى ملك كاثوليكى لا بد أن يعرض للخطر استقلالها الدينى والفكرى والسياسى .

إن تصرفات جيمس الأولى بعد ارتقائه العرش خففت من هذه المخاوف شيئاً قليلا : أنه عين هاليفاكس رئيسا لمجلس الملك ، وسندرلند وزيرا ، وهنرى هايد (أرل كلارو ندن الثانى) حاملا لأختام الملك ، وكل هؤلاء من البروتستانت . وفى أول خطاب له فى هذا المجلس وعد بالابقاء على نظم الكنيسة والدولة ، وعبر عن تقديره لتأييد كنيسة انجلترا لاعتلائه العرش ، ووعد بأن يوليها عناية خاصة وعند تتويجه أدى اليمين المألوفة لدى ملوك انجلترا الحديثين ، بالمحافظة على الكنيسة الرسمية وحمايتها . وحظى الملك جيمس الثانى لمدة شهور بشعبية لم تكن متوقعة .

وأول اجراء مؤيد للكاثوليكية اتخذه جيمس ، لم يكن يحمل عدوانا مباشرا على البروتستانت . أنه أمر بالإفراج عن كل المسجونين بسبب رفضهم تأدية قسم الولاء والسيادة . وبهذا أفرج عن آلاف من الكاثوليك ، بل أخلى معهم سبيل ألف ومائتين من الكويكرز وكثير من المنشقين غيرهم . ومنع إقامة الدعوى بعد ذلك فى المسائل الدينية . وأطلق سراح دانبى واللوردات الكاثوليك الذين أودعوا السجن بناء على اتهامات تيتس أوتس . وحوكم أوتس من جديد وأدين بتهمة الأيمان الكاذبة التى أدت إلى إعدام عدد من الأبرياء ، وأعربت المحكمة عن أسفها لأنها لم تستطع الحكم عليه بالإعدام ، وحكمت عليه بغرامة قدرها ألفان من الماركات ، وأن يربط خلف عربة ويجلد بالسياط مرتين علانية ، الأولى من أولدجيت إلى نيوجيت ، والمرة الثانية بعد الأولى بيومين ، من نيوجيت إلى تايبيرن ، وأن يوضع فى آلة التعذيب ، المشهرة ، خمس مرات سنويا طيلة بقائه على قيد الحياة . وعاش أوتس بعد هذا التعذيب ، وأعيد إلى السجن (مايو ١٦٨٥) وطلبوا إلى الملك اعفاءه من الجلد للمرة الثانية ، ولكنه رفض .

وتحطمت الهدنة المزعزعة بين الشيع الدينية بثورة مزدوجة . ذلك أنه فى مايو نزل أرشيبالد كامبل ، إرل أرجيل التاسع ، فى اسكتلنده ، وفى

يونية رسا جيمس دوق مونموث على الشاطىء الجنوبى الغربى لانجلترا ، فى مسعى مشترك لخلع الملك الكاثوليكى . وأصدر مونموث بلاغا وصم فيه الملك جيمس بأنه غاصب طاغية سفاح ، كما اتهمه بإحراق لندن والمؤامرة البابوية ، ودس السم لشارل الثانى ، وتعهد الغزاة ألا يضعوا السلاح أو يكفوا عن القتال حتى يخلصوا البروتستانتية وحريات الشعب والبرلمان . ومنى أرجيل بالهزيمة فى ١٧ يونية ، وأعدم فى ٣٠ يونيه ، وبذلك أخفق الجناح الشمالى للثورة . ولكن أهالى دورستشير — وهم بيوريتانيون شديدو التمسك بمذهبهم — رحبوا بمونموث وحيوه مخلصا ومنقذا لهم . وانضم تحت لوائه عدد كبير جدا من الناس ، إلى حد أنه فى ثقة وجلال ومهابة ، اتخذ لقب جيمس الثانى ملك انجلترا . ولم يقدم له الأشراف والطبقات الغنية أى عون أو تأييد . وهزم جيشه المختل النظام على يد القوات الملكية فى سدجمور (٦ يوليه ١٦٨٥) وهذا آخر حرب جرى فيها القتال على تراب انجلترا قبل الحرب العالمية . ولاذ مونموث بالهرب ، وتوسل إلى الملك أن يعفو عنه فأبى ، وضرب عنقه .

وتعقب جيش الملك ، بقيادة برس كيرك ، فلول الثوار ، وشنق الأسرى دون محاكمة . وشكل جيمس لجنة يرأسها قاضى القضاة جفريز ، لتذهب إلى المنطقة الغربية لتحاكم الأشخاص المتهمين بالإنضمام إلى الثورة أو التحريض عليها . وسمح للمحلفين بالاشتراك فى المحاكمات ، باعتبار أن هذا من حق المتهمين ، ولكن جفريز قذف فى قلوب المحلفين الرعب ، حتى أن قلة قليلة من المتهمين هى التى أصابت شيئا من الرحمة لدى هذه « المحكمة الدمويه » (سبتمبر ١٦٨٥)(*) . وشنق نحو أربعمائه ، وحكم على ثمانمائه بالعمل الإجبارى فى مزارع جزر الهند الغربيه(٧) . وكانت البزابث فى ١٥٦٩ وكرومول فى ١٦٤٨ ، قد اتهما قبل ذلك بمثل هذه الأعمال الوحشيه ،

(*) Assizes الجلسات الدورية للمحاكم العليا فى كل مقاطعة

ولـكن جفريز تفوق عليهما فى إرهاب للتهمين والمحلفين والتجهم والعبوس ، وصب اللعنات على ضحاياه ، والتحديق فى وجوههم فى كثير من الخبث ، والإدانة لمجرد الشك ، إلا إذا ساعدت رشوة مجزية على إقناعه بالبراءة(٨) . وبذل جيمس جهودا متواضعة ليضع حدا للوحشية ، ولـكن ما أن تمت الإبادة الـكاملة وخمدت النار المحرقة حتى رفع جفريز إلى مرتبة النبلاء ، وعينه رئيسا لمجلس اللوردات (٦ سبتمبر ١٦٨٦) .

وأسهم هذا الاجراء الانتقامى فى إبعاد النبلاء عن الملك . وعندما طلب من البرلمان إلغاء « قانون الاختيار » (الذى يقضى باقصاء الـكاثوليك عن الوظائف ومقاعد البرلمان) وتعديل قانون « حق التحقيق فى قانونية الاعتقال » وإنشاء جيش دائم تحت امر الملك ، لم يستجب البرلمان لشيء من هذا . فعطله جيمس (٢٠ نوفمبر) وأخذ يعين الـكاثوليك فى وظائف الدولة . ولما اعترض هاليفاكس على امتهان البرلمان على هذا النحو ، عزله جيمس من المجلس . وأحل محله ، رئيسا للمجلس ، سندرلند الذى أعلن تحوله إلى الـكاثوليكية على الفور (١٦٨٧) . وحين امتدح جيمس إلغاء لويس الرابع لرسوم نانت(٩) استنتجت إنجلترا أنه لو تمتع جيمس بمثل السلطة المطلقة التى يتمتع بها البوربون ، لما تردد فى إتخاذ خطوات مماثلة ضد البروتستانت فى إنجلترا ولم يخف جيمس إعتقاده بأن سلطته الآن باتت مطلقه بالفعل ، وأن لويس الرابع عشر فى نظره هو المثل الأعلى للملك . وقبل الاعانات من لويس لفترة من الزمن ، ولـكنه أبى عليه أن يملى سياسة الحـكومة الانجليزية . فتوقفت الاعانات .

وكان لويس أكثر تعقلا فيما يتعلق بانجلترا منه بالنسبه لبلاده . وعلى حين أنه أضعف فرنسا باضطهاده الهيجونوت ، نراه يحذر جيمس من مغبه التسرع فى تحويل إنجلترا إلى الـكاثوليكيه . كما أن البابا إنوسنت الحادى عشر زود جيمس بمثل هذه النصيحه . وعندما أرسل إليه الملك الانجليزى يعده بقرب إنضواء إنجلترا تحت راية الـكنيسه الكاثوليكيه فى رومه(١٠) ،

نصحه البابا بأن يقنـع بالحصول على التسامح الديني للـكاثوليك الانجليز ، كما حذر هؤلاء أن يـكفوا عن الأطماع السياسية ، ووجه رئيس الجزويت لتعنيف الأب بترولومه على القيام بمثل هذا الدور الخطير فى الحكومة(١١). إن البابا أنوسنت لم يخفف من غيرته الـكاثوليكية ، ولـكنه كان يخشى قوة لويس الرابـع عشر التى تبتغى التطويق والسيطرة ، كما كان يأمل فى إمكان تحويل إنجلترا من مجرد تابع أو خادم ذليل للسياسة الفرنسية ومشروعاتها إلى قوة متوازنة ضدها . وأوفد البابا مبعوثا بابويا — للمرة الأولى منذ عهد مارى تيودور — ليوضح لجيمس أن أى تصدع فى العلاقة بين البرلمان والملك لابد أن يضر بالـكنيسة الـكاثوليكية(١٢) .

ولم يستفد جيمس من هذا النصح . إنه أحس ، وكان فى الثانية والخمسين حين اعتلى العرش ، أنه قد لايتيسر له فسحة من الأجل لتنفيذ التغييرات الدينية التى ينشدها والتى يجيش بها صدره ، ولم يؤمل كثيرا فى أن ينجب ابنا ، وهنا قد تخلفه ابنته البروتستانتية ، وتقلب عمله رأسا على عقب ، إلا إذا أقيم هذا العمل على أساس وطيد راسخ قبل موته . وطغت آراء الأب بتر والملـكة وسلطانهما على كل نصح بالتروى والتريث . ولم يـكتف الملك بالذهاب إلى القداس ، تحفه الجلالة والمهابة الملـكية ، بل طلب كذلك إلى مستشاريه أن يلحقوا به لحضور القداس . وتـكاثر الأساقفة حول الحاشية ، وعين الـكاثوليك فى المناصب العسكرية ، وحرض القضاة (الذين كان له حق تعيينهم وعزلهم) على توكيد حقه فى أعفاء هؤلاء المعينين من العقوبات التى فرضها عليهم « قانون الاختبار » . وجند ، تحت أمرة ضباط أغلبهم من الـكاثوليك ، جيشا قوامه ثلاثة عشر ألف رجل لا يخضعون إلا لأوامره هو ، وواضح أن مثل هذا الجيش كان يهدد استقلال البرلمان . وعطل العمل بالقانون الذى يفرض العقوبات على حضور العبادة الـكاثوليكية علانية . وأصدر فى يونية ١٦٨٦ مرسوما يحرم على رجال الدين القاء عظات فى الخلافات المذهبيه . ولما خطب الدكتور جون شارب فى « دوافع

المرتدين » أمر جيمس بوصفه الرئيس الشرعى للكنيسه الإنجليزية ، هنرى كمبتون أسقف لندن ، بفصل شارب مؤقتا من سلك رجال الكنيسه الأنجليكانيه ، فرفض كمبتون . فعين جيمس ، متجاهلا قانونا صدر فى ١٦٧٣ ، « محكمه كنسية » جديدة ، سيطر عليها سندرلند وجفريز ، وحاكمت كمبتون بتهمه شق عصا الطاعه على التاج ، وعزلته من وظيفته . وبدأت الآن الكنيسه الأنجليكانيه ، التى كانت قد التزمت من قبل بالطاعة المطلقه ، نقول بدأت تقلب للملك ظهر المجن .

أن الملك جيمس كان يأمل فى كسب الكنيسه الأنجليكانيه إلى جانب المصالحه والتراضى مع رومه ، ولكن تصرفه المتهور قضى الآن على هذه السياسه . وبدلا من ذلك انتهج سياسه التوحيد بين الكاثوليك والمنشقين ضد الكنيسه الرسميه . ان وليم بن الذى وجد طريقه إلى قلب الملك وأحرز ثقته ، نصحه بأنه يستطيع أن يظفر بالتأييد الحار من جانب كل البروتستانت الانجليز ، فيما عدا الأنجليكانيين إذا هو بجرة قلم ألغى القوانين التى تحرم العبادة العلنيه على فرق المنشقين وفى ٤ أغسطس ١٦٨٧ أصدر جيمس أول « إعلان للتسامح » فى عهده . ومهما تكن دوافع الملك ، فإن هذه الوثيقه تحتل مكانا فى تاريخ التسامح الدينى . إنه ألغى كل قوانين العقوبات فيما يتعلق بالديانة ، وأبطل كل الاختبارات الدينيه ، ومنح الحرية الدينيه للجميع ، وحظر التدخل فى شئون الاجتماعات الدينيه المسالمه . وأخلى سبيل كل المسجونين بسبب الخلافات الدينيه . أن هذا الاعلان ذهب إلى أبعد مما ذهبت إليه إعلانات التسامح فى عهد شارل الثانى ، التى كانت قد أبقت على الاختبار الدينى لمن يتولون الوظائف ، وسمحت بالعبادة الكاثوليكيه داخل الدور الخاصه فقط . وأكد للكنيسه الرسميه أن الملك سيواصل حمايته لها فى كل حقوقها القانونيه . ومما يدعو إلى الأسى والأسف أن هذا الاجراء قدر له أن يكون إعلانا ضمنيا للحرب على البرلمان ، الذى كان قد سن من قبل كل القيود وعدم الأهليه التى ألغيت الآن . ولو سلم

البرلمان بسلطة الملك فى إلغاء التشريعات البرلمانية لكان لزاما أن تنشب الحرب الأهلية من جديد .

ودخل هاليفاكس الذى كان فى هاتيك الأيام ألمع عقلية فى انجلترا ، للمعركة بكتيب لايحمل اسم المؤلف بعنوان « رسالة إلى منشق » (أغسطس ١٦٨٧) — « أكثر النشرات توفيقا فى هـذا العصر[١٣] » حث فيه البروتستانت ان يكونوا على يقين من أن هذا التسامح الذى قدم إليهم الآن ، صدر عن ملك موال لكنيسة تدعى العصمة من الخطأ ، وتنكر التسامح صراحة . وهل يمكن أن يكون ثمة انسجام دائم بين حرية الفكر والضمير وبين كنيسة لاتخطىء ؟ وكيف يطمئن المخالفون إلى أصدقائهم الجدد الذين دمغوهم بالأمس القريب بأنهم هراطقة ؟ « كنتم بالأمس أبناء الشيطان ، وأنتم اليوم ملائكة النور[١٤] » . ومن سوء الحظ أن الكنيسة الأنجليكانية كانت قد اتفقت مع رومه فيما يتعلق بأبناء الشيطان ، وأنها فى السنوات السبع والعشرين الأخيرة أخضعت مخالفيها لألوان من الاضطهاد والتعذيب تمنعهم من قبول الحرية حتى على أيد كاثوليكية . وأسرع رجال الدين الأنجليكانيون إلى التماس التصالح مع المشيخيين والبيوريتانيين والكويكرز ، وتوسلوا إلى هؤلاء جميعا أن يرفضوا التسامح الراهن ، ووعدوهم على الفور بتسامح يحظى بموافقة كل من البرلمان والكنيسة الرسمية . وبعث بعض المخالفين بخطابات شكر إلى الملك ، ولكن الأغلبية نأت بجانبها فى تحفظ . وعندما حانت ساعة الفصل نبذ الجميع الملك .

وتابع جيمس خطواته . لقد تطلبت جامعات انجلترا لمدة سنوات عدة من أساتذتها وطلبتها الالتزام بمذهب الكنيسة الأنجليكانية ، ولم يستثن من ذلك إلا منح درجة لطالب لوثرى ، ومنح درجة فخرية لدبلوماسى مسلم ، على أن القساوسة الأنجليكانيين رأوا فى أكسفورد وكمبردج هيئات وظيفتها الرئيسية اعداد الرجال لقبول المذهب الأنجليكانى ، وتقرر ألا يلتحق بهما أى كاثوليكى . ورغبة فى كسر هذا القيد أرسل جيمس ، إلى نائب رئيس

جامعة كمبردج رسالة يلزمه فيها بأن يستثنى من الأنجليكانى راهبا بندكتيا يسعى للحصول على درجة الأستاذية . ورفض نائب رئيس الجامعة ففصل بأمر من لجنة المحكمة الكنسية . فأرسلت الجامعه وفدا من بين أعضائه ايزاك نيوتن ، ليشرح للملك موقف الجامعه . ولكن الراهب حل المشكلة بالانسحاب (١٦٨٧) . وفى نفس العام رشح الملك لرياسه كلية مجدلن فى أكسفورد ، رجلا لا يتمتع بغزارة العلم ، ولكنه ذو ميول كاثوليكيه ، فرفض الزملاء انتخابه ، وبعد نزاع طويل اقترح الملك مرشحا ليس عليه إلا اعتراض أيسر من سابقه ، وهو باركر أسقف أكسفورد الأنجليكانى ، ولكن الزملاء الذين يشكلون الهيئه الانتخابيه رفضوه كذلك ، ففصلوا بأمر من الملك ، وعين الأسقف باركر قسرا .

واشتدت وطأة الاستياء عندما ارتمى الملك أكثر فأكثر فى أحضان مستشاريه الكاثوليك . وكان إعجابه بالأب بتر شديدا إلى حد الإلحاف على البابا برسمه أسقفا ، بل كاردينالا ، ولكن أنوسنت أبى . وفى يوليه ١٦٨٧ عين جيمس الجزويتى القدير ، ولكن المستهتر ، عضوا فى المجلس المخصوص (الملكى) ، فاحتج كثير من الكاثوليك الإنجليز بأن هذا تصرف طائش ، ولكن جيمس كان فى عجلة من أمره ليصل بالنضال إلى غايته . وكان فى هذا المجلس الآن سته من الكاثوليك ، مكنت لهم حظوتهم لدى الملك من السيطرة والغلبه[١٥] . وفى ١٦٨٨ عين أربعه من الأساقفه الكاثوليك لإدارة شئون الكنيسه الكاثوليكيه فى انجلترا ، وخصص جيمس لكل منهم راتبا سنويا قدره ألف جنيه ، والواقع أن الكاثوليك شاركوا الآن الأنجليكانيين فى أنه أصبح لكل من الفريقين كنيسه تساندها وتعاونها الدولة .

وفى ٢٥ أبريل ١٦٨٨ جدد جيمس نشر « إعلان التسامح » الذى مضى على صدوره عام واحد ، وأكد فيه من جديد عزمه على توفير حرية الفكر والضمير » لكل الانجليز إلى الأبد . فمن الآن فصاعدا لابد أن

يعتمد التعيين فى الوظائف والترقى فيها على الجدارة الشخصية لا للمذهب الدينى . وتنبأ بأن الاقلال من الخلافات الدينية لابد أن يفتح أسواقا جديدة للتجارة الانجليزية ، ويزيد من ازدهار الأمة ورخائها . وتوسل إلى رعاياه أن يطرحوا جانبا كل الأحقاد ، وينتخبوا البرلمان الجديد دون تمييز بين المذاهب الدينية ، وللتحقق من انتشار هذا الاعلان للوسع على أوسع نطاق ممكن ، أصدر مجلس الملك توجيهاته إلى كل الأساقفة ليرتبوا مع كل رجال الدين أمر تلاوته فى كل كنيسة فى الأقاليم فى انجلترا ، يوم ٢٠ أو ٢٧ مايو . واستخدام رجال الدين على هذا النحو ، وسيلة للاتصال بالجماهير ، أمر له سوابقه الكثيرة فى انجلترا . ولكن لم تكن الرسالة قط يوما بغيضة إلى الكنيسة الرسمية إلى مثل هذا الحد . وفى ١٨ مايو رفع سبعة أساقفة أنجليكانيين إلى الملك ظلامة أوضحوا فيها أنهم لم ترتض ضمائرهم أن يوصوا قساوستهم بتلاوة الاعلان ، لأنه يخرق قرار البرلمان بأنه لا يجوز إلغاء تشريع برلمانى إلا بموافقة البرلمان نفسه ، فأجاب جيمس بأن رجال اللاهوت هم الذين كانوا يلحون على عظاتهم وخطبهم دوما على ضرورة الامتثال للملك وطاعته بوصفه رئيسا للكنيسة ، وأنه ليس فى الاعلان ما يخدش أو يسىء إلى كرامة أحد . ووعد بأنه سوف ينظر فى ظلامتهم ، ولكنهم إن يتلقوا منه ردا فى الغد فعليهم أن يذعنوا لأمره .

وفى صبيحة اليوم التالى بيعت ألاف النسخ من هذه الظلامة فى شوارع لندن ، فى الوقت التى مازالت فيه قيد البحث عند الملك . وأحس جيمس بأن هذا يجافى قواعد اللياقة ، وعرض الظلامة على القضاة الاثنى عشر فى المحكمة الملكية ، فأشاروا بأنه تصرف فى حدود حقوقه المشروعة . ومن ثم أغفل الرد على الظلامة . وفى ٢٠ مايو تليت الظلامة فى أربع كنائس فى لندن ، وتجاهلوها فى الكنائس الست والتسعين الباقية . وشعر الملك بأن سلطته قد امتهنت ، وأمر الأساقفة السبعة بالمثول أمام المجلس . فلما جاءوا أبلغهم بأن عليهم أن يخضعوا للمحاكمة بتهمة نشر طعن أوقذف فيه تحريض

على الفتنة ، وعلى أية حال فإنهم لكى يتفادوا السجن فى الحال ، يمكن أن يقبل الملك منهم وعدا كتابيا بالحضور عند استدعائهم . فأجابوه بأنهم بوصفهم من أشراف المملكة ، ليسوا فى حاجة إلى تقديم أى ضمان سوى كلمتهم . وأحالهم المجلس إلى برج لندن (السجن) وحياهم الأهالى وهتفوا لهم على الجانبين عند نقلهم عبر نهر التيمز .

وفى يومى ٢٩ و٣٠ يونيه حاكم الأساقفة السبعة ـ أمام محكمة الملك ـ أربعة قضاة مع هيئة المحلفين . وبعد يومين من مناقشات حادة فى قاعة يحيط بها عشرة آلاف من أهالى لندن المهتاجين ، أصدر المحلفون حكما بعدم الإدانة . وابتهجت كل انجلترا البروتستانتيه ، وقال أحد النبلاء الكاثوليك « لم تع ذاكرة الإنسان قط مثل هذه الصيحات والهتافات ودموع الفرح التى حدثت اليوم(١٦) » وتوهجت الشوارع بالمشاعل والنيران التى أضرمت فى الهواء الطلق . وسار الناس فى موكب خلف شخوص من الشمع تمثل البابا والكاردينالات والجزويت ، أحرقت وسط احتفالات صاخبة . إن هذا الحكم كان يعنى عند البسطاء من الناس أنه لا ينبغى التسامح مع الكاثوليكيه ، وعند ذوى الادراك الأوسع أو العقل الأنضج كان يعنى تثبيت حق البرلمان فى سن قوانين ليس للملك أن يبطلها ، وأن انجلترا ، فى الواقع ، حتى ولو لم تكن من الناحيه النظرية ، ملكيه دستورية ، لا ملكيه مطلقه .

على أن جيمس الذى عراه الاكتئاب والحزن بسبب الهزيمه ، أخذ يتعزى بالطفل الذى وضعته له الملكه فى ١٠ يونيه ، قبل الموعد المتوقع للولادة بشهر ، وفى مقدوره أن ينشىء هذا الولد النفيس تنشئه قوامها الولاء والاخلاص للكاثوليكيه ، وكان يمكن للوالد والولد ، فى وجه أيه معارضه أو معوقات ، أن يقتربا يوما بعد يوم خطوة من الهدف المقدس ـ ألا وهو الملكيه القديمه ، تعيش فى وئام ووفاق مع الكنيسه ، فى انجلترا يسودها الهدوء والسلام والتراضى ، فى أوربا نادمه على

ارتدادها عن عقيدتها ، موحدة فى ظل هذه العقيدة الحقه الوحيدة العالميه .

٣ — الاطاحة بالعرش والملك فى المهد

ربما كانت هذه الولادة التى جاءت قبل الأوان هى التى جلبت الكارثه على رأس الملك المتهور . واتفقت انجلترا البروتستانتيه مع جيمس فى أن هذا الولد قد يواصل السعى لاعادة الكثلكه ، ومن ثم يمكن القول بأنها خشيته لنفس السبب الذى أحبه الملك من أجله وأنكرت انجلترا البروتستانتيه فى أول الأمر ، بنوة الطفل للملك . واتهمت الجزويت بأنهم دسوا إلى مخدع الملكه وليــدا اشتروه ، كجزء من مؤامرة أرادوا منها إبعاد الأبنه البروتستانتيه مارى عن وراثه العرش . وانعطفت انجلترا أكثر فأكثر نحو مارى ، على أنها أمل البروتستانيه الانجليزيه ، ووطنت النفس على القيام بثورة أخرى لاجلاس مارى على العرش لتكون ملكه انجلترا .

ولكن مارى كانت آنذاك زوجه وليم أورانج الثالث ، رئيس الدولة فى المقاطعات المتحدة . ماذا يقول وليم المزهو بنفسه فى أنه مجرد زوج الملكه ؟ لماذا لا يعرض عليه الاشتراك فى الحكم مع مارى ؟ وفوق كل شىء ، أنه هو أيضاً يجرى فى عروقه الدم الملكى الانجليزى . أن أمه كانت مارى أخرى ، وكانت ابنه شارل الأول . وليس فى نيه وليم على أية حال أن يلعب دور الزوج للزوجه الملكه . ومن الجائز أن الأسقف بيرنت — الذى كان قد اتخذ سبيله إلى القارة هربا ، عند إرتقاء جيمس العرش — أقنع مارى ، بايعاز(١٧) من وليم ، أن تتعهد بالطاعه التامه لوليم « فى كل الأمور » أيا كانت السلطه التى تخولها التصرف فيها ، فوافقت على « أن يكون الحكم والسلطه فى يديه هو ، لأنها لاترغب إلا فى أن يعمل هو بالوصية التى تقول : أيها الأزواج أحبو زوجاتكم ، كما تعمل هى بالوصيه التى تقول : أيتها الزوجات أطعن أزواجكن فى كل شىء(١٨) » وتقبل وليم الطاعه ، ولكنه تجاهل التلميح الرقيق إلى علاقتـــه بعشيقته السيدة

فليبر[١٩] ، فان الحكام البروتستانت أيضا ، يحوز لهم فوق كل شيء ، أن يخدعوا أو يخونوا زوجاتهم .

إن وليم الذى يحارب لويس الرابع عشر حفاظا على استقلال هولنده والبروتستانتية ، راوده الأمل لبعض الوقت فى كسب والد زوجته (جيمس) فى تحالف ضد ملك فرنسا الذى كان يحطم توازن القوى والحريات فى أوربا ، ولما خاب فأله ، عمد إلى التفاوض مع الإنجليز الذين تزعموا حركة للمقاومة ضد جيمس . إنه تغاضى من قبل عن الحملة التى إنطلقها مونموث على الأرض الهولندية ضد الملك جيمس ، وسمح لها بالإقلاع من أحد الثغور الهولندية دون عائق[٢٠] ، وخشى بحق أن يكون جيمس قد دبر خطة لإعلان عدم أهليته لوراثة عرش انجلترا . ومتى ولد للملك ابن فمن الواضح أن يسقط حق مارى فى العرش . وفى أوائل ١٦٨٧ أوفد وليم افرهارد فان ديكفلت إلى انجلترا ليقيم علاقات ودية مع زعماء البروتستانت . وعادت البعثة برسائل مبشرة من مركيز هاليفاكس ، وأرسل شروزبرى وأرل كلارندون (ابن رئيس اللوردات السابق) ومن دانبى ، والأسقف كمبتون وغيرهم . وكانت الرسائل غامضة مبهمة إلى حد لاينم عن خيانة صريحة ، ولكنها انطوت على تأييد حار لوليم فى نضاله من أجل العرش .

وفى يونيه ١٦٨٧ أصدر كاسبار فاجل ، الحاكم العام ، رسالة أوضح فيها بصورة جازمة آراء وليم فى التسامح . إن وليم يريد حرية العبادة للجميع ولكنه يعارض إلغاء « قانون الاختبار » الذى يقصر حق تولى الوظائف العامة على أتباع المذهب الأنجليكانى[٢١] . أن هذا البيان الرسمى المتحفظ أكسب وليم تأييد الأنجليكانيين البارزين . ولما قضى مولد ابن لجيمس على فرص وليم فى أن يخلفه (جيمس) قرر زعماء البروتستانت دعوة وليم للقدوم والاستيلاء على العرش عنوة . ووقع الدعوة (٣٠ يونيه ١٦٨٨) إرل شروزبرى الثانى عشر ، دوق ديفونشير الأول ، إرل دانبى ، إرل سكاربره ، وأمير البحر ادوارد رسل (ابن عم وليم رسل الذى أعدم فى

١٦٨٣)،هنرى سدنى (أخو الجرنون) ، والأسقف كمبتون. أما هاليفاكس فإنه لم يوقع متذرعا بأنه يؤثر المعارضة الدستورية . ولكن كثيرين غير هؤلاء ، من بينهم سندرلندوجون تشرشل،وكلاهما آنذاك فى خدمة جيمس) بعثوا إلى وليم يؤكدون مساندتهم له(٢٢) . وكان الموقعون يعلمون علم اليقين أن دعوتهم خيانة ، ولكنهم وضعوا حياتهم على أكفهم عمدا ، ونذروا أموالهم للمغامرة ، من ذلك أن شروزبرى الكاثوليكى السابق الذى تحول إلى البروتستانتية ، رهن ضياعه نظير أربعين ألف جنيه ، وعبر البحر إلى هولنده ليساعد فى توجيه الغزو(٢٣) .

ولم يكن فى مقدور وليم أن يتخذ أى اجراء فورى . لأنه لم يكن على ثقه من شعبه . كما كان يخشى أن يجدد لويس الرابع عشر هجومه على هولنده فى أيه لحظه . وخشيت الولايات الألمانيه كذلك مهاجمه فرنسا لها ، ومع ذلك لم تبد هذه الولايات اعتراضا على غزو وليم لانجلترا ، لعلمها بأن الهدف الأسمى لوليم هو كبح جماح ملك البوربون . أما حكومتا آل هبسبرج فى النمسا وأسبانيا فقد نسيتا كثلكيتهما فى بغضهما للملك لويس الرابع عشر ، وأقرتا خلع ملك كاثوليكى يصادق فرنسا بل أن البابا نفسه منح الحمله بركته ورضاءه السامى . ومن ثم أصبح بإذن من الدول الكاثوليكيه أن يأخذ وليم البروتستانتى على عاتقه الإطاحه بجيمس الكاثوليكى وتعجل لويس وجيمس كلاهما الغزو ، وأعلن لويس أن روابط «الصداقه والتحالف» القائمه بين انجلترا وفرنسا تحتم عليه أن يعلن الحرب على كل من يغزو انجلترا . ولكن جيمس الذى خشى أن يؤدى هذا البيان إلى توحيد صفوف رعاياه البروتستانت ضده بشكل أقوى ، نفى وجود مثل هذا التحالف ، ورفض مساعدة فرنسا له . وانتصر غضب لويس الرابع عشر على استراتيجيته ، فأمر جيوشه بمهاجمه ألمانيا ، لاهولندة (٢٥ سبتمبر ١٦٨٨) ، ووافقت الجمعيه العموميه للمقاطعات المتحدة ، التى تحررت لبعض الوقت من الخوف من فرنسا ، على أن يقود وليم حمله قد تؤدى بإنجلترا إلى الدخول فى

تحالف ضد فرنسا .

وفى ١٩ أكتوبر تحرك الأسطول — خمسين سفينة حربية ، وخمسمائة سفينة نقل ، وخمسمائة فارس ، وأحد عشر ألفا من المشاة ، بما فيهم عدد كبير من الهيجونوت اللاجئين من الاضطهاد فى فرنسا . وصدت الرياح الأسطول ، فانتظر حتى يهب « نسيم بروتستانتى » (مؤات) ، وأقلع ثانية فى أول نوفمبر . وخرج أسطول إنجليزى ليعترض سبيله ، ولكن مزقته العاصفة . وفى ٥ نوفمبر ، وهو يوم عطلة وطنية احتفالا بذكرى « مؤامرة البارود » ألقى الغزاة مراسيهم فى « توربای » ، وهو منفذ على المانش على شاطىء دورستشير . ولم يلق الغزاة أية مقاومة ، ولكنهم كذلك لم يلقوا أى ترحيب . فإن الناس لم يكونوا قد نسوا جفريز وكيرك . وأصدر جيمس أوامره إلى جيشه بالتجمع فى سالسبورى تحت أمرة لورد جون تشرشل ، ولحق الملك به هناك ، ولكنه وجد القوات يعوزها الولاء والاخلاص ، يخيم عليها الفتور إلى حد الإرتياب فى اشتراكهم فى معركة ، فامر بالتقهقر ، وفى تلك الليلة (٢٣ نوفمبر) إنحاز تشرشل واثنان من كبار الضباط فى جيش الملك إلى وليم مع أربعمائة رجل(٢٤) . وبعد ذلك بأيام قلائل انضم جورج الدنمركى ، زوج الأميرة آن ابنة جيمس ، إلى جماعة الخارجين على الملك ، والذين يتزايد عددهم ، ووجد الملك التعس ، لدى عودته إلى لندن ، أن ابنته آن وسارا جننجز زوجة تشرشل قد هربتا إلى نوتنجهام . وتحطمت روح الملك الذى كان يوما مزهوا مختالا ، حين وجد أن إبنتيه كلتيهما قد انقلبتا ضده . فأوفد هاليفاكس للتفاوض مع وليم وفى ١١ ديسمبر غادر الملك نفسه عاصمة ملكه . ولما عاد هاليفاكس من الجبهة ، وجد الأمة بلا رئيس ولا زعيم ، فعمد جماعة من النبلاء إلى تنصيبه رئيسا لحكومة مؤقتة . وفى يوم ١٣ تسلموا من جيمس رسالة تقول بأنه وقع فى أيدى الأعداء ، فى فافرشام فى كنت . فأنفذوا بعض القوات لانقاذه ، وفى يوم ١٦ عاد الملك الذليل إلى قصر هويتهول وأرسل

وليم أثناء تقدمه نحو لندن ، بعض حراس هولنديين زودهم بتعليمات بأن يحملوا جيمس إلى روشستر ، وهناك يسهلون له طريق الفرار . وقد كان ، ووقع جيمس فى الفخ الذى نصب له ، وغادر انجلترا إلى فرنسا (٢٣ديسمبر) . وعمر ثلاثة عشر عاما بعد سقوطه ، ولكنه لم ير انجلترا ثانية قط .

ووصل وليم إلى لندن فى التاسع عشر من ديسمبر . واستغل انتصاره فى حزم وحذر واعتدال ممتاز ، ووضع حدا للشغب الذى آثاره البروتستانت فى لندن وسلبوا فيه منازل الكاثوليك وأحرقوها . وبناء على طلب الحكومة المؤقتة ، دعا اللوردات والأساقفة وأعضاء البرلمان السابقين للاجتماع فى كوفنترى . وأعلن « المؤتمر » الذى انعقد هناك فى أول فبراير ١٦٨٩ أن جيمس اعتزل العرش بفراره . وعرض المجتمعون أن يتوجوا مارى ملكة ، ويرتضوا وليم نائبا لها . فقبلا (١٣ فبراير) . ولكن المؤتمر قرن هذا العرض « باعلان الحقوق » الذى سنه وأصدره البرلمان من جديد فى ١٦ ديسمبر على أنه « وثيقة الحقوق » ، وأصبح (بالرغم من عدم موافقه وليم عليه صراحة) جزءا حيويا أساسياً فى قوانين المملكه :

حيث أن الملك السابق جيمس الثانى .. سعى جهده أن يدمر ويستأصل العقيدة البروتستانتية وقوانين وحريات هذه المملكه من جذورها :

١ — بانتحاله لنفسه وممارسته سلطه التحلل من القوانين وإلغائها ، أو تنفيذها دون موافقه البرلمان . .

٣ — بانشاء « محكمه خاصه بالقضايا الدينيه » .

٤ — بجباية أموال من أجل الملك وليستخدمها هو ، بحجه الامتيازات والحقوق الملكيه ، فى غير الوقت ولغير الغرض اللذين أقرهما البرلمان .

٥ — بتجنيد جيش ثابت والاحتفاظ به دون موافقه البرلمان .

٧ — باقامه الدعوى أمام « محكمه الملك » فى مسائل وقضايا هى من إختصاص البرلمان وحده .

وكل هذا يتعارض تماما ، وبطريق مباشر ، مع قوانين هذه المملكه

وشرائعها المعروفه . ولما كانوا (أعضاء البرلمان ـ المجتمعون) على ثقه تامه من أن .. أمير أورانج .. سوف يحميهم من إهدار حقوقهم التى أثبتوها هنا ، ومن أية محاولات أخرى للاعتداء على حقوقهم الدينيه وحرياتهم ، فإن اللوردات والآباء الروحيين والنواب المجتمعين فى وستمنستر ، يقررون أن يعينوا وليم ومارى ، أمير وأميرة أورانج ، ملكا وملكه على إنجلترا وفرنسا وأيرلنده ، وأن يقسم اليمين المذكورة بعد ، كل الأشخاص الذين يتطلب القانون منهم أن يقسموا يمين الولاء ..

« أقسم أنا (س من الناس) أن أمقت وأبغض وأنبذ من كل قلبى على على أنها كفر وهرطقه ، تلك النظرية الدنسه اللعينه .. التى تقول بأنه يجب أن يخلع أو يقتل ، بيد رعاياه أو غيرهم أيا كانوا ، كل أمير يصدر ضده البابا أو أية هيئه فى المقر البابوى فى رومه ، قرارا بالحرمان من الكنيسه أو من العرش .. كما أعلن أنه ليس ، ولا ينبغى أن يكون . لأى حاكم أو فرد أو مطران أو دولة أو عاهل أجنبى ، أية ولايه أو سلطه أو سيادة أو سلطان .. فى هذه المملكه . أسألك العون على هذا يارب » .

وحيث ثبت بالتجربه أنه لايتفق مع سلامه هذه المملكه ولا مع مصلحتها أن يحكمها أمير مناصر للبابا ، أو ملك أو ملكه متزوجه من أحد أشياع البابا ، فإن اللوردات والآباء الروحيين والنواب المذكورين يرجون فوق ذلك أن يسن تشريع يقضى بأن كل شخص أو أشخاص يذعنون أو سيذعنون للبابا أو الكنيسه فى رومه ، أو تكون أو ستكون لهم علاقة بهما ، أو سيدينون بالمذهب البابوى ، أو يتزوجون من نصيرات البابا والمشايعات له ، يجب استبعادهم وحرمانهم إلى الأبد من وراثه أو إمتلاك أو التمتع بتاج وحكومه هذه المملكه(٢٥) .

أن هذا الإعلان التاريخى عبر من النتائج الجوهرية لما أسمته انجلترا البروتستانتية « الثورة الجليلة » : وهى الاعتراف الصريح بالسيادة التشريعية للبرلمان ، التى طالما نازع فيها أربعة ملوك من آل ستيوارت ، وحماية المواطن

ضد السلطة التعسفية للحكومة ، واستبعاد الكاثوليك من تولى عرش انجلترا أو المشاركة فيه . ويلى هذه النتائج فى الأهمية ، هو ادماج سلطة الحكومة فى الارستقراطيه مالكة الأرض ، لأن الثورة بدأها كبار النبلاء ، وسار بها إلى غايتها صغار الملاك الممثلون فى مجلس العموم . وواقع الأمر أن الملكية « المطلقة » المتمسكة « بحق الملك الإلهى » تحولت إلى أو ليجاركية اقليمية أو ذات علاقه بالملكيه الخاصه للأرض . وهى أوليجاركيه تميزت بالاعتدال والجد والبراعه فى إدارة دفه الحكم ، متعاونة مع ملوك الصناعه والتجاره والمال ، كما أهملت بصفه عامه أمر الحرفيين والفلاحين . إن الطبقات المتوسطه العليا أفادت من الثورة بصورة فعليه . واستردت مدن انجلترا حريتها ، لتحكمها أوليجاركيات التجار المستغلين . أن تجار لندن الذين أحجموا من قبل عن مساعدة جيمس ، أقرضوا وليم مائتى ألف جنيه فيما بين وصوله إلى العاصمه ، وتسلمه اعتمادات البرلمان لأول مرة(٢٦) . إن هذا القرض عزز اتفاقيه غير مسطورة : فالتجار يتركون لملاك الأرض حكم انجلترا ، على أن توجه الارستقراطيه الحاكمه سياسه البلاد الخارجيه نحو المصالح التجارية ، وتحرر التجار أكثر فأكثر من النظم الرسميه .

وثمه عناصر مخزيه غير كريمه كانت فى « الثورة الجليله(٢٧) » . فيما يبدو أنه مدعاة للأسف أن تضطر انجلترا إلى استدعاء جيش من هولندة ليصلح من أخطاء الإنجليز أنفسهم ، وأن تساعد الإبنه على خلع أبيها عن عرشه ، وأن ينحاز قائد جيشه إلى الغزاة ، وأن تشارك الكنيسه الوطنيه فى الإطاحة بملك سبق لهذه الكنيسه أن بررت وقدست سلطته الإلهيه المطلقه فى وجه أيه ثورة أو أى عصيان . كما كان مدعاة للأسف أن يكون تثبيت سيادة البرلمان على حساب مناهضه حريه العبادة . ولكن السيئات التى اقترفها هؤلاء الرجال والنساء طويت فى الأحداث مع رفاتهم ، أما حسناتهم التى أدوها فقد بقيت بعدهم وآتت أكلها . أنهم حتى فى إقامه الأوليجاركيه وضعوا أسس ديمقراطيه كان لابد أن تنشأ مع توسيع القاعدة الإنتخابية .

وجعلوا من دار الرجل الانجليزى قلعته ، آمنا نسبيا من « عجرفة الحكم » و « أخطاء الظلم » وأسهموا إلى حد ما فى هذا التوفيق الذى يدعو إلى الاعجاب بين النظام والحرية ، وهذا هو قوام الحكومة الانجليزية اليوم . إنهم فعلوا هذا كله دون اراقة قطرة من الدم ، اللهم إلا ما نزف من أنف للملك المنزعج المنهوك الأخرق الذى تخلى عنه الجميع فى ساعة العسرة .

٣ — انجلترا تحت حكم وليم الثالث ١٦٨٩ — ١٧٠٢

عين الملك لمجلسه الخاص : دانبى رئيسا ، وهاليفا كس حاملا للأختام الملكية ، وإرل شروزبرى وإرل نوتنجهام وزيرين ، وإرل بورتلاند رئيسا للخاصة الملكية ، وجلبرت بيرنت أسقف سالسبورى .

وكان أبرز هذه الشخصيات وأكثرها نفوذاً هو جورج سافيل مركيز هاليفاكس . ولما كان ابن أخى لورد سترافورد الذى أعدمه البرلمان الطويل من قبل ، فإنه — أى هاليفا كس — كان قد فقد جزءاً كبيراً من ممتلكاته فى الثورة الكبرى ، ولكنه كان قد أنقذ ما يكيفيه لعيش رغيد فى فرنسا أيام حكم كرومول . وهناك عثر على « مقالات » مونتانى ، وأصبح فيلسوفا . وإذا كان المركيز قد ارتقى فيما بعد من السياسة إلى فن الحكم ، فما ذاك إلا لأن الفرق بين السياسة وفن الحكم هو الفلسفة أى القدرة على رؤية اللحظة العابرة والجزء الصغير فى ضوء الزمن الخالد ، والكل الذى يضم كل الأجزاء ، ولم يكن هاليفا كس ليرضى قط بأن يكون كله رجل أعمال وكتب يقول : « إن حكومة العالم (يعني حكم الشعوب) عمل عظيم ، ولكنه شاق خشن جداً كذلك ، إذا قورن برقة المعرفة التأملية(١٢٨) » . فقد كان على السياسة فى بعض الأحيان أن تتعامل مع الجماهير وهو ما أزعج هاليفا كس . إن فى الجمع من الناس قساوة متراكمة ، على الرغم من أنه ليس بينهم فرد واحد بالذات ردىء الطبع .... ان الغمغمة الغاضبة فى حشد

من الناس من ألعن وأسوأ الضوضاء فى العالم »(٢٩) . لقد عاش من قبل فى ظل « الارهاب البابوى » حين كانت الجماهير تقذف الرعب فى المحاكم . ومذ رأى كثيراً من المذاهب الدينية المولعة بكسب الأنصار ، طرح معظم اللاهوت ، إلى حد أنه ، كما يقول بيرنت « تحول إلى ملحد جرىء ثابت العزم » على الرغم من أنه كان غالبا ما يحتج لى بأنه ليس كذلك ، وأنه قال أنه يعتقد أنه ليس فى العالم رجل ملحد . واعترف بأنه لم يستسغ كل مافرضه رجال الدين على العالم . وكان مسيحياً ، امتثالا ، وآمن قدر طاقته » (٣٠)

وعندما عاد إلى انجلترا استرد ممتلكاته ، وبلغ من الثراء حداً استطاع معه أن يكون أمينا . وخدم شارل الثانى حتى علم بأمر « معاهدة دوفر » السرية . ودافع عن حق جيمس فى عرش انجلترا ، ولكن عارض فى إلغاء « قانون الاختبار » ، وتطلع إلى حكم بروتستانتى بعد فترة حكم كاثوليكى قصيرة . وحقق آماله حين لعب دوراً قيادياً فى انتقال الحكم بطريقة سلمية من جيمس الثانى إلى وليم الثالث . والتزم هاليفاكس بما يعتقد هو أنه حق ، وما كان لينحاز إلى أى حزب . وكتب فى « أفكار وتأملات » : « ان الجهل يقود معظم الناس إلى الانضمام إلى حزب ما ، والخجل يحول بينهم وبين الخروج منه » (٣١) . ولما هوجم بسبب خروجه على اتجاهات الحزب ، دافع عن نفسه فى كتيب مشهور « شخصية الحول القلب »

إن اللفظة البريئة (قلب حول) لا تعنى أكثر من أنه إذا كانت مجموعة من الرجال فى قارب . ومال به قسم منهم إلى جانب ، فلا بد أن يميل الباقون بنفس القدر إلى الجانب الآخر ، ويحدث أن يكون هناك رأى ثالث لأولئك الذين يرون أنه يكفى أن يكون القارب مستويا أو متعدلا (٣٢) .

وكان فى بعض الأحيان عديم الضمير ، فصيحاً دائما ، ذكيا بشكل خطير ولما اجتاح صائدوا المناصب الذين ادعوا مساعدة الثورة ، بلاط وليم الثالث ناصبوه العداء لأنه قال : « إن الأوز أنقذ رومه ، ولكنى لا أذكر أن

هذه الأوزات هيئت فى مناصب القناصل »(٣٣) (١)

ولا بد أن هاليفا كس ابتسم ساخراً عندما حول « المؤتمر » نفسه الى برلمان ، ثم عمد إلى ما حسبه أول ما تحتاج إليه الحكومة — ألا هو قسم جديد للولاء والطاعـــة لوليم الثالث ، لا بوصفه رئيساً للدولة فحسب ، بل للكنيسةالرسمية كذلك . انها لإحدى مهازل التاريخ المضحكة ، إن الكنيسة الأنجليكانية وهى التى ظلت لمـــدة قرن من الزمان تضطهد الكلفنيين (البرسبتريانز ، والبيوريتانز وغيرهم من مخالفيها) تقبل الآن رئيساً لهـــا كالفنيا هولنديا .

إن أربعمائة من رجال الدين الأنجليكانين المتمسكين بنظرية « حقوق الملوك الالهية » ومن ثم ينازعون حق وليم فى الحكم ، رفضوا أن يؤدوا القسم الجديد . وعزل هؤلاء الرافضون »من وظائفهم الكنسية ، وشكلوا شعبة أخرى من المنشقين أو المخالفين . أما الذين أقسموا اليمين فإن كثيراً منهم فعلوا ما فعلوا مع « تحفظ عقلى »(٣٥) ربما أضحك الجزويت الباقين فى انجلترا . ويرى بيرنت « أن مراوغة الكثيرين وموارباتهم فى موضوع بمثل هذه القدسية أسهم إسهاماً غير قليل فى تدعيم الالحاد الآخذ فى التفاقم(٣٦) » وصعق الأنجليكانيون من ذوى المشارب والأمزجة المختلفة ؛ حين ألغى وليم — إذعاناً للشعور السائد بشكل طاغ فى اسكتلندة — ألغى هناك النظام الأسقفى الذى كان آل ســـتيوارت قد أقاموه قسراً . وحزن كثير من الأنجليكانيين حين ألفوا وليم يجنح إلى التسامح الدينى .

إن وليم الذى نشأ فى أحضان الكلفنية الجبرية المؤمنة بالقضاء والقدر لم يطق تعاطفاً مع وجهة النظر الأنجليكانية التى تقضى بإقصاء البرسبتريانز عن الوظائف العامة أو مقاعد البرلمان . انه شجع بالفعل التسامح فى المقاطعات

---

(١) ان قأقأة الأوز المقدس المنزعج فى الكابيتول أيقظت الحامية الرومانية لتصد غارة ليلية قام بها الكلت فى ٣٩٠ ق م (٣٤)

للتحدة ، ولم يكن يسمح بأى تمييز دينى فى صداقاته . إن الكلفنية الجبرية كانت قد أصبحت بالنسبة لوليم ثقة فى النفس وكأنها عامل من عوامل القدر . وفى ظل هذه الثقة ينظر ، دون ما تعصب ، إلى الانشقاق الدينى على أنه فى حد ذاته أداة من أدوات تلك « القوة الخفية » أكثر منها شخصية التى سماها تارة « الحظ » وتارة « العناية الالهية » وأخرى « الله »(٣٧) . ورأى فى الخلافات الدينية فى انجلترا قوة تمزق الأمة اربا إذا لم يحده التفاهم والمحبة من مثل هذه القوة .

وكانت خطوة بارعة من جانب المجلس المخصوص (أو مجلس الملك) أن يعهد بتقديم « قانون التسامح » الذى أعده ، إلى البرلمان ، إلى نوتنجهام الذى عرف بأنه ابن غيور بار للكنيسة الأنجليكانية . وأبطل دفاع نوتنجهام عن هذا القانون أمام البرلمان حجة المعارضين المتشددين وجردهم من سلاحهم وهكذا أقر المجلسان أول انجازات العهد الجديد دون معارضة تذكر (٢٤ مايو ١٦٨٩) . وسمح هذا القانون بحرية العبادة العلنية لكل الفرق التى سلمت بمبدأ التثليث وبأن الكتاب المقدس نزل به الوحى ، والتى نبذت صراحة تحول خبز القربان والخمر إلى جسد المسيح ودمه ، وسيادة البابا الدينية . وسمح لأنصار تجديد العماد بتأجيله إلى سن البلوغ . وبمقتضى « قانون تثبيت التسامح » الذى صدر فى ١٦٩٦ سمح للكويكرز باستبدال وعد قاطع بالقسم سالف الذكر . واستثنى التوحيديون والكاثوليك من التسامح . وقام وليم ومجلسه فى مشروع « قانون التسامح الشامل » الذى قدم فى أواخر ١٦٨٩ ، بمحاولة للسماح بدخول كل طوائف المنشقين إلى الكنيسة الأنجليكانية ، ولكن لم تتم الموافقة على هذه الخطوة . وظل المنشقون محرومين من الجامعات ومن مقاعد البرلمان ومن الوظائف العامة إلا إذا تلقوا الأسرار المقدسة وفقاً للطقوس الأنجليكانية ، وجدد فى ١٦٩٧ العمل بقانون يقضى بعقوبة السجن على من يهاجم أية نظرية مسيحية أساسية . ولم يصدر بعد ذلك أى تشريع بالتوسع فى الحرية الدينية فى انجلترا حتى ١٧٧٨

وعلى الرغم من ذلك كان التسامح هنا أكبر منه فى أية دولة أوربية أخرى بعد ١٦٨٥ ، باستثناء للمقاطعات المتحدة . والواقع أن التسامح اتسعت دائرته فى انجلترا بازدياد قوة انجلترا إلى الحد الذى تحررت معه من مخاوفها من أن تغزوها أية دولة كاثوليكية أو تعمل على تخريبها فى الداخل .

إن الكاثوليك أنفسهم نعموا فى عهد وليم بأمن متزايد . وأوضح الملك أنه ليس فى مقدوره أن يحتفظ بالأحلاف مع الدول الكاثوليكية إذا هو صب العذاب والظلم على رؤوس الكاثوليك فى انجلترا(٣٨) . وظل القساوسة الكاثوليك لعشر سنوات يقيمون القداس فى دور خاصة . وما كان أحد ليتحرش بهم لو تستروا فى شىء من الحزم والحكمة ، أمام الجمهور . وفى أخريات عهد وليم (١٦٩٩) ، حين كان للمحافظين (أنصار السلطة الملكية المطلقة) وللمتشددين ، الغلبة فى البرلمان ، شددت القوانين ضد الكاثوليك ، فتعرض لعقوبة السجن مدى الحياة أى كاهن يدان باقامة القداس أو أداء أية مهمة كهنوتية أخرى إلا فى دار أحد السفراء . وتنفيذا للقانون كانت ثمة مكافأة قدرها مائة جنيه لمن يدبر الإدانة . ونص القانون على نفس العقوبة لأى كاثوليكى يقوم بالتعليم العام للصغار . وما كان يجوز للوالدين أن يرسلوا أولادهم إلى الخارج لتلقى العلم وفق للمذهب الكاثوليكى . وما كان يجوز لأى فرد أن يشترى أو يرث أرضا إلا بعد أداء القسم على أن الملك رئيس الكنيسة ، وعلى أنه لا يؤمن بتحول الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه . وصودر من أجل الحكومة ارث أى فرد امتنع عن أداء القسم(٣٩) . وفى ١٦٨٩ عفا وليم عن تيتس أوتس وأجرى عليه معاشا .

وجلب الكاثوليك فى أيرلنده على أنفسهم اضطهادا مجددا بتنظيمهم ثورة تهدف إلى إعادة جيمس الثانى إلى العرش . ذلك أن ريتشارد تاليوت جمع جيشا قوامه ٣٦ ألف رجل ودعا جيمس للقدوم من فرنسا ليتولى قيادته . وكان لويس الرابع عشر قد أسكن الملك المخلوع أحد قصوره فى سان جرمان ، وخصص له ستمائة ألف فرنك سنويا ، وجهز له الآن أسطولا

و لى ميناء برست ، وودعه بكلمات مشهورة: « أن أحسن ما أرجوه لك ألا يرى الواحد منا الآخر ثانية أبدا (٤٠) » . وفى ١٢ مارس ١٦٨٩ ألقى جيمس مراسيه فى أيرلنده مع ألف ومائتى رجل ، ورافقه تالبوت إلى دبلن ، حيث دعا برلمانا أيرلنديا ، وأعلن حرية العبادة لكل الرعايا المخلصين . واجتمع البرلمان فى ٧ مايو وألغى « قانون التسوية » الذى صدر فى ١٦٥٢ ، وأمر بإعادة الأراضى التى انتزعت من أصحابها منذ ١٦٤١ إلى ملاكها السابقين . وأرسل وليم قائده الهيجونوتى شومبرج إلى أيرلنده على رأس عشرة آلاف جندى . ورد لويس الرابع عشر على ذلك بإرسال سبعة آلاف من الفرنسيين المحنكين لمساعدة جيمس . وعبر وليم بنفسه إلى أيرلنده فى يونيه ١٦٩٠ . فلما ألتقى الجمعان فى معركة بوين (أول يوليه) فر جيمس من الميدان مذعورا ، ولو أنه اشتهر بالبسالة يوما ، حين رأى قواته تنهزم . وسرعان ماعاد أدراجه إلى سان جرمان .

وربما ابتهج وليم بعقد الصلح وإقرار السلام مع الأيرلنديين على أساس الوضع الراهن . ولكن الزعماء والقوات البروتستانتية الذين كانوا تحت أمرته ، طالبوا بالقضاء التام على العناصر الثورية ، وبالاستيلاء على المزيد من أراضى أيرلنده . وعاد وليم إلى انجلترا تاركا جيشه تحت قيادة جودرت دى جنكل ، إرل أتلون آنذاك ، وكان شومبرج قد قضى نحبه فى انتصاره فى بوين . وأوصى الملك جنكل بإصدار عفو عام دون قيد أو شرط ، وإطلاق حرية العبادة ، وبالإعفاء من أداء القسم بعدم الاعتراف بسيادة البابا ، وباسترداد الثوار لضياعهم شريطة أن يضعوا السلاح (٤١) . وعلى أساس هذه الشروط ضمن جنكل استسلام جولواى وليمرك وبمقتضى معاهدة ليمرك (٣ أكتوبر ١٦٩١) وافق الثوار الأيرلنديون على التسوية التى عرضها وليم . وفى مارس ١٦٩٢ صدر بيان ملكى يعلن انتهاء الحرب مع أيرلنده .

واستنكر البروتستانت فى أيرلنده هذه المعاهدة على أنها استسلام

ذليل للبابويين ، ولجأوا إلى البرلمان الانجليزى . ووضع هذا البرلمان على الفور (٢٢ أكتوبر ١٦٩١) قانونا يحرم من عضوية برلمان أيرلنده ، كل من يمتنع عن أداء يمين السيادة وإعلان رفضه لفكرة تحول الخبز والخمر إلى جسد للمسيح ودمه . ورفض البرلمان الأيرلندى الجديد ، وكان بروتستانتيا تماما ، الاعتراف بمعاهدة ليمرك . وعلى حين كان وليم منهمكا فى تكتيل أوربا ضد لويس الرابع عشر ، سن برلمان دبلن سلسلة جديدة من قوانين العقوبات ضد الكاثوليك فى أيرلنده ، تنقض صراحة الصلح الذى وقعه وليم ومارى من قبل ، ونصت هذه القوانين على عدم شرعية المدارس والكليات الكاثوليكية ، وعلى أن القساوسة الكاثوليك معرضون للترحيل خارج البلاد ، وعلى أنه ليس للكاثوليكى أن يحمل سلاحا ، أو يمتلك حصانا تزيد قيمته على خمسة جنيهات ، وعلى مصادرة أملاك أية وريثة بروتستانتية تتزوج من كاثوليكى(٤٢) . واستمرت مصادرة أراضى أيرلنده حتى « لم يعد هناك فى الواقع أرض تصادر »(٤٣) . وكاد يكون من المستحيل أن يكسب كاثوليكى أيرلندى قضية فى محكمة أيرلندية ، وقل أن صدرت عقوبة على من يقترف جريمة ضد الكاثوليك . واستكمالا لخراب أيرلنده قضت قوانين برلمان إنجلترا قضاء تاما على صناعة الصوف التى كانت قد نمت إلى حد منافسة صناعة الصوف فى انجلترا ذاتها ، حيث حظرت هذه القوانين تصدير الصوف من أيرلنده إلى أى بلد آخر سوى انجلترا ، وخنقت حتى هذه التجارة نفسها بما وضع من تعريفات جمركية معوقة عمدا (١٦٩٦) . ومن ثم انتشر الفقر والتسول والمجاعة والتمرد على القانون فى الجزيرة ، خارج نطاق « البـال » الانجليزى (قسم فى شرق أيرلنده حول مدينة دبلن) . وفى الستين عاما التى أعقبت الثورة الجليلة هاجر من أيرلنده نصف الكاثوليك الذين كان عددهم يقرب من المليون فى ١٦٨٨ ، أى أن أزكى الدماء وأطيب العناصر نزحت إلى البلاد الأجنبية .

وازدهرت آنذاك كل الطبقات الاقتصادية فى انجلترا فيما عدا طبقة

الـكادحين (البروليتاريا) وطبقة الفلاحين . وعانى عمال النسيج من المنافسة الأجنبية ومن الاختراع . وفى ١٧١٠ أضرب عمال الجوارب بسبب ادخال أنوال الجوارب واستخدام الغلمان لتشغيلها لقاء أجور منخفضة(٤٤) على أن الانتاج القومى كان آخذا فى الارتفاع . ويمـكن أن نحـكم على هذا الارتفاع من زيادة متوسط ايرادات الحـكومة من ٥٠٠ ألف جنيه فى القرن السادس عشر إلى سبعة ملايين ونصف المليون من الجنيهات فى القرن السابع عشر(٤٥) . وقد ترجع الزيادة إلى حـد ما إلى التضخم ، ولـكنها نتجت أساسا من التوسع فى الصناعة وفى التجارة الخارجية .

ومع هذا لم يـكن الدخل كافيا ، لأن وليم كان يجند الجيوش لمحاربة لويس الرابع عشر ، فارتفعت الضرائب إلى حد لم يسبق له مثيل ، بل اشتدت الحاجة إلى مزيد من المـــال . وفى يناير ١٦٦٣ أحدث شارل مونتاجو — إرل هاليفاكس الأول — بوصفه وزير الخزانة تغييرا أساسيا فى مالية الحـكومة ، باقناع البرلمان بطرح قرض عام قدره ٩٠٠ ألف جنيه ، ووعدت الحـكومه بدفع ٧ ./ فائدة سنويه عنه . وفى أخريات ١٦٦٣ ، حين زادت النفقات عن الإيرادات ، اتفق جماعة من أصحاب المصارف على اقراض الحكومه مبلغ مليون ومائتى ألف جنيه بفائدة قدرها ٨ ./ تحصل من رسم اضافى على السفن . وكانت فـكرة القروض المتحدة (الجماعية) هذه ، قد اقترحها وليم باترسون قبل ذلك بثلاثة أعوام . وجاء الآن مونتاجو فعززها من الناحية الرسمية . وأقر البرلمان هذه الخطة . واتباعا للسوابق التى جرى عليها العمل فى جنوه والبندقية وهولنده ، عمد المقرضون إلى تنظيم أنفسهم فيما يسمى « محافظو وشركة بنك انجلترا » الذى صدرت براءة تأسيسه فى ٢٧ يوليه ١٦٩٤ . واقترضوا هم النقود من مصادر مختلفة بسعر ٤½ ./ وأقرضوها للحـكومه بسعر ٨ ./ ، وجنوا أرباحا اضافية عن طريق القيام بـكل الأعمال المصرفية. وهكذا نشأ بنك انجلترا ، وقدم للحكومه قروضا أخرى . وفى ١٦٩٦ حصل من البرلمان على حق احتـكار مثل هذه القروض.

وبعد تقلبات كثيرة مر بها هذا البنك ، أصبح العامل الرئيسى فى استقرار الحكومة الانجليزيه المشهور منذ اعتلاء وليم ومارى عرش انجلترا حتى يومنا هذا . ومنذ ١٦٩٤ أصدر البنك أوراقا نقديه تضمنها الودائع ، قابلة للدفع بالذهب ، عند الطلب . وتداولها المتعاملون على أنها مال قانونى ، فكانت أول عملة ورقيه حقيقيه غير زائفه فى انجلترا(٤٦) .(*)

واشتهر عهد مونتاجو فى وزارة الخزانه بعمل ممتاز آخر ، هو اصلاح العملة المعدنية . ذلك أن العملة الجيده التى سكت فى عهد شارل الثانى وجيمس الثانى اختزنت أو صهرت أو صدرت . أما العمله المشوهه أو التالفه منذ أيام اليزابث وجيمس الأول ، فقد طرحت للتداول والاستعمال ، وفقدت فى القوة الشرائيه جزءا لا يستهان به من قيمتها الاسميه . ودعا مونتاجو أصدقاءه جون لوك واسحق نيوتن وجـــون سومرز ليعدوا لانجلترا عمله أكثر استقرارا فصمموا قطع نقد جديدة ذات حافه مسننه تتحدى التشويه . واشتردوا العمله القديمه وسحبوها من التداول بقيمتها الاسميه ، وتحملت الحكومه الخسارة الناجمه عن ذلك . وصار لانجلترا نقد ثابت صحيح ، كان مثار لحسد أوربا ، ومثالا تحتذيه . وفى ١٦٨٩ فتحت بورصه الأوراق الماليه فى لندن ، وبدأت فترة مضاربة مالية ، سرعان ما أنتجت « شركة البحر الجنوبى » (١٧١٩) وانفجار « فقاعتها » (١٧٢٠) . وفى ١٦٨٨ أقام إدوارد لويد فى أحد مقاهى لنـدن شركة للتأمين تعرف الآن بشكل بساطه تبعث على الفخر باسم « لويدز » وفى ١٦٩٣ أصدر أدموند هالى أول نشرة وفيابته معروفه . وأكدت هذه التطورات الماليه ووسعت دور المصالح القائمة على المال فى شئون إنجلترا ، وحـــددت بداية الأهمية المتزايدة

(*) صدرت أول عملة ورقية معروفة فى القرن السابع الميلادى فى الصين على عهد أسرة تانج . ورأى ماركو بولو مثل هذه العملة فى الصين ١٢٧٥ ، وحاول عبثا ادخال أسلوب التعامل هذا الى ايطاليا . واستخدمت السويد أوراق العملة فى ١٦٥٦ ومستعمرة ماساشوست ١٦٩٠ .

الرأسماليين — الذين يمدون برأس المال والذين يديرونه — فى بريطانيا .

وفوق الاقتصاد الآخذ فى التوسع احتدمت المعركة السياسية حول النزاع على السلطة بين المحافظين (التورى) مالكى الأرض وبين الأحرار (الهويج) جامعى الثروات ، وبين الإنجليز والاسكتلنديين ، وصحب هذا مؤامرات لقتل وليم ، ومشروعات لاعادة جيمس إلى العرش . ولم يكن وليم مهتما بالشئون الداخلية فى إنجلترا ، انه غزاها أساساً ، ليجمع بينها وبين هولنده (موطنه الأصلى) ودول أخرى ، لتقف جميعاً فى وجه لويس الرابع عشر ، أو كما قال هاليفاكس من قبل : « أنه استولى على انجلترا وهو فى الطريق إلى فرنسا(٤٨) » ولما اكتشف الإنجليز أن هذا هو شغله الشاغل أوالشعور المستولى عليه فقد كل شعبيته ولم يعد ملكا محبوبا . وقد يقسو دون مبالاة ، كما حدث حين أمر باستئصال عشيرة مكدونالد فى جلنكو لتأخرهـــا فى إعلان ولائها له (١٦٩٢) ، وكان « صموتا فظا غليظا فى المعاشرة » لأنه كان يتكلم الانجليزية بصعوبة . ولم يعن كثيرا بالسيدات . وكان سلوكه على المائدة يدعو إلى الاشمئزاز ، حتى أطلق عليه سيدات المجتمع فى لندن « الدب الهولندى الوضيع(٤٩) » وأحاط نفسه بحراس ورفاق هولنديين ، ولم يخف رأيه فى تفوق الهولنديين تفوقا عظيما عـلى الإنجليز فى المقدرة الإقتصادية والتفكير السياسى والأخلاق وعلم أن كثيراً من النبلاء يفاوضون جيمس الثانى سرا . ووجد الفساد يستشرى حوله إلى درجة تلوثه هو نفسه ، واتجر فى شراء أصوات أعضاء البرلمان . وكان الخير كل الخير فيما يمكن عمله لكبح جماح فرنسا الهائجة المتحفزة .

وحيث ترك وليم الشئون الداخلية لوزرائه ، فقـــد بدأ عهد الوزراء الأقوياء (١٦٩٥) و « الوزارات » المتضامنة فى المسئولية والعمل ، والتى يسيطر عليها رجل واحد ، هو فى العادة وزير الخزانة . وفى ١٦٩٧ جاء أعداؤه المحافظون (التورى) أثر انقلاب إنتخابى ، ومن ثم حدوا من سلطانه ونازعوه سياسته الخارجية ، إلى حـــد أنه فكر فى الاعتزال

(١٦٩٩) . ولكنه حين رقد رقدته الأخيرة (٨ مارس ١٧٠٢) وقد أنهك الربو والسل جسمه ، كان يمكن أن يتعزى عن هزائمه فى الداخل حين يدرك كل الإدراك أنه هيأ لانجلترا مشاركة أكيدة فى « الحلف الأعظم » (١٧٠١) الذى استطاع بعد اثنى عشر عاما من الصراع ، أن يخضع ويذل الملك البوربونى العظيم ، وينقذ استقلال أوربا البروتستانتية ، ويطلق يد انجلترا فى بسط نفوذها على العالم .

٤ — إنجلترا فى عهد الملكة آن : ١٧٠٢ - ١٧١٤

بعد وفاة الملكة مارى ١٦٩٥ أصبحت أختها آن وريثة العرش . ومنذ نشأت آن وسط الخطر والشغب ، أصبحت بنتا خلوعة الفؤاد ، قوية الخلق ، بسيطة التفكير ، قوية الشعور ، تلتمس العزاء والسلوى والجرأة فى صداقة خاصة متواضعة مع رفيقة صباها ساره جننجز الضاحكة الوفيه الشاكة الواثقة من نفسها المفعمه بالحياة والنشاط . وفى ١٦٧٨ تزوجت سارة التى كانت تكبر آن بخمس سنين من جون تشرشل ، وفى ١٦٨٣ تزوجت آن من الأمير جورج الدنمركى . وحالف التوفيق الزيجتين كلتيهما . ولكنهما لم تمسا العلاقه الوثيقة بين المرأتين . وتخلت آن عن كل الشكليات والرسميات ، فاطلقت مازحه على سارة (التى كانت آنذاك وصيفه مخدعها) « مسز فريمان » وأصرت على ألا تناديها سارة « بالأميرة » بل « مسز مورلى » ولما تخلى الزوجان عن الملك جيمس وانحازا إلى وليم ، كان أمام آن أن تختار بين أمرين أحلاهما مر : بين الوالد والزوج ، ولكن حبها لزوجها ولصديقتها أوجب عليها السفر إلى نوتنجهام (٢٨ نوفمبر ١٦٨٨) . وفى ١٩ ديسمبر عادة هى وسارة إلى لندن وإلى ملك أجنبى غريب عنهما .

لم تأخذ آن قط نفسها بحب وليم ، ولقد ما أحست بالامتهان والأذى والألم ، حين منح أحد أصدقائه ضيعة أبيها التى كان لها نصيب فيها . وكانت فى ١٦٩١ تتطلع إلى عودة أبيها إلى عرشه . واشتبه وليم ، بحق ، فى أن

تشرشل (إرل مالبرو آنذاك) وزوجته سارة تحيكان له الدسائس مع الملك المخلوع . وأمرت الملكة ماري أختها آن بطرد سارة من بطانتها ، ولكن الأميرة رفضت . وفى صباح اليوم التالى (يناير ١٦٩٢) عزل مالبرو من مناصبه الرسمية ، وأبعد هو وسارة عن الحاشية ، وبدلا من أن تفترق الأميرة عن صديقتها ، تحدت الملك والملكة (وليم وماري) وغادرت قصر هويتهول لتعيش مع سارة فى « سيون هاوس » . وفى ٤ مايو أودع مالبرو سجن لندن . وكثيرا ما كانت سارة تزوره هناك . وعرضت أن تنهى صداقتها للأميرة آن لتهدىء من غضب الملكة . ولهذا كتبت آن لسارة تقول :

« فى آخر مرة كان هنا وورستر ، أبلغته أنك عرضت على عدة مرات أن تبتعدى عنى ... وإنى لا أتوسل إليك ، من أجل يسوع المسيح ، ألا تعودى إلى مثل هذا الحديث ثانية . وإنى لأؤكد لك أنك ان أقدمت على مثل هذه الجفوة القاسية ، فإنى لن أنعم بلحظة من الهدوء والراحة بعد ذلك . فإن فعلت دون موافقتى ، (ولو قدر لى أن أوافق لما كان لى أن أرى وجه الله قط) فلسوف أعتزل الحياة ، ولا أرى العالم بعد ذلك ، وأعيش حيث ينسانى البشر جميعا(٥٠) » .

ولما لم يقم أى دليل حاسم على اشتراك مالبرو فى أية مؤامرة لاعادة جيمس إلى العرش ، ولما كان وليم فى مسيس الحاجة إلى قادة مهرة . فإنه أخلى سبيله وأعاده إلى سابق مكانته ونفوذه .

ولما أصبحت آن ملكة ، وكانت آنذاك فى سن الثامنة والثلاثين ، بدل وغير إيثارها الخلق الكريم والأمانة والإخلاص والعزلة ، من طبيعة البلاط الانجليزى ، فلم يجد المولعون بالقصف والصخب واللهو والفجور إليه منفذا . وآووا ساخطين ناقمين إلى المقاهى والمواخير . وحل رجل الأخلاق أديسون محل روشستر المستهتر الخليع . وكتب ستيل « البطل المسيحى » . وكان لتجنب الملكة آن التردد على المسرح ولنموذج حياتها ، بعض الأثر فى تحسين أسلوب المسرح الإنجليزى . وعبرت الملكة عن ورعها

وتقواها بأن حولت إلى فقراء رجال الدين فى الكنيسة الرسمية نصيب العرش فى « بشائر الثمار » والعشور الكنسية (١٧٠٤) ، ولا تزال الحكومة البريطانية تدفع « منحة الملكة آن » هذه . وأنجبت الملكة أطفالا فى كل عام بانتظام تقريبا ، ولكنهم ماتوا فى سن الطفولة عدا واحدا . ولم يبق على قيد الحياة بعدها منهم أحد . ولشد ما أظلمت حياتها وتحطم قلبها لكثرة ما شيعت من جنازات .

ولو كان فى مقدور الملكة الآن أن تحدد هى السياسة القومية لعقدت الصلح مع فرنسا ، واعترفت بما طالب به أخوها من أبيها المتوفى ، أن يتربع على العرش تحت اسم جيمس الثالث . ولكن وليم الثالث بإرادته القوية كان قد أدخل انجلترا فى « الحلف الأعظم » كما أن الرجل الذى غلبت آراؤه ومشورته على كل ما عداها ، والذى كانت قد رفعته فور اعتلائها العرش من إرل إلى دوق مالبرو ، نقول أن هذا الرجل أغراها بأن تشق فى حكمها لمدة أكثر من عشر سنوات بحرب داميه باهظه التكاليف . وكانت لا تزال واقعه تحت تأثير صديقتها ، وهى آنذاك دوقه والمشرفه على ملابس الملكة ، وعلى أموالها الخاصه . وكانت سارة تتقاضى ٥١٠٠ جنيه سنويا . واستغلت تأثيرها الذى كاد يكون مغناطيسيا على الملكه ، فى زيادة ثراء زوجها ، فعين مالبرو قائدا عاما للقوات البرية . كما عين بناء على اقتراحه (صديقه سدنى جودولفين وزيراً للخزانة لأنه كان أمينا بشكل شاذ ، كما كان قديرا فى الشؤن الماليه كما كان يمكن الاعتماد عليه فى تحويل الأموال فورا إلى قادة الجيش الذين كان جنودهم يبدون من الشجاعه بقدر مايقبضون من نقود . وقد يشوقنا أن نسجل أن جودولفين مات فقيراً ، بعد أن قضى نصف عمره يضطلع بشئون الخزانة ، وذهبت دوقه مالبرو العنيدة إلى أنه « خير من عاش من الرجال »(٥١) ومهما يكن من أمر فإنه قضى وقت فراغه فى صراع الديكه وسباق الخيل والميسر ، وهى رذائل معتدلة تعتبر مقاربه للفضيلة .

أن تجرد آن من الذكاء والفطنه سمح لوزرائها بالاستحواذ على قدر

كبير من السلطة وحقوق المبادرة التى كان البرلمان قد تركها للتاج ، ومن ثم نشبت المعارك السياسية (فيما عدا فترة حكم جورج الثالث) بين البرلمان والوزراء ، لا بين البرلمان والملك . وفى ١٧٠٤ دخل الوزارة شخصيات جديدة : روبرت هارلى وزيرا للدولة ، وهنرى سانت جون وزيرا للحرب . ومس كلا الرجلين تاريخ الأدب مساً خفيفاً : فان هارلى كان يستخدم ديفو وسويفت ، كما كان سانت — بوصفه فيسكونت بولنجبروك فيما بعد — ذا تأثير على بوب وفولتير ، كما أنه هو نفسه مؤلف أبحاث كانت يوما مشهورة . « أبحاث فى دراسة التاريخ » و « فكرة عن ملك محب لوطنه . وكان كلا الوزيرين يد من الشراب ، ولكن هذا لم يكن ميزة فى انجلترا فى ذلك الزمان . وكلاهما تولى منصبه بعون من مالبرو ، ولكنهما انقلبا ضده بتهمة اطالة أمد حرب الوراثة الأسبانية دون مبرر يدعو إلى ذلك .

ولد سانت جون (١٦٧٨) فى عهد شارل الثانى ، وتوفى (١٧٥١) فى أول سنى « دائرة المعارف » ، ومن هنا مثل تمثيلا دقيقا عبور أوربا من عودة الملكية إلى عصر الاستنارة فى فرنسا ، وتلقى أيام صباه تعليما دينيا كثيرا ، وأهدر قدرا كبيرا منه أيام كان رجلا . وأنه ليروى لنا : « كنت أرغم حين كنت صبيا على قراءة تعليقات دكتور مانتون الذى كان يفخر بأنه ألقى ١١٩ عظة عن المزمور رقم ١١٩ (٥٢) » وفى ايتون وأكسفورد سعى جون وأحرز قصب السبق فى الذكاء والتكامل الخالى من الهموم ، والانغماس فى الملذات والادمان على الشراب فى لباقة . وكان يفاخر بأنه يتناول أكبر قدر من الخمر دون أن يثمل . وبأنه يخادن ابهظ الماهرات نفقة فى المملكة (٥٣) . وفى لحظة أراد أن يكتفى فيها بواحدة تزوج من وريثة ثرية . ولكنها سرعان ماهجرته لخياناته ولكنه استمر ينعم بضيائها ، مع بعض فترات انقطاع يسيرة . ووجد فى ١٧٠١ أن الانتخاب للبرلمان لا يكلف كثيرا ، نسبيا . وهناك حقق فى مجلس العموم نفوذ عظيم نتيجة لوسامته وسرعة بديهته وبيانه المتدفق . ودخل الوزارة ولما يجاوز

السادسة والعشرين من العمر .

وكان أبرز انجازات هذه الوزارة هو توحيد برلمان انجلترا واسكتلندة، فإن البلدين على الرغم من خضوعهما لمليك واحد، كان لهما برلمانان منفصلان. واقتصاديات متعارضة ومذاهب دينية متنافرة ، وشنت كل منهما الحرب على . الأخرى ، زد على ذلك أن التعريفة الجمركية التى أملاها الحقد والحسد بين البلدين عوقت تجارتهما. وفى ١٦ يناير ١٧٠٧ وافق البرلمان الاسكتلندى، وفى ٦ مارس صدقت الملكة ، على بنود « الاتحاد » التى بمقتضاها أصبحت المملكتان — على حين احتفظت كل منهما بمذهبها الدينى المستقل — « المملكة المتحدة » لبريطانيا العظمى ، ولها برلمان بريطانى واحد، مع حرية مطلقة فى الاتجار . على أن يختار ١٦ نبيلا اسكتلنديا لمجلس اللوردات، وينتخب ٤٥ عضوا فى اسكتلنده لمجلس العموم، وينضم صليب سان جورج وصليب سانت أندرو فى علم جديد واحد . «اتحاد جاك » ولم يرحب أهالى اسكتلنده بالاندماج، ولمدة نصف قرن من الزمان تفاقمت المداوات القديمة. ولكن ماجاءت ١٧٥٠ حتى اعترف الجميع بأن الاتحاد كان خيرا وبركة. وتخلصت اسكتلندة من نفقات مزدوجة ، وانطلقت طاقتها الفكرية لتبدع فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر باكورة نتاج مشرق من الأدب والفلسفة .

وعزل هارلى وسانت جون عن الوزارة أثر فوز الأحرار (الهويج) فى أكتوبر ١٧٠٧ ، ولكن استمر تأثير نفوذ هارلى على الملكة عن طريق ابنة عمه « مسز أبيجيل ماشام » وكانت دوقة مالبرو قدمت هذه السيدة إلى الملكة آن من قبل . فخفف هدوؤها ولين عريكتها ورقة مزاجها عن الملكة التى أرهقت مسئولياتها الجديدة أعصابها كما أزعجتها نظرات سارة وصوتها المنيف . ورحبت سارة لبعض الوقت بتحررها من مداومتها على البقاء فى البلاط ، ولكنها سرعان ما فزعت حين اكتشفت تضاؤل نفوذها لدى الملكة : وكادت آن تكون بالطبيعة « محافظة — تورى » تقية محبة للسلام ، على حين كانت سارة « متحررة — هويج » ضعيفة الإيمان ،

تسخر صراحة من حقوق الملوك الالهية على أنها تدجيل على الشعب وخداع له . وكم ألحت على الملكة فى تأييد مشيئة مالبرو فى شن الحرب على فرنسا حتى يتم القضاء عليها . وكشفت آن عن شيء جديد من قوة العقل والتفكير بعد أن تقلص ظل سارة . وعندما ثارت ثائرة ساره عليها بشكل وقح طردتها من الحاشية (١٧١٠) ، وصرحت الملكة آنذاك بأنها تحررت من أسر طال أمده .

وفى نفس السنة ادفوز «المحافظين» فى الانتخابات ،بهارلى وبولنجبروك إلى الحكم ، وحل هارلى محل جودولفين فى وزارة الخزانة ، وتولى بولنجبروك وزارة الحربية ، وأصبح جوناثان سويفت كاتب الكراسات والنشرات ، البالغ الأثر ، لهما . وعين هارلى إرل أكسفور (١٧١١) وحظى سانت جون بلقب فيكونت بولنجبروك(١٧١٢). وابتهجت موسات لندن حين سمعن بنبأ ترقية بولنجبروك ، قائلات : «أنه يحصل على ثمانية آلاف جنيه فى العام ، وكلها لنا(*) » وقدمت الأغلبية «المحافظة» إلى المجلسين (١٧١١) مشروعا ينص على أنه يشترط للترشيح للبرلمان امتلاك أرض ذات دخل سنوى لا يقل عن ٣٠٠ جنيه لممثلى المدن ، وستمائة جنيه لمندوبى الريف(٥٤) . لقد بلغت الارستقراطية مالكة الأرض ذروتها آنذاك فى انجلترا .

واعتزمت الوزارة الجديدة — على حين رفض مالبرو — انهاء الحرب بعقد صلح منفرد مع فرنسا . وفى ١٧١١ قدم هارلى إلى مجلس العموم اتهاما بالاختلاس ضد مالبرو . فتذرعوا بأن الدوق كان يجمع ثروة خاصة طائلة بوصفه القائد العام للقوات البريطانية ، وعن طريق مهام أخرى يتولاها ، وأنه بالاضافة إلى رواتبه السنوية التى تصل إلى نحو ٦٠ ألف جنيه . كان يقبض ستة آلاف جنيه سنويا من سيرسولومون مدينا متعهد توريد

(*) من رسالة مؤرخة ٢ أبريل ١٧٦٩ ، لفولتير ، وهو فى الغالب كذوب .

الخبز للجيش . وأنه اقتطع لنفسه خاصة ٢½ ٪ من المبالغ التي كان يتسلمها من الحكومات الأجنبية لدفع رواتب القوات الأجنبية التي كانت تحت امرته . ولم توق عمارة قصر بلنهيم الضخم لأحد إلا لعين مهندسه . وكان مالبرو يشيد هذا القصر في وودستوك قرب أكسفورد . وكانت الملكة قد أمرت أن تتولى الحكومة الانفاق على بنائه . وشرعوا في البناء ١٧٠٥ ، ولم يتم في ١٧١١ إلا نصفه الذي تكلف ١٣٤ ألف جنيه بالفعل[٥٥] ، وكان اتمامه يستلزم مبلغ ٣٠٠ ألف جنيه دفعت الحكومة أربعة أخماسه[٥٦] .

ودفع مالبرو بأن المبلغ المقتطع (٢½ ٪) كان مسموحا به بحكم العادة والعرف للقائد للصرف منه — دون تسجيل علني في الحسابات — على الخدمات السرية وأعمال التجسس التي أتت بأحسن النتائج . وأبرز ترخيصا موقعا من الملكة تجيز له الاقتطاع ، كما أكد الحلفاء الأجانب أنهم أيضاً فوضوه في الاقتطاع ، وزاد ناخب هانوفر على ذلك أن هذا المال استخدم بحكمة « وأدى إلى كسب معارك كثيرة[٥٧] » أما عن المنحة التي كان مالبرو يتقاضاها من مدينا فإن دفاعه كان غير مقنع . وأدانه المجلس بأغلبية ٢٧٦ صوتا ضد ١٧٥ . وعزلته الملكة من جميع مناصبه (٣١ ديسمبر ١٧١١) ، فغادر انجلترا إلى المنفى الذي اختاره لنفسه بنفسه ، وعاش في هولنده أو ألمانيا حتى نهاية العهد . وعين الوزراء جيمس بتلر دوق أورمند الثاني ليتولى قيادة الجيوش البريطانية ، وفوضوه في اقتطاع نفس النسبة من عقود توريد الخبز ومن الأموال الأجنبية ، وهو ما أدانوا به مالبرو[٥٨] . ولكن الشعب البريطاني تقبل سقوط مالبرو على أنه خطوة على طريق السلام ،

وتفجر النزاع من جديد بين حزبي المحافظين والأحرار حول موضوع الوراثة الأسبانية . ذلك أنه في ١٧٠١ حين مات آخر من بقي على قيد الحياة

من أولاد الملكة آن ، أقر البرلمان – رغبة منه فى احباط عودة أسرة ستيوارت إلى الملك مرة ثانية ، قانونا للتسوية ينتقل عرش انجلترا بمقتضاه فى حالة عدم وجود عقب لوليم الثالث والأميرة آن – إلى الأميرة صوفيا وورثتها من صلبها ، وهم بروتستانت . وكانت صوفيا ، زوجة ناخب هانوفر ، بروتستانتية يقينا ، يجرى فى عروقها بعض الدم الملكى البريطانى لأنها من حفيدات جيمس الأول . وكانت آن قد قبلت هذا التدبير ضمانا للحفاظ على انجلترا بروتستانتية . ولكن الآن وقد آذنت شمس حياتها بمغيب فإن عطفها على أخيها المحروم من حقه فى العرش ، نما واشتد ، ولم تدع مجالا للشك فى أنها لابد أن تساند مطالبة جيمس الثالث بالعرش إذا هو ارتضى نبذ الكثلكة . وأعرب الأحرار «عن تأييدهم التام لوراثة آل هانوفر للعرش ، على حين مال المحافظون إلى وجهة نظر الملكة . وفاوض بولنجبروك جيمس ، ولكن الأمير أبى التخلى عن عقيدته الكاثوليكية . على أن بولنجبروك الذى لم تكن الديانات فى نظره إلا أثوابا متباينة تكسو الموت جلالا وشرفا . حاول بكل الوسائل إلغاء « قانون التسوية » وابقاء وراثة العرش لجيمس ، وعاب على هارلى تباطأه الشديد فى هذه المسألة ، وبناء على اقتراح منه عزلت الملكة آن هارلى وهى كارهة . وبدا لمدة يومين اثنين أن بولنجبروك سيد الموقف .

ولكن فى ٢٩ يوليه انتاب الملكة مرض خطير نتيجة تأثرها وحزنها الشديد للخلافات بين وزرائها . وهنا تسلح البروتستانت فى انجلترا لمقاومة آية عودة لملكية آل ستيوارت ، ونبذ المجلس الخصوص سياسة بولنجبروك ، وأقنع الملكة المترددة بتعيين دوق شروزبرى وزيرا للخزانة ورئيسا للحكومة . وفى أول أغسطس ١٧١٤ فارقت آن الحياة . وكانت صوفيا قد قضت نحبها قبل ذلك بشهرين ، ولكن « قانون التسوية » مازال قائما . وأرسل المجلس إلى ابن صوفيا ، ناخب هانوفر ، يبلغه أنه أصبح الآن جورج الأول ملك انجلترا

أن سنى حكم وليم ومارى وآن (١٦٨٩ – ١٧١٤) كانت سنين حيوية بارزة فى تاريخ انجلترا . وعلى الرغم من الإنحلال الخلقى والفساد السياسى والنزاع الداخلى ، شهدت هذه السنوات انقلابا أسريا (تغييرا جذريا فى الأسرة المالكة) ، وإقرار البروتستانتيه نهائيا فى انجلترا ، وانتقال سلطة الحكم من الملك إلى البرلمان يشكل لارجعة فيه . كما شهدت نشوء الوزراء الأقوياء ، وهذا بدوره أدى إلى الانتقاص من سلطان الملك . وشهدت لآخر مرة فى ١٧٠٧ اعتراض الملك على تشريع البرلمان ، وخطت خطوة أوسع فى اقرار التسامح الدينى وحرية الصحافة . ووحدت بطريقة سلمية بين انجلترا واسكتلنده ، فى دولة أقوى ، هى بريطانيا . وأحبطت محاولة أقوى ملوك العصر الحديث ليجعل من فرنسا الدكتاتور الآمر الناهى فى أوربا ، وبدلا من ذلك جعلت انجلترا سيدة البحار ، ووسعت ممتلكات انجلترا فى أمريكا ، مما كان له نتائج تاريخية بعيدة المدى وشهدت هذه السنوات أيضا انتصارات العلم والفلسفة فى انجلترا فى « مبادىء اسحق نيوتن » ، وفى كتاب لوك « بحث فى التفاهم الإنسانى » . أما سنى حكم آن الوديعة ، وهو حكم قصير لم يتجاوز اثنى عشر عاما ، فقد كان عهد انبثاق فى الأدب — ديفو ، أديسون ، ستيل ، والفترة الأولى من حياة الاسكندر بوب — لم يكن له نظير فى أى مكان فى العالم فى ذاك العصر .

الفصل الحادي عشر

من دريدن إلى سويفت ١٦٦٠ — ١٧١٤

١ — صحافة حرة

ترى ماذا حدا برجل فرنسي أن يكتب في ١٧١٢ بزت « انجلترا فرنسا في الانتاج الأدبي كما وكيفا وأن مركز الحياة العقلية والفكرية .. انتقل أكثر فأكثر إلى الشمال حتى قام الإنجليز حوالى عام ١٧٠٠ « بأكبر دور خلاق[1] » إن رجلا انجليزيا نعم بآثار فرنسا يرد التحية فيقول : إن جزءا من هذا الحافز جاء عن طريق آداب السلوك والعادات التي جلبها شارل الثاني والمهاجرون العائدون ، وأن جزءا آخر نبع من ديكارت وباسكال وكورنيل وراسين وموليير وبوالو ومدموازيل دي سكودري ومدام دي لافايت ، ومن الفرنسيين المقيمين في انجلترا مثل سانت أفرموند وجرامونت . وأننا لنرى التأثير الفرنسي في الملهيات الشهوانية الجنسية وللأسيات البطولية التي ظهرت على المسرح في عودة الملكية ، وفي الانتقال من غزارة النثر في عهد اليزابث وتلافيف فترات ملتون إلى النثر المهذب المصقول المنطق الذي دبجه دريدن وهو يكتب المقدسات وإلى الشعر الذي نظمه بوب : ومضى الآن قرن من الزمان (١٦٧٠ — ١٧٧٠) كان الأدب الإنجليزي فيه نثرا ، حتى ولو كان موزونا مقفى ، ولكنه نثرا نثرا فخما واضحا ممتازا من الطراز الأول .

ومهما يكن من أمر فان الأثر الفرنسي كان مجرد استحثاث ، ولكن جذور المسألة كانت في وسع انجلترا نفسها : في عودة الملكية المقرونة بالبهجة والفرح والتحرر ، وفي التوسع الاستعماري ، وفي إثراء الفكر بفضل

التجارة ، وفى الانتصارات البحرية على الهولنديين ، وفى قهرها (١٧١٣) لفرنسا التى كانت قد انتصرت على أسبانيا . ومن ثم انفتح الطريق إلى الامبراطورية شمالا ، وكما أجرى لويس الرابع عشر الرواتب على المؤلفين بوصفها رضيخة أو رشوة تمنح الأنصار ، فان الحكومة الإنجليزية ، بطريقة شبيهة بهذه ، كافأت الشعراء أو الناثرين المحبين لوطنهم أو المشايعين للحكومة — دريدن كونجريف ، جاى ، برير ، أديسون ، سويفت — بالرواتب تخصصا لهم ، ويتناول الطعام على موائد الارستقراطية ، وبحصة على المبيعات من المطبوعات ، أو بالوظائف ذوات الدخل الكبير والجهد اليسير فى الإدارة ، من ذلك أن أحدهم صار وزيرا ، ونظر فولتير فى شىء من الحسد إلى هذه الوظائف السياسية(٢) . ورعى شارل الثانى العلم والجمال لا الأدب والفن . ولم يسكترث وليم الثالث والملكة آن بالأدب . ولكن وزراءهم — حين وجدوا أن الكتاب نافعون فى عصر الصحافة والنشرات والمقاهى والدعاية — أغدقوا المال على الأقلام التى يمكن أن تخدم التاج أو الحزب أو الحرب . وأصبح الكتاب سياسيين ثانويين ، وبعضهم مثل برير Prior ، صار من رجال السلك الدبلوماسى ، وبعضهم مثل سويفت وأديسون برع فى التعيين فى الوظائف وفى المحسوبية وفى التدخل فى شئون السلطة . وأهدى المؤلفون أعمالهم إلى اللوردات وسيدات المجتمع ، تقديرا كريما لما ينتظر أن يحظوا به من خيرات وفضل وعطف ووصال ، فى عبارات اهداء ملؤها المديح والاطراء والتحيات والتمنيات ، مما جعل هؤلاء السيدات وأولئك اللوردات أسمى من أبوللو أو فينوس فى جمال الجسم والقوام ، ومن شكسبير وسافو فى كمال العقل والذهن .

وساعدت الحرية الذهب على اطلاق العنان لفيضان المداد وجريان القلم . وكانت قصيدة ملتون « أريوباجيتيكا » قد اخفقت فى القضاء على « قانون الرقابة » ، الذى تمسكت به الرقابة فى الصحافة فى عهد ملوك أسرتى التيودور وستيوارت ، واستمر القانون نافذ المفعول فى عهد كرومول غير المستقر ،

وبعده فى عودة الملكيه لآل ستيوارت ، ولكن حين بدأت حكومة جيمس الثانى فى إزعاج الأمه ، شرع عدد أكبر فأكبر من كتاب الكراسات والنشرات يتحدون القانون ويدخلون السرور على قلوب الشعب . وعندما اعتلى وليم الثالث العرش ، كان هو وأنصاره « الأحرار » مدينين بأكبر الفضل للصحافة إلى حد أنهم عارضوا تجديد قانون الرقابة ، فانتهى العمل به ١٦٩٤ ، ولم يجدد ، وتدعمت حرية الصحافة تلقائياً . وربما ظل الوزراء الملكيون يعتقلون الكتاب بسبب هجماتهم العنيفة المتطرفة على الحكومة وظل « قانون التجديف » (١٦٩٧) يفرض عقوبات صارمة على التشكك فى أساسيات الدين المسيحى ، ولكن انجلترا نعمت منذ ذلك الوقت فصاعدا بحرية الأدب التى أسهمت ، على الرغم من سوء استخدامها غالباً ، إسهاماً كبيراً فى نمو الفكر الانجليزى .

وتضاعف عدد الدوريات ، وانتظم صدور الصحف الأسبوعية منذ ١٦٢٢ ، وعطلها كرومول جميعاً ماعدا اثنتين ، ورخص شارل الثانى فى صدور ثلاث منها تحت إشراف رسمى ، أصبحت واحدة منها هى « أكسفورد » وفيما بعد لندن جازيت « الناطقة باسم الحكومة » وكانت تصدر نصف شهرية أو نصف أسبوعيه منذ ١٦٦٥ . وفور إلغاء قانون الرقابة صدرت عدة صحف أسبوعية . وفى ١٦٩٥ أسس المحافظون أول جريدة يومية انجليزية « ساعى البريد Post Boy » والتى لم تصدر إلا أربعة أيام فقط ، حيث عاكسها « الأحرار » فى الحال بصحيفة « البريد الطائر Flying Post » . وأخيراً فى ١٧٠٢ أصبحت The English Courant هى الصحيفة اليومية المنتظمة فى انجلترا — فرخ صغير من الورق مطبوع على وجه واحد فقط ، تقص الأنباء ولا تدون آراء ، ومن هذه الهبات المتقطعة نشأت عمالقة الإعلان التى نراها اليوم بين أيدينا .

وأتى ديفو بمستوى جديد فى صحيفه « ريفيو » (١٧٠٤ ١٧١٣) وكانت أسبوعية تقدم التعليقات كما تقدم الأنباء . وهى التى بدأت القصة

المسلسلة وتبعه ستيل فى « تاتلر » (١٧٠٩ - ١٧١١) . وسما هو وأديسون بهذا التطور إلى ذروته التاريخية فى « سبكتاتور » (١٧١١ — ١٧١٢) وروع حكومة المحافظين التوزيع الإجمالى وتأثير الصحف اليومية والأسبوعية والشهرية ، ففرضت عليها ضريبة تمغة تتراوح بين نصف بنس وبنس واحد، بما جعل البقاء مستحيلا بالنسبة لمعظم الدوريات . وكانت « سبكتاتور » إحدى الدوريات التى احتجبت . وقال سويفت لبطلته وصديقته ستللا : « لقد دمروا شارع Grub بأسره[٣] (الشارع الذى يقطنه محررو الصحف) . وأصدر بولنجبروك فى ١٧١٠ « اجزامنر Examiner » الأسبوعية ليدافع فيها عن سياسة وزارة المحافظين . ووجد فى جوناثان سويفت رجلا واسع الاطلاع لاذع القدح والطعن ، متوقد الذكاء . لقد وقع المال على أداة جديدة ، وطغى سلطان الصحافة الدورية شيئاً فشيئاً على تأثير المنابر فى تشكيل الرأى العام ، وإعداده للأهداف الخاصة ، ودخلت التاريخ قوة جديدة تنزع عن الناس الصبغة الدينية وتنزع بهم إلى التعلق بالأمور الدنيويه.

١١ — المسرحية فى فترة عودة الملكية

فيما بين عامى ١٦٦٠ و ١٧٠٠ كان ثمة أداة أخرى شكلت أو شوهت أو عبرت مجرد تعبير عن روح لندن المجردة من الحيويه والنشاط . وحيث استطاب شارل الثانى المسرحيه الباريسيه فإنه أجاز فتح مسرحين : الأول للملك وجماعته فى « دروری لين » والثانى لدوق يورك وجماعته فى « لنكولن ان فيلدز » وفى ١٧٠٥ افتتح مسرح الملكة فى هايماركت ، ولكنها نادراً ماشهدت التمثيل فيه وفى أيام شارل الثانى كان مسرحان اثنان يفيان بالحاجه عادة . وظل البيوريتانيون يقاطعون المسرحيه ، أما الجمهور بصفه عامه على أيه حال ، فلم يكن يرخص له بدخول المسارح بين ١٦٦٠ و ١٧٠٠[٤] ولم يقصد إليها فى معظم الأحوال إلا كل عربيد ماجن من رجال الحاشيه ، وحثالة الطبقه الأرستقراطيه والمتصلين بها ، والأثرياء المتعطلين الذين

يقضون أوقاتهم فى المسارح والنوادى وسباق الخيل وغيرها . يقول : دكتور جونسون الوقور : « أن المحامى الوقور ليحط من قدره ويمتهن كرامته ، وأن المحامى الناشىء ليسىء إلى سمعته ، إذا غشى بيوت الاباحية المنحلة هذه(٥) » وشكل النساء قسما صغيراً من النظارة على أمين إذا ذهبن إلى المسرح كن يخفين شخصياتهن وراء الأقنعة(٦) . وكانت العروض تبدأ فى الساعة الثالثة بعد الظهر ، حتى إذا تحسنت الإضاءة فى الشوارع (حوالى ١٦٩٠) أجلت إلى السادسة . وكان أجر الدخول أربعة شلنات للمقصورات وللمقاعد الخلفية شلنين ونصف وللشرفات شلنا واحداً . وكانت أجهزة التأثير المسرحى وتغيير المناظر أكثر إتقاناً بكثير مما كانت عليه فى أيام اليزابيث . ولو أن حجرة نوم واحدة وملحقاتها ربما كانت تكفى لمعظم ملهيات عصر عودة الملكية ، وحلت الممثلات محل الغلمان فى تأدية أدوار النساء ، وكن كذلك عشيقات ، من ذلك أن مرجريت هيوز التى مثلت ديدمونا لأول مرة ظهرت فيها امرأة على المسرح الانجليزى (٨ ديسمبر ١٦٦٠) كانت عشيقة الأمير روبرت(٧) . وفى عرض لمسرحية دريدن « الحب الاستبدادى » تعلق قلب شارل الثانى لأول مرة بخليلته نل جوين التى كانت تمثل دور فاليريا(٨) . إن طبيعة جمهور المشاهدين ، ورد الفعل ضد البيوريتانية ، وأخلاق البلاط ، وذكريات روايات عصرى اليزابيث وجيمس الأول (وبخاصة روايات بن جونسون) وأحياء هذه الروايات واستعادة تلك الذكريات من جديد ، وتأثير المسرح الفرنسى والملكيين المهاجرين ، كانت كلها عوامل تجمعت لتشكل المسرحية أيام عودة الملكية .

وكان الإسم اللامع فى « مسرحية المأساة » فى عودة الملكية هو دريدن لنتركه مؤقتاً ، لنتحدث عن مسرحية توماس أوتواى « الحفاظ على فينيسيا » التى عمرت بعد كل روايات دريدن وظلت تمثل حتى ١٩٠٤ . إنها قصة حب مطعمة بمؤامرة أصدقاء كونت دى أوزونا لقلب سناتو فينسيا فى ١٦١٦ . ويرجع ماصادفته من نجاح فى البداية من ناحيه ، إلى الصورة الساخرة التى

رسمتها لإرل شافتسبرى الأول (عدو شارل الثانى وصديق لوك) فى شخصيه أنطونيو الذى يحب أن تضربه عشيقته البغى ، ومن ناحية أخرى إلى التشابه بين هذه المؤامرة وبين المؤامرة البابويه «الحديثه» ومن ناحيه ثالثه إلى تمثيل توماس بترتون ومسز اليزابيث بارى ، ولـكن الروايه تقف اليوم على قدميها إن مناظرها الهزليه سخيفه مؤذية ، خاتمتها تنشر الموت فى إجماع أقرب شبهها بالمسرحيه الموسيقيه (الأوبرا) ، ولـكن حبكه الروايه متقنه دقيقه ، وشخوصها مصورة تصويراً مميزاً ، والحركة مسرحيه إلى أبعد حد ، والشعر المرسل فيها ينافس مثيله فى المسرحيه فى عصر اليزابيث ، باستثناء مارلو وشكسبير . ووقع أوتواى فى غرام مسز بارى ، ولـكنها آثرت عليه معاشرة إرل روشستير ، وبعد كتابه عدة مسرحيات أخرى ناجحه أخرج الشاعر سلسلة من الروايات لم يكتب لها النجاح ، وانحدر إلى مهاوى الفقر والعوز وفى روايه أنه مات جوعا(٩) .

إن ذكرى المسرحيه فى فترة عودة الملـكيه حيه من أجل ملهياتها . فإن ما كان فى هذه الملهيات من مرح وسخريه ، ومحاورات داعرة، ومغامرات فى الخدع ، بالإضافه إلى قيمتها فى أنها مرآة تعكس حياة طبقه واحدة فى جيل واحد . كل أولئك أكسبها شعبيه جزئيه ، إن لم تـكن مختلسه لا تكاد تستحقها . فإن مجالها ضيق إذا قيست بملهيات عصر اليزابيث أو موليير ، وأنها لا تصور الحياة بل تصف عادات المتعطلين المتسكعين فى المدن والحاشيه الحليمه المتهتكه ، وتتجاهل الريف إلا إذا أخذوه هدفاً للاستهزاء والسخريه ، أو « سيبيريا » ينفى إليها الأزواج زوجاتهم للتطفلات . إن بعض المسرحيين الإنجليز شاهدوا موليير يمثل أو تمثل رواياته ، واستعار بعضهم شخوصه أو حبكات مسرحياته ، ولـكن أحدا منهم لم يبلغ نزعته فى مناقشه الأفكار الاساسيه ، فالفـكرة الأساسيه الوحيدة فى هذه الملهيات هى أن الزنى هو الهدف الرئيسى لأعظم عمل بطولى فى الحياة . وكان المثل الأعلى للرجل فيها هو ما وصفه دريدن فى « المنجم الهزاة » على أنه « سيد ماجد » رجل ثرى

عاطل يغشى النوادى والمقاهى والمسارح والمواخير ، يرتدى أفخر الثياب ، يأكل ويشرب ويفسق ويعاشر البغايا إلى أقصى حد ممكن » . وفى رواية فاركو « خداع العاشقين » جاء على لسان أحد الشخصيات ، وكأنما يقول سيد مهذب لآخر : « إنى أحب جوادا جميلا ولكنى أتركه لرجل آخر ليتولى العناية بأمره ، وإنى كذلك بالمثل أحب سيدة جميلة »(١٠) وهذا لا يعنى أنه لايشتهى زوجة جاره ولا يمد عينيه إليها ، بل أنه يريد أن يستمتع بكل مفاتنها وأطايبها ، على حين ترك لزوجها أن يرعى شئونها وينفق عليها . وفى رواية كونجريف « طريق الحياة الدنيا » يقول ميرابل للمعشوق موضع الإعجاب لزوجة صديقه « يجب أن تشعرى بالاشمئزاز والنفور والكراهية لزوجك بما يجعلك تستمتعين بحبيبك أو عشيقك(١١) » . ويندر أن ترى الحب فى هذه الروايات يرتفع فوق الشهوة الجسدية التى تلتهب بين جوانح الطرفين ، يريدان إطفاءها . وإنا لنتلهف عند قراءتها أن تقع العين على ظل لمعانى النبل والشرف ، ولكننا لانرى فيها إلا أخلاقيات المواخير وبيوت الدعارة .

إن وليم وتشرلى هو الذى استهل هذا التقليد . وكان أبوه ملكيا من أسرة عريقة تملك ضيعة كبيرة ، وأرسل ولده إلى فرنسا لتلقى العلم ، عندما تولى البيوريتانيون مقاليد الحكم فى إنجلترا ، إصرارا منه على ألا ينشأ الولد بيوريتانيا . ولم يعتنق وليم قط هذا المذهب ، ولكن الأسرة صعقت حين أصبح كاثوليكيا . وسرعان ماعاد إلى البروتستانتية لدى عودته إلى انجلترا ، وهناك درس فى أكسفورد وتركها دون الحصول على درجة جامعية . وانصرف إلى كتابة الروايات ، وجمع ثروة من رواية « حب فى الغابة » (١٦٧١) التى أهداها إلى ليدى كاسلمين . واستقبله فى البلاط الملك الودود اللطيف الذى لم يشك ولم يتذمر حين وجد آن وتشرلى وتشرشل كليهما ، يشاركانه غرام عشيقته كاسلمين(١٢) .

واشترك وليم فى الحرب الهولندية ١٦٧٢ ، ببسالة متوقعة من سيد

ماجد ، وعاد إلى انجلترا ولم يمسسه سوء ، وأحرز نجاحا آخر فى « الزوجة الريفية » (١٦٧٢) . ودعى النظارة فى المقدمة ـ إذا لم تعجبهم الرواية ـ إلى دخول غرفة ملابس الممثلين فى ختامها ، وهناك :

« فإننا عن طيب خاطر ... نتخلى لكم يا شعراءنا ، عن العذارى ، لا بل عن عشيقاتنا كذلك » .

وخلاصة الموضوع أن مستر بنشويف اصطحب زوجة معه لقضاء أسبوع فى لندن ، وأحكم حراستها إلى حد أنها أوقعت فى شرك الغواية تحت سمعه وبصره ، ذلك أن من يدعى مستر هورنر ـ العائد من فرنسا لتوه ، والمتلهف على الوصول إلى الزوجات دون عائق ـ أذاع بين الناس أنه خصى ، ومن هنا يستنتج بنشويف أنه لاحرج فى أن يفتح بيته لمثل هذا العنين العاجز ، ولكنه سرعان ما يكتشف أن زوجته تكتب رسالة غرامية إلى هذا الزير المتودد إليها الذى أدعى العنة ، فيرغمها على كتابة رسالة أخرى تكيل له فيها أقذع السباب والشتائم ، وما أن أدار الزوج ظهره حتى أسرعت هى فوضعت رسالتها الغرامية الأولى مكان الرسالة الثانية التى تنم عن الغضب والاستياء . وسلم الزوج المزهو المفاخر بالسيطرة على الموقف الرسالة الأصلية إلى هورنر . وبعد فترة اتجه ظن الزوج إلى أن هورنر أقدر مما تردده عنه الشائعات ، ففكر فى أن يشغله ، ووافق على أن يأخذ إليه أخته أليثيا . وتتنكر الزوجة حتى تبدو وكأنها أليثيا ، ويحملها زوجها إلى عشيقها . وتختتم الرواية « برقصة الديوث » ، وهورنر هو المنتصر فى النهاية ، ثم تلقى إحدى الممثلات شعراً توجه فيه اللوم والتقريع إلى الرجال الحاضرين ، لأنهم لايتحلون بقدر كاف من الرجولة .

« وقد يظل الناس على اعتقادهم بأنكم تمتلئون قوة ورجولة ، ولكننا نحن النساء لاسبيل إلى خداعنا » .

واقتبس وتشرلى كثيراً من « الزوجة الريفية » من رواية موليير « مدرسة الأزواج ومدرسة الزوجات » وفى روايته التالية « التاجر

الشريف » حول وتشرلى شخصية « ألست » فى رواية موليير « مبغض البشر » إلى شخصية كابتن مانلى الذى لم تتعد فكرته عن التعامل الشريف، مجرد تناول كل الناس والأشياء بلغة بذيئة مقذعة . والغريب المدهش فى الأمر أن سكان لندن ، بل حتى سكان بعض الضواحى ، أحبوا وصف الحياة على أنها سعى متصل وراء شهوة الجسد ، يلطف منه بعض التجديف فى الحديث . وفى إحدى المكتبات فى « تنبريدج ولز » سمع وتشرلى إحدى السيدات تسأل عن كتابه المنشور حديثاً « التاجر الشريف » فغمرته نشوة الفرح ، ولم تكن هذه إلا كونتس دور جيدا ، الأرملة الثرية ، فطلب يدها وتزوجها . ووجد أنها كانت تضعه تحت مراقبة أشد وأكثر مثابرة مما كان يفعل بنشويف ، ولكنها ماتت فجأة فظن أن أموالها لا بد أن تؤول الآن إليه ، ولكن القضايا القانونية التى تشابكت فيها التركة حالت دون ذلك ، فلم يستفد منها شيئاً . وعجز عن تسديد الديون التى كان قد اقترضها ثقة منه بأيلولة التركة إليه ، فأرسل إلى السجن حيث قضى سبع سنين وهنت فيها عزيمته وذبل نشاطه ، حتى جاء جيمس الثانى ، وسدد — قبل إرتداد وتشرلى إلى الكاثوليكية ثانية أو بعده — ديونه وأجرى عليه راتبا . وبلغ وتشرلى أرذل العمر فى شقاء ومعاناه . وظل مع عجزه يلاحق النساء ، ويكتب نظما ، حاول صديقه الشاب بوب أن يحوله إلى شعر . وفى سن الخامسة والسبعين تزوج الفاجر العجوز امرأة شابة ، ولم يعمر بعد الزواج إلا عشرة أيام ، ووافته المنية فى أول يناير ١٧١٦

وكان سيرجون فانبر وألطف من كتب عن الزنى والزناة . وكان « جون بول » (الرجل الإنجليزى النموذجى) يتجسد فيه تماماً ، فهو خشن مرح طلق المحيا ، يحب طعام انجلترا وشرابها ، ولو أن جده لوالده هو جلليس فان برو ، وهو فلمنكى من مدينة غنت قدم إلى بريطانيا فى عهد جيمس الأول . وكان جون يبشر بحسن المستقبل إلى حد أنه أرسل إلى باريس فى سن التاسعة عشرة ليدرس الفن . فلما عاد فى الحادية والعشرين التحق

بالجيش ، وقبض عليه فى كاليه بتهمة أنه جاسوس بريطانى ، وقضى مدة فى الباستيل ، وهناك كتب المسودة الأولى « للزوجة المغيظة » حتى إذا ماخرج من السجن عكف على كتابة الروايات . وفى ستة أسابيع ـ كما يروى لنا هو ـ فكر وتصور ، ثم كتب ومثل رواية « النكسة » (١٦٩٦) ، بما فيها من هجاء مرح للمتأنقين فى لندن ، مثل لوردفوبنجتون وملاك الأرض فى الريف مثل سيرتنبلى كلمزى ، ومس هويدن الشهوانية . وكان سيرتنبلى يضعها تحت الرقابة والحراسة منذ بلغت الحلم ، وفرح وابتهج لبراءتها وطهرها . « يا للبنت المسكينة : إنها ستفزع وتنزعج فى ليلة عرسها ، لأنها ، والحق أقول ، لا تميز الرجل من المرأة إلا بلحيته وبطلونه القصير »(١٤) . ولكن مس هويدن تصف نفسها على نحو آخر : « من حسن حظى ، هناك عريس قادم ، وإلا تزوجت الخباز ، سأفعل ذلك . فما من أحد يستطيع أن يقرع الباب ، ولكن حاليا يجب على أن أختبىء ، وهنا يمكن الكلبة السلوقية الصغيرة تحوم حول البيت طوال اليوم ، إنها تستطيع ذلك » . وعندما يأتى توم فاشون ليطلب يدها ، ويمهله أبوها أسبوعا ، تحتج الفتاة وتقول « أسبوع : ولماذا ؟ إنى أكون عند ذلك امرأة عجوزاً »(١٥) :

ونجحت مسرحية « النكسة » نجاحا كبيرا إلى حد أن فانبرو تعجل إكمال « الزوجة المغيظة » (١٦٩٧) وكانت هذه من أنجح أعمال ذلك العصر . وظل دافيد جارك طيلة نصف القرن التالى يتحف لندن ويمتعها بتمثيله المستهتر لشخصية سيرجون بروت ، وهى أعظم شخصية مشهورة مذكورة بين كل شخوص المسرحيات فى فترة عودة الملكية . وسيرجون هذا وسيم هزلى ساخر يمثل المظاهر الأقرب شبها بالخنزير فى ملاك الأرض الانجليز ـ يشرب الخمر ، ويتباهى ، ويهدد ويتوعد ، ويستأسد ، ويعلن ويشكو من « عصر الالحاد المعين هذا » . ويفتتح المسرحية برأيه فى الزواج حيث يقول :

«أي لحم متخم هو الحب ، إذا كان متبلا بالزواج ، إن عامين قضيتهما متزوجا قد أفسدا على حواسى الخمس . فكل شيء أراه ، وكل شيء أسمعه ، وكل شيء أحس به ، وكل شيء أشمه ، وكل شيء أتذوقه ، أظن أن فيه زوجة . فما ضجر ولد بمؤدبه ، ولا بنت ولا رجل بعمل الكفارة، ولا عذراء عجوز بطهرها وعفتها ، قدر ضجرى بزواجى وسأمى اياه .

ومذ عرفت زوجته آراءه ، فانها تفكر فى ترويضه بأن تجعل منه ديوثا.

ليدى بروت : إنه أساء معاملتى أبلغ اساءة مؤخرا . حتى كاد يستقر عزمى على أن ألعب دور الزوجة بكل مافى الكلمة من معنى ، وأجعل منه ديوثا وأخونه ...

بيلندا : ولكنك تعلمين أنه ينبغى علينا أن نقابل الإساءة بالإحسان .

ليدى بروت : ربما كان هذا خطأ فى الترجمة(١٦) » .

وهنا تأتى جارتها ليدى فانسيفل التى تميل إلى ماتميل إليه ليدى بروت ، وتناقش شكوكها ومخاوفها مع وصيفتها الفرنسية التى تجيب بالفرنسية ، وهى هنا مترجمة :

ليدى ف : سمعتى يا آنسة : سمعتى :

الوصيفة : سيدتى ، إذا فقد المرء سمعته يوما ، فلن تعود بعد ذلك تزعجه .

ليدى ف : تبالك يا آنسة ، تبالك ، أن السمعة جوهرة .

الوصيفة : وقيمتها غالية جدا يا سيدتى .

ليدى ف : لماذا إذن ، يقينا أنك لن تضحى بعمرك من أجل متعتك ؟

الوصيفة : إنى فيلسوفة .

ليدى ف : انه لايتفق مع الشرف (لقاء العاشقين) .

الوصيفة : ولكنه للمتعة ...

ليدى ف : ولكن إذا كان العقل يصلح من شأن الطبيعة .

الوصيفة : عندئذ يكون العقل وقحا ، لأن الطبيعة أخته الكبرى . .

ليدى ف : إذن أنت تؤثرين طبيعتك على عقلك ؟

الوصيفة : نعم ، بكل تأكيد .

ليدى ف : ولمـــاذا ؟

الوصيفة : لأن طبيعتى تغمرنى بالبهجه والسرور ، أما عقلى فيورثنى الجنون(١٧) .

وربمــا كانت هذه الراوية هى التى أثارت غضب جرمى كولبير إلى حد أنه فى العام الذى تلا ظهورها ، نشر هجوما عنيفا على المسرحية فى فترة عودة الملكية ، وعلى فانبرو بصفة خاصة . وكان كولبير كاهنا أنجليكانيا على درجة من العلم ، ومن الشجاعة والتشدد فى عقيدته . وحيث كان قد أقسم يمين الولاء لجيمس الثانى ١٦٨٥ ، فإنه أبى أن يقسم يمين الولاء لوليم ومارى ١٦٨٩ . واستنكر « الثورة الجليلة » ، حتى إلى حد التحريض على التمرد والعصيان . وقبض عليه ، ووجد أصدقاؤه مشقة كبيرة فى اقناعه بأن يسعوا لإطلاق سراحه بكفالتهم . ومنح الغفران للطلق لرجلين كانا على وشك أن يشنقا بتهمة التآمر على ما اعتبر كولبير أنها حكومة اغتصبت الحكم . فأنكر أسقفه عليه تصرفه وأدانه النائب العام ، ولكنه رفض المثول أمام أية محكمة . وعاش طريد العدالة محروما من الكنيسة حتى وافته المنيه . ولكن الحكومه قدرت نزاهته ، ولم تلاحقه بعد ذلك . وعبر وليم الثالث عن تقديره الكبير للمصنفة التاريخيه التى قام بها كولبير .

وكان الكتاب الذى نشره كولبير يحمل عنوان « لمحة قصيرة عن الانحلال والدنس فى المسرح الإنجليزى » . وكان يحوى ، كما حوت معظم الكتب ، هراء كثيرا . واستنكرا الراعى الغاضب فى المسرحية الانجليزية أخطاء كثيرة قد تبدو لنا الآن تافهة ، أو أنها ليست أخطاء اطلاقا ، واعترض على أيه اشارة غير كريمه لرجل الدين ، ونشر فى سخاء شديد ، مظلة المصمه

من الخطأ فوق زعماء الوثنية والكهنة الكاثوليك والقساوسة المنشقين ـ أدان كثيرا من كتاب المسرح ، من أشيلس إلى شكسبير إلى كونجريف ودريدن ، حتى ليشعر كل المتهمين ببراءتهم لمجرد حشرهم فى زمرة هؤلاء العظماء . ولكن كوليير أضعف قضيته فى مجادلته فى أن المسرح العام يجب ألا يتناول الجريمة أو الانحلال الخلقى مطلقا . ولكنه وجه بعض ضربات ناجحة لأن الأهداف البراقة واجهته فى كل مكان . فنعى على كثير من كتاب المسرح فى فترة عودة الملكية ما أبدوا من اعجاب بالاسفاف فى الزنى والفسق ، وأثر ذلك على جمهور المشاهدين . وظل الكتاب حديث لندن طيلة عام كامل . ودافع الروائيون عن أنفسهم بأساليب متنوعة ، وتحول فانبرو عن المسرحية إلى هندسة العمارة ، وانهمك لأكثر من عشر سنوات فى بناء قصر بلنهيم ، ثم شاد قصر هوارد على طراز عمارة بلاديو الرومانى الجميل (١٧١٤) . واعترف دريدن بخطاياه ، وأظهر ندمه على ما فعل وأنكر كونجريف جريمته ، ولكنه أصلح من فنه .

وبلغ وليم كونجريف بمسرحية عصر عودة الملكيه ذروتها ونهايتها معا . ولد بالقرب من ليدز فى ١٦٧٠ ، فى أسرة كانت عراقتها موضع فخره واعتزازه وسط كل ما أحرز من فوز ونجاح . وكان والده قائد حامية انجليزية فى أيرلنده ، ولذلك درس وليم فى مدرسة كالكنى ، وجلس على نفس المقعد الذى جلس عليه جوناثان سويفت ، ثم فى ترنتى كولدج فى دبلن ، ثم فى مدل تمبل فى لندن . وسرى فى دمه جرثومة الطموح الأدبى من بيئة كان فيها الأذواق أنفسهم يؤلفون الكتب . وفى أول سنة كان يدرس فيها القانون كتب « المستخفية » (١٦٩٢) التى امتدحها ادموند جروس « لمرحها ودعابتها الخفيفة » ولأنها أقدم قصة طويلة (عن العادات وآداب السلوك ؟) فى الإنجليزية (١٨) » ، ولكن صمويل جونسون قال عنها « خير لى أن أمتدحها من أن أقرأها (١٩) » ، وحظى كونجريف بالشهرة من

قفزة بملهاته الأولى « الأعزب العجوز » ١٦٩٣ ، التى أقسم دريدن — وهو عميد الأدب المعترف به فى انجلترا فى هاتيك الأيام — بأنه لم ير قط خيرا منها ، باكورة للعمل فى مجال الرواية ومذ كان كونجريف غير واثق من أن الرجل الماجد ينبغى أن يكتب للمسرح ، فأنه اعتذر بأنه إنما كتبها « لمجرد التسلية فى فترة إبلال بطىء من علة ألمت به » ، ومن هنا قال كولبير « ليس لى أن أتساءل ماذا كانت علته ، ولكن لابد أنها كانت خطيرة جدا ، وأسوأ من العلاج [٢٠] » . أما هاليفاكس فإنه اتفق فى الرأى مع دريدن ، حتى أنه عين كونجريف فى منصبين يدران عليه دخلا كافيا يستطيع بفضله أن يحتفظ بمكانته ، سيدا كريما ، وأن يعمل فى عالم المسرح .

ولم تلق روايته الثانية « التاجر المخادع » (١٦٩٤) ترحيبا كبيراً ، ولكن اطراء دريدن ، الذى وضع كونجرف مع سكسبير فى مرتبة سواء ، شد من أزر المؤلف الناشىء ، وفى ١٦٩٥ ، فى سن الخامسة والعشرين ، عاد إلى خشبة المسرح برواية « الحب للحب » التى فاق نجاحها كل ما عرف من نجاح . ولكن كولبير شجب الرواية واتهمها بأنها تؤيد الفسق والفجور وتشجعهما ، وبلغ رد كونجريف عليه من التفاهة حداً انقطع معه عن المسرح طيلة ثلاثة أعوام وعندما عاد إليه برواية «طريق الدنيا » (١٧٠٠) كان قد أفاد من النقد القاسى ، وأوضح أن الموهبة لاتعتمد على قلب الوصايا العشر رأسا على عقب . وكان فى هذه الرواية التى قال عنها سوينبرن المغالى أنها « التحفة التى لا نظير لها والتى لا تدانيها رواية أخرى فى روائع الملهاة الإنجليزية[٢١] » ، نقول كان فيها بعض أخطاء المسرحية فى عصر عودة الملكية ، ولكن ليس فيها شىء من رذائلها . وقد ترهقنا عند قراءتها بظرفها المازح الساخر ، وتذكرنا بالتلاعب السخيف بالألفاظ فى أعمال سكسبير الأولى ، ولكن إذا مثلت (ونطق بها بترتون ومسز بريسجيردل كما حدث فى أول عرض لها) ، فلربما كانت أمتعتنا بما فيها من حيوية وتألق

يقول وتوود « أعرف سيدة تحب الكلام بلا إنقطاع ، ولا تترك أثراً حسناً(٢٢) » وحبكة الرواية بالغة التعقيد ، وقد تتفضى من طول الوقت المطلوب لفهم شجارات ومشروطات الشخوص التافهه الطائشة ، وحل العقدة لايعدو أن يكون سخفا لاحد له . ولكن فى الرواية بعض تهذيب فى اللغة وفى الدعابه ، وتفكير لطيف (ولو أنه غير عميق أبداً) ، مما يمكن أن يدخل السرور على الذهن غير المتعجل ، وليس فيها سخرية لاذعة ، كما هو الحال فى مسرحيات فابرو ، بل فيها تهكم مهذب رقيق ؛ تسرب من قصر فرساى إلى قصر هويتهول وإلى البلاط فى فترة عودة الملكية . وفى الرواية خلق الشخصيات الروائية وتصوير لخصائصها . فالبطل ، ميرابل شخص غير جذاب ، ولكنه نابض بالحياة ، صياد التركات والثروات . وجدير بالذكر أنه يسعى للزواج من ميللامانت ، بدلا من إغرائها . ولكن لهما ثروة تساوى اثنى عشر زاليا ، وهى أجمل ما أبدع كونجريف ، ماجنة عابثة تريد ألف عاشق ، وتود الهيام بها لمدى الحياة ، من أجل مفاتن أو جمال لن يدوم إلا لسنوات عشر ، وترتضى الزواج ولكن بشروط :

ميللامانت : ... لاشك يامبرابل أنى سأبقى فى الفـــراش فى الصباح كيفما أشاء .

ميرابل : هل من شروط أخرى تفرضينها ؟

ميللامانت : توافه : ـ أ كون حرة فى تناول طعامى متى أشاء ، وأتناوله وحدى فى حجرة ملابسى ، إذا كنت متعكرة المزاج ، دون إبداء الأسباب . وألا يقتحم على أحد خلوتى . وأن أجلس « امبراطورة » وحدى إلى مائدة الشاى التى لايجوز لك أن تفكر فى الاقتراب منها قبل أن تستأذنى أولا وأخيراً حينما كنت ينبغى عليك أن تطرق الباب قبل الدخول . تلك هى شروطى ، حتى إذا استطعت أن احتملك لمدة أطول ، فقد أتضاءل هينًا فشيئًا حتى أصبح زوجة .

ميرابل : ألست حرا أن أعرض شروطى ؟

ميللامات : هات أقصى ما عندك ...

ميرابل : أشترط عليك أن تستمرى تحبين وجهك وتعجبين به طالما أحببته أنا أو أعجبت به ، حتى إذا ألفته أنا ، فلا تحاولى قط تشكيله من جديد .. اشترط ثانيا ، أنك إذا حملت .

ميللامات : آه : لا تذكر شيئاً من هذا .

ميرابل : وهذا هو المفروض ، وليبارك الله فى محاولتنا

ميللامات : هذه محاولة كريهة قبيحة :

ميرابل : إنى أعترض وأمنعك من إرتداء الملابس المحبوكة التى تشد جسمك لتحتفظى بقوامك حتى لاتشوهى ولدى ويخرج وكأن رأسه قمع سكر(٢٣) ..

وهكذا ، وتلك سفسطة سارة ، وهجاء معقول ، يمر بخفة وسرعة ، فى أمان ، على مظاهر الحياة .

وضرب كونجريف نفسه مثلا لمظاهر كثيرة ، مؤثراً التركيب على المادة ، والتنوع على الوحدة . ولم يتزوج قط ، ولكنه اختلف إلى سلسلة من العشيقات ، ولم نسمع عن ذرية أشقته أو أسعدته . وكان رفيقا لطيفا فى المقاهى والنوادى . وكانت أكرم العائلات تستقبله ببالغ الترحيب . وكان أكولا ، وكان يدهن قدميه ويعالجهما بانتظام من داء النقرس . وعندما زاره فولتير ١٧٢٦ استنكر كونجريف إطراء الشاعر الفرنسى لرواياته ، وأبدى عدم اكتراثه لها ، على أنها توافه لاتستحق الذكر ، وطلب إلى فولتير أن يعتبره مجرد رجل مهذب . عندئذ أجاب فولتير (طبقا لروايته) « لو كان الأمر كذلك ، وأنك مجرد رجل مهذب ، لما جئت لأراك(٢٤) » .

وفى ١٧٢٨ ، فى رحلة للاستشفاء بالمياه المعدنية فى باث ، انقلبت عربة كونجرف ، وظل يعانى من بعض إصابات باطنية حتى وافته المنية فى ١٩ يناير ١٧٢٩ . ودفن فى كنيسة وستمنستر . وفى وصيته ترك مائتى جنيه لمسز بريسجيردل التى كانت تقاسى الفقر فى شيخوختها ، أما معظم الضيعة ،

أى نحو عشرة آلاف جنيه ، فقد أوصى به لدوقة مالبرو الثانية البالغة الثراء ، ومضيفته الأثيرة لديه ، فحولت المال إلى عقد من اللالىء . وكانت تضع على الدوام ، فى المكان الذى اعتاد الشاعر أن يجلس فيه إلى مائدتها ، تمثالا من العاج والشمع تدهن قدميه وتعالجهما بانتظام من النقرس(٢٥) .

وقبل موت كونجرف بزمن طويل ، كان المسرح الإنجليزى قد شرع يطهر نفسه ، حيث أمر وليم الثالث مدير الملاهى والمسارح أن يمارس بشكل أشد صرامة ، سلطته فى رقابة الروايات أو منع عرضها . وعززت موجة من الاستياء فى الرأى العام هذه الرقابة . وحرم قانون أصدرته الملكة آن إرتداء السيدات للأقنعة فى المسرح ، وقاطعت النساء اللائى حرمن هذا التستر ، الروايات المجردة من الاحتشام والوقار على وجه اليقين(٢٦) . واتفق سويفت مع الأساقفة على أن مسرح لندن وصمة فى جبين الخلق الانجليزى . وعرض ستيل روايته « العشاق الشاعرون بالاثم » (١٧٢٢) على أنها مسرحية أخلاقية . ونافس أديسون وقار للأساة الفرنسية وجلالها فى مسرحيته « كاتو » (١٧١٣) . وثمة علامة أقدم من هذا ، على التغيير الذى حدث فى المسرح ، ظهرت فى أسلوب رد دريدن على كوليير ، حيث أحس دريدن أن الكاهن غالبا ماحمل على كتاب المسرح دون وجه حق ، وأنه « فى كثير من المواضع .. فسر كلماتى بأنها تجديف وفجور ، وهى بريئة من هذا كله » ، ولكنه أضاف :

لن أتحدث كثيرا عن مستر كوليير لأنه اتهمنى فى أشياء كثيرة ، وله فى هذا كل الحق . واعترفت بذنبى فى كل الأفكار والتعبيرات التى أوردتها والتى يمكن أن توصم بحق بالفحش أو الدنس أو مجافاة الأخلاق الكريمة ، ولابد من سحبها . فإذا كان يناصبنى العداء ، فقد كتب له الانتصار على . أما إذا كان صديقا ، حيث أنى لم أهيىء له فرصة خاصة ليكون غير ذلك ، (لم أسىء إليه إساءة شخصية) ، فإنه سيسر بأنى ندمت(٢٧) .

٣ - جون دريدن ١٦٣١ - ١٧٠٠

كان أبوه من صغار ملاك الأرض ، يملك ضيعة متواضعة فى نورثمبتونشير وأرسل إلى مدرسة وستمنستر التى علمه فيها ، هو ورفيق دراسته جون لوك ، الأستاذ الضليع ريتشارد بزبى Buzby كثيرا من اللاتينية والنظام والانضباط . وهناك حصل على منحة دراسية مكنته من الذهاب إلى ترنتى كولدج فى كمبردج . وفى العام الذى حصل فيه على الدرجة الجامعية مات أبوه (١٦٥٤) وورث جون ، بصفته أكبر الأبناء البالغ عددهم أربعة عشر ، الضيعة التى كانت تدر ستين جنيها فى العام . وانتقل إلى لندن وحاول عن طريق الشعر أن يضيف شيئا إلى دخله ، احتيالا على العيش . وفى ١٦٥٩ نشر « مقطوعات شعرية بطولية » تخليدا لذكر كرومول — وهو شعر تافه غير ذى قيمة بشكل ملحوظ من شاعر فى التاسعة والعشرين من عمره . والحق أن دريدن نضج فى بطء ، وكأنه رجل يتخطى فى جهد جهيد مائة عقبة ليرقى مدارج الثراء فى نجاح . وبعد ذلك بعام واحد هلل الشاعر لعودة الملكية فى قصيدته « عودة النجم » التى قارن فيها نجمة شارل الثانى بنجمة بيت لحم ، وما كاد أحد يتجرأ على اتهام دريدن بالتقلب ، لأن كل الشعراء تقريبا — عدا ملتون — ولوا ظهورهم إلى البيوريتانية وولوها شطر الملكية مع تغيير بارع لأساليبهم .

ولكن دريدن كان أشد اهتماما بالمسرح منه بمجرد نظم الشعر ، حيث أثرى الكتاب المسرحيون على حين حالف البؤس والشقاء الشعراء الجدد . إن دريدن لم يكن به ميل إلى المسرحية ، ولكنه كان يتطلع إلى الحصول على لقمة العيش بانتظام . وحاول كتابة الملهاة فأخرج « زير النساء الطائش » (١٦٦٣) التى وصمها بيبز بأنها « أحقر شىء رأيته فى حياتى تقريبا (٢٨) » . وفى أول ديسمبر ١٦٦٣ تزوج دريدن من ليدى اليزابث هوارد ابنة إرل بيركشير ، وأشرأبت الأعناق دهشا من سيدة ذات مكانة وثراء تتزوج من

عشر ، ولكنها كانت فى سن الخامسة والعشرين ، وفى خطر من فوات الأوان ، كما كان أخوها سير روبرت هوارد للتلهف على التأليف والكتابة، قد ضمن تعاون دريدن معه فى رواية « الملكة الهندية » التى أخرجاها ١٦٦٤ ، فى مشاهد بالغة البذخ ، مع نجاح عظيم .

وحددت هذه المسرحية « للأساة » طورا فى تاريخ الأدب ، حيث تخلت عن الشعر المرسل الذى كان سائدا فى عصر اليزابيث ، واستخدمت المقاطع المقفاة ذات البيتين اللذين يتكون كل منهما من خمس تفاعيل ، أسلوبا منتظما لها . وكان لورد أورىرى قد تأثر بحلاوة واتساق القافية فى المأساة ، وأدخل هذا الأسلوب فى رواياته . وعاد دريدن إلى الشعر المرسل بعد ١٦٧٥ ، معترفا بأن القافية تفضى إلى تعويق سيل الكلام والتفكير . ولو أنه لقى عناء أكثر فى نظم الشعر لأصبح شاعرا أعظم مما كان .

وواصل نجاحه التعاونى بعمل مستقل ، وهو « الامبراطور الهندى » (١٦٦٥) ، وكان مونتزوما بطل الرواية . وما كاد يجد لمسرحيته مكانا على المسرح الانجليزى حتى داهم الطاعون لندن فأغلقت المسارح أبوابها لمدة عام . ولما زال كابوس الطاعون والحريق احتفل دريدن بخروج انجلترا من هـــذه المحنة المثلثة — الطاعون والحريق ثم الحرب — بقصيدة « سنة العجائب » (١٦٦٦) وهى مكونة من ٣٠٤ مقاطع رباعية الأبيات ، تتأرجح بين الوصف الرائع (المقاطع ٢١٢ — ٢٨٢) والتفاهة الصبيانية (مثل المقطع ٢٩) ولما فتحت المسارح أبوابها من جديد فى ١٦٦٦ عجل دريدن بالعودة إلى المسرحية . ولم ينتج حتى ١٦٨١ غير الروايات . وتميل مأسياته إلى أن تكون كلاما منمقا رنانا طنانا ، ولكنها بدت لأعين معاصريه أسمى منزلة من مأسيات شكسبير(٢٩) — ولما انضم دريدن إلى دافننات فى إعادة صياغة « العاصفة » كانت النتيجة باجماع المشتركين فيها أن الصياغة الجديدة تنطوى على تحسين كبير للأصل . وربما اتفقت معهم « شركة الملكية » فى هذا الرأى لأنها كلفت دريدن بتزويدها بثلاث روايات فى السنة مقابل

حصة فى الأرباح التى بلغت ٣٥٠ جنيها فى العام . أما ملهيات دريدن ، على الرغم من أنها داعرة فاحشة مثل غيرها ، فإنها لاقت نجاحا أقل من نجاح مأسياته السبع والعشرين ، لأنه فى هذه الأخيرة استطاع أن يثير اهتمام الرأى العام فى الدنيا الجديدة والمعجبين البدائيين المدهشين فيها ، وهكذا يقول المنصور فى « فتح غرناطة » .

« أنا حر طليق مثلما خلقت الطبيعة الإنسان لأول مرة ، قبل أن يظهر قانون الاسترقاق الحقير ، حين هام النبلاء المتوحشون على وجوههم فى الغابات » .

وربما كان نجاح هذه الرواية بالإضافة إلى ما تضمنته رواية « سنة العجائب » ، من مديح منمق لشارل الثانى ، هو الذى كسب لدريدن منصب مؤرخ الملك ، وشاعر التاج (١٦٧٠) . وبلغ دخله السنوى آنذاك ألف جنيه فى المتوسط .

وفى خاتمة القسم الثانى من « فتح غرناطة » زعم دريدن تفوق مسرحية فترة عودة الملكية على المسرحية فى عصر اليزابيث . وذهب منافسوه ، على حين قدروا له هذه التحية والمجاملة ، إلى القول بأن فى هذا الطراء مغاليا لمسرحياته . ولم يشارك المفكرون فى المدينة جمهور المسرح إعجابه وتذوقه للغة الطنانة الرنانة المسرفة فى مأسيات دريدن ، وأصدر دوق بكنجهام بالاشتراك مع آخرين فى ١٦٧١ هجاء مرحا تحت عنوان « التجربة » سخر كثيرا من المستحيلات والحماقات واللغة الطنانة المنمقة فى المأسيات المعاصرة ، وبخاصة ما كتبها دريدن . وأحس الشاعر بأنها لطمة له ، ولكنه كظم غيظه لمدة عشرة أعوام . وبعدها شهر بالدوق بكنجهام أيما تشهير فى شخصية « زمرى » فى أقوى أبيات رواية « أبشالوم وأخيتوفل » .

وفى الوقت نفسه عملت دراسته لشكسبير على تحسين فنه . وفى أروع مأسياته (كله من أجل الحب) (١٦٧٨) تحول من راسين والقافية إلى

شكسبير والشعر المرسل . وأفرغ كل جهده وبراعته في أن يباري ما كان منه في عصر اليزابث ، بصفة عامة ، وعرض في ثوب جديد قصة أنطونيو وكليوبترة التي فقدت الدنيا من أجل قصة غرام قصيرة . ولو أن الرواية القديمة لم توجد لحظيت رواية دريدن بثناء وإعجاب أكبر ، ففي مواضع كثيرة منها ترتفع من الكلام الشديد البساطة إلى الشعور النبيل المكظوم ، كما يتمثل في قدوم أو كتافيا إلى أنطونيو لتعرض عليه صفح أو غسطى عنه(٣٠) . ورواية دريدن محكمة في ايجاز ، بقصد مراعاة الوحدات ، ولكنه بتضييق الحدث في أزمة واحدة في مكان واحد ثلاثة أيام ، اختزل الفكرة الرئيسية البطولية إلى قصة غرام ، وضيع المشهد الكبير الذي رأى في « أنطونيو وكليوبترة » (لشكسبير) أن هذه القصة الغرامية ليست إلا جزءاً من الأحداث التي هزت عالم البحر المتوسط وشكلته .

وأكثر الجوانب امتاعاً وتشويقاً اليوم في مسرحيات دريدن هي المقدمات التي قدمها بها مطبوعة ، والأبحاث التي شرح فيها وجهات نظره في الفن المسرحي . وكان كورني قد ضرب له المثل ، ولكن دريدن جعل منه مجالاً لنثر رائع . وإنا إذ نمر مرور الكرام بهذه الأبحاث الموجزة وهذه الحوادث القوية ، لنلمح أن عصر الخلق والابداع في الأدب الإنجليزي كان يعبر إلى عصر النقد الذي قد يبلغ ذروته في بوب . ولكن اجلالنا لتفكير دريدن وعقليته يزداد إذ نراه يسير في رشاقة ورفق غور أسلوب المسرحية ومعالجة تفاصيلها ، وفن الشعر ، ويقارن في مقدرة فائقة على التمييز والمقارنة ، بين المسرحين الفرنسي والإنجليزي . وانك لترى في هذه المقالات والبحوث أن الالتواء المثير في النثر في عصر اليزابث ، والجمل الطنانة المتراكمة عند ملتون ، كل أولئك يفسح الطريق لأسلوب أبسط وأسلس وأكثر تنظيماً ومنهجية ، أسلوب خلا من التراكيب ، اللاتينية ، وزاده صقلاً التعرف على الأدب الفرنسي ، لم يجار الإبانة الفرنسية كل المجاراة قط ، ولكنه أخرج إلى القرن الثامن عشر — قرن النثر — نماذج

من كلام يتميز بالصفاء والروعة والسلاسة وسحر البيان ، وعدم التكلف والقوة . وهنا اتخذت المقالة الإنجليزية شكلها ، وبدأ العصر الكلاسيكى (النموذجى الممتاز) للأدب الإنجليزى .

ولكن إذا كانت مقالات دريدن تبدو الآن أعلى مكانة من الروايات التى كانت سببا فى كتابة المقالات ، فإنه فى الهجاء ساد عصره وأرهبه . وربما وقع حادث أطلق لسانه اللاذع . ذلك أنه فى ١٦٧٩ وزع جون شفيلد إرل ملجريف نشرة مخطوطة بعنوان « مقال فى الهجاء » لاتحمل اسم كاتبها ، هاجمت إرل روشستر ، ودوقة بورتسموث (لويزدى كيرووال) ، بلاط شارل الثانى بصفه عامه . واتجه الظن خطأ إلى أن كاتب المقال هو دريدن الذى كان آنذاك يحصل على معظم دخله من الملك . وفى ليلة ١٨ ديسمبر فى « زقاق روز — كوفنت جاردن » هجم على دريدن نفر من السوقه وأوسعوه ضربا بالهراوات ، والمفروض أن روشستر استأجرهم لهذا الغرض ، ولو أن هذا لم يثبت على سبيل اليقين . وكان دريدن رجلا ودودا كريما مستعدا لمد يد المعونة وكيل المديح . ولكن نجاحه وغروره وافراطه فى التحدث عن نفسه وتوكيداته الخلافية ، كل أولئك جلب عليه عداوات كثيرة . واحتمل دريدن لبعض الوقت حملاتهم عليه ، دون رد عانى منه ، بل أن « كمين زقاق روز » لم يلق استجابة سريعة من قلمه . ولكنه فى ١٦٨١ جمع عديدا من اعدائه فى مرجل واحد وسلقهم بالسنة حداد ، فى ألذع هجاء عرف فى اللغة الإنجليزية .

وتلك هى السنة التى حاول فيها شافستبرى أن يقوم بثورة ليخلف ابن شارل الثانى غيرالشرعى أباه على العرش وعندما ظهر القسم الأول من قصيدة « أبشالوم وأخيتوفل » كان شافتسبرى على وشك أن يقدم للمحاكمه بتهمة الخيانة العظمى . وانحاز هجاء دريدن إلى جانب الملك ، وربما كان بإيعاز منه(٣١) . وهزأ الشاعر من شافتسبرى فى شخص أخيتوفل الذى يحرض

أبشالوم (وهو دوق مونموث) على الثورة ضد أبيه داود (شارل الثانى). ولما كان داود وشارل كلاهما قد أحبا عددا من النساء ، فان القصيدة تبدأ ببحث فى قيمة تعدد الزوجات :

« فى عهد التقى والورع ، قبل ظهور الكهنة وأساليبهم ، وقبل أن يصموا تعدد الزوجات بأنه خطيئة ، وحين تكاثر الإنسان بتعدد زوجاته وقبل أن يقتصر الواحد على واحدة بشكل بغيض . وحين استحثت الطبيعة — ولم يمنع أى قانون — على معاشرة الخليلات والزوجات دون تمييز ، وحين عاش ملك بنى اسرائيل ، برضا السماء ، على الزوجات والاماء من مختلف الأنحاء ، فى قوة وحيوية ، ونشر صورة خالقه على أوسع نطاق على الأرض ، بأسره » .

ويبتهج دواد بجمال ابنه أبشالوم . وكان مونموث ، حتى قيام الثورة ، قرة عين أبيه الملك السعيد (شارل الثانى) ، أما بنو اسرائيل فهم الإنجليز (فى القصيدة) :

جنس عنيد متقلب متذمر ، أرهق النعمة الإلهيه إلى آخر مداها ، شعب الله المدلل الذى انغمس فى الملذات والشهوات ، والذى لم يستطع أن يحكمه ملك أو يرضيه إله(٣٢) .

وأستروفل هو رئيس شياطين الخيانة ، وتتحقق لدن لفورها أنه شافتسبرى :

وكان على رأس هؤلاء جميعا اختيوفل الكاذب ، وهو اسم ملعون كريه على مر العصور ، أهل لكل التدابير الخفية والمشورات الملتوية ، ذكى جرىء مضطرب الحواس ، قلق ، لايثبت على مبدأ ولا يستقر فى مكان ، غير راض إذا تملك وتسلط ، ضائق صدره إذا تجرد من سلطانه ، يحمل بين جنبيه نفسا محمومة مضطرمة انهكت وأبلت جسم القزم وهى تشق طريقها ، ضاق بها جسده الهزيل . قائد جسور لأخطر الأعمال اليائسة ، يطرب للأخطار

حين ترتفع الأمواج . أنه يلتمس الأعاصير والزوابع ، لأنه لا يحب الهدوء . يدنى سفينته من الرمال بفطنته وذكائه . يقينا أن ذوى المواهب العظيمة قريبون من الجنون ولا يفصله عنهم إلا حواجز رقيقة . وإلا ، لماذا — وهو ذو الثراء العريض والمناصب الرفيعة — يضن على شيخوخته بما تحتاج من راحة ودعة ؟ .. لا يقيم على ود ولا يخلص فى صداقة ، عنيد حقود فى عدائه وبغضه ، مصمم على أن يدمر الدولة أو يحكمها هو(٣٣) .

ثم يجىء دور الانتقام من دوق بكنجهام و « التجربة » :

ويقف على رأس هؤلاء (المصاة الثائرين) زمرى ، وهو رجل متعدد الجوانب ، حتى إنك لا تحسبه واحدا ، بل صورة مصغرة لكل بنى البشر ، جامد الرأى ، يجافى الصواب دائما . كان يندفع فى كل أعماله ، ولكنه لا يثبت على حال . وخلال قمر منير واحد ، كان الكيميائى والعازف ، ورجل الدولة والمهرج . ثم ينصرف بكليته إلى النساء والتصوير ، والشعر والشراب ، فضلا عن عشرة آلاف نزوة تموت فى المهد .. وكان تبديد المال فنا خاصا برع فيه . أغدق على كل الناس إلا من يستحقون المكافأة ، أفقره الحمق المهرجون الذين اكتشفهم بعد فوات الأوان . وحظى هو بالمرح ، وحصلوا هم على ماله وضيعته(٣٤) .

ولم تر انجلترا قط من قبل مثل هذا الهجاء اللاذع الذى لا يرحم ، الذى يركز كل التشويه والتجريح فى سطر واحد ، ويترك جثة ممزقة مهشمة فوق كل صفحة . وبيعت القصيدة بالمئات خارج نفس المحكمة التى كان يحاكم فيها شافتسبرى ، مخاطراً بحياته . وقضت المحكمة ببراءته فصك أشياعه الأحرار (الهويج) « ميدالية » تمجيدا له ، وانبرى عدد من الشعراء والكتاب يتزعمهم توماس شادويل لإصدار ردود ظافرة على الرجل الذى أيقنوا أنه باع عقله ، ولسانه السليط وبيانه الشكاوى إلى الملك . وعاود دريدن الكرة بهجاء آخر ، « للميدالية » (مارس ١٦٨٢) سلق فيه شادويل ، بصفة خاصة ، فى قصيدة « ماكفلكنو » (أكتوبر) . وهنا كان الدم

والقدح أنكى وأمر ، فانحط أحيانا إلى شتائم لفظية صريحة ، لم تتميز ، مثل الهجاء السابق ، بمقاطع فاصلة تنشر السم فى دقة دون اسراف أو اسفاف .

إننا لا نستسيغ اليوم هذا اللون من « الذبح » الأدبى ولم نعد نتذوقه إلا قليلا ، وإننا لنرتاب بعد قرون من الجدل والمناقشة ، فى أن هناك بعض الصدق فى كل عاطفة أو هوى ، وأن فى كل خصم أو عدو شيئا محببا . وما السياسة حتى فى أيامنا هذه إلا حرب بوسائل أخرى ، أكثر بكثير مما كانت حين كان عرش أسرة ستيوارت يترنح على حافة الثورة ، وكان الظهور إلى جانب الفريق الخاسر المنهزم قد يعنى الموت المحقق . وعلى أية حال ، فإن دريدن بذل كل الهمه ، مما أكسبه امتنان الملك ودوق يورك ، ولم ينازعه أحد آنذاك التربع على عرش مملكة الشعر . وكانوا يحجزون له — إذا قصد إلى « حانة ول Will » مقعدا إلى جانب المدفأة فى الشتاء ، وفى الشرفة صيفاً ، وهناك رأى بيبز وسمع « أحاديث طريفه ذكية (٣٥) » وصورة سير والتر سكوت ، فى خيال مبدع ، وهو يدخل إلى هذه الحانة ، « رجل عجوز بدين قليلا ، ذو شعر أشيب ، يرتدى حلة سوداء بالغة الأناقة ، محبوكة الأطراف وكأنها قفاز ، تشرق فى وجهه أرق ابتسامه رأيتها فى حياتى(٣٦) » وكان الانحناء تحية لشاعر التاج والاستماع إلى رأيه فى آخر مأساة أخرجها راسين ... يعتبر ميزة ، كما كانت القبضة من علبة سعوطه شرفا كفيلا بأن يريك المتحمس الناشىء . وكان كل العطف بعينه بالنسبة لأصدقائه ، ولكن ما كان أسرعه فى كيل السباب لمنافسيه وخصومه(٣٧) (وما كان لأحد أن يبزه فى إطراء شعره . إن تملقه للملك وليدى كاسلمين ولكل أولئك الذين يجزلون له العطاء مقابل الإهداء اليوم ، جاوز الحد المألوف من الاستسلام الذليل فى مهنته فى عصره(٣٨) . ومع ذلك فإن كونجريف بادله التشجيع بمثله حين وصفه بأنه « بالغ الإنسانية والرحمة ، مستعد أن يغتفر الإساءة ، أهل للتراضى بإخلاص مع من أساء إليه(٣٩) » .

والآن ، وقد آذن جسمه بالضعف والانحلال ، بدأ الشاعر يفكر في الدين بشكل أكثر انعطافا وميلا ، مما كان عليه في سني القوة والفتوة والزهو والغرور . لقد اندفعت مسرحياته وقصائد هجائه اندفاعا طارئا بين هذا وذاك من مختلف المذاهب الدينية ، أما الآن ، وقد ربط الشاعر مصيره بالمحافظين (الملكيين — التورى) ، فإنه تحول إلى الكنيسة الأنجليكانية بوصفها ركيزة للاستقرار في انجلترا ، مستنكراً عدوان العقل المتغطرس على هذا الحرم المقدس ، ألا وهو الإيمان والعقيدة . وفي نوفمبر ١٦٨٢ أدهش أصدقاءه الدنيويين بنشره قصيدة « الدين والدنيا » دفاعا عن الكنيسة الرسمية . وبدا له أن الكتاب المقدس المنزل ، بل وكنيسة معصومة من الخطأ تفسره وتكمله ، دعامتان لاغنى عنهما للمجتمع ولسلامة العقل . وكان على علم بالخلافات وبالجدل بين الربوبيين ، وكان رده عليهم أن شكوكهم إنما تعكر صفو النظام الاجتماعي للعقد الذي لايمكن أن يدعمه إلا قانون أخلاقي تقره عقيدة دينية .

لأنه لاقيمة ولا فائدة في تعلم النقاط الغامضة ، أما السلام العام فهو كل مايهم العالم .

وتلك حجة كان يمكن أن تخدم قضية الكنيسة الكاثوليكية أيضاً ، وتابعها دريدن إلى غايتها بتحوله إلى الكاثوليكية ١٦٨٦ . ولسنا ندري إذا كان لاعتلاء ملك كاثوليكي العرش في السنة السابقة ، ولتلهف الشاعر على الاستمرار في الحصول على رواتبه — نقول لسنا ندري إذا كان لهذا الأمر أو ذاك دخل في هذا التحول(٤٠). على أن دريدن على أية حال ، صب كل فنه — الشعري ليشرح وجهة النظر الكاثوليكية في قصيدة « الأيلة والنمرة » The Hind and The Panther (١٦٦٧) وفيها (أيلة ناصعة البياض » تدافع عن المذهب الكاثوليكي ، ضد نمرة « هي أجمل النوع المرقط » التي تمثل المذهب الأنجليكاني . وكانت صورة حيوانين من ذوات الأربع يناقشان موضوع الوجود الحقيقي في القربان المقدس مدعاة للسخرية (٤٢) والتسخيف.

سرطانى ماأثارهما ماتيو برير Prior ولورد هاليفا كس فى محاكاة تهكية تحت عنوان « الأيلة والنمرة تنقل إلى قصة فأرة القرية وفأرة المدينة »(١٦٨٧).

وفى ١٦٨٨ فرجيمس الثانى إلى فرنسا . ووجد دريدن أنه يعيش من جديد فى ظل ملك بروتستانتى ، فلزم مذهبه الجديد ، وكان أولاده الثلاثة يعملون فى روما تحت إمرة البابا . كما أن الردة إلى مذهب آخر أمر غير مقبول ، فاحتمل فى شجاعة وجلد فقدانه لمنصب شاعر التاج ولراتبه ولوظيفته « مؤرخ للملك » ، على أن التاريخ ، زاد من أحزانه ، لأنه أضفى كل هذه المناصب والشرف على شادويل الذى توجه دريدن ملكا على المراء ، وصوره نموذجا للغباء . وعاد فى شيخوخته يكسب بقلمه قوت يومه . فكتب مزيدا من الروايات ، وترجم مختارات من تيوكريتس وهوارس وأوفيد وبرسيوس ، وأخرج الأنيادة فى شعر بطولى فى أداء غير محكم ، ولكنه سلس ، ونقل بأوزانه الشعرية الخاصة بعض أساطير هوميروس وأوفيد وبوكاشيو ، وتشوسر . وفى ١٦٩٧ وهو فى السابعة والستين نظم قصيدته المشهورة « وليمة الاسكندر Alexanders Feast » ، التى حظيت بأعظم الثناء والإطراء .

ووافته المنية فى أول مايو ١٧٠٠ ، وشهدت جنازته اضطرابا شديدا ، وتنازعت الشيع المتنافسة جثمانه ، وأخيرا وورى التراب إلى جانب تشوسر فى كنيسة وستمنستر .

ومن الصعب أن تحب هذا الشاعر ، فكل الظواهر تقول بأنه كان انتهازيا نفعيا متقلبا ، امتدح كرومول فى فترة الحماية ، وكال المديح لشارل الثانى وخليلاته ، وأثنى على البروتستانتية فى عهد ملك بروتستانتى ، وأطرى الكاثوليكية فى ظل ملك كاثوليكى ، والتمس موارد كسب المال بكل الطرق ، وجلب على نفسه عداوة كثير من الناس ، مما لا بد معه أن يكون ثمة شىء يكرهه الناس فيه . وجارى كل منافسيه فى إباحية رواياته وتحررها من كل القيود ، وفى تورعه فى شعره . وبلغت قوته فى الهجاء مبلغا يستدر العطف على ضحاياه ، مثل العطف على الشهداء وهم يحترقون على الخازوق . ولكن

لاجدال فى أنه كان أعظم الشعراء الانجليز فى جيله . وكتب معظم شعره فى المناسبات ، وقلما حفظ الزمن شعرا نظم للمناسبات . ولكن هجاءه لايزال حيا ، لأن أحداً غيره لم يستطع أن يأتى بمثل هذا الهجاء الذى صور الشخصيات فى ازدراء قارص وسخرية لاذعة . وطور المقطع الشعرى البطولى ذا البيتين إلى درجة من الإيجاز المحكم والمرونة ، سيطرت على الشعر الانجليزى طيلة قرن من الزمان وكان أثره على النثر أقوى ، حيث نقاه من التراكيب المزعجة والمصطلحات الغريبة ، وضبطه على درجة ممتازة من الصفاء والسهولة . وكان معاصروه على حق حين كانوا يرهبونه أكثر مما يحبونه . ولكنهم أدركوا أن له الحق كل الحق ، بفضل قوة إرادته وبراعته فى فنه فى صناعة الأدب والكتابة ، وملكا على عرش القوافى ، فكان بن جونسون الروائى ، ودكتور صموئيل جونسون الكاتب ، فى وقت مماثل فى عصره .

٤ — فى ثبت واحد

والآن نجمع فى قائمة غير نابضة بالحياة بعض الشخصيات الأصغر شأنا الذين أمدوا هذه الفترة بالحياة وبالأدب ، ولكننا لن نستطيع أن نمكث معهم طويلا لنتتبع مجرى حياتهم .

وأعظم قصيدة فى الجانب الوثنى من فترة عودة الملكية كانت ملحمة بيوريتانية ، ولكن أشهرها هى ملحمة هجاء ساخر ضد البيوريتانية : « هو دبراس » (١٦٦٣ — ١٦٧٨) . ذلك أن الشاب الفاجر « صموئيل بتلر » قضى عدة سنوات مضنية فى خدمة سير صموئيل لوك ، وهو مشيخى (برسبتيريان) متحمس غيور ، ضابط برتبة زعيم فى جيش كرومول ، كان مقره فى « كوبل هو » ، وهى قلعة بيوريتانيه للسياسه والعبادة . وعندما عادت الملكيه ثأر بتلر لنفسه بنشر هجاء مرح ، يصور فيه كيف أن سير هو دبراس الفارس المغوار يقودسيده صاحب الأرض « رالفو » إلى حرب

صليبية ضد الخطيئة والإثم . وتستطيع أن تحكم منذ بداية القصيدة عليها .

«حين اشتدت ثورة الغضب والحقد بين الناس لأول مرة وتشاجروا لأنهم لم يدركوا السبب ، وحين أشعلت الكلمات النابية والأحقاد والمخاوف نار الحرب بين الجماعات وجعلتهم يقتتلون كالمجانين أو المخمورين ، من أجل «السيدة : الديانة » وكأنما يقتتلون من أجل عاهرة فاجرة ... وحين أعلن نافخ البوق الإنجيلى يحيط به الرعاع ذوو الآذان الطويلة ، النفير من أجل الحرب ، ودقت طبول المنبر والكنيسة بجماع الأيدى بدلا من العصى . عندئذ غادر السيد الفارس مسكنه وامتطى صهوة جواده متزعما الركب ... وكان كثيرون من الناس يرون ، أنه كما اشتكى مونتانى من أن قطته حسبته، وهو يداعبها ، حماراً ، فلابد أن القطة تحسب هو دبراس حماراً أو أكثر من حمار ، وإنا لنسلم بأنه على الرغم مما أوتى من ذكاء شديد ، فانه يخجل من استخدامه ، وكأنما يكره أن يستنفذه ويبليه ، ولذلك لم يظهره أو لم يلبسه إلا فى أيام العطلة أو مايشابهها ، كما يرتدى الناس أحسن ملابسهم ... وكان من الملائم ، من أجل عقيدته ، أن يوفق بين علمه وذكائه ، وكان مذهبه مشيخياً صادقا متشددا ، لأنه كان من بين العصبة العنيدة من القديسين الضالين الذين يقر الناس جميعاً بأنهم المناضلون الصادقون عن الكنيسة المجاهدة الذين يبنون عقيدتهم على الرمح والمدفع ، ويحسمون كل الخلافات عن قذيفة لاتخطىء المرمى ، ويثبتون صحة نظريتهم بالضربات واللكمات. الرسولية.. فرقة تتمثل أعظم تقواهم فى كراهياتهم الحمقاء الضالة ، الشاذة فرقة تحرص على الخطأ فى يوم العطلة أكثر من حرص سائر الناس على الصواب ، مجمعة على الخطايا التى فطرت عليها . تلعن أولئك الذين لايفكرون فيها(٤٣) .

وهكذا مما آلم البيوريتانيين أيما إيلام وسر الملك كل السرور . ومنح شارل المؤلف جائزة قدرها ثلثمائة جنيه . وامتدح كل الملكيين القصيدة فيما عدا بيبز الذى لم يستطع « أن يتبين موضع العبقرية فيها » ، على الرغم من أنها تعتبر الآن من أحدث طراز من الهزل والسخرية(٤٤) ، وبادر بتلر

إلى الاستزادة من الكتابة (١٦٦٤ — ١٦٧٨) ، ولكن لم يعد فى جعبته سهام ، ولم تسعفه القوافى . وحل النزاع بين البروتستانت والكاثوليك محل النزاع بين الملكيين والبيوريتانيين . ونسى القوم بتلر ، وقضى نحبه مغمورا معدما (١٦٨٠) . وبعد أربعين عاما أقيمت له لوحة تذكارية فى كنيسة وستمنستر ، تحمل هذه العبارة « طلب الخبز فمنح حجرا(٤٥) » .

وخير من هذا الشعر الهزلى المعتل الوزن الذى يتصيد القوافى ، نثر كلارندون الفخم فى كتابه « تاريخ الثورة » الذى ظهر فى ١٧٠٢ على الرغم من أنه كتب فى ١٦٤٦ — ١٦٧٤ — وشهد الناس فى عهد الملكة آن مقدار العناية التى بذلت فى تأليف هذه المجلدات الثمانية ، وروعة أسلوبها ، وكيف كان تصوير الشخصيات أخاذا ، وكيف كانت روح قاضى القضاة الذى ضرب قديما ، عالية . وبالمثل لعب جلبرت بيرنت دورا ليس بهزيل فى كتابه « تاريخ زمانه » الذى لم ينشر ، بأمر منه ، إلا بعد وفاته ١٧٢٤ . أما كتابه « تاريخ إصلاح كنيسة انجلترا » (١٦٧٩ ، ١٦٨١ ، ١٧١٥) فكان عملا أضخم ، وكان ثمرة بحث طويل ، وظهر فى وقت كانت فيه انجلترا البروتستانتية تخشى إحياء الكاثوليكية . وقدم له مجلسا البرلمان كلاهما الشكر عليه . ووجد فيه الأعداء والمحررون ألفا من الأخطاء . ولكنه لا يزال يحظى عن يشايعه وينتصر له ، وفى بعض الأحيان يكون موضع ذم وطعن . ولكنه يظل أعظم مرجع فى موضوعه ، وحاول بيرنت أن يوسع دائرة التسامح الدينى ، فكسب عداء السوقة .

وسعى ثلاثة رجال آخرين إلى تكبير الحاضر بأن يضيفوا إليه صورا من الماضى . وطاف توماس فولر Fuller بأرجاء الأرض الحبيبه متنقلا من بلد إلى بلد ، حيث جمع كتابه « تاريخ مشاهير الرجال فى انجلترا (١٦٦٢) ، وأحيا أبطاله الأموات بما روى عنهم من فذلكات وحكايات ودعابة وذكاء ، وبما كتب على شواهد قبورهم . وقص أنتونى وود تاريخ أكسفورد ، وجمع ثبتا حوى سير حياة خريجيها ، وللمؤلفات القيمة

التي اقتبس منها كثير من المؤلفين خلسة . وجمع جون أوبرى شذرات ممتعة عن نحو ٤٢٦ من مشاهير الإنجليز ، على أمل أن ينسق هذه المادة المجموعة في تاريخ كامل ، ولكن الخمول والمنية حالتا دون طبع « سير الحياة » قبل ١٨١٣(٤٦) . وقد شجعتنا ذخائره على المضي في طريقنا . وهناك الكولونيل (الزعيم) جون هتشنسون ، وهو بيوريتاني أيد إعدام شارل الأول ، وزج به شارل الثاني في السجن ، وما أن أخلى سبيله حتى عاجلته المنية ، وخلدت أرملته لوسي ذكراه في كتاب « حياة كولونيل هتشنسون » وهو كتاب لطيف رفع من مكانة صاحب السيرة . ولكن لوسي كان يعيبها الوقفات الطويلة فكانت عباراتها أحيانا تمتد إلى صحيفة كاملة أما جون آربوتنوت ، الطبيب البارع ، والصديق المخلص لسويفت وبوب والملكة آن ولكثيرين غيرهم ، فإنه انضم إلى حملة المحافظين لوقف الحرب مع فرنسا ، بأن أصدر في ١٧١٢ سلسلة من النشرات يهجو فيها الأحرار ، ويصف شخصية خيالية هي « جون بول » الذي أصبح منذ ذلك الوقت رمزا على انجلترا . ويقول جون آربوتنوت عن جون بول :

«أنه شخص أمين شريف صريح في التعامل مع الناس ، سريع الغضب ، جريء ، متقلب المزاج ... إذا تملقته ولاطفته كان سلس القياد ، إن مزاج جون يعتمد كثيرا على الهواء ، يرق مزاجه أو يتكدر تبعا لحالة الجو . وكان جون ذكيا . يدرك مهمته تمام الإدراك ، ولكن ليس على قيد الحياة إنسان أشد منه إهمالا في إمعان النظر في حساباته ، ولا أكثر انخداعا بشركائه أو غلمانه أو خدمه . ذلك لأنه رفيق مرح ، مولع بالخمر واللهو والتسلية . والحق أنه لايوجد انسان أشد عناية ببيته ولا أكثر سخاء في الانفاق من جون(٤٧) » .

وماذا عسى أن يقول سيروليم تمبل إذا وجد أنه اختزل في فقرة من فصل بلغ الذروة بسكرتيره ؟ ربما قال — إذا سمحت له آدابه الرفيعة — إن المؤرخين أهملوه لأنه لم يحتفظ بامرأتين تطمعان في الزواج ، حتى قضت

إحداهما نحبها ، وأنهكت الأخرى ، أو لأنه لم يبع قلمه لوزراء المحافظين استياء من الأحرار ، أو لأنه لم يغمس هذا القلم فى ذم البشر ، ولكن خدم وطنه فى هدوء بدبلوماسية ناجحة ، وفى عصر سادة الفساد والفجور ، ضرب لانجلترا مثلا صادقا غير مصطنع لحياة أسرية تزينها الحشمة والوقار . وظل لمدة سبع سنين يتودد إلى دوروتى أو زيورن التى أصبحت رسائلها الرقيقة إليه قطعا من الأدب الانجليزى (٤٨) وارتضته زوجا لها رغم معارضة أسرتيهما . وتزوجها بعد أن شوه الجدرى جمالها . ودخل تحبل معترك الحياة السياسية ، ولكنه آثر الأعمال التى نأت به عن حمى لندن ، وتجنب « العبودية المضنية التى تثير البغض والحسد ، والتى تحصى فيها الحركات والسكنات ، والتى يطلقون عليها من قبيل السخرية والاستهزاء « السلطة والنفوذ (٤٩) » . وكان من أوائل ، من حذروا من أطماع لويس الرابع عشر التوسعية ، وكان المخطط الرئيسى للحلف الثلاثى الذى وقف فى طريق الملك الفرنسى ١٦٦٨ . وعرضت عليه الوزارة فى ١٦٧٤ و ١٦٧٧ ولكنه آثر منصبه الدبلوماسى فى لاهاى . وأدت مفاوضاته الموسومة بالحصافة والنظر الثاقب إلى زواج مارى ابنة جيمس الثانى من وليم الثالث الذى أصبح ملكا فيما بعد . وهو الزواج الذى مهد الطريق « للثورة الجليلة » . وفى ١٦٨١ اعتزل السياسة وانصرف إلى الدراسة والتأليف فى « موربارك » ، ضيعته فى « سرى » وحسبه سويفت جامدا متحفظا ، ولكن زوجة سير وليم وأخته ، كلتيهما ، أحبتاه إلى حد العبادة ، على أنه ملاك الرحمة والكياسة واللطف . وأهم أبحاثه « المعرفة قديمها وحديثها » (١٦٩٠) ، الذى رفع فيه من ذكر الأقدمين وانتقص من قدر العلم الحديث والفلسفة الحديثة ، فى شخص نيوتن وهوبز وسبينوزا وليبنتز ولوك . وقصيد بنتلى الكاتب خطأ جسيما . فآوى سير وليم إلى حديقته ، وتسلى بابيقور ، ولسوف نلتقى به ثانية .

٥ - إيفلين وبيبز

اتفق جون ايفلين مع تمبل فى « أنه إذا دخلت الأحزاب فى الدولة وتعمقت جذورها فيها ، فمن الحمق عندئذ أن يتدخل أفاضل الرجال فى الشئون العامة (٥٠) » ولما بدأت الحرب الأهلية رأى أنه قد آن الأوان للرحيل . وغادر انجلترا فى يولية ١٦٤١ . ولكن وخز الضمير أعاده إليها فى أكتوبر ، وانضم إلى جيش الملك فى برنتفورد ليشترك فى الانسحاب فى نفس الوقت الذى وصل فيه . وبعد شهر من الخدمة فى الجيش آوى إلى ضيعة أبويه فى ووتون فى سرى . وفى ١١ نوفمبر ١٦٤٣ عبر البحر ثانية إلى القارة . وطاف على مهل بأرجاء فرنسا وإيطاليا وسويسرا وهولنده ، ثم قفل راجعا إلى فرنسا . وفى باريس تزوج من فتاة انجليزية . وتنقل لبعض الوقت بين فرنسا وانجلترا ، حتى وضعت الحرب الأهلية أوزارها ، حيث عاد إلى الوطن (٦ فبراير ١٦٥٢ . ورشا حكومة كرومول لتتركه وشأنه . وتبادل الرسائل مع شارل الثانى فى منفاه ، وفى ١٦٥٩ بذل جهدا جبارا للتعجيل بعودة الملكية . وبعد ارتقاء شارل الثانى عرش إنجلترا أصبح ايفلين شخصية مرموقة فى البلاط ، ولو أنه دمغه بالانحلال والفساد ، وشغل بعض المناصب الحكومية الصغيرة ، ولكنه فى معظم الأحوال آثر أن يغرس الأشجار ويؤلف ثلاثين كتابا فى بيته الريفى . ودون كل شىء من لوكريشس إلى سبتاى زيفى . وعجز كتابه « للبخرة » عن تنقية هواء لندن ، ولكن فى كتابه « أشجار الغابات » دعا دعوة حارة إلى إعادة تشجير انجلترا ، وحث الحكومة على غرس الأشجار فى مختلف أنحاء لندن ، التى تعد أشجارها اليوم من أعظم مفاخرها ومباهجها . أما كتابه « حياة مسز جودولفين » ، فهو مثل أعلى فى فضائل النساء وسط عربدة عودة الملكية وصخبها .

ومن ١٦٤١ إلى ٣ فبراير ١٧٠٦ ، قبل وفاته بأربعة وعشرين يوما ، دون ايفلين فى مذكراته كل ما رأى وسمع فى انجلترا أو فى القارة . وبوصفه

رجلا من ذوى المكانة لم يكن فى مقدوره أن يسجل من الخطايا أو الآراء الشخصية جداً ، مثل تلك التى تغرينا بقراءة « مذكرات » بيبز المسهبة ، ولكن وصفه لمدن أوربا ساعدنا كثيراً على اكتناه ماهية العصر . ففى مذكرات ايفلين صفحات رائعة عن « ممر سمبلون (٥١) » وكان فى بعض الأحيان يفصح عن مكنون صدره فى قطع تفيض بالحب والحنان والرقة ، مثلما كتب عن وفاة ابنه وهو فى سن الخامسة . ولم تنشر مذكرات ايفلين إلا فى ١٨١٨ .

إن إشارات ايفلين إلى بيبز فى مذكراته أدت إلى فحص المجلدات الستة المكتوبة بطريقة الاختزال ، والتى كان بيبز قد أوصى بها لكلية مجدلن فى كمبردج . وحلت رموز المذكرات التى بلغ عدد صفحاتها ٣٠١٢ بعد ثلاث سنوات من جهد شاق ، ونشرت فى ١٨٢٥ ، بعد اختصارها وتنقيتها. وهى الآن ولو أنها لم تستكمل ، تملأ أربعة مجلدات ضخمة . على أنها جعلت من بيبز شخصية من أكبر الشخصيات المعروفة فى التاريخ بالصراحة وعدم الصحة . اما من حيث الصراحة ، فمن الواضح أنه قصد أن تنشر المذكرات إذا قدر لها أن تنشر — بعد وفاته ، لا قبلها — ولهذا حوت تفاصيل كان ينبغى كتمانها فى حياته ، ولا يزال بعضها « غير قابل للنشر » . أما عدم صحتها ، فيرجع إلى أنها تتناول حقبة تقل عن عشر سنوات (١ يناير ١٦٦٠ — ٣١ مايو ١٦٦٩) من حياة بيبز ، ولم تورد سردا وافيا لعمله فى أركان حرب القوات البحرية الانجليزية ، حيث تدرج فى أعمال ازدادت أهمية من ١٦٦٠ إلى ١٦٨٩ ، وبعد وفاته بزمن طويل تذكروه وكرموه على أنه رجل إدارة قدير نشيط مجد .

وكان أبوه خياطا (ترزيا) فى لندن ، وكان ابنا صغيرا لأحد الملاك اتجه إلى العمل والتجارة لأن الإبن الأكبر ورث الضيعة طبقاً للقانون . ودخل صمويل كمبردج على منحة ، وحصل على درجتى الليسانس والاستاذية ، ولم تسجل له أية عقوبة ، إلا تأنيب علنى « لأنه شوهد يوما يحتسى الخمر

بشكل مخز » ، ومرة أخرى لأنه كتب قصة « الحب خداع » التى أعدمها فيما بعد . وفى سن الثانية والعشرين (١٦٥٥) تزوج من اليزابث سانت ميشيل ابنة أحد الهيجونوت . وفى ١٦٥٨ أجريت له عملية « الحصاة فى الكلى » ، ونجحت العملية وظل يحتفل بذكرى نجاحها سنويا بعد ذلك ، تعبيراً عن الحمد والشكر ، كما يظهر من السنوات المسجلة فى مذكراته .

وكانت هناك صلة قرابة بعيدة تربطه بسيرادوارد مونتاجو ، فعين بيبز سكرتيراً له ، (١٦٦٠) ورافقه صمويل فى الأسطول الذى قاده لإحضار شارل الثانى من المنفى . وقبل أن ينصرم هذا العام عين بيبز كاتباللعمليات فى إدارة البحرية . فثابر على دراسة الشئون البحريه بالقدر الذى سمح له به مطاردته للنساء . ومذ كان رؤساؤه منكبين أيضاً على هذه الرياضة القديمه ، فإنه سرعان ما أصبح أكثر دراية بتفاصيل البحرية من أميرى البحر كليهما (مونتاجو ودوق يورك) ، إلى حد أنهما اعتمدا على معلوماته . وفى أثناء الحرب مع هولنده (١٦٦٥ — ١٦٦٧) نجح نجاحا مشهودا فى تموين الأسطول ، وعند تفشى الطاعون لزم عمله فى الوقت الذى فر فيه معظم موظفى الحكومة . وفى ١٦٦٨ حين حمل البرلمان على إدارة الأسطول ، وكل إلى بيبز أمر الدفاع عنها ، وبفضل خطابه الذى استمر ثلاث ساعات فى مجلس العموم برئت إدارة الأسطول تبرئه لاتستحقها . وبعد ذلك كتب بيبز لدوق يورك ثلاث مذكرات عرض فيها وجوه النقص والخلل فى هيئة البحرية ، وقد لعبت هذه المذكرات الثلاث دورا فى إصلاح الأسطول . وبذل بيبز جهداجبارا ، وكان يصحو من نومه عادة فى الرابعة صباحا(٥٢) . ولكنه وجد أنه كان يستعين على راتبه الذى يبلغ ٣٥٠ جنيها فى العام ، بالهدايا والعمولات والمنح التى يمكن أن يسمى بعضها رشوة ، ولكنها كانت فى هاتيك الأيام اللطيفة تعتبر زيادات إضافية مشروعة . وكان رئيسه لورد مونتاجو نفسه قد أوضح له « أنه ليس مرتب أيه وظيفة هو الذى يجعل شاغلها غنيا ، ولكن فرصة الحصول على

الأموال وهو يشغلها(٥٣) .

وكل ما ارتكب بيبز من أخطاء مدون بصراحة خالصة تامة نسبيا . وليس واضحا أمام أعيننا السبب الذى من أجله احتفظ بها بمثل هذه الأمانة . إنه أخفاها فى حذر وعناية طوال حياته ، ودونها بطريقة الاختزال الخاصة به ، مستخدما ٣١٤ حرفا مختلفا ، ولم يضع ترتيبا خاصا لنشرها بعد وفاته . وواضح أنه وجد لذة ومتعة فاستعرض أنشطته اليومية والاضطرابات فى أعضاء جسمه وشجاراته الزوجية ، ومغازلاته وعبثه ، وعلاقاته النسائية الشائنة . إنه — إذا أعاد قراءة هذا السجل — بينه وبين نفسه — لا بد أن يشعر بما نشعر به نحن من رضا خفى إذا نظرنا لأنفسنا فى المرآة . وهو يروى لنا كيف أنه جعل زوجته تحلق له شعره « فوجدت فى رأسى وجسمى نحو عشرين قملة » وهذا فى إعتقادى ، أكثر مما وجدت فى هذه السنوات العشرين(٥٤) . وتعلم أن يحب زوجته ، ولكن بعد مشاجرات كثيرة ، تميز فى بعضها غيظا ، وكثيراً ، على حد قوله ، ما أساء معاملتها ، وفى إحدى المرات « جذبها من أنفها(٥٥) » . وفى مرة أخرى « لطمتها على عينها اليسرى لطمة جعلت البائسة المسكينة تصرخ من شدة الألم ، ولكنها اهتاجت وحاولت أن تعضنى وتخدشني بأظافرها ، ولكنى تظاهرت بالخجل مما فعلت حتى أمسكت هى عن العويل(٥٦) » ووضع على عينها ضمادة ، وانصرف للقاء إحدى خليلاته . وعاد إلى البيت لتناول العشاء ، ثم غادره ، حيث لقى « زوجة باجول ، فصحبتها إلى إحـــدى حانات الجعة ، وهناك لاطفتها كثيراً ، ثم افترقت عنها إلى امرأة أخرى حاولت أن أعانقها وأقبلها ، ولكنها لم ترغب فى شيء من هذا ، مما ضايقنى كثيراً » .

وقد يبعث على العجب والدهشة أن يكون للرجل مثل هذه الطاقة الحيوية فاستبدل العشيقة كل بضعة شهور ، وطارد النساء حتى صددنه عنه بالدبابيس(٥٧) . واعترف بأنه « وقع فى أسر الجمال إلى حد غريب(٥٨) » . وقال « كنت استمع فى كنيسة وستمنستر إلى عظة ، وقضيت الوقت (سامحنى

الله) محدقا النظر فى مسز بتلر(٥٩) » وكان يتطلع فى شغف خاص ولهف جارف مما يكاد يكون خيانة عظمى — إلى ليدى كاسلمين (عشيقة الملك)، ومذ وقع نظره عليها فى قصر هويتهول « استغرق فى النظر إليها(٦٠) » . ولكنه قنع بثيابها المرصوصه فى صف واحد ، وفى هذا يقول « وكان من الخير لى أن أتطلع إلى هذه الثياب(٦١) » ، فلما « عدت إلى البيت وتناولت العشاء وآويت إلى الفراش ، تخيلت أنى أغازل مسزستيوارت (ليدى كاسلمين وأعبث معها . فى نشوة غامرة من السرور(٦٢) » . ولكن نفسه لم تهف إلى فاتنات البلاط فحسب . فقدمرت ببابه يوما مسز ديانا ، إحدى جاراته ، فجذبها « إلى البيت وصعدت بها الطابق الأعلى ، وبقيت ألهو وأعبث معها فترة طويلة(٦٣) » . وأخذ مسز لين إلى لامبث (أحد أقسام لندن) «وبعد أن سئمت رفقتها « صممت» على ألاأعود لمثل هذا ماحييت(٦٤) »وضبطته زوجته ذات مرة يعانق فتاة ، فهددت بالانفصال عنه ، فهدأ من روعها بالوعود والأيمان . وإنطلق إلى آخر عشيقاته . ذلك أنه أغوى وصيفة زوجته — ديبورا ويلت — وكان يحب أن تمشط ديبورا له شعره ، ولكن زوجته انقضت عليه أثناء مغامراته مع ديبورا . فعاد يقسم ويعد يتعهد من جديد ، وطردت الوصيفة ، وأخذ بيبز يتردد عليها وكأن زيارتها جزء من عمله اليومى .

وظلت رغبته الجنسية على حدتها حتى حين ضعف بصره . إذ عادة القراءة والكتابة فى ضوء الشمعه بدأت تضعف بصره فى ١٦٦٤ . ولكن فى سنوات العسرة التى تلت ذلك ، بذل فى العمل جهدا شاقا بصفة خاصة ، على الرغم من تفاقم علته . وفى ٣١ مايودون آخر ما سجل فى مذكراته :

« وهكذا ينتهى ما أشك فى قدرتى على المضى فيه إطلاقا بنور عينى ، ألا وهو تدوين مذكراتى . ومهما تكن النتيجة فليس لى ألا أن أتجلد وأحتمل . ومن ثم اعتزمت أن يدونه من حولى بطريقتهم فى الكتابة العادية ، ولذلك ينبغى أن أقنع بألا يسجل إلا ما هو صالح لأن يعرفوه

ويعرفه العالم أجمع . وإذا كان هناك شيء ــ وهو ليس بالكثير ، بعد أن ولت كل خيلائي مع ديبورا ، وقعد بي ضعف بصري عن الاستمتاع بأية ملذات أو مسرات ــ فلا بد أن أحاول أن احتفظ في كتابي بهامش ، أضيفه فيه ، هنا وهناك ، بعض الملاحظات بخط يدي ، بطريقة الاختزال . وهكذا أروض نفسي على هذه الطريقة التي لا تقل مرارة عن أن أراني محولا إلى القبر الذي يتولى الله العلي العظيم إعدادي له ، ولكل المتاعب والمشاق التي لابد أن تنتابني عندما أفقد نور عيني . صمويل بيبز » .

وتبقى له من عمره بعد ذلك أربعة وثلاثون عاما . وظل يتعهد في عناية بالغة ما بقي له من نور عينيه ، ولم يعم بصره تماما قط ومنحه الدوق والملك أجازة طويلة انقطع فيها عن العمل ، عاد بعدها إليه . وفي ١٦٧٣ عين سكرتيرا لامارة البحر ، وفي نفس الوقت تحولت زوجته إلى الكاثوليكية . ولما وقعت مؤامرة البابا على انجلترا اعتقل بيبز وأودع سجن لندن (٢٢ مايو ١٦٧٩) للاشتباه في أن له ضلعا في مقتل جودفري . ثم دحض الإتهام وأخلى سبيله بعد تسعة أشهر قضاها بين جدران المعتقل . وبقي بعيدا عن الوظيفة حتى ١٦٨٤ ، حيث أعيد سكرتيرا لإمارة البحر كما كان ، واستأنف العمل على إصلاح البحرية . ولما أصبح رئيسه (دوق يورك) ملكا على انجلترا ــ جيمس الثاني ــ كان بيبز في واقع الأمر على رأس إدارة القوات البحرية ، ولكن عندما هرب الملك جيمس إلى فرنسا ، أعيد بيبز إلى السجن ثم أفرج عنه وعاش أعوامه الأربعة عشر الأخيرة من عمره ، متقاعدا عن العمل وكأنه « مرشد البحرية العجوز » . ووافته المنية في ٢٦ مايو ١٧٠٣ ، وقد بلغ السبعين ، مكللا بالاجلال والاحترام ، مطهرا من الذنوب والآثام .

وكم كان في هذا الرجل من خلال محمودة . لقد عرفنا حبه للموسيقى ، كما أنه تابع الحركة العلمية ، وكان ضليعا في الفيزياء . وأصبح عضوا في « الجمعية الملكية » وانتخب رئيسا لها في ١٦٨٤ وكان مزهوا برجولته ، وكان يقبل

الرشوة ، وضرب خادمه حتى جرح ذراعه(٦٥) وقسا فى معاملته لزوجته ، وكان فاسقا بكل ما فى هذه الكلمة من معنى ، ولكن كم كان له فى الملوك والأدواق من أسوة أخزى وأقبح فى مجال الدعارة والفجور ، ومن منا يمكن أن يتمتع بسمعة طيبة لا تشوبها شائبة إذا ترك مثل هذه المذكرات الأمينة ؟ .

٦ — دانيال ديفو : ١٦٥٩ - ١٧٣١

هنالك امرأة أفلتت من يد بيبز، تستحق منا هنا الحناءة احترام فى شىء من الحذر ، بوصفها « أم القصة الطويلة » فى فترة عودة الملكية ، وأول امرأة انجليزية تعيش على قلمها . إن افرا بن Aphra Behn جديرة بالذكر من عدة نواح : ولدت فى انجلترا ، وترعرعت فى أمريكا الجنوبية . وعادت إلى انجلترا فى سن الثامنة عشرة (١٦٥٨ ، وتزوجت تاجرا لندنيا من أصل هولندى . وتركت انطباعا قويا فى نفس شارل لدهائها وذكائها . وأوفدت فى مهمة سرية إلى الأراضى الوطيئة ، فقامت بها خير قيام ، ولكنها تلقت أجرا زهيدا إلى حد أنها انصرفت إلى الكتابة ، وسيلة لكسب العيش . وكتبت مسرحيات هزلية فاجرة لاقت نجاحا ملحوظا . وفى ١٦٧٨ نشرت « أورونوكو » وهى قصة « رقيق ملكى » زنجى ، وحبيبته امواندا . وكانت مزيجاً أصيلا من الواقعية والرومانسية أو الخيال . وكان الطريق ممهدا أمام قصة روبنسن كروزو ، وللقصة الرومانسية .

كذلك عاش ديفو على قلمه . وكان من أكثر الأقلام تمددا للجوانب والبراعات : وكان أبوه جيمس ديفو قصابا فى لندن ، شديد التمسك بمذهب البرسبيتريان . وكان من المتوقع أن يكون دانيال واعظا ، ولكنه آثر الزواج والعمل والسياسة . وأنجب سبعة أطفال ، وأصبح تاجر جوارب بالجملة . والتحق بجيش دوق مونموث فى الثورة (١٦٨٥) ، ثم انضم إلى جيش وليم فى الإطاحة بعرش جيمس الثانى وفى ١٦٩٢ أفلس وبلغت ديونه

١٧ ألفا من الجنيهات ، ثم دفع لدائنيه استحقاقاتهم كاملة تقريبا فيما بعد . وفيما هو يكسب ويخسر . أصدر كتيبات فى طائفة من الموضوعات زاخرة بكنز مدهش من الأفكار الأصيلة . ففى مؤلفه « بحث فى المشروعات » عرض مقترحات عملية متقدمة كثيرا عن زمانه ، فى المصارف ، والتأمين ، والطرق ، ومستشفيات الأمراض العقلية ، والكليات الحربية ، والتعليم العالى للبنات . وانتقل إلى Tilbary حيث أصبح سكرتيرا لمصنع للقرميد ثم مديرا ، وفى النهاية مالكا له . ولما قدموه إلى وليم الثالث عينه فى وظيفة حكومية صغيرة ، وأيد سياسة الملك تأييدا كبيرا إلى حد اتهامه بأنه هولندى أكثر منه انجليزى ، فدافع عن نفسه فى قصيدة رائعة ، عنوانها « الإنجليزى الصميم الأصيل » (١٧٠١) ذكر فيها الإنجليز بأن الأمة كلها مختلطة الدماء والأعراق ، ولما كان هو نفسه من المنشقين فإنه فى ١٧٠٢ نشر كراسة غفلا من اسم المؤلف ، تحت عنوان « أقصر طريق مع المنشقين » استبق فيها أسلوب سويفت فى التسفيه والتسخيف عن طريق المبالغة ، وهاجم فيها اضطهاد الأنجليكانيين للمنشقين ، باستحسانه اعدام كل منشق يقوم بالوعظ ، وطرد المنشقين الذين يستمعون إليه من انجلترا . وقبض عليه فى فبراير ١٧٠٣ ، وحكم عليه بالغرامة والسجن وعذب فى الشهر . وأفرج عنه فى نوفمبر ، ولكن فى نفس الوقت كان مصنع القرميد قد تخرب وتوقف العمل فيه .

وكان الرجل الذى ساعد فى الإفراج عنه هو الوزير روبرت هارلى الذى تحقق من مقدرة ديفو الصحفية ، ومن الواضح أنه عقد معه اتفاقا لاستغلال قلمه ، ومن ثم إلتحق ديفو بخدمة الحكومة طيلة بقية حكم الملكة آن . وبدأ فور إطلاق سراحه فى إصدار صحيفة ذات أربع صفحات ثلاث مرات فى الأسبوع . اسمها « ريفيو » التى ظلت تظهر حتى ١٧١٣ . وكان معظمها بقلم ديفو .

وفى عام ١٧٠٤ / ١٧٠٥ طاف ديفو بأرجاء انجلترا على ظهر جواد .

يدعو للمستر هارلى فى الانتخابات . وفى تلك الأثناء جمع مادة كتابه « جولة فى انجلترا وويلز » . وفى ١٧٠٦ — ١٧٠٧ عمل لحساب هارلى وجودولفين جاسوسا فى اسكتلنده ، وحظيت كراساته القوية بكثير من القراء كما جلبت إليه الكثير من الأعداء . واعتقل ثانية فى ١٧١٣ وفى ١٧١٥ ، ومرة أخرى أطلق سراحه بناء على وعد بتسخير قلمه فى خدمة الحكومة .

وكان له قدرة على ابتكار كثير من الموضوعات الأدبية . وفى ١٧١٥ نشر بعض مقتطفات يفترض أن كاتبها من الكويكرز . وفى نفس السنة نشر « حروب شارل الثانى عشر » كما يرويها « استكلندى فى خدمة السويد » . وأصدر فى ١٧١٧ رسائل يظن أن كاتبها تركى ، يندد بالتعصب المسيحى . وأسهم فى تحرير مجلة اسمها بحق الضباب « Mist » بتوقيع مراسلين وهميين . وقلما وقع ديفو كتاباته باسمه . وإلى جانب هذه البراعة فى تمثيل شخصيات مختلفة ، جمع ديفو سمة الاطلاع فى الجغرافيا ، وبخاصة جغرافية افريقية والأمريكتين . وظاهر أنه افتتن بكتاب وليم دامبيير « رحلة جديدة حول العالم » (١٦٩٧) ، وفى احدى رحلات دامبيير ألقت سفينته المسماة « الثغور الخمسة » مراسيها فى جزر جوان فرنانديز على بعد نحو أربعمائة ميل إلى الغرب من شيلى . وكان أحد البحارة الاسكتلنديين يدعى اسكندر سلكيرك قد تشاجر مع القبطان ، فطلب إليه أن يتركه فى احدى الجزر الثلاث ، على أن يزوده ببعض الحاجيات الضرورية . وبقى البحار هناك وحيدا لمدة أربعة أعوام ، حيث أعيد إلى انجلترا ، وهناك قص قصته على ريتشارد ستيل الذى كتبها فى عدد « الرجل الإنجليزى The Englishman » الصادر فى ٣ ديسمبر ١٧١٣ ، كما رواها كذلك لديفو ، وزعم أنه أعطاه بيانا مكتوبا عن مغامرته فى الغربة والوحدة(٦٦) . وحول ديفو هذه الخلاصة إلى قطعة من الأدب . وفى ١٧١٩ نشر أشهر قصة فى القصص الإنجليزى .

وألهبت « حياة روبنصن كروزو ومغامراته العجيبة المدهشة » خيال انجلترا . وظهرت منها أربع طبعات فى أربع شهور . وهنا كان مفهوم جديد للمغامرة والصراع — لا صراع الإنسان ضد الإنسان ، ولا صراع الإنسان المتحضر ضد الإنسان المتوحش . بل كفاح الإنسان ضد الطبيعة ، صراع رجل وحيد ، يتملكه خوف حقيق ، لا يجد أى عون أو مساعدة ، حتى جاء « التابع المخلص الأمين » ، وبنى حياة من المواد الخام فى الطبيعة . وتلك كانت تاريخ حضارة رجل واحد فى مجلد واحد . واعتبرها كثير من القراء تاريخا ، حيث لم ترو قط فى الأدب من قبل قصة جمعت بين مثل هذه الأشياء التى تحتمل الصدق والكذب فى مثل هذه التفاصيل التى أخذ بعضها بخناق بعض بشكل عارض . إن تمرس ديفو فى الخداع الأدبى رفعه من الصحافة إلى الفن .

وعاش ديفو فى شىء من بحبوحة العيش فى لندن ، ولكنه لم يتخل عن انتاجه الذى لا يبارى . فبينما ظل يصدر الكراسات ، أخرج كتبا فى الحجم الطبيعى ، تضم قصص صغيرة . فنشر فى ١٧٢٠ « تأملات جادة فى حياة روبنصن كروزو ومغامراته المدهشة » ، « حياة ومغامرات مسز دنكان كامبل » (وهى ساحرة مشعوذة صماء بكماء) ، وبعد ذلك بشهر واحد « مذاكرات فارس » « وبن نروفاتو » وقد حسبه بت الأكبر تاريخا وبعد شهر آخر أخرج « حياة القبطان المشهور سنجلتون ومغامراته وقرصناته » وهو كتاب حوى توقعات مدهشة عن كشوف فى أفريقية . وفى ١٧٢٢ أصدر « هناء وشقاء مول فلاندرز » و « صحيفة عام الطاعون » ، و « تاريخا كولونيل جاك » ، و « الغزل الدينى » ، و « التاريخ النزيه لبيتر السكسوفتش « قيصر المسكوف الحالى » — وهذه هى المرة الثانية التى يستبق فيها فولتير فى كتابه سير الحياة . وقصد بهذه المجلدات الضخمه أن توفر سبل العيش لأسرته ، ولكنها بفضل قوة خيال الكاتب وأسلوبه الفياض ، أصبحت أدبا . وفى « مول فلاندرز » اندس ديفو إلى عقل بغى وقلبها ، حتى أفضت إليه بقصتها بشكل يتضح معه صراحتها واخلاصها ويدعو إلى تصديقها

ولو ظاهريا ، حتى تركها فى النهاية راضيه « آمنه مطمئنه فى خير عافية » وهى فى السبعين(٦٧) . أما « صحيفه عام الطاعون » فكانت مدعمه بأدق الوقائع والحقائق والاحصاءات ، حتى اعتبرها المؤرخون تاريخا .

أما عام ١٧٢٤ فلا يثير دهشة كبيرة : ذلك أن ديفو نشر احدى أمهات قصصه « السيدة السعيدة الحظ » المعروفة باسم « روكسانا » وهى المجلد الأول من مجلدين يتناولان جولته فى ربوع جزيرة بريطانيا العظمى ، و « حياة جون شبرد » وهو يوهم بأنه مخطوطة سلمها شبرد إلى صديق له قبل إعدامه . وكانت هذه إحدى السير القصيرة المديدة التى كتبها ديفو عن حياة المجرمين ، ومهدت إحدى سير الحياة واسمها « وغد المرتفعات » (١٧٢٤) الطريق لكتاب سكوت « روب روى » كما مهدت سيرة أخرى ، هى « حياة جوناثان ويلد » الطريق أمام فيلدنج . والحق أن أى موضوع شعبى أسال قلم ديفو ، وأفاض عليه الجنيهات من خزائن ناشرى كتبه ، من ذلك « التاريخ السياسى للشيطان » (١٧٢٦) ، و « خفايا السحر » (١٧٢٠) ، و « الكشف عن أسرار الدنيا الخفية » ، أو تاريخ حقيقة الأشباح (١٧٢٧ـ ١٧٢٨) أضف إلى هذا كله قصيدة فى اثنى عشر جزءا « العدل الإلهى » يدافع فيها عن الحقوق الطبيعية لكل إنسان فى الحياة وفى الحرية وفى التماس السعادة وسط هبوط ديفو كثيراً إلى مستوى ذوق الشعب وأخيلته ، ترى أنه أسهم اسهاما مخلصاً فى أفكار جادة : مثل « التاجر الإنجليزى الكامل » (١٧٢٥ — ١٧٢٧) ، و « خطة التجارة الإنجليزية » (١٧٢٨) ، والكتاب الذى لم ينته منه « الرجل الإنجليزى الكامل » ، فإنه فى هذه الكتب جميعها قدم معلومات مفيدة ونصائح عملية ، لم تتلاءم فى كل الأحوال مع أخلاقيات الانجيل .

وقد لا نحبذ أخلاقيات ديفو أو سلوكه الأدبى ، ولكننا نملك الاعجاب بمثابرته وجده ، وربما لم يشهد التاريخ قط منذ انجاب رمسيس الثانى ١٥٠ ولدا مثل وفرة ديفو فى الانتاج . والشىء الوحيد الذى يكاد لا يصدق

فى ديفو هو أنه الذى كتب كل ما كتب ، لأننا كذلك يتولانا العجب كل العجب من نواحيه عقل ديفو الذى سخرت فيه قوة الخيال وقوه الذاكرة لهذا العمل الشاق أو الجهد الجهيد ، والذى أخرج هذه الأشياء الوهمية المقبولة شكلا إلى أبعد حد فى الأدب . وأننا لنعترف بعبقرية وشجاعة رجل استطاع مع ضخامة العمل والعجلة فى انجازه ، أن يحتفظ بهذا المستوى الرفيع فى المادة والأسلوب . ففى المائتين والمشرة مجلدات التى أخرجها (إذا صدقنا ماقيل) لايكاد المرء يقع على صحيفة واحدة مملة باهتة ، وإذا اتفق أن كان ديفو أحيانا بليدا غبياً فإنه كان يفعل ذلك عن عمد ليضيف إلى حكايته شيئاً من احتمال الصدق والكذب . ولم يبزه أحد فى بساطة السرد ووضوحه ، وفى كونه طبيعيا بعيدا عن التكليف إلى حد الاقناع . وهنا كانت عجلته ضربا من ضروب الحظ السعيد له ، حيث لم يكن لديه فسحة من الوقت للتنميق و الزخرف . وأرغمه تدريبه الصحفى ونزعته الصحفية على الإيجاز والوضوح . وكان أكبر صحفى فى زمانه بكل معانى الكلمة ، ولو أن هذا الوصف ينطبق على ستيل وأديسون وسويفت . فإن صحيفته « ريفيو » مهدت الأرض التى أنبتت فيها صحيفة « سبكتاتوز » بذورا منتقاة بشكل أفضل . والحق أن هذا شرف أى شرف ، ولكن أضيف إليه الشهرة العالمية الباقية على مر الدهور لقصة روبنصن كروزو ، وأثرها على قصص المغامرات ، حتى على قصة تختلف اتجاهاتها كل الاختلاف مثل « رحلات جلليفر » وإذا استثنينا مؤلف ذلك الإتهام الذكى لبنى الإنسان (سويفت فى رحلات جلليفر) ، فإن ديفو كان أعظم عبقرية فى رجال الأدب الانجليزى فى عصر زخر بهم .

٧ — ستيل وأديسون

يحدد ريتشارد ستيل أكثر من أى إنسان غيره بداية عصر الانتقال فى الأدب ، من عودة الملكية إلى حكم الملكة آن . واتصف فى شبابه

بكل صفات العربدة والصخب والفجور التى سادت فترة عودة الملكية .
ولد فى دبلن ، وكان أبوه موثقا عاما (كاتب عدل) ، وتعلم فى مدرسة تشارتر هاوس وأكسفورد وكان حساسا سريع الاهتياج كريما ، وبدلا من الحصول على درجته الجامعية انضم إلى جيش الحكومة فى ايرلنده ، وكان يسف فى شرب الخمر اسفافا ، ويبارز حتى يقارب أن يصرع خصمه . وأكسبته التجربة رصانة عابرة ، فبدأ يحمل على المبارزة ، وكتب مقالا عن « البطل المسيحى » (١٧٠١) جادل فى امكان أن يكون المرء سيدا ماجـــدا مهذبا « جنتلمان » مع بقائه مسيحيا . ووصف الفساد الذى ساد العصر ، وعاد بذاكرة قرائه إلى الكتاب المقدس بوصفه منبع الإيمان الصادق والخلق القويم ، وناشد الرجال أن يحترموا جمال النساء وعفتهن .

وكان فى التاسعة والعشرين ، حين وجد أنه حتى الطبقة الوسطى التى ينتمى إليها ، تتبرم به على أنه واعظ ممل ، فعقد العزم على النهوض برسالته عن طريق الروايات ، وامتدح تنديد جرمى كولبير بالخلاعة والفحش فى المسرح ، فانبرى فى سلسلة من الملهيات يدافع عن الفضيلة يشن حملات صادقة على الأوغاد . ولكن هذا الإنتاج لم يلق نجاحا . فالحق أن المسرحيات حوت مشاهد حية ودلت على ذكاء وموهبة ، ولكن جمهور النظارة اشتكوا فى حل عقدة الرواية أو فى نتيجتها ، وطالبوا باللهو والتسلية على حساب الوصايا العشر مهما كان الثمن غاليا ، على حين أن المتدينين الحصفاء الذين قد يتعاطفون مع مشاعره ، قلما كانوا يظهرون فى المسرح . كيف الوصول إلى هؤلاء الناس ؟

وقرر ستيل أن يجرب وسيلة يواجههم بها فى المقاهى . وفى ١٢ أبريل ١٧٠٩ أخذ ورقة من صحيفة ديفو « ريفيو » وأصدر العدد الأول من صحيفة تصدر ثلاث مرات فى الأسبوع ، أطلق عليها « The Tatler » وحررها وكتب معظم مادتها تحت اسم مستعار « ايزاك بيكرستاف » . ووجهها إلى المقاهى ، حيث أعلن : —

« كل ضروب البسالة والكياسة ، والمسرات والتسلية » تلتقون بها فى « مقهى هوايت للكاكاو » والشعر فى « مقهى ول Will » والعلم والمعرفة تحت عنوان « جريشيان » . والأنباء الخارجية والداخلية من « مقهى سان جيمس » . أما سائر الموضوعات التى ساقدمها فمن عندى أنا .

وكان مشروعا بارعا ، أثار اهتمام رواد المقاهى ، واستقى الأنباء والموضوعات من مناقشاتهم هناك ، وأتاح لريتشارد ستيل أن يعبر عن آرائه دون مقاطعة أو نزاع ، وفى العدد ٢٥ الصادر بتاريخ ٧ يونيه ١٧٠٩ ذكر أنه تلقى رسالة من « سيدة شابة ... ترثى فيها لسوء حظ . . حبيبها الذى أصيب مؤخرا بجرح أثناء المبارزة » واستطرد ستيل ليبين سخف عادة تحتم أن يدعو الشخص الذى أوذى الشخص المسىء ليضيف ضغثا إلى ابالة أو القتل إلى الإساءة ، فماذا تعنى . المبارزة أو التحدى إلا هذا !!

سيدى ، أن سلوكك الشاذ فى الليلة الماضية ، وتطاولك على فى جرأة وحرية طابت لهما نفسك ، كل هذا يدفعنى إلى أن أوجه إليك هذا الإنذار ، لأنك مغرور أحمق غير مهذب .. سألتقى بك فى هايدبارك فى ظرف ساعة ، حاملا مسدسا ، وحاول أن تصوبه إلى رأسى ، حتى ألقنك درسا فى آداب السلوك » .

وهنا كان صوت الطبقة الوسطى يسخر من الأرستقراطية . والحق أن الطبقة الوسطى أساسا هى التى زحمت المقاهى .

وفى مقالات أخرى سخر ستيل من بذخ الأرستقراطية ولغوها ومظاهرها الكاذبة وزينتها وزخارفها وملابسها ، وتوسل إلى النساء أن يرتدين الثياب البسيطة ، ويعتنمن عن الحلى والمجوهرات . فإن عقد اللؤلؤ فوق الصدر لايضيف شيئاً إلى الصدر العاجى الجميل الذى يحمله(٦٨) » . إن رقته مع النساء كانت تتبارى مع ولعه بالخمر . وألح على القول بأنهن بحق يتمتعن بالذكاء وسلامة البنية . ولكنه إمتدح الكثير من تواضعهن وطهرهن ــ وتلك صفات لم تعترف بها ملهاة فترة عودة الملكية . وقال عن

إحدى النسوة « إن حبك لها يعني أنك تتسم بالتحرر فى تعليمك » واعتبر تاكرى « أن هذه العبارة ربما كانت أرق تحية قدمت لامرأة(٦٩) ». ووصف ستيل ، فى إحساس عميق ، مباهج الحياة الأسرية ، والوقع الجميل لأقدام الأطفال ، وإقرار الزوج بفضل زوجته المسنة وعرفانه لجميلها :

« إنها فى كل يوم تدخل على قلبي سرورا أكثر بكثير مما عرفت فيها أيام كنت أستمتع بجمالها وأنا فى نضارة الشباب ، إن كل لحظة فى حياتها تقدم لى أمثلة جديدة على تجاوبها مع ميولى ورغباتى ، وحسن تدبيرها بالنسبة لمواردى فى أوقات اليسر والعسر . إن وجهها أجمل بكثير مما رأيته لأول مرة . وليس ثمة ذبول فى تقاطيعه إلا إستطعت أن ألحظه منذ اللحظه التى حدث فيها نتيجه إهتمام شديد قلق بمصالحى ربما يعود على بالخير .. إن حب الزوجه أسمى بكثير من ذلك الهوى التافه الذى يسمونه عادة بهذا الاسم (الحب) ، بقدر هبوط مستوى ضحكات المهرجين العاليه الماجنه عن مستوى المرح الهادىء الرشيق عند الأماجد المهذبين(٧٠) » .

وكان ستيل قد تزوج مرتين عندما كتب هذا ، وإن رسائله إلى زوجته لهى نماذج للاخلاص والحب ، ولو أنها سرعان ما تشتمل على اعتذارات عن عدم الحضور لتناول الطعام فى البيت . إنه أخفق فى أن يكون الرجل البرجوازى الفاضل الذى كان فى نظره نموذجا للحياة ، فإنه سكر كثيراً وأنفق كثيراً وإستدان كثيراً ، وإجتاز الشوارع الجانبية ليتحاشى لقاء أصدقائه الذين أقرضوه المال . وإختفى عن الأنظار تملصا من دائنيه ومراوغة لهم ، ولكنه فى نهاية الأمر أودع السجن بسبب الدين ، وقارن قارئو صحيفته « Tatler » بين عظاته وتصرفاته . وأصدر جون دنيس نقدا لاذعا لآراء ستيل ، وتناقص عدد المشتركين فى الصحيفه واحتجبت عن الظهور فى ٢ يناير ١٧١١ ، ولكنها تحتفظ بمكانتها فى تاريخ الأدب الإنجليزى ، لان بين جنباتها بدأت الأخلاقيه الجديدة تعبر عن نفسها ، وبدأت القصه

القصيرة تأخذ شكلها الحديث ، كما طور أديسون المقالة الحديثه ، حيث بلغ بها حدا الاتقان والكمال فى صحيفه « سبكتاتور » .

وولد أديسون وستيل كلاهمـــا فى ١٦٧٢ ، وكانا صديقين منذ كانا يدرسان معا فى مدرسه تشارترهاوس . وكان والدجوزيف أديسون قسيسا أنجليكانيا ، أشرب ابنه من التقوى والورع ماقاوم به كل مساوىء ومفاسد فترة عودة الملكيه . وكسبت له براعته فى اللاتينيه منحه دراسيه . وفى سن الثانية والعشرين أعجب إرل هاليفاكس بمواهبه ، إلى حد أنه أقنع رئيس كليه ماجدلن بتحويل الشاب من سلك الكهنة إلى خدمة الحكومة . وقال هاليفاكس « يقولون عنى أنى عدو للكنيسه ، ولكنى لن أعود للإساءة إليها قط ، بعد أن أحتفظ بمستر أديسون بعيدا عنها(٧١) » ولما كانت المقدرة فى اللاتينية غير مقرونة بمعرفه اللغه الفرنسيه ، وكانت الحاجة إلى معرفة اللغة الفرنسية أساسية عند الدبلوماسيين فإن هاليفاكس خصص لأديسون ثلثمائة جنيه سنويا لينفق منها أثناء إقامته فى القارة . ولمدة عامين تجول أديسون على مهل فى أرجاء فرنسا وإيطاليا وسويسرا .

وبينما هو فى جنيف إرتقت الملكة آن عرش إنجلترا فأبعد أصدقاؤه عن مناصبهم ، وانقطع عنه راتبه . ولما لم يبق له إلا دخله الضئيل ، فإنه اشتغل معلما ومرشدا خاصاً لسائح إنجليزى شاب ، وطاف معه بأنحاء سويسرا وألمانيا والمقاطعات المتحدة . ولما انتهت هذه المهمة عاد إلى لندن ١٧٠٣ ، وعاش لبعض الوقت فى فقر يستره التعفف وحسن المظهر . ولكنه كان « مغنا طيساً » يجذب الثراء والحظ السعيد . ذلك أنه عندما انتصر دوق مالبورو فى معركة بلنهيم فى ١٣ أغسطس ١٧٠٤ فتش جودولفين وزير الخزانة عن شخص يخلد ذكر هذا النصر شعرا . وأوصى هاليفاكس بأديسون للقيام بهذا العمل ، واستجاب الشاب الموهوب بقصيدة رنانة « الحملة » ونشرت فى نفس اليوم الذى دخل فيه مالبورو العاصمة دخول المنتصر الظافر ، وساعد نجاح القصيدة على أن توطن انجلترا نفسها على

مواصلة القتال . إن جورج وشنجطن آثر الشعر المحلق عاليا الذى كتبه أديسون على سائر القصائد . وإليك أبياتا مشهورة منها :

« ايه يا ربة القريض ، أى شعر ترين أن أنشده القوات التى أشتعلت فى نفوسها نيران الغضب ، المتراصة فى ميدان المعركة ! إنى ليخيل إلى أنى أسمع دقات الطبول الصاخبة وصيحات النصر وأنات الموتى يختلط بعضها ببعض وطلقات المدافع المرعبة تشق أجواز الفضاء ، وصيحات الحرب تدوى مثل الرعد . وهنا أثبت مالبورو العظيم بروحه العالية أنه راسخ كالطود ، لايهتز لالتحامات الجيوش الهائجة ، وفى غمرة الضجة والفزع واليأس ، يشهد كل مناظر الحرب المروعة ، ويشرف على ساحة الموت ثابت الجنان ، يفكر فى هدوء . ويرسل المدد فى الوقت المناسب للفرق المتخاذلة ، وينفخ فى المحاربين المترددين من روحه فيدفعهم إلى الالتحام مع العدو ، ويحدد المعركة المتأرجحة أين تشتد وتحتدم . كما لو أن ملكا من السماء ، بأمر من عند الله زلزل أرض الأعداء بريح عاتية (كما حدث مؤخرا لبريطانيا الواهنة) . وفى هدوء ورصانة يسوق مالبورو العاصفة العاتية ، ويطيب نفسا بتنفيذ أمر الله سبحانه وتعالى ، فيمتطى صهوة جواده وسط الرياح الهوجاء ويقود العاصفة ويوجهها كيف يشاء » .

وحقق البيت الأخير والتشبيه الملائكى لأديسون العودة سالما إلى وظيفة حكومية تدر عليه راتبا ، بقى فيها طيلة السنوات العشر التالية . وفى ١٧٠٥ عين عضوا فى لجنة الاستئناف ، خلفا لجون لوك . وفى ١٧٠٦ وكيلا للوزارة . وفى ١٧٠٧ ألحق ببعثة هاليفاكس إلى هانوفر ، التى هيأت لأسرة هانوفر السبيل لارتقاء عرش انجلترا . وفى ١٧٠٨ اتخذ مقعده فى البرلمان ، وبفضل خدماته الجليلة احتفظ به حتى المهات . وفى ١٧٠٩ أصبح السكرتير الأول لنائب الملكة فى أيرلنده . وفى ١٧١١ أثرى إلى حد استطاع معه أن يشترى ضيعة فى رجبى بعشرة آلاف جنيه .

إن أديسون فى أيام الرخاء لم ينس ستيل . فأنبه على أخطائه ولكنه

هيأ له منصبا حكوميا ، وأقرضه مبالغ كبيرة من المال ، وطالبه مرة واحدة أن يسددها(٧٢) . وعندما صدرت صحيفة «The Tatler» غفلا من الاسم ، لاحظ إشارة إلى فرجيل كان قد لمح بها إلى ستيل ، وفى « إيزاك بيكرستاف » عرف ثانية صديقه المترف المفلس وسرعان ما اشترك فى الصحيفة . وفى ١٧١٠ سقطت حكومة الأحرار ، وفقد ستيل وظيفته الحكومية ، وفقد أديسون كل مناصبه باستثناء عضوية لجنة الاستئناف . واحتفلت صحيفة تاتلر بهذا العام بالاحتجاب عن الظهور . وشارك أديسون وستيل الواحد منهما الآخر آلامه وآماله ، وفى أول مارس ١٧١١ أخرجا أول عدد من أشهر الدوريات فى تاريخ الأدب الإنجليزى .

وظهرت صحيفة « سبكتايور » يومية ـ ماعدا يوم الأحد ، فى فرخ مطوى ذى أربع أو ست صفحات . وبدلا من تحديد المقالات من مراكز مختلفة . ابتدع المحرر المجهول الإسم ناديا وهميا يمثل أعضاؤه قطاعات مختلفة من دنيا الانجليز : سير روجردى كوفرلى سيد من الريف ، سير أندرو فريبورت يمثل طبقة التجار ، ويتحدث الكابتن سنترى باسم الجيش ، أما ول هنيكوم فهو الرجل العصرى المتأنق ، أما المحامى فى دار العدل فيمثل العلم والمعرفة ، ويجمع مستر « سبكتاتور » نفسه بين وجهات نظرهم فى إطار من المرح اللطيف والكياسة والذكاء ، مما نفذت معه الصحيفة إلى بيوت الانجليز وقلوبهم جميعاً . وفى العدد الأول وصف مستر سبكتاتور نفسه ، حتى جعل النوادى والمقاهى تحاول الكشف عن شخصيته بالحدس والتخمين :

« قضيت سنواتى الأخيرة فى هذه المدينة حيث يرانى الناس كثيرا فى معظم الأماكن العامة ، ولو أن عدد الصفوة المختارة من الأصدقاء الذين يعرفوننى لا يجاوز الستة ، وسأتحدث عنهم فى العدد القادم بشكل أدق . ولا يكاد يوجد مكان يأوى إليه الناس بصفة عامة إلا وظهرت فيه ، فأحيانا يروننى أدس أنفى فى حلقة من رجال السياسة فى « مقهى ول » ،

مصغيا بأكبر إهتمام إلى ما يدور فى هذه الاجتماعات الدورية . وأحيانا أدخن غليونى ، وعلى حين يبدو أنى غير منصت لشىء إلا ساعى البريد ، فإنى أسترق السمع إلى النقاش الذى يدور على كل مائدة فى الغرفة . وفى أمسيات الأحد أقصد إلى مقهى سان جيمس ، وانضم أحيانا إلى جماعة السياسيين الصغيرة فى الحجرة الداخلية ، بوصفى رجلا يذهب إلى هناك ليسمع ويستفيد . ووجهى كذلك معروف تمام المعرفة فى « جريفان » وفى مقهى « شجرة الكاكاو » « وفى مسارح « دروری لين » و « هاى ماركت » على حد سواء . وكانوا يحسبوننى تاجرا فى « البورصة » طيلة هذه السنوات العشر أو أكثر . وأحيانا حسبوا أنى يهودى من جماعة السماسرة الذين لا يوثق بهم فى « جوناتان » وجملة المقول إنى لاأرى حشدا من الناس إلا حشرت نفسى فى زمرتهم ، ولو أنى لا أنبس ببنت شفة إلا فى النادى الخاص بى .

وهكذا أعيش فى هذه الدنيا متفرجا ، لا واحدا من الجنس البشرى ، وبهذه الطريقه جعلت من نفسى رجل دولة وسياسة يطيل التأمل والتفكير ، وجنديا وتاجرا ، وصانعاً ماهراً ، دون أن أمارس العمل فى أى قطاع من قطاعات الحياة . كما أنى على دراية تامة بشئون الزواج والأبوة ، وأستطيع تبين وجوه الخطأ فى الإقتصاد وفى الأعمال وفى الإنحراف ، أفضل بكثير ممن يتولون هذه الأمور بأنفسهم ، لأن المتفرجين يكتشفون أخطاء يمكن ألا تقع عليها أعين المشتركين فى اللعبة . إنى لم أناصر قط حزبا فى اندفاع أو عنف . وإنى عاقد العزم على أن أقف موقف الحياد الدقيق بين الأحرار والمحافظين ، إلا إذا اضطررت إلى إعلان الإنحياز إلى أى من الفريقين بسبب تصرفات غير ودية من الفريق الآخر . وصفوة القول إنى كنت طوال حياتى « متفرجا » وتلك هى الشخصية التى أقصد ألا أحيد عنها فى هذه الصحيفة » .

وبتقدم المشروع ، جمعت « سيكتاتور » بين الموضوعات الاجتماعية

ودراسات العادات والسلوك والأخلاق والنقد الأدبى واستعراض أحوال المسرح . وكتب أديسون سلسلة من المقالات عن ملتون أدهش بها انجلترا حين سما بقصيدة « الفردوس المفقود » فوق مرتبة « الياذة » هوميروس « وانيادة » فرجيل . وتجنبت المناقشات الخوض فى السياسة التى تثير العداوات والتقلبات ، ولكن ألحت — واشترك فى هذا أديسون عن طيب خاطر — على دعوة ستيل إلى الإصلاح الاجتماعى . وظهر من جديد شىء من الروح البيوريتانية هذبته المحنة ، كرد فعل للنكسة التى اجتاحت فترة عودة الملكية ، ولكنها لم تعد الآن انهماكا لاهوتيا كئيبا مفرطا فى التخويف من الشيطان ومن الخطيئة المهلكة ، بل دعوة إلى الاعتدال والاحتشام موسومة بالتفاؤل مغلفة بالدهاء والظرف . وعلى هذا النسق بدأ عدد ١٠ نوفبر :

« إنه لمما يبعث على الرضا والارتياح أن أرى المدينة العظيمة تلح يوما بعد يوم على طلب صحيفتى هذه . وتستقبل مقالاتى الصباحية فى جدية واهتمام مناسبين . ويقول الناشر أن ثلاثة آلاف نسخة منها توزع يومياً بالفعل . فإذا حسبت أن النسخة الواحدة يتداولها عشرون قارئا ، وهو تقدير متواضع ، لأحصيت من المريدين ستين ألفا فى لندن ووستمنستر ، آمل أن يلحظوا الفرق بينهم وبين القطيع الطائش من أخوانهم الجهلة الغافلين ، ومذ حظيت بمثل هذا العدد الكبير من القراء فإنى لن أدخر وسعا فى أن يكون ما أزودهم به من علم ومعرفة مقبولا ، ومن تسلية نافعاً مفيداً . ولهذا أحاول أن أحيى الأخلاق بالدعابة وألطف الدعابة بالفضيلة ، لعل قرائى يشقون إذا أمكن ، عن هذا السبيل أو ذاك ، طريقهم إلى التأمل فيما يجرى حولهم كل يوم ، رغبة منى فى ألا يكون حظهم من الفضيلة قليلا عابرا ، أو مجرد ومضات متقطعة من التفكير ، صح عزمى على أن أنعش ذاكرتهم وعقولهم بين الحين والحين ، حتى أخرجهم من ظلمات اليأس والرذيلة والحماقة التى تردى فيها هذا العصر . فإن العقل الذى يخلد إلى الدعة والراحة ولو يوما

واحداً ، يشب على الحماقات والسخافات التى لا يمكن اقتلاعها إلا بالمداومة على تثقيفه تثقيفا جادا مثابرا . ولقد قالوا عن سقراط أنه أنزل الفلسفة من السماء لتسكن بين النـاس على الأرض ، وكم تهفو نفسى أن يقال عنى أنى أتيت بالفلسفة من المخابىء والمكتبات والمدارس والجامعات ، لتستقر فى النوادى والجمعيات ، وعلى موائد الشاى ، وفى المقاهى .

من أجل ذلك أوصى ، بالنسبة لتأملاتى هذه ، وبصفة خاصة ، الأسرات التى ترعى النظام والدقة فى حياتها ، أن تخصص فى كل صباح ساعة محددة لتناول الشاى والخبز والزبد ، وأنصحها جديا ، ولخيرها هى ، أن تثابر على ثراء هذه الصحيفة ، وتعتبرها جزءا من تجهيزات الشاى » .

واتجهت صحيفة « سبكتاتور » إلى النساء والرجال سواء بسواء ، فعرضت أن تعالج موضوع الحب والجنس ، وتصور « الحب الزائف أقبح وأشد فتاما من . . . الخيانة فى الصداقة أو النـذالة والخسة فى التجارة وسائر الأعمال (٧٣) . وكتب أديسون يقول : « سيكون من أعظم مفاخر هذه المهمة التى أنهض بها أن تهىء هذه الصحيفة بعض الموضوعات التى يخوض فيها بعض السيدات العاقلات المفكرات على موائد الشاى (٧٤) » . وشجعت الرسائل وطبعت ، وكتب ستيل نفسه سلسلة من الرسائل التى تشـكو الحرمان من الحب والأحباب ، كان بعضها موجها إلى خليلاته ، وبعضها دبجه المحررون فى أسلوب حديث جداً . وجمعت الصحيفة بين الدين والحب . وزودت باللاهوت المعتدل جيلا بدأ يتساءل عن أثر تخلخل إيمان الطبقات العليا على الأخلاق . وأهابت بالعلم أن يتابع طريقه ، ويدع الكنيسة وحدها حارسا حكيما محنكا على الأخلاق ، فإن حقوق الوجدان ومتطلبات النظام تدل على إدراك الفرد وعقله ، فهو دوما فى دور المراهقة . وخير للأخلاق ولسعادة الإنسان تقبل العقيدة القديمة فى خشوع ، وحضور صلواتها وخدماتها والالتزام بعطلاتها ، والمساعدة على خلق الجو المناسب ليوم العبادة الهادئة فى كل أبرشية .

« إنى لأجد السرور كل السرور فى يوم الأحد فى الريف ، وكم أتمنى لو أن تقديس اليوم السابع والتعطيل فيه كان مجرد نظام إنسانى ، إذن لأصبح أفضل وسيلة فكر فيها الإنسان لتهذيب الجنس البشرى وصقله وتمدينه ، ومن المؤكد أن أهل الريف سيخطون سريعا إلى نوع من المتوحشين والمتبربرين إذا لم يعودوا دوما إلى زمن محدد تجتمع فيه القرية كلها بوجوه باسمة فى أبهى حلة ليتدارس أهلها فيما بينهم مختلف الموضوعات ، وليوضح لهم ما ينبغى عليهم أداؤه من واجبات ، وليجتمعوا معا لعبادة الله « الكائن الأسمى » .

إن يوم الأحد يزيل صدأ الأسبوع كله ، لا لأنه يحيى الأفكار الدينية فى العقول ، بل لأنه يجمع بين الرجال والنساء . والكل يبدو فى أحسن صورة(٧٥) » .

أما الأدب الذى كان مطية الأباحية والخلاعة طوال الأربعين عاما الماضية ، فقد انحاز الآن إلى جانب الأخلاق والإيمان . وأسهمت صحيفة سبكتاتور فى انقلاب السلوك والأسلوب الذى استبق فى عهد الملكة آن ، بقرن من الزمان ، روح أواسط العصر الفكتورى ، التى قضت بألا يحترم إلا من هم حقا جديرون بالإحترام ، وغيرت مفهوم الانجليز عن السيد الماجد « جنتلمان » من الرجل ذى اللقب الذى يحسن مغازلة النساء ، إلى المواطن المهذب الكريم النشأة . وفى « سبكتاتور » وجدت فضائل الطبقة الوسطى من يدافع عنها دفاعا مهذبا معقولا . وكان التعقل وحسن التدبير وعدم التبذير أجدى على المجتمع وأثمن لديه من أناقة الثياب وسرعة الخاطر وكان التجار سفراء الحضارة إلى الشعوب المختلفة . وكانت عائدات التجارة والصناعة عصب الحياة للدولة .

وأحرزت صحيفة سبكتاتور نجاحا ومنزلة رفيعة ليس لهما مثيل فى الصحافة الانجليزية . وكان توزيعها ضئيلا ، لا يكاد يجاوز أربعة آلاف ، ولكن تأثيرها كان عظيما إلى حد بعيد . وكان يباع من مجموعاتها المجلدة

نحو تسعة آلاف نسخة سنويا(٧٦) ، وكأنما أدركت انجلترا فعلا أنها لون من الأدب . ولكن بمرور الزمن بليت جدتها وخبا بريقها ، وبدأت شخصيات « النادى » تكرر نفسها ، وفترت حيوية الكتاب المنهوكين ونشاطهم ، وأصبحت عظاتهم تبعث السأم فى نفوس القراء . وهبط توزيع الصحيفة ، وزادت المصروفات على الايرادات نتيجة ضريبة التمغة التى فرضت ١٧١٢ . وفى ١٦ ديسمبر ١٧١٢ احتجبت الصحيفة عن الظهور . وواصل ستيل الكفاح فى صحيفة « جارديان ». وأحيا أديسون صحيفة سبكتاتور ١٧١٤ . ولم يطل عمر الصحيفتين كلتيهما ، لأن أديسون كان قد أصبح آنذاك كاتبا مسرحيا ناجحا ، وأعيدت إليه وظائفه ورواتبه الحكومية .

وفى ١٤ أبريل ١٧١٣ أخرج مسرح « دروري لين » مسرحية « كاتو » لأديسون كتب لها صديقه بوب مقدمة زاخرة بالحكم والأفكار التى عرفت عنه ، مثقلة بالوطنية الثائرة للتفائلة معا ، وأخذ ستيل على عاتقه أن يحشد لمشاهدة المسرحية كل « الأحرار » الغيورين المتحمسين ، فلم يوفق فى ذلك كل التوفيق ، ولكن « المحافظين » انضموا إلى الأحرار فى استحسان وقفة « كاتو » الأخيرة دفاعا عن « الحرية الرومانيه » (٤٦ ق . م .) وتبارت صحيفة المحافظين « اجزامنر » مع صحيفة ستيل « جارديان » فى نشوة الابتهاج والاستحسان . واستمر العرض لمدة شهر كامل مع تزايد عدد المترددين على المسرح لمشاهدتها ، حتى قال بوب « لم يكن كاتو محل إعجاب ودهشة رومه فى زمانه قدر ماهو موضع إعجاب ودهشة بريطانيا فى أيامنا هذه(٧٧) . واعتبرت كاتو فى القارة أجمل مسرحية « تراجيديه » فى اللغة الانجليزية . وأعجب فولتير بالتزامها بالوحدات ، وعجب كيف أن انجلترا تطيق صبرا على شكسبير بعد مشاهدة رواية أديسون(٧٨) . ويهزأ النقاد اليوم بها على أنها خطابة نافهة مضجرة ولكن أحد القراء وجد أن انتباهه مشدود حتى النهاية بفضل الحبكة المحكمة البناء وقصة الحب المدعمة بشكل بارع فى الصراع الأكبر .

وازدادت الآن شعبية أديسون إلى حد قال معه سويفت « أعتقد أنه لو فكر فى أن يختار للجلوس على العرش لكان من العسير أن يأبى عليه أحد هذه الرغبة(٧٩) » . ولكن أديسون الذى كان دوما نموذجا للاعتدال ، قنع بتعيينه وزيراً فى الحكومة ، لشئون أيرلنده آنذاك ، ثم كبير مفوضى التجارة . وكان شخصية محبوبة جداً فى النوادى ، لأن إدمانه على الشراب منعه من أن يكون « الرجل الشاذ البشع غاية البشاعة والشذوذ الذى لا يحبه الناس أبدا » . ورغبة منه فى تتويج مجده وعظمته ، تزوج (١٧١٦) من كونتيسة ، ولم يكن سعيدا فى حياته مع السيدة المتجمرفة فى « هولندهاوس » فى لندن . وفى ١٧١٧ عين ثانية وزيراً ، ولكن مقدرته كانت محل نزاع وشك . وسرعان ما استقال بمعاش قدره ١٥٠٠ جنيه فى العام . وعلى الرغم من تجلده وأدبه الجم انزلق فى عراك مع أصدقائه — ومنهم ستيل وبوب — الذى هجاه بأنه مترمت اعتاد « أن يلعن الناس بالاطراء الباهت الحقير » فهو :

مثل كاتو يقدم للسناتو المزيل القوانين ، ثم يتخذ مقعده لينصت إلى ما يكال له من مديح(٨٠) .

وكانت خاتمة حياة ستيل أقل عظمة وجلالا من أديسون . أنه انتخب للبرلمان فى ١٧١٣ ، ولكن الغالبية التى تنتمى إلى حزب المحافظين أخرجته بتهمة أن لغته محرضة مثيرة للفتنة . وفاز حزب الأحرار فى السنة التالية ، فخلع على ستيل بعدة مناصب إدارية تدر عليه مالا ، وتعادلت لفترة من الزمن موارده مع نفقاته ، ولكن ديونه طغت ، وطارده دائنوه ، وآوى إلى ضيعة زوجته فى ويلز ، وهناك وافته المنية فى أول سبتمبر ١٧٢٩ ، بعد شريكه بعشر سنين . أنهما معا : ستيل بأصالته وحيويتـه ونشاطه ، وأديسون بذوقه الفنى المصقول ارتفعا بالقصة القصيرة والمقال إلى آفاق جديدة من الجودة والاتقان ، وأسهما فى ابتعاث الأخلاق من جديد فى ذلك العصر ، وحددا طابع الأدب الانجليزى وشكله لمدة قرن من الزمان باستثناء العبقرية البالغة القوة والعنف فى هذا العصر .

جوناتان سويفت : ١٦٦٧ — ١٧٤٥

كان سويفت يكبر ستيل وأديسون بخمس سنين . ولكنه عمر بعد أحدهما ست عشرة سنة ، وبعد الآخر ستا وعشرين . وكان بمثابة شعلة متأججة سرت من قرن إلى قرن ، من دريدن إلى بوب . ولم يستطع قط أن يغتفر مولده فى دبلن الذى كان طائفا مثيراً للغضب فى انجلترا . وكم كان قاسياً عليه أن يقضى أبوه نحبه قبل ولادته ، وكان الوالد قهرمان قصر الملك فى دبلن . وعهد بالطفل إلى مرضعة حملته منها إلى انجلترا ، ولم تعد به إلى أمه إلا عندما بلغ الثالثة من العمر ، وربما ولدت هذه للمغامرات والمخاطر فى نفس الصبي شيئاً من قلق اليتيم . ولا بد أن هذا الشعور ازداد عمقا فى نفسه ، بانتقاله إلى عم له . سرعان ما تخلص منه ، وهو فى السادسة بإلحاقه بمدرسة داخلية فى كلكنى . وفى سن الخامسه عشرة التحق بترانتى كولدج فى دبلن ، حيث ظل بها سبع سنين . وشق طريقه فى الكلية بصعوبة لأنه كان مهملا فى اللاهوت بصفة خاصة ، وكثيراما قصر وعوقب ، وذاق مرارة الفقر والحرمان عندما تعثر حظ عمه الذى تولى الانفاق عليه ، وأصيب بانهيار عصبي (١٦٨٨) . وعند موت عمه ١٦٨٩ ، وفى غمرة ثورة أيرلنده لنصرة جيمس الثانى ، هرب جوناتان إلى انجلترا ، وإلى أمه التى كانت تعيش فى ليستر على عشرين جنيها فى العام . وعلى الرغم من طول الفراق بينهما ، انسجما معا إلى حد معقول ، وتعلم كيف يحبها ، وزارها من حين إلى حين ، حتى وفاتها (١٧١٠) .

وفى أواخر عام ١٦٨٩ وجد سويفت عملا براتب قدره عشرون جنيها فى العام مع الإقامة والطعام ، سكرتيرا للسير وليم تمبل فى موربارك . وكان تمبل حينذاك فى أوج عظمته ، صديقا ومستشارا للملوك . ويجدر بنا ألا نقسو فى لومه لاخفاقه فى التعرف على العبقرية فى الشاب ذى الاثنين والعشرين ربيعا الذى جاءه ببعض اللاتينية واليونانية ، وببعض اللهجة الايرلندية مع جهل ما كر بأستخدام الشوكة والملعقة وعلاقة الواحدة منهما بالأخرى

على المائدة(٨١) وكان سويفت يجلس مع كبار العاملين فى خدمه تمبل ، إلى مائدة سيدهم(٨٢)، الذى لحظ دوما الفرق بينه وبينهم . ولكن تمبل كان فأرسل سويفت ١٦٩٢ إلى أكسفورد ليحصل على درجه الأستاذية . وأوصى به عطوفا ، وليم الثالث خيرا ، ولكن دون جدوى .

وفى نفس الوقت كان سويفت يكتب مقطوعات شعرية من ذات البيتين . عرض بعضها على دريدن الذى قال له « ياسويفت ، يابن العم ، إنك لن تكون شاعرا أبدا » — وهى نبؤة كانت دقتها تجل عن إدراك الشاب وتقديره . وفى ١٦٩٤ ترك سويفت خدمة تمبل ، مع توصية منة . فعاد إلى ايرلنده ، ورسم قسيسا أنجليكانيا (١٦٦٥) وعين فى وظيفة كنسية صغيرة صغيرة ذات راتب فى كاروت بالقرب من بلفاسث . وهناك وقع فى غرام جين دارنج التى سماها « فارنيا » ، وعرض عليها الزواج ، ولكنها أمهلته حتى تتحسن صحتها ويزداد دخله . ولما لم يطق صبرا على هده العزلة القاتلة فى أبرشية ريفية ، هرب من كلروت ١٦٦٩ وعاد أدراجه إلى تمبل وظل فى خدمته حتى مات هذا الأخير .

وكان سويفت فى عامه الأول فى موربارك ، قد التقى بأستر جونسون التى قدر لها أن تصبح « Stella » . وتناثرت بعض الشائعات بأنها نتاج شىء من طيش سيروليم تمبل ، الذى كان نادرا . والأرجح أنها ابنة تاجر من لندن . التحقت أرملته بخدمة ليدى تمبل . وعندما رآها سويفت لأول مرة كانت فى سن الثامنة ، تبعث على السرور والابتهاج مثل سائر البنات فى هذه السن ، ولكنها كانت أصغر من أن تثير فيه لواعج الغرام والهيام . أما الآن وهى فى الخامسة عشرة ، فقدا كتشف سويفت ، معلمها الذى ناهز التاسعه والعشرين ، أن مفاتنها تثير المشاعر البدائية لدى الكاهن المحروم ، لها عينان سوداوتان براقتان ، وشعر أسحم ، وصدر منتفخ ، « رشيقه رشاقة غير معهودة فى البشر ، فى كل حركة وفى كل كلمة وفى

كل عمل » (هكذا وصفها سويفت فيما بعد) ، « وركبت كل تقاطيع وجهها في أحسن صورة(٨٣) » فكيف لاتفتن هلواز هذه معلمها أبيلاد(*) .

وعندما توفى تمبل ١٦٩٩ ترك لأستر ألف جنيه واسويفت مثلها . وبعد آمال خائبة فى الالتحاق بوظائف الحكومة ، قبل سويفت الدعوة ليكون قسيسا وسكرتيرا لدى أرل بركلى الذى كان قد عين لفوره قاضى القضاة فى أيرلنده . وعمل سكرتيرا للرحلة إلى دبلن ، ولكنه هناك فصل عن عمله . فطلب أن يعين رئيسا لكنيسة « درف » وهو منصب كان على وشك أن يشغر . ولكن السكرتير الجديد، لقاء رشوة قدرها ألف جنيه ، خص بالوظيفة مرشحا آخر . واتهم سويفت إرل بيركلى والسكرتير كليهما ، وجها لوجه ، بأنهما « وغدان حقيران » . فعملا على تهدئته بتعيينه قسيسا فى « لاراكور » ، وهى قرية على بعد نحو عشرين ميلا من دبلن ، لا يزيد شعبها على خمسة عشر شخصا . والآن فى ١٧٠٠ بلغ دخل سويفت ٢٣٠ جنيها ، وهو دخل حسبته جين وارنج كافيا لإتمام الزواج . ومهما يكن من أمر ، فقد مضت أربع سنوات على مفاتحته لها فى أمر الزواج ، وفى نفس الوقت كان قد وقعت عينه على استر . فكتب إلى جين يقول أنها إذا تزودت بقسط من التعليم يؤهلها لتكون شريكة صالحة لحياته ، وتعد بأن ترضى عن كل ما يحب ويكره ، وتخفف من متاعبه ودراسته ، فإنه يتزوجها دون نظر إلى وسامتها وجمالها أو إلى دخلها(٨٤) .

ومذ كان سويفت وحيدا فى لاراكور ، فإنه كثيرا ما تردد على دبلن . وهناك فى ١٧٠١ حصل على درجة الدكتوراه فى اللاهوت ، وبعد ذلك فى نفس العام ، دعا استر جونسون وصديقتها مسز ربيكا دنجلى ليحضرا ويقيما معه فى لاراكور ، فقدمتا واتخذتا مسكنا بالقرب منه ، وفى أثناء تغيبه فى انجلترا شغلتا مسكنه الذى كان قد استأجره فى دبلن وكانت أستر

(*) فيلسوف ولاهوتى فرنسى فى القرن الحادى عشر ، تزوج تلميذته وعشيقته هلواز .

(ستيللا) تتوقع منه أن يتزوجها ، ولكنه تركها تنتظر طيلة خمسة عشر عاما ، واحتملت هي هذا الموقف الذى وضعها فيه على مضض ، وانتابها الاضطراب والكآبة . ولكن قوة شخصيته وحدة تفكيره ، أخمدتا جذوتها وكأنما وقعت تحت تأثير تنويمه المغناطيس حتى النهاية .

وتألقت حدة ذهنه بشكل مباغت حين نشر فى ١٠٧٤ فى مجلد واحد « معركة الكتب » و « حكاية حوض الاستحمام » . والأول اسهام موجز لا يستحق الذكر فى الجدل حول المزايا النسبية للأدب قديمة وحديثة . أما الثانى فهو عرض هام لفلسفة سويفت الدينية أو غير الدينية . وقال سويفت عندما أعاد قراءة كتابه هذا فى أخريات أيامه : « يا إلهى : أية عبقرية أملت على هذا الكتاب ؟(٨٥) . وأحبه كثيرا إلى حد أنه فى الطبعات التالية أتحفه بخمسين صحيفة أخرى من الهراء ، على شكل مقدمات واعتذارات . وكان يفاخر ويزهو بأن الكتاب ينم عن أصالة بالغة . ومع أن الكنيسة كانت منذ أمد بعيد قد أكدت أن المسيحية هى « رداء المسيح السليم الذى لا شية فيه » ولكن الإصلاح البروتستانتى مزقه اربا فان أحدا ـ خصوصا كارليل فى Sartor Resortus ـ لم يطعن فى القوة التى لم يسبق لها مثيل التى ردفيها سويفت كل الفلسفات والديانات إلى مجرد أردية تستخدم لستر جهلنا المرتجف أو اخفاء رغباتنا الجامحة المفضوحة :

«هل الإنسان نفسه إلا رداء بالغ الصغر أو على الأصح مجموعة كاملة من الملابس بكل زخارفها وزركشتها ؟ . أليست الديانة عباءة ، والأمانه حذاء بلى بالوحل ، وحب الذات معطفا ضيقا غاية الضيق ، والغرور قيصا ، أليس الضمير إلا سروالا (بنطلونا) يستر الخلاعة والقذارة ، ولكن من السهل نزعه لخدمه الخلاعه والقذارة كلتيهما ؟ فإذا وضعت بعض قطع الفراء الرخيص أو الثمين فى موقع معين من الرداء فإننا بذلك نصنع قاضيا وحكما . ومن ثم فان وضع بعض الشاش والأطلس الأسود بعضهما إلى بعض بشكل مناسب يصنع لنا أسقفا(٨٦) » .

وجرت استعارة الرداء هنا بدقة ورقة . أن بيتر (الكاثوليكية) ، ومارتن (اللوثرية والأنجليكانية)وجاك (الكلفنية) تسلموا ، ثلاثتهم ، من أبيهم وهو يحتضر ، ثلاثة أردية جديدة متماثلة (كتابا مقدسة) إلى جانب وصية توجههم كيف يلبسونها ، وتحرم عليهم إبدالها ، أو إضافة خيط واحد إليها أو انتقاص خيط واحد منها ووقع الأبناء الثلاثة في غرام سيدات ثلاث : «دوقة المال» . أي الثراء ، و « آنسة الألقاب الفخمة » أي الطمع ، « وكونتيسة الكبرياء» أي الغرور . ولكن الأخوة الثلاث ، رغبة منهم في إرضاء هؤلاء السيدات ، يعمدون إلى إحداث بعض التغيير في أرديتهم الموروثة . ولما بدا لهم أن التغييرات تتعارض مع وصية أبيهم ، أعادوا تفسير الوصية بتأويلات صادرة عن علماء ومثقفين . أما بيتر فقد أراد أن يضيف حواشي وأهدابا من الفضة (البذخ البابوى) . وسرعان ما اتضح للعلماء الثقاة أن لفظة « الهدب أو الحاشية » في الوصية تعني عصا المكنسة الطويلة . وهكذا اختار بيتر الحواشي الفضية ، ولكنه حرم على نفسه عصا المكنسة الطويلة « السحر؟» . وفرح البروتستانت (المحتجون) حين وجدوا أقسى الهجاء والنقد يوجه إلى بيتر : إلى شرائه قارة كبيرة (المطهر ـ مكان تطهر فيه نفوس الأبرار بعد الموت بعذاب محدود الأجل) ثم بيعه (أى المطهر) فى أجزاء متفاوتة (صكوك الغفران) المرة بعد الأخرى ، وإلى علاجاته الناجعة الخالية من الآلام عادة (الكفارات) للديدان (أى وخزات الضمير) ـ وعلى سبيل المثال : « الامتناع عن أكل شيء بعد العشاء لمدة ثلاث ليال . وألا تخرج على الاطلاق ريحا من الجانبين دون سبب واضح(٨٧) » ، وكذلك وجه النقد إلى بيتر لابتداع « وظيفة الهمس » (أى الاعتراف) « لخير وراحة المصابين بوسواس المرض أو الذين أرهقهم المغص » و « ووظيفة التأمين » (أى مزيد من الغفران) ، « الخلل البالى المشهور (الكاثوليكى) ويعنى به « الماء المقدس » ، على أنه وقاية من الضعف والانحلال . وحيث تزود بيتر بهذه الوسائل والحيل الحكيمة فإنه ينصب نفسه ممثلا للرب ، ويصف

فوق رأسه ثلاث قبعات ذات تاج عال . ويمسك فى يده بعصا يختال بها ، وإذا رغب الناس فى مصافحته ، قدم لهم « كأن كلب مدرب تدريبا جيدا » قدمه(٨٨) . ويدعو بيتر إخوته إلى الغذاء ، ولا يقدم لهم غير الخبز ، ويؤكد لهم أنه ليس خبزا بل لحما ، ويدحض اعتراضاتهم ويقول « لاقناعكما بأنكما لستما إلا شخصين أحمقين جاهلين عنيدين أعميين حقا » ، لن استخدم إلا حجة واحدة : والله إنه لحم ضأن طيب طبيعى مثل أى لحم ضأن فى « ليدنهول ماركت » ، صب الله عليكما اللعنة الأبدية إذا صدقتما غير ما أقول(٨٩) » . ويثور الأخوان ، ويستخرجان « نسخا حقيقية » من الوصية (ترجمة الكتاب المقدس باللغة الوطنية) ، ويشجبان بيتر على أنه دجال محتال . وبناء على هذا طرد بيتر أخويه من داره ، ولم يستظلا بسقفه منذ ذلك اليوم إلى يومنا هذا(٩٠) » . وسرعان مادب النزاع بعد ذلك بين الأخوة : إلى أى حد ينبذون أو يغيرون من أثوابهم الموروثة. ويعتزم مارتن ، بعد ثورة غضبه الأولى ، أن يلتزم جادة الاعتدال . ويتذكر أن بيتر أخوه . أما بيتر ، فإنه على أية حال يمزق ثوبه أربا (شيع كالفنية) . ويصاب بمسات من الجنون والغيرة . ويستطرد سويفت ليصف عمليات الريح (ويقصد بها الوحى والالهام) عند العولسيين — نسبة إلى عولس إله الرياح « ويعنى بهم » الوعاظ الكلفنيين . ويسخر كثيرا — سخرية لا يجوز نقلها هنا — من ألفاظهم الأنفية الحادة ومن نظرياتهم فى القضاء والقدر ، وتقديسهم الأعمى للنصوص المقدسة(٩١) .

وإلى هنا ، لم يصب مذهب الكاتب — المذهب الأنجليكانى إلا اليسير من الجراح . ولكن سويفت يسترسل فى القصة ، ويغير الأثواب إلى رياح ، ومن الواضح أنه ينتهى إلى أن كل الديانات والفلسفات — لا لاهوتيات المنشقين فحسب — ليست إلا أضاليل وأوهاما كاذبة سريعة الزوال .

« إذا استعرضنا الانجازات العظيمة التى تمت فى العالم . . . مثل تكوين الامبراطوريات الجديدة عن طريق الغزو والفتح ، وابتداع ونشر مذاهب

جديدة فى الفلسفة ، واستنباط أديان جديدة ونشرها ، فلسوف نجد أن الذين قاموا بهذا كله ، ليسوا إلا أشخاصا هيأت لهم عقولهم الطبيعية أن يقوموا بانقلابات كبيرة ، بفضل غذائهم وتعليمهم ، ومزاج معين سائد ، بالإضافة إلى تأثير خاص للهواء والمناخ .. لأن عقل الإنسان المستقر فى مخه ، لابد أن ترهقه وتغمره أبخرة ورياح صاعدة من القوى والوظائف الجسدية الدنيا لتسق المخترعات وتجعلها مثمرة(٩٢) .

ويسترسل سويفت فى تفصيل فسيولوجى لا يمكن ذكره ، لما بدا له أنه مثال رائع لا فرازات داخليه تولد أفكاراً قويه ، من ذلك « المشروع الكبير » لهنرى الرابع : ذلك أن ملك فرنسا لم يوح إليه بشن الحرب ضد آل هبسبرج ويستحثه عليها ألا تفكيره فى الإستحواذ فى طريقه على امرأة (هى شارلوت مونمورنس) التى حرك جمالها فى الملك عصارات مختلفه « صعدت إلى مخه(٩٣) » وهذا هو بالمثل ما حدث بكبار الفلاسفه الذين حكم عليهم معاصروهم بحق بأنهم « فقدوا عقولهم » :

« ومن هذا الطراز كان أبيقور،ديوجين ، ، أبوللونيوس ، لوكريشس ، باراسلسوس ، ديكارت ، وغيرهم ، ممن لو كانوا على قيد الحياة الآن ، .. لتعرضوا فى هذا العصر المتميز بالفهم ، لخطر واضح ، خطر فصد الدم ، والسياط ، والأغلال ، والحجرات المظلمه والقش (فى السجون) أما الآن فقد يسرنى أن أعرف كيف أنه من الميسور أن يعلل لهـــذه التصورات والأفكار ، .. دون إشارة إلى الأبخرة التى تتصاعد من القوى والوظائف الجسديه الدنيا ، حيث تلقى ظلالا معتمه على المخ ، فتقطر أو تتساقط مفاهيم لم تضع لها لغتنا الضيقه بعد أسماء غير الجنون أو الخبل(٩٤) .

ولمثل « هذا الخلل أو التحول فى المخ بفعل الأبخرة المتصاعدة والقوى والوظائف الجسديه الدنيا » يعزو سويفت كل الانقلابات أو الثورات التى حدثت فى الإمبراطوريه والفلسفه والدين(٩٥) ويخلص إلى أن كل مذاهب الفكر عبارة عن رياح من الألفاظ ، وأن الرجل العاقل لاينبغى له أن ينفذ

إلى الحقيقة الباطنة للأشياء ، بل يقنع نفسه بالسطح أى بظواهر الأشياء ، وبناء على هذا يستخدم أحد التشبيهات اللطيفة التى ينعطف إليها دائماً :

« رأيت فى الأسبوع الماضى امرأة سلخ جلدها ، ولن تصدق أنت بسهولة إلى أى حد تغير شكلها إلى أسوأ مما كانت[٩٦] » .

إن هذا الكتاب الصغير المخزى الذى وقع فى ١٣٠ صحيفة ، جعل من سويفت فى الحال « سيد الهجاء » ـ أو كما سماه فولتير : رابليه آخر فى صورة متقنة . إن القصص الرمزى أو المجازات إتسقت إتساقا حرفيا مع معتقده الأنجليكانى التقليدى . ولكن كثيراً من القراء أحسوا بأن الكاتب متشكك ، إن لم يكن ملحداً . أما رئيس الأساقفة شارب فإنه أبلغ الملكة آن أن سويفت لم يفضل الكافر بشىء كثير[٩٧] . وكان من رأى دوقة مالبورو الصديقة الحميمة للملكة ، أن سويفت :

« حول ، منذ زمن طويل ، كل الديانة إلى « قصة حوض الاستحمام » على أنها وباعها دعابة . ولكنه كان قد إستاء من أن « الأحرار » لم يكافئوه بالترقية فى الكنيسة على ما أظهر من غيرة شديدة على الدين بهزله الدنس ، ولذلك سخر الحاده ومزاحه ومرحه فى خدمة أعدائهم[٩٨] » .

كذلك نعته ستيل بأنه كافر ، ووصفه نوتنجهام فى مجلس العموم بأنه عالم لاهوتى « من العسير أن يشك فى أنه مسيحى[٩٩] » . وكان سويفت قد قرأ هوبز ، وهى تجربة ليس من اليسير نسيانها . ذلك أن هوبز كان قد بدأ بالخوف ، وانتقل إلى المذهب المادى ، وانتهى بأن يكون « محافظا » يناصر الكنيسة الرسمية .

وكان لرجال الدين قليـــل من العزاء فى أن سويفت أخرج مؤلفاً فى الفلسفة :

« إن مختلف الآراء الفلسفية انتشرت فى أنحاء العالم ، وكأنها أمراض طاعون أصابت العقـل ، كما انتشر صندوق بندورا (*) الأوبئة التى تصيب

(*) Pandora ـ فى الأساطير اليونانية ـ أول امرأة فانية مهلكة أرسلها الاله =

الجسم ، مع فارق واحد ، هو أن الطاعون لم يترك شيئاً من الأمل فى القاع إن الحقيقة خافية على الناس ، قدر خفاء منابع النيل ، ولا يمكن وجودها إلا فى « يوتوبيا » (المدينة المثالية)(١٠٠) .

ومن الجائز أن سويفت ، لأنه أحس بأن الحقيقة لم تقصد للبشر ، نبذ فى إصرار شديد كل الفرق الدينيـة التى ادعت أن مذهبها « هو المذهب الصحيح » . وازدرى الرجال الذين زعموا — مثـل بانيان وبعض الكويكرز — أنهم رأوا الله أو كلموه . وانتهى ، مع هوبز ، إلى أنه ضرب من الانتحار الاجتماعى أن تترك لكل انسان الحرية فى أن يصنع عقيدته أو مذهبه بنفسه ، حيث لن تكون نتيجة ذلك إلا عاصفة هوجاء من السخافات يصبح معها « بيمارستانا » أو مستشفى الأمراض العقلية . ومن ثم عارض سويفت حرية الفكر ، على أساس أن « جمهور البشر مؤهل للطيران قدر ما هو مؤهل للتفكير(١٠١) » . واستنكر التسامح الدينى ، وظل لآخر حياته يؤيد « قانون الاختبار » الذى قضى باقصاء غير أتباع الكنيسة الرسمية عن كل الوظائف السياسية والعسكرية(١٠٢) . واتفق مع الحكام الكاثوليك واللوثريين على أنه يجب أن يكون للأمة عقيدة دينية واحدة . وحيث أنه ولد فى انجلترا ، ومذهبها الرسمى هو الأنجليكانى ، فإنه رأى أن الاتفاق العام الكامل على اعتناق هذا المذهب أمر لا غنى له عنه لعملية تمدين الانجليز ونشر سويفت فى ١٧٠٨ بعض القطع : « أحاسيس رجل يتبع كنيسة انجلترا » ، « والدليل على أن الغاء المسيحية فى انجلترا قد يستتبع بعض المتاعب والمشاكل والمزعجات » وكان آنذاك فى طريقه من الأحرار إلى المحافظين » .

وكان أول ارتباط سياسى له — بعد ترك تمبل — مع الأحرار ، حيث

= زيوس ، عقابا للبشر على سرقة بروميثيوس للنار . أعطاها زيوس صندوقا فتحته فانطلقت منـه إلى الدنيا كل العلل والأمراض التى تصيب الجسم ، (وفى رواية حديثة أطلقت منه كل نعم الحياة فتبددت وضاعت هباء منثوراً ، ولم يبق إلا مجرد الامل .

بدا له أنهم حزب أكثر تقدمية ، ومن الأرجح أن يجدوا عملا لرجل أكبر عقلا وأقل ثراءا . وفى ١٧٠١ نشر كتيبا يناصر فيه حزب الأحرار وكله أمل فى الظفر بشىء . ورحب هاليفا كس وسندر لند وغيرهما من زعماء الأحرار ، بانضمامه إلى حزبهم ، ووعدوه خيرا إذا تولوا الحكم . ولكنهم لم ينجزوا ما وعدوا ، ويحتمل أنهم خشوا من أن سويفت رجل لا يسهل قياده ، وأن قلمه سلاح ذو حدين ، وفى رحلة موسعة من ايرلنده إلى لندن فى ١٧٠٥ كسب سويفت صداقة كونجريف وأديسون وستيل . وأهداه أديسون نسخة من « رحلات إلى إيطاليا » وكتب فى عبارة الاهداء « إلى جوناثان سويفت ، أحسن رفيق وخير صديق ، أعظم عبقرية فى زمانه يقدم خادمه الذليل ، المؤلف ، هذا الكتاب (١٠٣) » ، ولكن هذه الصداقة ، مثل صداقة جوناثان مع ستيل وبوب ، لم تدم ، وأتت عليها نيران سويفت المتقدة أو ثورته المتصاعدة .

وفى زيارة أخرى لمدينة لندن ، تسلى سويفت بتدمير منجم دعى . ذلك أن جون بارتريدج ، الاسكافى ، أخرج كل عام تقويما زاخرا بالنبوءات المؤسسة على حركات النجوم . وفى ١٧٠٨ نشر سويفت تحت اسم مستعار « ايزاك بيكرستاف » تقويما منافسا . وكان من بين تنبوءات ايزاك ، أنه فى الساعة الحادية عشرة من مساء يوم ٢٩ مارس سيقضى بارتريدج نحبه . وفى ٣٠ مارس نشر بيكرستاف فى نشوة الانتصار رسالة أعلن فيها أن بارتريدج مات فى ظرف بضع ساعات من الموعد المحدد فى النبوءة ، وذكر فى تفصيل مقنع ترتيبات الجنازة . وأكد بارتريدج لمدينة لندن بأسرها أنه لا يزال حيا يرزق . ولكن ايزاك رد بأن هذا محض افتراء . وأدرك ظرفاء المدينة الخدعة . ورفع مكتب التسجيلات اسم بارتريدج من سجلاته أما ستيل فإنه اختار ايزاك بيكرستاف اسما لمحرر وهمى فى صحيفة « تاتلر » عند افتتاحها فى السنة التالية .

وفى ١٧١٠ غادر سويفت لارا كور مرة أخرى ، موفدا عن الأساقفة

الأيرلنديين ليطلب إلى الملكة آن أن تمديد معونتها إلى رجال الدين الانجليكانيين فى أيرلنده : ورفض جودلفين وسومرز ، وهما عضوان من حزب الأحرار فى مجلس الملكة ، للموافقة على هـذا إلا إذا وافق رجال الدين هؤلاء ، على التخفيف من حدة « قانون الاختبار » والارخاء من قبضته . وعارض سويفت بشدة التخفيف المطلوب . وا كتشف الأحرار أنه كان « محافظا » بالنسبة للعقيدة الدينية . واعترف سويفت عمليا بأنه « محافظ » بالنسبة للسياسة أيضا ، حين كتب : « انى كنت أمقت دوما هذا النهج السياسى . . ألا وهو وضع مصالح ذوى المال فى مواجهة مصالح مالكى الأرض(١٠٤) » . ولجأ الى زعيمى المحافظين ، هارلى وبولنجبروك ولاقى ترحيبا حارا ، وأصبح بين عشية وضحاها « محافظا » راسخا . وعين محررا لصحيفة المحافظين « إجزامنر » . وأبرز أسلوبه بوضوح عندما وصف نائب حاكم ايرلنده — وهو من حزب الأحرار ، وكان أديسون صديق سويفت ، سكرتيرا له :

« ان توماس إرل وارتون ... يحكم دستور غريب ، ففى بضعة أعوام من سنى اليأس التى تقدم بها عمره ، دون آثار بارزة للشيخوخة فى جسمه أو فى عقله . وعلى الرغم من مقارفته المستمرة لكل الموبقات التى تمتصر الجسم والعقل كليهما ... فإنه يذهب دوما إلى الصلاة . ويتحدث حديث الفسق والفجور والتجديف على باب الكنيسة ، فهو مشيخى فى السياسة ملحد فى العقيدة . ولكنه يؤثر الآن أن يفجر مع البابوية (١٠٥) »

وسر الوزراء « المحافظون بهذا الهجاء اللاذع الذى يشبه القتل ، فعهدوا إلى سويفت بكتابة فذلكة « سلوك الحلفاء » (نوفبر ١٧١١) ، كجزء من حملتهم لاسقاط مالبورو وانهاء حرب الوراثة الأسبانية ، واحتج سويفت بأن الضرائب الاستثنائية التى فرضت لتمويل الحروب الطويلة ضد لويس الرابع عشر يمكن خفضها بقصر اسهام انجلترا فى الحروب على البحر ، وأوضح بأجلى بيان شكوى مالكى الأرض من أن عبء نفقات الحرب

وقع على عاتقهم أكثر مما على عاتق للتجار وأصحاب المصانع الذين كانوا يستفيدون من الحرب . أما بالنسبة لدوق مالبورو فقد قال سويفت «هل كان من حسن الرأى شن الحرب ، أو لم يكن ؟ ... واضح أن الدافع إلى الحرب ، هو الرفع من شأن أسرة بعينها ، وبعبـــارة موجزة أنها حرب لحساب القائد ووزارة الأحرار ، وليست حربا لحساب الملك والشعب (١٠٦) وقدر الـكاتب رواتب مالبورو وتعويضاته بنحو ٥٤٠ ألف جنيه «وهذا الرقم دقيق (١٠٧) » . وبعد شهر واحد سقط مالبورو وصورت الدوقة زوجته الجريئة الصريحة وهى الوحيـدة فى انجلترا التى كان لسانها حادا لاذعا ، مثل لسان سويفت — صورت فى مذكراتها المسألة من وجهة نظر الأحرار ، فقالت :

«أن السيدين المحترمين مستر سويفت ومستر بريور أمرها فعرضا نفسيهما للبيع ... وكلاهما من للموهوبين القادرين ، وهما مستعدان لتسخير كل مالديهما لخدمـــة أية فرية مخزية طالما كانت المـكافأة مجزية . لأن كليهما لايبالى بحمرة الخجل ولا بالسقوط أو الانزلاق من أجل مصلحة سادتهم الجدد (١٠٨)

وكافأ المحافظون تابعيهما الجديدين . فعينوا ماتيو بريور فى منصب دبلوماسى فى فرنسا حيث أبلى بلاء حسنا . ولم يحصل سويفت على أى منصب ولـكنه كان صديقا حميا وثيق الصلة بوزراء المحافظين ، فاستطاع بذلك أن يحصل لـكثير من أصدقائه على وظائف تدر مالا وفيرا ولا تقتضى عملا كثيرا . وكان مثال الـكرم والعطف على من لم يعارضوه أو يهاجـوه . وزعم فيما بعد أنه أهدى لخمسين شخصا أكثر خمسين مرة مما أهداه إليه سير وليم تمبل (١٠٩). واقنع بولنجبروك بمساعدة الشاعر جاى Gay وألح على وجوب استمرار الوزارة فى دفع الراتب الذى كان الأحرار يدفعـــونه لـكونجريف . ولما طلب بوب جمع بعض التبرعات لمعاونته على ترجمة هوميروس ، أمر سويفت كل أصـدقائه وكل طلاب الوظائف بالتبرع ،

وأقسم « أن المؤلف لن يشرع فى الطبع قبل أن يجمع له ألف جنيه (١١٠) » وغطت شخصيته على مكانة أديسون فى الأندية ، وكان فى كل ليلة تقريبا يتناول العشاء مع العظماء . ولم يكن يطيق من أحدهم أية سمة من سمات التعالى عليه . وكتب يوما إلى ستيللا « إننى مزهو متكبر إلى حد أنى أجعل اللوردات يأتون إلى ... كان مفروضا أن أتناول العشاء فى قصر أشبيرنهام ، ولكن هذه السيدة المنحطة القذرة لم تعرج علينا لنصحبها فى عربتها ، ولكنها أرسلت فى طلبنا فحسب ، ولذلك أرسلت إليها اعتذارا (١١١) » .

وفى السنوات الثلاث (١٧١٠ — ١٧١٣) فى انجلترا كتب سويفت الرسائل العجيبة التى نشرت فيما بين ١٧٦٦ ـ ١٧٦٨ تحت عنوان « يوميات إلى ستيللا » . إنه كان فى حاجة إلى صديقة حميمة إلى جانبه فى العشاء لدى الأدواق والدوقات ، وفى انتصاراته السياسية . أضف إلى ذلك أنه أحب المرأة الصابرة ، التى ناهزت الثلاثين آنذاك ، ولكنها ظلت تنتظره حتى يحزم أمره . ولا بد أنه أغرم بها ، لأنه كتب لها أحيانا مرتين فى اليوم الواحد ، وأظهر اهتمامه وتعلقه بكل ما يعنيها ، اللهم إلا الزواج . وما كان ينبغى لنا أن نتوقع من مثل هذا الرجل المستبد المتغطرس ، هذا المزاح الرقيق ، وهذه الألقاب والكنيات الغريبة ، والنكات والتوريات ، والحديث الصبيانى ، مما صبه سويفت فى رسائله التى لم يتوقع نشرها . أنها رسائل زاخرة بالملاطفة والتدليل ، ولكنها خلو من أى عرض أو اقتراح ، اللهم إلا إذا كانت ستيللا قد قرأت وعدا بالزواج فى رسالته المؤرخة ٢٣ مايو ١٧١١ : « لن أطيل الحديث ، ولكنى أتوسل إليك أن تهدئى حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا ، وأن تثقى بأن سعادتك هى غاية ما أصبو وأسعى إليه فى كل ما أعمل (١١٢) » ومع ذلك فإنه فى هذه الرسالة يطلق عليها « الطفلة المزعجة ، الساذجة الفتاة المغناج ، البغى » للمرأة القذرة ، الكلبة المحبوبة » ، وغير ذلك من ألقاب التدليل والملاطفة . وانا لنلمس روح الرجل

حين يقول لها :

« كنت هذا المساء مع الوزير فى مكتبه . وحلت بينه وبين العفو عن رجل اتهم باغتصاب امرأة . وكان الوزير راغبا فى انقاذه ، على أساس فكرة قديمة تقول بأن المرأة لا يمكن أن تغتصب . ولكنى أبلغت الوزير أنه لا يمكن العفو عن الرجل إلا بناء على تقرير مناسب من القاضى . هذا بالإضافة إلى أنه عازف كان عابث ، ومن ثم فهو وغد ، ويستحق الشنق لتصرفات أخرى . ومن ثم لا بد أن يموت شنقا . ماذا ؟ إنى لا بد أن أدافع عن شرف الجنس اللطيف ، حقاً أن الرجل قد ضاجعها مائة مرة من قبل ، ولكن ماذا يعنينى فى هذا ؟ . هل يجب أن تغتصب المرأة لأنها بغى (١١٣) » ؟ .

وقد تعيننا علل سويفت الجسيمة على فهم السر فى رداءة طبعه وسرعة غضبه ، أنه منذ ١٦٩٤ ، وهو فى السابعة والعشرين من العمر ، بدأ يعانى من دوار فى الأذن الداخلية ومن حين لآخر ، وبشكل لا يمكن التنبؤ به ، أصابته نوبات من الدوار وتشويش الذهن والصمم . ونصح طبيب مشهور هو دكتور رادكليف بأن يوضع سائل مركب داخل كيس فى لمة (الشعر الذى يجاور شحمة الأذن) سويفت ، واشتدت به العلة على مر السنين ، وكان من الجائز أن تسبب له الجنون . ويحتمل أنه فى ١٧١٧ قال للشاعر ادوار ينج ، مشيراً إلى شجرة ذابلة « إنى سأموت مثل هذه الشجرة سأموت فى القمة (١١٤) . » وكان هذا وحده كافيا ليتشكك فى قيمة الحياة ، وليرتاب قطعا فى وجه الحكمة فى الزواج . ومن الجائز أنه كان عنينا ، ولكنا لا نستطيع الجزم بهذا . واعتاد على كثرة المشى اتقاء لهزال جسمه ، فمشى مرة من فارنام إلى لندن : ٣٨ ميلا .

وزاد من شدة مرضه حدة حواسه حدة مؤلمة ، وهى عادة تلازم حدة الذهن وفرط الذكاء . وكان بشكل خاص شديد الحساسية للروائح فى شوارع المدن وفى الناس . فاستطاع أن ينبىء ، بمجرد الشم ، عن صحة من يقابل من

الرجال والنساء ، وخلص من هذا إلى أن الجنس البشرى أصابه النتن(١١٥) .

ولذلك كان مفهوم المرأة الجديرة بالحب والإعجاب عنـــده ينحصر إلى حد ما فى :

« أنها لا يخرج من جسمها النقى هبات كريهة الرائحة تثير الاشمئزاز ، لا من خلف ولا من قدام ، ولا من فوق ، ولا من تحت ، ولا يتصبب منها العرق البغيض(١١٦) » .

أنه يصف « غادة جميلة فى طريقها إلى الفراش » ، ونفس المرأة حين تفيق .

« إن من يرى كورينا فى الصباح يتقيأ ، ومن يشم رائحتها يصاب بالتسمم » .

إن مفهومه عن المرأة الشابة الجميلة مرتبط بحاسة الشم :

« إن أعز رفيقاتها لم يرينها يوما تجلس إلى القرفصاء لتتبول ، والك أن نقسم بأن هذه المخلوقة الملائكية لم تحس يوما بضرورات الطبيعة ، فإذا مشت فى شوارع المدينة فى الصيف لم يلوث ابطاها ثوبها . وفى حلبة الرقص فى القرية أيام القيظ لن يستطيع أنف أن يشم رائحة أصابع قدميها(١١٧) » .

وكان سويفت نفسه نظيفا إلى حد التزمت . ومع ذلك فإن كتابات هذا الكاهن الأنجليكانى تعد من أفحش ما كتب فى الأدب الانجليزى . أن تبرمه بالحياة جعله يقذف بأخطائه فى وجه زمانه . ولم يبذل أى جهد فى إرضاء الناس ، ولكنه بذل كل الجهد فى أن يسيطر ويتحكم ، لأن السيطرة خففت من شعوره الخفى بعدم الثقة فى نفسه . وقال أنه يكره (أو يرهب) كل من لا يستطيع أن يأمره(١١٨) ، على أن هذا لم يصدق على حبه لهارلى . وكان غضوبا عند الشدة ، متغطرساً فظا وقت الرخاء والنجاح . وأحب السلطة أكثر مما أحب المال . وعندما أرسل إليه هارلى بخمسين جنيهاً أجراً لمقالاته ، رد الحوالة وطالب بالاعتذار ، وكان له ما أراد ، فكتب إلى ستيللا « لقد استرضيت مستر هارلى ثانية(١١٩) » .

وكان يكره الرسميات ويحتقر النفاق . وبدا له أن الدنيا تميل إلى قهره ،

وقابل هو المداح بمثله صراحة، وكتب إلى الشاعر بوب :

« إن غاية ما أصبو إليه في كل أعمالى أن أزعج العالم وأضايقه ، لا أن أسليه ، فإذا استطعت أن أحقق هذا الغرض دون أن ألحق الأذى بشخصى أو بثروتى ، لكنت أعظم كاتب لا يكل ولا يمل رأيته أنت فى حياتك .. إذا فكرت فى الدنيا فأرجوك أن تجلدها بالسوط بناء على طلبى . لقد كنت أبدا أكره الأمم والوظائف والمجتمعات . وكان كل حبى الأفراد ، إنى أكره طائفة رجال القانون ، ولكنى أحب مستشاراً بعينه أو قاضيا بعينه ، وهكذا الحال مع الأطباء . (ولن أتحدث عن صناعتى) ، والجنود ، والانجليز والاسكتلنديين والفرنسيين وغيرهم ، ولكني أساساً أكره وأمقت هذا الحيوان الذى يسمى إنساناً ، ولو أنى من كل قلبى أحب جون وبيتر وتوماس وهكذا (١٢٠)» .

عند هذا الحد يبدو أن سويفت أقل الرجال جدارة بالحب ، ولو أن امرأتين أحبتاه إلى أن فارقتا الحياة . وأقام فى هذه السنوات فى لندن قريبا من أرملة غنية تدعى فانهو مراى ، وكان لها ابنان وابنتان ، فإذا لم تتيسر له الدعوة إلى موائد العظماء ، كان يتناول العشاء مع « آل فان » . ووقعت الابنة الكبرى « هستر » فى حبه وكانت آنذاك فى الرابعة والعشرين (١٧١١) ، وهو فى الثالثة والأربعين ، وأفصحت له عن حبها . فحاول أن يصرف النظر عن هذا باعتباره مرحا أو مزاحا عابرا ، وأوضح لها أنه قد كبرت سنه بحيث لم يعد يصلح لها . فأجابت ، يحدوها كل الأمل ، بأنها تعلمت منه فى كتبه أن تحب عظماء الرجال قرأت (مونتانى فى المرحاض) ، فلماذا لا تحب رجلا عظيما إذا وجدته ماثلا أمامها ؟ فرق قلبه ولانت قناته بعض الشىء فنظم قصيدة من أجل عينيها فقط « كادينوس وفانيسا » قصيدة تجمع بين المرح والمأساة . وكان « فانيسا » اسمه هو عندها ، أما « كادينوس » فكان تصحيفا للفظة « ديكانوس » أى الكاهن الكبير .

ذلك أنه فى أبريل ١٧١٣ عينته الملكة كارهة رئيسا لكاتدرائية سان باتريك فى دبلن . وسافر إلى هناك فى يونيه ليتسلم العمل ، ورأى ستيللا وكتب إلى فانيسا بأنه كاد يموت كآبة وكمداً وإستياءا(١٢١) وفى أكتوبر ١٧١٣ عاد إلى لندن وشارك فى كارثة حزب المحافظين المفاجئة ١٧١٤ . ومذ فقد السلطان السياسى بعودة الأحرار الذين كان قدهاجمهم ، إلى الحكم فى ظل الملك جورج الأول ، فإنه قفل راجعا إلى ايرلنده الكريهة ، وإلى كاتدرائيته . ولم يكن محبوبا فى دبلن لأن الأحرار الذين تولوا الآن الحكم كرهوه لنقده الساخر العنيف وخطبه اللاذعة ، كما كرهه المنشقون لإصراره على استبعادهم من الوظائف العامة . وانطلقت من الناس أصوات الاستهجان والإزدراء به فى الشوارع ، ورجموه بقاذورات البالوعات(١٢٢) ووصف أحد رجال الدين الأنجليكانيين منظر ردائه فى قصيدة ثبتها بالمسامير على باب الكاتدرائية :

«يستقبل هذا المعبد اليوم رئيساً ذا مذاهب وشهرة غير عادية استخدمها جميعاً فى الصلاة وفى الدنس ، خدمة للرب والشيطان كليهما .. وهو مكان حصل عليه بالدهاء والتصيد وبوسائل أخرى من أعجب الوسائل . وربما أصبح بمرور الزمن أسقفا ، لو أنه آمن بالله(١٢٣) » :

وصمد سويفت للمحنة فى شجاعة واستمر يناصر المحافظين ، وعرض أن يشارك هارلى سجنه فى برج لندن . وقام بواجباته الدينية ، وألقى المواعظ بانتظام . ومنح الأسرار المقدسة ، وعاش عيشة بسيطة ، وتصدق بثلث دخله . وفى أيام الأحد فتح أبواب مسكنه للقاصدين ، وجاءت ستيللا لخدمة الضيوف ، وسرعان ماخفت كراهية الناس له ، وبدأوا يقبلون عليه . وفى ١٧٢٤ نشر تحت اسم مستعار « م . ب . درابيية » ست رسائل يندد فيها بمحاولة وليم وود جمع أرباح طائلة من إمداد أيرلنده بعملة نحاسية . واستنكر الأيرلنديون هذه المحاولة . وعندما إكتشفوا أن درابيية لم يكن إلا سويفت ، كاد الكاهن المكتئب أن يصبح شعبيا محبوبا تماما .

وربما استطاع سويفت أن يحظى بلحظات من السعادة لو أنه كان فى مقدوره أن يحتفظ بالبحر الأيرلندى بين السيدتين اللتين أحبتاه . ولكن فى ١٧١٤ ماتت مسز فانهو مراى ، وإنتقلت ابنتها فانيسا إلى أيرلنده لتستغل بعض الممتلكات التى تركها لها والدها فى سلبردج ، على بعد أحد عشر ميلا إلى الغرب من العاصمة . ولتكون بالقرب من رئيس الكاتدرائية ، استأجرت مسكنا فى زقاق تيرنستيل فى دبلن ، على مسافة قصيرة من مسكن ستيللا ، وكتبت إلى سويفت ترجوه أن يزورها ، وإلا ماتت كمداً . ولم يستطع أن يقاوم توسلاتها ، وفيما بين ١٧١٤ — ١٧٢٣ تردد عليها خفية مراراً وتكراراً . ولما خفت زياراته لها أصبحت رسائلها إليه أشد حرارة وإلتهابا . وقالت له فى إحداها أنها ولدت بهذه « العواطف الجارفة » التى تنتهى كلها إلى شىء واحد : هو حبى لك الذى لا يمكن وصفه أو التعبير عنه » . وأبلغته أنه قد يكون من العبث أن يحاول تحويل حبها إلى حب الله ، « فلو أنى غيـــورة متحمسة فستظل أنت المعبود الذى يجب أن أعبده »(١٢٤) .

وربما فكر سويفت فى الزواج للخروج من هذا المأزق الذى تورط فيه بين المرأتين اللتين أحبتاه ، وربما طالبت ستيللا ، وهى تعلم أن لها منافسة ، بالزواج على أنه عدالة مطلقة وأبلغ دليل على ذلك أنه تزوجها فعلا فى ١٧١٦(١٢٥) وواضح أنه طلب إليها كتمان أمر زواجه . واستمرت تقيم بعيدا عنه . ويحتمل أنه لم يباشرها قط . واستأنف سويفت زياراته لفانيسا، لامغازلا ، ولا وحشاً بهيميا ، بل المفهوم أن قلبه لم يطاوعه على أن يتركها يائسة بلا أمل ، أو أنه خشى أن تقدم على الإنتحار . وأكدت رسائله لفانيسا أنه أحبها وقدرها فوق كل شىء ، وأنه سيكن لها هذا الحب والتقدير حتى آخر لحظة من حياته . وسارت الأمور على هذا المنوال حتى ١٧٢٣ ، حين كتبت فانيسا إلى ستيللا تسألها فى صراحة تامة عن العلاقة بينها وبين رئيس الكاتدرائية . فأخذت ستيللا الخطاب إلى سويفت الذى ركب لفوره

إلى فانيسا ورمى بالخطاب على مائدتها . وروعها بنظراته الغاضبه • وتركها إلى غير رجعة دون أن ينبس ببنت شفة •

وعندما أفاقت فانيسا من غشيتها، تحققت آخر الأمر من أنه كان يخدعها. واجتمعت خيبه الرجاء عندها إلى نزعه جامحه فى إفناء مابقى لها من أسباب الصحه والحياة ، وقضت نحبها فى بحر شهرين من هـــذا اللقاء الأخير (٢ يونيه ١٧٢٣) وهى فى الرابعه والثلاثين • وثأرت لنفسها فى وصيتها • فألغت وثيقه قديمه كانت قد جعلت فيها سويفت وريثاً لها ، ثم أوصت بكل متاعها لروبروت مارشال والفيلسوف جورج بيركلى ، وأمرتهما أن ينشرا دون تعليق رسائل سويفت إليها ، وقصيدة « كادينوس وفانيسا » • وهرب سويفت فى « رحلة إلى الجنوب » فى أيرلنده ، ولم يظهر فى الكاتدرائيه إلا بعد مضى أربعه شهور على وفاة فانيسا •

وعند عودته إنصرف إلى كتابه أشهر وأقسى هجاء وجه إلى الجنس البشرى . وكتب إلى شارلى فورد أنه مشغول بوضع كتاب « يمزق العالم ويهزه هزاعنيفا بشكل عجيب(١٢٦) » . وانتهى سويفت منه بعد سنه ، وحمل المخطوط بنفسه إلى لندن ،ورتب أمر نشره تحت اسم مستعار ،ورضى بمائتى جنيه ثمنا له ، ثم قصد إلى دار الشاعر بوب فى توبكنهام ليستمتع بالعاصفه المرتقبه • وهكذا استقبلت إنجلترا فى أكتوبر ١٧٢٦ « رحلات إلى عدة شعوب بعيدة فى العالم » بقلم لمويل جلليفر . وكان أول رد فعل عام هو الابتهاج بالواقعيه المفصلة فى سرد الأحداث . وإعتبره كثير من القراء تاريخا ، ولو أن أسقفاً أيرلنديا (كما يقول سويفت) ذهب إلى أنه مملوء بأشياء بعيدة الاحتمال : أما معظم القراء فإنهم لم يذهبوا إلى أبعد من الرحلات إلى أرض الأقزام Lilliput وأرض العمالقه Brobdinqnaq، وهذا سرد جميل يوضح بطريقه مفيدة النسبيه فى الحكم على الأشياء أو التمييز بينها ، ولم يزد طول الأقزام عن ست بوصات ، ولذلك نفخوا فى جلليفر روحا متزايدة من التسامى . وكان الذى يميز بين الأحزاب السياسيه لديهم هو

الكعوب العالية أو المنخفضة لأحذيتهم . أما الفرق الدينية فهي فريق الذين يؤمنون بكسر البيضة من طرفها الكبير ، وفريق الذين يؤمنون بكسر البيضة من طرفها الصغير . وكان طول العمالقة ستين قدما ، وقد هيأوا لجليفر مشهدا آخر جديدا من مشاهد البشرية . وحسبه ملكهم حشرة ، واعتبر أوربا بيتا للنمل . ومن وصف جليفر لأساليب الحياة ، خاص الملك إلى أن « كل مواطنيكم أخبث جنس من الحشرات الطفيلية الصغيرة البغيضة التي تركتها الطبيعة تزحف على سطح الأرض(١٢٧) » . وكانت صدور غادات العمالقة ، وهي صدور ضخمة ، تنفر جليفر (ويشير الكاتب هنا إلى النسبية في الجمال) .

وتضعف القصة في رحلة جليفر الثالثة . إنه يشد بالسلاسل والأغلال في دلو إلى « لابوتا » وهي جزيرة سابحة في الهواء يقطنها ويحكمها رجال العلم والمثقفون والمخترعون والأساتذة والفلاسفة ؛ فإن التفاصيل التي جاءت في أماكن أخرى لتزود القصة باحتمالات كثيرة ، كانت هنا (في المرحله الثالثه) سخيفة بعض الشيء ، من ذلك أكياس الهواء الصغيرة التي يسد بها الخدم آذان وأفواه المفكرين العميق التفكير ليفيقوا من شرود الذهن الخطير أثناء تأملاتهم . وأكاديمية لاجادو ، بمخترعاتها وقراراتها الوهمية ، ليست إلا نقدا هزيلا لقصة بيكون « قارة الأطلنطس الجديدة » ، وللجمعية الملكية في لندن . ولم يكن سويفت يثق في جدوى اصلاح الدول أو حكمها بواسطة رجال العلم ، وكان يسخر من نظرياتهم ، وفنائها السريع لها . وتنبأ بسقوط كوزمولوجيا نيوتن (آرائه في الكون) « إن الأنظمة الجديدة في الطبيعة ليست إلا أزياء أو أنماطا جديدة قد تختلف من عصر إلى عصر ، وحتى هؤلاء الذين يدعون أنهم يوضحونها على أسس رياضية (تعريضا بكتاب المبادىء الرياضية ١٦٨٧) لن يكتب لهم النجاح إلا لفترة قصيرة من الزمن(١٢٨) » .

ثم ينتقل جليفر إلى أرض « اللجناجيين Luggnaggians » الذين

لايحكمون على أكابر مجرميهم بالموت بل بالخلود .

« فإذا بلغ هؤلاء المجرمون سن الثمانين وهى السن المعتبرة نهاية الحياة فى بلدهم ، لاتكون فيهم كل الحماقات والسقام والعلل التى فى سائر المسنين فحسب ، بل أكثر منها بكثير ، مما نشأ من توقعاتهم الرهيبة بأنهم لن يموتوا قط ، ولم يكونوا عنيدين شكسين طامعين فيما فى أيدى غيرهم ، مكتئبين عابثين ثرثاريين فحسب ، بل كانوا كذلك غير أهل للصداقة ، لايستجيبون لأية عاطفة أو حب طبيعى ، لم يهبط قط عن حضرتهم . وكان الحسد والرغبات العاجزة هى الشعور السائد بينهم ... وإذا رأوا جنازة ولولوا وتذمروا من أن الآخرين ذاهبون إلى دار الراحة التى لايأملون هم أنفسهم فى الوصول إليها ... أبداً وكان هذا أفظع منظر مخز مميت للشهوات رأيته فى حياتى . وكانت النساء أشد ازعاجا من الرجال ... ومن هذا الذى سمعت ورأيت ، خفت كثيرا شهوتى الحادة فى البقاء على قيد الحياة(١٢٩) » .

وفى القسم الرابع نبذ سويفت الهزل والمزاح إلى شجب قوى ساخر للانسانية . فان أرض « الهوينم » يحكمها جياد نظيفة وسيمة بهيجة ، تنطق بالحكمة وتتحلى بكل مظاهر المدنية ، على حين أن الخدم الحقراء فيها ، وهم « الياهو المتوحشون » ، هم رجال أقذار كريهو الرائحة ، جشعون مخمورون ، غير متعقلين مشوهون . ومن بين هؤلاء المنحلين المنحطين (هكذا كتب سويفت فى أيام جورج الأول) :

« كان هناك رجل حاكم من « الياهو » (ملك) » ، أبشع شكلا وأكثر نزوعا إلى الشر والأذى من الآخرين ... وكان لهذا الزعيم عادة شخص مثله محسوب عليه أثير لديه ، عمله الوحيد هو أن يلعق قدمى سيده ... ويأتى بنساء الياهو إلى حظيرته ، ومن أجل هذا كان يكافأ من حين إلى حين بقطعة من لحم الحمار (علامة على النبالة ؟) ... وكان يبقى عادة فى عمله هذا ، حتى يمكن العثور على من هو أسوأ منه(١٣٠) » .

وبالمقارنة ، فان « الهويمين » ، لأنهم متعقلون ، كانوا سعداء فضلاء ، ولذلك لم يكونوا فى حاجة إلى أطباء أو محامين أو رجال دين أو قواد جيوش ، وصعقت تلك الجياد المهذبة « الماجنة » ببيان جلليفر عن الحروب فى أوربا . كما ذهلت أكثر فأكثر لسماعها بالخلافات التى أدت إلى الحروب — « هل يكون الجسد خبزا أو يكون الخبز جسدا فى القربان المقدس ، وهل يكون عصير ثمار معينة دما أم نبيذا(١٣١) ، وكانوا يقاطعون جلليفر حين يفاخر بالعدد الكبير عن البشر الذى يمكن نسفه بالآلات العجيبة التى اخترعها قومه .

وعندما يعود جلليفر أدراجه إلى أوربا ، نراه لايكاد يضيق برائحة الشوارع والناس الذين يبدو فى نظره الآن أنهم من « الياهو » .

« استقبلتنى زوجتى وأسرتى بكثير من الدهشة لأنهم كانوا قد قدروا مماتى . ولكن ينبغى على أن أعترف بصراحة أن منظرهم ملأنى بالبغضاء والاستياء والازدراء ... وما أن دخلت البيت حتى احتضنتنى زوجتى بين ذراعيها وقبلتنى ، من أجل ذلك رحت فى اغماءة لما يقرب من ساعة ، لولا أنى معتاد على لمس هذا الحيوان البغيض (الإنسان) لأعوام طويلة . وطيلة السنة الأولى لم أكن أطيق وجود زوجتى وأطفالى معى ، حيث كانت رائحتهم لاتحتمل ... وأول مال أنفقته كان فى شراء جوادين صغيرين احتفظت بهما فى أسطبل مناسب . وكان السائس أعز ما عندى بعدهما ، لأن الرائحة التى تنبعث منه فى الاسطبل كانت ترد إلى روحى(١٣٢) » .

وفاق نجاح « جلليفر » كل توقعات المؤلف وأحلامه وربما خفف من بغضه للجنس البشرى بسبب حاسة الشم . واستمتع القراء باللغة الإنجليزية الواضحة فى غير أطناب ، وبالتفاصيل المريضة ، وبالفحش المرح . وتنبأ آربوثنوت للكتاب « رواجا عظيما مثل كتاب جون بانيان — يقصد كتاب « تقدم الحجيج » . ولا ريب أن سويفت يدين ببعض الفضل لهذا الكتاب ، وبفضل أكبر لكتاب « روبنسن كروزو » ، وربما بشىء من

الفضل لكتاب سيرانودى برجراك « التاريخ الهزلى لدول امبراطورية القمر » . أما الشيء الجديد حقا فهو « الكلبية » أو السخرية الرهيبة فى الأجزاء المتأخرة من الكتاب . وحتى هذه وجدت من يعجب بها ، فأن دوقه مالبورو ، وقد بلغت آنذاك أرذل العمر ، غفرت لسويفت هجماته على زوجها ، إلى جانب حملاته على الجنس البشرى بأسرة . وصرحت بأن سويفت أتى « بأدق وصف يمكن أن يكتب للملوك والوزراء والأساقفة والمحاكم . وروى جاى أنها « فى نشوة غامرة من الابتهاج بالكتاب ، ولا يمكن أن تحلم بشيء آخر »(١٣٣) .

وتكدر انتصار سويفت بنشر قصيدة كادينوس وفانيسا ، فان منفذى وصية هستر فانهو مراى أذعنوا لأمرها بنشرها ، ولم يطلبوا من الكاتب ترخيصاً بذلك ، وظهرت فى طبعات مستقلة فى لندن ودبلن وادنبره ، وكانت ضربة قاسية للزوجة ستيللا لأنها رأت أن عبارات الحب والهيام التى كانت قد وجهت يوما إليها ، تكررت لفانيسا ، ولم يمض كبير زمن على افتضاح هذا الأمر حتى مرضت ، وقصد سويفت إلى ايرلنده لعيادتها والتخفيف عنها ، وتحسنت صحتها ، وعاد هو إلى انجلترا (١٧٢٧) ، وسرعان ما ترامت إليه الأنباء بأنها تحتضر ، فأرسل تعليمات عاجله إلى مساعديه فى الكاتدرائية بأن ستيلا يجب ألا تلفظ أنفاسها الأخيرة فى مقر رئاسة الكاتدرائية(١٣٤) ، وعاد ادراجه إلى دبلن ، ومرة أخرى أبلت ستيللا بعض الشيء ، ولكنها فارقت الحياة فى ٢٨ يناير ١٧٢٨ ، وهى فى السابعة بعد الأربعين ، وانهارت قوى سويفت ، واشتد عليه المرض فلم يستطع تشييع الجنازة .

وبعدها أقام فى دبلن « مثل فأر مسموم فى جحر(١٣٥) » (كما كتب إلى بولنجبروك) . وكان يقوم بأعمال البر والصدقات ، وأجرى راتبا على مسز دنجلى ، ومد يد العون إلى ريتشارد شريدان فى محنة شبابه ، وكان فى ظاهره رجـــلا قاسياً ، ولكنه تأثر تأثراً بالغاً لفقر الشعب الايرلندى ، وضيق لكثرة عـدد المتسولين من الأطفال فى شوارع دبلن ، وفى ١٧٢٩

أصدر أشد مقالاته التهكمية الساخرة ضراوة ولذعاً تحت عنوان « اقتراح متواضع لمنع أطفال الفقراء من أن يكونوا عالة على آبائهم وعلى بلدهم » :

« لقد تأكد لدى كل التأكيد .... أن الطفل الصغير الصحيح الجسم الذى بلغ من العمر سنة ، يصلح لأن يكون طعاما شهياً مغذياً صحياً ، إلى أبعد حد ، مطهواً بالغلى البطىء أو مشوياً أو محمصاً أو مسلوقا ، كما يصلح بالمثل لأن يكون « مفروما محمراً ، أو يخنة كثيرة التوابل » . ومن ثم فانى بكل تواضع ، أعرض على الرأى العام ، أنه من بين المائة والعشرين ألف طفل الموجودين الآن ، يمكن الاحتفاظ بعشرين ألفاً فقط لتربيتهم وتنشئتهم ، على أن يكون ربعهم من الذكور ، أما المائة ألف طفل الباقون فيمكن عرضهم للبيع إلى ذوى المكانة والثراء فى طول المملكة وعرضها ، مع نصيحتى دوماً إلى الأمهات بالإكثار من ارضاعهم فى الشهر الأخير ، حتى تمتلىء أجسامهم ويكونوا سماناً تزدان بهم الموائد الفخمة ، إن الطفل الواحد يمكن أن يكون طعام يقدم للأصدقاء ، أما إذا كانت الأسرة تتناول غذاءها وحدها فان الربع الأمامى أو الخلفى من الذبيحة يكون طبقاً كافياً ، وإذا تبل ببعض الفلفل أو الملح لكان طيب المذاق ...

أما الذين هم أكثر تدبيراً واقتصاداً فيمكنهم أن يسلخوا الجثة ، ويعالجوا جلدها بطريقة خاصة ليصنعوا منه قفازات لطيفة للسيدات ، وأحذية صيفية للرجال الأنيقين ....

إن بعض الذين جزعوا لهذه الظاهرة اهتموا اهتماماً كبيراً بهذا العدد الضخم من المسنين أو المرضى أو المقعدين والمشوهين ، ورغبوا إلى أن أعمل التفكير فى الوسائل التى يمكن أن تتخذ لتخليص الأمة من هذا العبء الثقيل المحزن ، ولكني لا أتألم كثيراً لهذه المسألة لأن المعروف جيداً أنهم يموتون وتبلى أجسامهم فى كل يوم من البرد والجوع والقذارة والهوام ، بالسرعة المتوقعة بداهة . .

وأظن أن مزايا الاقتراح الذى عرضته واضحة متعددة ...

وأولى للزايا ، أن هذا يخلصنا إلى حد كبير من عـــدد البابويين (اليسوعيين) الذين يجتاحوننا كل عام ، لأنهم المربون الأساسيون للأمة ، قدر ماهم ألد أعـدائنا وأخطرهم . . . وثالثها أنه من حيث أن تربية مائة ألف طفل من سن الثانية فما فوق ، لا يمـكن أن يتـكلف الواحد أقل من عشر شلنات فى العام ، فبهذا الاقتراح سيتوفر للأمـــة خمسون ألف جنيه سنوياً ، هذا بالإضافة إلى فائدة اللون الجديد من الطعام الذى يقدم إلى موائد ذوى الثراء والوجاهة . . . . الذين يتحلون بالذوق الرفيع » . .

إن نتاج يراع سويفت ، ذلك النتاج الغريب ، والثائر أحياناً ، وبخاصة بعد وفاة ستيللا ، يوحى بأنه قد أصابه مس من الجنون ، « إن شخصاً من ذوى المكانة فى ايرلنده (كان يسره أن ينحنى كثيراً ليدقق النظر فى عقلى) اعتاد أن يقول لى أن عقلى مثل روح مسحورة ، قد يؤذى ويسىء إذا لم أشغله بشىء(١٣٦) » .

وتساءل أحد الأصدقاء : إن مبغض البشرية الكئيب هـــذا ، والذى تركته الأخطاء الصارخة فى بيت من زجاج ، بينما هو يسلق البشرية بألسنة حداد من الهجاء ، ألا يغنى فساد الناس ومساوئهم جسدك ويستنزف روحك ؟ » ، « إن غضبه على العالم كان امتداداً لغضبه على نفسه ، فقـد أدرك أنه على الرغم من عبقريته ، معتل الجسم مريض النفس ، ولم يـكن يغتفر للحياة حرمانه من الصحة والأعضاء السليمة وهدوء البال ، والتقدم الذى يتناسب مع قوة عقله .

وكان آخر مظهر لقسوة الحياة على سويفت ، هو اختلال قواه العقلية يوماً بعد يوم . وازداد بخله وجشعه ، حتى وسط أصدقائه وقيامه بأعمال البر . فـكان يضن بالطعام على ضيوفه ، وبالنبيذ على أصدقائه(١٣٧) . وازدادت نوبات الدوار عنده سوءا ، فما كان يدرى فى أية لحظة منحوسة ينتابه هذا الدوار ليجعله يترنح ويتلوى من الألم فى هيـكله أو فى الشارع .

وكان قد رفض أن يضع النظارات على عينيه فضعف بصره وترك القراءة . ومات بعض أصدقائه ، ونأى بعضهم بنفسه عنه ، اجتنابا لحـــدة طبعه واكتئابه ، وكتب إلى بولنجبروك : « كثيراً ما فكرت فى الموت ، ولكنه الآن لايغيب عن ذهنى أبداً (١٣٩) » وبدأ يتلهف عليه . واحتفل بيوم ميلاده يوم حداد وحزن . وقال « ليس هناك رجل عاقل يرغب فى استعادة شبابه(١٤٠) » . وفى أعوامه الأخيرة كان يودع زائريه دوماً بقوله « سعدتم مساء ، أرجو ألا أراكم ثانية (١٤١) » .

وظهرت أعراض الجنون التام عليه فى ١٧٣٨ . وفى ١٧٤١ عين بعض الأوصياء ليتولوا شؤونه ، ويراقبوه حتى لايلحق بنفسه أى أذى فى نوبة من نوبات العنف والجنون التى تصيبه . وفى ١٧٤٢ عانى ألماً شديداً من التهاب فى عينه اليسرى التى تورمت حتى صارت فى حجم البيضة . وأحاط به خمسة من الأتباع ليحولوا بينه وبين فقء عينه بيده . وقضى عاما لا ينطق ببنت شفة . وآذنت محنته بالإنتهاء فى ١٩ أكتوبر ١٧٤٥ ، وقد بلغ الثامنة بعد السبعين . وأوصى بكل ثروته البالغة اثنى عشر ألف جنيـــه لبناء مستشفى للأمراض العقلية . ووورى التراب فى كاتدرائيته ، ونقش على ضريحه عبارة اختارها بنفسه :

« حيث لا يعود السخط المرير يمزق قلبه » .